AFRICA

A Social Geography

by

ANTHONY SILLERY

الجغرافيا الاجتماعية لإفريقيا

نقله إلى العربية

دكتور ابراهيم أحمد رزقانة   محمد جمال الدين رزقانة

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت

فهرس الموضوعات

القسم الأول

القسم الثانى

مقدمة المؤلف

طالما قيل إن الكتب الحديثة التى تناولت إفريقيا بالبحث تنقسم إلى فئتين: تلك التى قام بتحريرها الصحفيون الذين يهتمون أساساً بالقارة تحت وطأة الشعور بالقومية وليست لديهم أية فكرة عن طبيعتها أو ماضيها اللهم إلا القليل، وتلك التى قام بكتابتها باحثون متخصصون. أما الطبقة الأولى فربما كان لها أثر ونفوذ كبير، وأما الأخرى فقد جاءت متأخرة جداً بحيث يصعب تطبيقها عمليا. وهـذا الكتاب محاولة للتوفيق بين الطبقتين. وإن السنوات العديدة التى أمضيتها فى أجزاء مختلفة من إفريقيا قد أكسبتنى من المعلومات عن القارة وشعوبها مالم يسبقنى إليها أحد، وكذلك كرست جزءاً كبيراً فى العشر سنوات الماضية لدراسة تاريخ إفريقيا. ولقد حرصت، فى نفس الوقت، على أن أكون دائما على بينة من تطوراتها الحديثة، وأن أرقب بوعى وإهتمام — ليس دائما خال من النقد — نمو الحركات الهادفة نحو الحكم الذاتى التى أدت إلى قيام حكومات إفريقية مستقلة فى كثير من المستعمرات السابقة.

وقد جاء تخطيط هـذا الكتاب ليعطى صورة لإفريقيا كما كانت قرب نهاية عام ١٩٦٠. وكان تلاحق الأحداث السياسية على نحو من السرعة مما جعلنى أفضل التركيز على تلك الأشياء التى، إن لم تكن ثابتة غير متغيرة، فهى على الأقل أبطأ فى التغيير فى أحداث السياسة. وأعنى بذلك الجغرافيا، وعلم الأجناس البشرية ethnology، والثقافة، وعلم الإقتصاد، والعلاقات العنصرية. وإذ نحوت نحو التوكيد على علم التاريخ، فقد ثبت أنه يستحيل تفهم الحاضر بغير مضاهاته بالماضى.

وحتى لو أردت أن أطرح علم السياسة جانبا، فإنى أجد أن موضوع بحثى

لايزال غاية فى التنوع والشمول بحيث كان من المستحيل أن أتناول فيما تبقى لدى من مجال أى وجه منه إلا فى شكله الأعم . وعلى ذلك فما كتبت هذا الكتاب المتخصص ، ولاعد مرجعاً لأولئك المعنيين بالإحصائيات أو المعلومات التفصيلية الأخرى . إنما كتبته للقارىء العام الذى أرجو أن يعطيه بعض الفكرة عن إفريقيا وأولئك الذين يعيشون فيها.

وثمة مسألة تتعلق بضبط التهجئة يعوزها الشرح : لحين هجاء أسماء قبائل البانتو أصبح من المعتاد فى أيامنا هذه أن نهمل بادئة الكلمة the prefix وأن نقتصر على إستخدام الأصل the root ، فمثلا كلمة « جاندا » Ganda بدلا من « باجاندا » Baganda ، وكلمة « تشاجا » Chagga بدلا من « واتشاجا » Wachagga . أما أنا فلم أتبع قاعدة ثابتة ، فإما أن أكون قد احتفظت بهذه البادئة أو حذفتها مسايرة للشكل الذى أعتقد أنه يتفق والاستخدام الشائع فى كل حالة.

وواجب علينا ألا نولى أهمية كبيرة جدا لما أعطى من إحصائيات عن إفريقيا ، وعلى الأخص فيما يتعلق بأرقام التعداد . فإن أدق هذه الإحصائيات لايعدو أن يكون شيئاً تقريبياً ، ولربما كان هناك تفاوت كبير فى هذا التقريب . ولو كان فى الإستطاعة ، بطريقة سحرية ، أن نعرف على وجه الدقة تعداد إفريقيا فى أجزائها المختلفة ، وكم من الماشية يمتلكون ، فلن يكون هناك مايثير دهشتى أكثر من أن أجد أن الأرقام التى ذكرتها ـ وهى تستند إلى مراجع لها إحترامها ـ ماجاءت لتمثل غير ٢٥ ٪ من الحقيقة . وتنطبق نفس هذه التحفظات ، ولو أنه فى بعض الحالات بشكل أخف وطأة ، على الأرقام التى يقال بأنها تمثل مساحات الأقطار المختلفة ، وحتى على الموقع الجغرافى لإفريقيا ذاتها ، فليس ثمة أطلسين اثنين يتفقان فى رسم أطراف القارة حسب نسبها الصحيحة .

A. S.

أكسفورد — مارس ١٩٦١

القسم الأول

مقومات الجغرافية الاجتماعية لأفريقية

الفصل الأول

القارة المجهولة

ولو أن شمال إفريقيا كان معروفا للأوربيين لآلاف السنين ، والطرف الجنوبى لقرون ، فإنه لم يتيسر لنا أن نعرف ما نعرفه الآن عن بقية القارة إلا منذ مدة تتراوح بين المائة والمائة والخمسين سنة الماضية فقط . فحتى نهاية القرن الثامن عشر لم تكن خريطة إفريقيا الاستوائية الداخلية - إن لم تكن فراغا تاما خالياً من أية علامات أو مواقع - غير عمل يقوم إلى حد كبير على الحدس والتخمين ، وكان أن وجدنا الشاعر الإنجليزى جوناثان سويفت Jonathan Swift فى شعره يقول :

وهكذا يملأ الجغرافيون فراغاتهم
فى خرائط إفريقيا برسوم بربرية ؛
ويضعون فى البرارى غير الآهلة
فيلة حيث لا توجد المـــدائن

وليس ثمة شك فى أن السبب الذى من أجله بقيت إفريقيا لأزمان طويلة بمعزل عن العالم كان يرجع إلى حد كبير ، إلى أنها - على وجه الخصوص - تحميها الطبيعة من التغلغل فيهـا والإقامة بها . ففى الشمال نجد أن الصحراء الكبرى لم تكن لتتفق وتحركات الشعوب على نطاق واسع وبشكل منظم ، ولو أنهـا تشقها طرق القوافل الكثيرة الإستخدام ، ولا يتسع الخط الساحلى الإفريقى لغير عدد قليل من الموانى الطبيعية ، وتحف به فى داخل القارة إما صحراء أو شبه صحراء أو غابات كثيفة . أما الأنهار فليست سهلة الملاحة . وحتى نهر النيل فإنه يعوق الملاحة فيه عدد من الجنادل التى

تحول دون الوصول بالباخرة إلى أعاليه . وأما مناخ المنطقة الإستوائية فلم يكن ليساعد على إقامة الأوربيين ، وغالباً ماكان يعد مميتا قبل التوصل إلى الأدوية الحديثة . وأما ذبابة تسى تسى Tsetse fly فقد جعلت النقل بواسطة الدواب شيئا مستحيلا ، ولذلك كان السفر يتم فى معظم الأجزاء سيراً على الأقدام بمصاحبة الحمالين . وباختصار ، كان المنظر الإفريقى بأجمعه لا يجتذب إليه أحدا على الإطلاق ، وهكذا وجدنا الملاحين الأوربيين فى الأزمان الغابرة كالبرتغاليين ، ، جد قانعين بمجرد الحصول على مواطىء لأقدامهم على الساحل ليواصلوا الإبحار منها إلى ثروات جزر الهند الشرقية التى كانت تعد أيسر فى التحصل عليها . أما الأوربيون الآخرون الذين أتوا فيما بعد فقد قاموا بما هو أكثر من مجرد إقامة مراكز تجارية ساحلية . ولم يبدأ الأوربيون جميعاً فى كشف إفريقيا من الداخل إلا فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر وعند نهاية القرن التاسع عشر ، كانت معظم الفراغات على الخريطة قد ملئت واستحال الجزء الأكبر من القارة إلى مستعمرات تحت السيطرة الأوربية .

شكل القارة وملامحها المميزة

تبلغ قارة إفريقيا من أقصى نقطة من الشمال عنـــد رأس بن سقا Ras Ben Sakka — وهى إلى الغرب قليلا من Cape Blanc — على خط عرض ٢٠َ ٣٧° شمالا ، إلى أقصى نقطة فى الجنوب عند رأس أجولاس Cape Agulhas على خط عرض ٥٠ ، ٣٤° جنوبا ، ٥٠٠٠ ميل . أما من حيث العرض فتبلغ فى أقصى درجات إتساعها ، من رأس فيرد Cape Vedre ٣٣ َ١٧° غربا ، إلى رأس هافون Ras Hafun ٢٥ َ٥١° شرقا ، ٤٦٠٠ ميل ، لتبلغ مساحة قدرها ١١ ½ مليون ميل مربع . وأما الشكل فيمكن أن يقال بأنه متناسق : فمن كل الجوانب ترتفع الأرض من سهل ساحلى إلى هضبة

تسير مثل العمود الفقرى بطول القارة . وتشمل هذه الهضبة ألوانا عديدة من المرتفعات . ويتراوح الإرتفاع عموماً بين ثلاثة آلاف وستة آلاف قدم ، كما أنها فى الجنوب أكثر إرتفاعا منه فى الشمال . ولكننا نجد فى بعض المواضع من الكتل الجبلية الشاهقة ما هو أشد إرتفاعا من المستوى العام للهضبة tableland مثل القمم العالية فى إثيوبيا التى يزيد إرتفاعها فى بعض الأحيان على ١٥٠٠٠ قدم ، وبعض جبال شرق إفريقيا التى تعد إلى حد كبير أكثر إرتفاعا . وفى الناحية الأخرى فهناك من أحواض الأنهار أو الانخفاضات ما يوجد تحت المستوى العام تماما ، مثال ذلك بحيرة تشاد وحوض الكنجو أو ذلك الانخفاض الواقع فى المنحنى العظيم لنهر النيجر .

ولقد حدث فى وقت من الأوقات فى الماضى البعيد أن كانت هناك هزة أرضية عنيفة مصحوبة بثوران بركانى عظيم تسبب فى حدوث كسر كبير فى القشرة الأرضية فى عدة مواقع وكانت النتيجة وجود سلسلة من الأحواض ذات جوانب محددة فى وضوح ، ولكن بشكل متفاوت ، تسمى وادى الصدع العظيم The Greaf Rift Valley الذى كان يعتبر من أبرز الظواهر الجغرافية فى العالم . ويبدأ الصدع The Rift قرب مدخل نهر الزمبيزى ثم يجرى شمالا ليضم فى مجراه وادى نهر شير The Shire River Vally وبحيرة نياسا . ويتفرع شمال بحيرة نياسا ليكون الصدع الشرقى والصدع الغربى The Eastern and Western Rifts . ثم يمضى الصدع الشرقى ليجتاز تنجانيقا وكينيا ويضم إليه سلسلة من البحيرات الصغيرة : Naivasha ، Natron ، Manyara وغيرها . ويجرى بعد ذلك خلال إثيوبيا ليعزل جمهورية الصومال عن الإمبراطورية الإثيوبية . والبحر الأحمر هو الحلقة التى تصل الصدع العظيم فى إفريقيا بامتداده فى فلسطين . ويقع خليج العقبة ووادي الأردن والبحر الميت فى حوضه ، وقد يعتبر منتهيا فى

سوريا حين يبلغ مداه الكلى ٤٠٠٠ ميل . أما الصدع الغربى فيتفرع عموماً فى إتجاه شمالى غربى ، ويشمل الحوض العظيم لبحيرة تنجانيقا وبحيرات كيفو، وإدوارد وألبرت . وينتهى ليس بعيداً جداً عن شمال بحيرة ألبرت، وهكذا يعد أقصر بكثير من الصدع الشرقى . أما بحيرة فيكتوريا ، التى تقع بين قرنى الصدعين ، فليس من المعتقد أنها ترجع إلى حدوث حركات تكتونية (باطنية) .

وفى كينيا على وجه الخصوص يمثل الصدع the Rift منظراً يفوق حد الروعة، وليس من أحد يؤتى فرصة الوقوف على حافته ـ مثلا عند النقطة التى ينساب فيها الطريق الرئيس المؤدى من نيروبى إلى كيسومو Kisumu إلى الوادى الأخدودى ـ إلا وأخذ بروعة القوى الهائلة التى كان لها أكبر الأثر فى تشكيل ملامح القارة .

وإذا ما نظرنا إلى خريطة إفريقيا فأول شىء يسترعى الانتباه وجود أربعة ، وفى الإمكان أن نقول خمسة ، أنهار عظيمة . فالنيل ، الذى كان فى أحد الأيام يغذى إحدى الحضارات العظيمة فى العالم ، يصب فى البحر الأبيض المتوسط ، وفى الحقيقة يعد النهر الإفريقى الوحيد بين الأنهار جميعا ـ أياً كان حجمها ـ الذى يصب فى الشمال . ويبلغ طوله ٤٠٠٠ ميل ، ويمكن القول بأنه يبدأ بنهر كاجيرا Kagera River الذى يصب فى بحيرة فيكتوريا . إنه نهر ، كما سنرى ، ذو ماض رومانتيكى عظيم ويلعب اليوم دوراً هاماً ، فكلا السودان ومصر يعتمدان عليه ، وحتى الآن يعد أعظم أنهار إفريقيا تطوراً . وقد لعب النيجر كذلك دوره فى التاريخ ، وعلى الأخص فى التاريخ الحديث . وهو يصب فى المحيط الأطلنطى فى خليج بنين the Bight of Benin بعد أن ينحنى إنحناءة كبيرة فى غرب إفريقيا . وكذلك يصب نهر الكنجو العظيم فى المحيط الأطلنطى . وطوله

حوالى ٣٠٠٠ ميل ، وله روافد عديدة ، وتبلغ المساحة التى يرويها ١ ½ مليون ميل مربع . ونهر الكنجو صالح الملاحة فى كثير من أجزائه ، ولذلك فهو يحمل فوق مياهه حركة ملاحية كبيرة . أما الزمبيزى فينبع من أنجولا ، ولكنه يجرى نحو الجنوب الشرقى ، ليتعثر فى أحد المواضع فوق صخرة عاتية مكوناً شلالات فيكتوريا Victoria Falls ، وليصب أخيراً فى المحيط الهندى بعد رحلة طولها ٢٠٠٠ ميل من منبعه ، وأما نهر أورنج Orange River ـ وهو أبعد من ذلك جنوباً ـ فنذكره ضمن هذه المجموعة بعد شىء من التردد . فهو أقصر من الأنهار الأخرى، إذ يبلغ طوله ١٣٠٠ ميل فقط ، وهو لا يجرى ـ كالأنهار الأخرى ـ بانتظام ، ولكنه إما أن يبقى جافاً لمعظم الوقت أو يستحيل إلى سلسلة من المستنقعات . ولكن طالما أنه قد لعب دوراً فى تاريخ « جنوب إفريقيا » ، كما أنه ليس قليل الشأن من الناحية الإقتصادية ، فهو يستحق الذكر .

أما البحيرات العظمى الإفريقية فتقع كلها ، عدا واحدة ، فى الأجزاء الشرقية والوسطى من القارة . وتعد فيكتوريا أكبرها مساحة ، إذ تبلغ حوالى ٢٦٠٠٠ ميل مربع ؛ وهى كبحيرة للمياه العذبة تعد الثانية فى العالم ، ولا يفوقها غير بحيرة سوبيريور Lake Superior . وهى تقع على خط الإستواء وتكون الخزان الرئيسى للنيل الذى يغادر البحيرة بشلالات ريبون Ripon Falls عند جنجا Jinja . وبحيرة فيكتوريا تحوطها أوغندا من الشمال والغرب ، وتنجانيقا من الجنوب والجنوب الشرقى ، وكينيا من الشمال الشرقى ، وهى بحيرة دائمة الحركة تسكن على شواطئها شعوب كبيرة وتقع عليها موانى صغيرة كثيرة ومزدهرة .

وبعد ثانى أكبر بحيرة فى العالم تأتى بحيرة تنجانيقا التى تعد أطول بحيرة ، إذ يبلغ طولها ٤٢٠ ميلا . وتعد كذلك ، باستثناء بحيرة بيكال

Lake Baikal ، أعمق بحيرة ، إذ يبلغ عمقها ٤٧٠٨ قدماً . ثم هى تقع فى الصدع الغربى Western Rift بين تنجانيقا والكنجو ، كما أنها ضيقة تماماً ، إذ يبلغ معدل اتساعها ٣٠ ميلا فقط فى العرض . أما بحيرة نياسا Lake Nyasa ، التى تقع بين نياسالاند وشرق إفريقيا البرتغالية ، فتبلغ ٣٥٠ ميلا فى الطول وثلاثين ميلا فى العرض . وهى تغذى نهر شير Shire River الذى يغذى بدوره نهر الزمبيزى . وإلى جانب هذه البحيرات الضخمة الثلاث هناك بحيرات أخرى مثل ألبرت ، وإدوارد ، وكيفو فى الصدع الغربى ، ورودلف بين كينيا وإثيوبيا ، وتشاد Chad على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ، وبحيرات كثيرة أصغر فى أجزاء أخرى من القارة .

وتباهى إفريقيا بوجود بعض الجبال الشاهقة الارتفاع ، ولو أنها ليست أكثر جبال العالم ارتفاعاً . فهناك قمة كلمنجارو ، ١٩ر٣٤٠ قدماً ، فى تنجانيقا ، وجبال رونزورى على حدود أوغندا والكنجو التى يبلغ ارتفاع إحدى قممها ١٦ر٧٦٣ قدماً ؛ ثم جبال كينيا نفسها ، وجبال دراكنز برج بين باسوتولاند وناتال ، وسلاسل أخرى أقل حجما ، وهى كلها شاهقة بما فيه الكفاية .

المناخ

إن الأحوال المناخية المعتدلة التى توجد فى أوربا لا تتوفر فى إفريقيا إلا فى أجزاء محدودة جداً . فمعظم القارة حار ، كما أن الحرارة تصحبها فى بعض المناطق نسبة عالية جداً فى الرطوبة ، وجفاف وجدب كبير فى المناطق الأخرى . ولعل أبرز ظاهرة فى الأقاليم المناخية الإفريقية هو تناسق توزيعها بالنسبة لخط الاستواء . فكل نوع من المناخ له ما يماثله تماما ، أو ما يماثله على وجه التقريب ، فى نفس الموقع الآخر من

الحزام الإستوائى . وعلى كل ، فإن الأنظمة المناخية المختلفة ليست محددة تحديداً قاطعاً ، ولكنها تتداخل بالتدريج فى بعضها فيمتزج كل منها بما يليه بشكل غير محسوس .

فإذا بدأنا من خط الاستواء وجدنا ثلاثة أنوع لما يسمى بالمناخ الاستوائى . الأولان منها يتميزان بدرجة عالية من الأمطار ، والحرارة الشديدة ، والرطوبة ذات البخر . ولكن بينما نجد فى الجزء الشمالى من حوض الكنجو أن سقوط الأمطار موزع بالتساوى على مدار السنة ، نجد أن ساحل غينيا والجزء الداخلى منه يتميزان بوجود فترة سنوية من الأمطار الخفيفة ، بل حتى الجفاف . وفى كلتا هاتين المنطقتين نجد أن النباتات السائدة هى الغابات الاستوائية الكثيفة . أما النوع الثالث فهو ذلك الذى يسود أراضى الهضبة فى شرق إفريقيا حيث نجد أن درجة الحرارة باردة نسبياً نظراً للإرتفاع الشديد ، والأمطار معتدلة . أما النباتات فهى من نوع سفانا المستنقعات التى تستحيل إلى شجيرات قصيرة .

وعلى كل جانب من الحزام الإستوائى توجد منطقة عريضة تمثل منطقة انتقال بين حزام الحرارة والرطوبة ، وبين الحرارة والجفاف فى الصحارى الشمالية والجنوبية . وفى الشمال نجد أن هذه المنطقة الانتقالية تمتد عبر القارة من السنغال إلى إثيوبيا ، وتمتد فى الجنوب من أنجولا إلى موزمبيق . هذا هو المناخ « المدارى » Tropical أو « النمط السودانى » Sudan Type فهو مازال حاراً جداً ، ولكنه يتميز بوجود فصل الأمطار القليلة غاية فى الوضوح . وفى المنطقة الشمالية نجد أن الحرارة القاسية يخفف من وطأتها بشكل منتظم هبوب رياح جافة مكسبة للصحة ، ولو أنها متربة للغاية . وفى الجنوب نجد كذلك أنه هناك تضاد واضح جداً بين الفصول اللطيفة Cool seasons والحارة .

ثم تأتى بعد ذلك تلكما الصحراوان ، الصحراء الكبرى فى الشمال وصحراء كلاهارى فى الجنوب . وخروجا على القاعدة ، نجد أن ترتيب وضعهما غير متناسق على الوجه الأكمل ، لأنه ، بينما نجد الصحراء الكبرى بصحاريها الأصغر تغطى شمال إفريقيا بأكمله على وجه التقريب وتصل إلى البحر فى بعض أجزائها ، فإن المناطق الصحراوية فى جنوب إفريقيا إنما تقتصر على الأجزاء الغربية وأنصاف الغربية من شبه القارة . والصحارى حارة جداً فى الصيف ذات رياح جافة حارقة ، وفى الشتاء نجد لياليها باردة ينزل فيها الصقيع من آن إلى آخر ، وفى النهار قد تكون هناك رياح باردة فى بعض الأحيان . أما سقوط المطر فهو قليل الحدوث . والنبات فى الصحراء الكبرى نحيل جداً متناثر ، أما فى كلاهارى فإن الأمطار الخفيفة تؤدى إلى نمو طبقة من العشب تتغذى عليها الماشية ، وكميات كبيرة جداً من البطيخ البرى .

وأخيراً نأتى إلى المناخات دون المدارية فى إفريقيا الشمالية والجنوبية ، التى تُعد دون شك أنسب مناخات القارة وألطفها . فالشتاء معتدل ممطر والصيف دافىء . وكلتا هاتين المنطقتين كانتا تضمان فى وقت من الأوقات غابات كثيفة ، ولكن الإسراف فى قطعها قد أدى إلى إنكماشها كثيراً ، وعلى الأخص فى الجنوب . وانتشرت زراعة الأشجار وحلت مكان الغابات حيث اختفت هذه .

وفى إقليم الفلد المرتفع فى جنوب إفريقيا يسود نوع آخر من المناخ شبه المدارى يتميز بصيفه الحار ، وشتائه البارد وأمطار قليلة لا يمكن الاعتماد عليها ، والتى تتركز فى فترة قصيرة جداً من السنة . والنبات الأساسى هو العشب ، وليست هناك غابات . ومن ناحية أخرى فإن الساحل الشرقى لجنوب إفريقيا ، الذى يخضع لنظام شبه مدارى ثالث ، دفىء وبه

أمطار غزيرة ونباتات كثيفة مفرطة فى الغنى ، فناتال يمتد بها فصل الأمطار إلى تسعة شهور .

شعوب إفريقيا

هذه القارة العظيمة تضم من السكان ما يبلغ تعداده حوالى ٢٢٥ مليون نسمة ، وكلهم يختلفون متباينون تباين الأحوال الطبيعية والمناخية التى يعيشون فيها . وعلى كل ، فهم ينقسمون عامة إلى عدد من الجماعات ، لكل منها سماتها الخاصة ، من جسمانية وثقافية ولغوية ، تميزها عن غيرها . وعلى ذلك ، فإذا افترضنا أن الحدود السلالية ethnie frontiers كانت مطموسة ، وأن الملامح السائدة فى جماعة من الجماعات غالباً ما نراها فى أخرى غيرها ، فقد يصير فى الإمكان تقسيم السكان فى إفريقيا إلى الساميين Semites ، والزنوج الحقيقيين True Negrols ، والحاميين Hamites ، والنيليين Nilotes والحاميين النيليين Nilo-Hamites ، والبانتو Bantu ، والخويسان Khoisan ، والنجريللو Negrillos .

الساميون SEMITES :

ويمثلهم أساساً العرب ، ولو أنه ليس كل من يسمون أنفسهم عرباً يجيئون من أصل عربى نقى . فالتسمية حقاً ، تطلق فى بعض الأحيان على أى شخص يعتنق الإسلام ، ولو أنه قد يكون شبه زنجى صميم Negroid . وعلى ذلك ، فهى ليست لها أية دلالة سلالية إلا القليل جداً ، ولكنها تفيد فى وصف عدد كبير من الناس متباينين تبايناً كبيراً فى صفاتهم الجسمانية ولكنهم فى معظمهم مسلمون ويتكلمون العربية . وفى إفريقيا نجد أن العرب فى الشمال وفى الشرق هم أولئك الذين يمتون إلى أصل عربى نقى . والعرب فى السودان ، وأولئك الذين يوجدون فى الغرب حتى نيجريا ،

غالباً مايحملون الدم الزنجى بنسبة كبيرة ، بل قد يكون من الصعب أحيانا تمييزهم فى الشكل عن الزنوج الأصليين .

وينقسم العرب فى إفريقيا عادة إلى ثلاث فئات . عرب رحل أصليين genuine Nomad ، وهم الذين يربون الأبل ، ويوجدون عادة فى شمال إفريقيا ؛ وعرب يمتلكون الماشية وليسوا رحلا بالدرجة التى عليها الفئة السابقة ، ثم مجتمعات مستقرة . أما عن كيف جاء العرب إلى إفريقيا وما مدى تأثيرهم على الشعوب التى هبطوا إليها ، فهذا ما سيأتى الكلام عنه فيما بعد .

الزنوج الحقيقيون True Negroes

إن من الشائع أن يسمى الجنس الأسود فى إفريقيا بالزنوج Negroes ولكن لأغراض سلالية ethnical قد نستطيع تمييز نمط معين منهم هم أولئك الذين قد ندعوهم بالزنوج الحقيقيين True Negroes لعدم وجود تسمية أكثر نوعية . إنهم الشعب السائد فى غرب إفريقيا ، من بداية نهر السنغال ، حوالى ١٦° شمالا ، حتى الحدود الشرقية لنيجيريا . ولعل أهم خصائصهم الجسمانية بشرة سوداء ، وشعر صوفى Woolly ، وقوام طويل . أما الرأس فهى طويلة بعض الشىء بالنسبة لعرضها ، والأنف عريض مفلطح flat ، والشفاة غليظة ومقلوبة ، مع وجود بروز فى الفكين . وقد إنتظم هذا الشعب فيما سبق ، فى شكل ممالك قوية وغنية ، ذات جهاز حاذق من الموظفين ، وكهنوت فى خدمة ديانة معقدة وغالباً قاسية ، وجيش قوى ، وهيئة مرموقة من الفنانين وأصحاب الحرف الذين يرتبطون بالكنيسة والدولة ، والجمعيات السرية وشبه السرية التى تميز الحياة فى غرب إفريقيا وتشكل أحد ملامحها . ولو أن الممالك والسلطات الكنسية القديمة إما أن تكون قد اختفت ، أو ، حيث بقيت وإستمرت ، فقدت الكثير من سلطانها ، فإن الزنوج الحقيقيين

مازالوا يعيشون فى شكل مجتمعات جيدة التنظيم ، لها من إنتاجها المادى والفنى مايمتاز بالمستوى الرفيع . ولا يسع المتصل بهم إلا أن يشعر بحيويتهم الدافقة ، ويحكم بأنهم أكثر الجنس الأسود فى إفريقيا ـ من نواح شتى ـ تقدماً وطموحاً . وتقوم اقتصادياتهم على الزراعة أكثر منه على الرعى .

الحاميون Hamites

لقد حدث فى وقت من الأوقات ، فى الماضى البعيد ، أن وقعت إفريقيا فريسة لحركة غزو جاءتها من آسيا ، وربما كان ذلك من جنوب شبه الجزيرة العربية ، قامت بها جحافل جنس نسميه الحاميين Hamites . لقد كانوا قوقازيين Caucasians ، وعلى ذلك فهم ينتمون إلى نفس الفرع البشرى الذى ينتمى إليه الأوربيون . وكذلك كان هناك تقارب كبير بينهم وبين الجنس السامى . هؤلاء الحاميون جاءوا إلى إفريقيا فى موجات طويلة متتابعة . واحتل بعضهم وادى النيل ، ومضى آخرون إلى شمال إفريقيا ، بينما إنتشر الآخرون جنوباً ، وبالتدريج ، فى قلب القارة وتوقفت الموجات الأخيرة منهم ، أو أوقفت ، فى القرن الإفريقى Horn of Africa (الحافة الشمالية الشرقية التى يحف بها البحر الأحمر من جانب ، والمحيط الهندى من الجانب الآخر) ليحتلوا ـ كما هى الحال الآن ـ القطر المعروف بصوماليا Somaliland وما حواليها ، وهؤلاء ، إلى جانب الحاميين فى شمال إفريقيا ، هم أولئك الذين إستطاعوا الإحتفاظ بصفاتهم الجسمانية على نحو أتم ، عبر العصور حتى الأزمنة الحديثة .

وقد يكون من الأنسب أن نقسم الحاميين إلى مجموعتين أو فرعين أساسيين :

١ — الحاميين الشرقيين Eastern Hamites ، ويشملون المصريين القدماء والحدثين (مع التجاوز عن تطعيم الأخيرين بالدم الأجنبى إلى حد كبير) ،

والبجه Beja ، والنوبيين Nubians ، والصوماليين the Somali ، والدناقل the Danakil ، والجالا the Galla ، ثم — مع بعض التحفظات — معظم الإثيوبيين .

٢ — الحاميين الشماليين Northern Hamites ؛ ويشملون البربر the Berbers ، والطوارق Tuareg ؛ والفولانى the Fulani فى غرب إفريقيا، ثم شعباً — لم يعد موجوداً — فى جزر كناريا يدعى الجوانش Guanche .

وكم أن ظاهرة اختلاط دمائهم كانت منتشرة انتشاراً واسعاً فى كثير من القارة بحيث لم يكن من السهل أن نخرج بوصف للمميزات الجسمانية للحاميين . ويتصف الحاميون الشرقيون Eastern Hamites بطول فى القامة مع نحالتها فى أغلب الأحيان ، كما أن الأنف معتدل ، أو معقوف أحياناً ، والشفاه غليظة ولكن ليست مقلوبة ، والذقن مدببة thin والشعر غالباً مجعد frizzy ولكن أحياناً معتدل أو مموج ، والبشرة تختلف بين ضاربة إلى الصفار أو اللون الأسود . وكثير من الحاميين وعلى الأخص البربر the Berbers يشبهون فى الشكل الجنس الشمالى Nordic ، بل وبشكل واضح، فالرأس طويل ، والأنف ضيق ، بل وحتى فى بعض الأحيان تكون البشرة بيضاء ، ولون العيون أزرق أو أخضر ، والشعر أشقر ؛ وإلى جانب هذا توجد أنماط أخرى ذات لون أدكن swarthier ، وأنف أعرض ، والبعض له رأس طويل أو أكثر استدارة فى بعض الأحيان ، كما أن البعض لهم سمات شبه الزنوج .

ولقد كان علماء الأجناس فى الماضى يميلون إلى عزو أية آثار للتفوق الثقافى بين الإفريقيين للنفوذ الحامى Hamite influence . «فالحضارات الإفريقيـــة» ، كما قال العالم سايجمان Seligman ، «إنما هى حضارات

الحاميين» . ويبدو أن التعميم أكثر مما هو كائن بالفعل . فالحضارات التقدمية للزنوج الحقيقيين لغرب إفريقيا ليست بحامية not Hamitic ، بل على النقيض من ذلك نجد جماعات من الحاميين الأنقياء ـ نسبياً ـ وليست لحضارتهم أى أثر كبير . وفى ضوء معلوماتنا الحاضرة قد نوافق على الرأى القائل بأن الحاميين الغزاة قد اختلطوا بالزنوج الأصليين لينتجوا أصلاباً جديدة ؛ وأنهم فى بعض الأنحاء أثبتوا وجودهم كأرستقراطية رعوية بين شعوب زنجية زراعية مستقرة .

النيليون والحاميون النيليون : Nilotes and Nilo-Hamites

فى السودان الجنوبى وفى شرق إفريقيا توجد شعوب عدة ذات أهمية لها اعتبارها تمثل خليطاً من العناصر الزنجية والحامية وتعتبر عموماً بأنها تنقسم إلى قسمين: النيليون the Milotes، والحاميون النيليون Nilo—Hamites فالشيلوك Shilluk ، والدنكا Dinka فى وادى النيل ، الذين يمتازون بطول القامة ، والرأس الطويلة ، والبشرة الداكنة . إنما يمثلان النيليين الحقيقيين، ويمثل هـــذا القسم جنوباً حتى بحيرة فيكتوريا اللوو the Luo أو الكافيروندو النيليون the Nilotic Kavirondo ، ويشمل الحاميون النيليون الماساى the Masai (وهم معروفون حتى لمجرد الزائر العابر لكينيا) ، والناندى the Na ndi ، واللمبـــوا the Lumbwa ، والسوك the Suk ، والتوركانا the Turkana ، والكاراموجونج the Karamojong ، وربما الديدنجا the Didinja والتوبوثا the Topotha فى السودان الجنوبى والإيتيسو Iteso فى أوغنده . وهم ، إلى حد ما، طوال القامة ، طوال الرأس. وغالباً ذوو وجه ضيق وملامح دقيقة وبشرة (على الأخص فى حالة الماساى) ذات لون بنى بعض الشىء . والنيليون والحاميون النيليون فى معظمهم — وليس كلهم — رعاة ، يولون ماشيتهم إحتراماً كبيراً يتسم بمسحة دينية .

وهذا الاحترام يمتد إلى أشياء ترتبط بالماشية ، مثل اللبن والعشب ، كما أن بعض القبائل لا تذبح الماشية إلا فى مناسبات الاحتفالات . ولابد وأن نذكر فى هذا المقام أن الفرق بين النيليين والحاميين النيليين إنما يقوم فى معظمه على أسس لغوية لم يتفق عليها الرأى بشكل إجماعى .

البانتو : Bantu

إن مصطلح البانتو مصطلح لغوى محض ، ولكنه يستخدم فى مجال وصف السلالات أو الأجناس البشرية ليدل على مجموعة زنجية كبيرة جداً ذات لغات تشترك فى خصائص عامة لا يخطئها أحد . فإذا ما سلمنا بوجود مناطق ، أو بمعنى أدق « جزر » islands ، للنيليين والحاميين النيليين ، فإن البانتو يمثلون الثلثين الجنوبيين من إفريقيا السوداء بأكملها . وبغض النظر عن رباط اللغة الذى يجمعهم ، فهم يختلفون فى الشكل ؛ وعلى الرغم من وجود ملامح معينة مشتركة بينهم ، إلا أنهم يختلفون إختلافاً كبيراً فى ثقافتهم من قبيلة إلى قبيلة ومن منطقة إلى أخرى . فأى رباط آخر خلاف اللغة . قد يتساءل المرء ، يجمع بين الباهيما Bahima الأرستقراطيين الذين يعتبرون حاميين حقيقيين فى كل شىء عدا اللغة ، وبين السوكوما Sukuma المجدين المتواضعين ، والكوريا Kuria المعروفين بالرشاقة والمحبين الماشية ، والزولو المنظمين المحاربين الأقوياء ، وتلك القبائل الكبيرة التى أسلم بعضها وتسكن المناطق الساحلية فى شرق إفريقيا ، والتشاجا Chagga الأذكياء الطموحين ، وأهل الجبال صعب المراس المستقلين فى بتشوانالاند؟ وكون أنه كانت هناك روابط معينة غاية فى التراخى ، فهذا مما سوف نراه مستقبلا . ولكن البانتو بانتشارهم فى جزء كبير من القارة (بخلاف النيليين والحاميين النيليين الذين كان موطنهم محدوداً نسبياً) كانوا عرضة لمؤثرات بيئية عديدة متباينة قد أدت بدورها إلى إختلاف مماثل فى خصائص

الجماعات المختلفة . فمن الواضح أن أولئك الذين يعيشون فى سهول مجدبة كان تطورهم ونموهم مغايراً فى طريقته لنمو أولئك الموجودين بين المستنقعات أو الجبال ، بينما أن وجود هذه الحشرة أو تلك ، كذبابة تسى تسى Tsese fly مثلا ، أو البعوض ، كان من شأنه أن يقرر أسلوبهم فى الحياة .

الخويسان The Khoisan

أولئك هم البوشمان Bushman والهوتنتوت Hottentot فى جنوب إفريقيا . والبوشمان هم أقدم الأجناس الأصلية فى إفريقيا ، وكانوا فيما سبق أكثرهم توزيعاً وإنتشاراً فى القارة . أما وقد أتى عليهم أعداؤهم من البانتو والأوروبيين ، فقد أصبح وجودهم الآن مقصوراً على صحراء كلاهارى وما جاورها .

والبوشمان قصار القامة ، ذوو بشرة إما صفراء أو ضاربة إلى اللون البنى الأصفر ، وشعر كحبات الفلفل الأسود pepper corn ، وبروز فى عظام الفكين ، وأعين ضيقة ، وأنوف مفلطحة جداً . ولعل أبرز خصائصهم هو بروز العجز فى الرجال وفى النساء Steatopygy وأبعد من ذلك شمالا ، نجد أن بوشمان المستنقعات فى دلتا أوكافانجو Okavango أطول قامة ، وأغمق لوناً . ويعيش البوشمان معيشة غاية فى البدائية ، كما أنهم لا يتأثرون إطلاقاً بالاتصال بمن هم أرقى منهم حضارة ، وهم يعيشون على الصيد وجنى الثمار من جذور أو نباتات ، فلا هم يمارسون الزراعة ولا هم يمتلكون الماشية . ورغم هذه الحياة غير المأمونة ، فهم شعب مرح يأخذ نفسه بالرقص والغناء . وأهم من ذلك ، أن لهذا الجنس إنتاج فنى ، ذلك اللون المعروف من الفن المسمى برسم الصخور Rock Painting ، وهو يصور الناس والحيوان فى حياتهم اليومية فى رسوم أجروها على الحوائط الصخرية لكهوفهم . فالألوان حية للغاية ، والصور نفسها ذات

قيمة فنية عالية ، ولكن هذا النوع من الفن قد اندثر الآن كلية ، وما نراه اليوم فى رسومات لابد وأن تكون قديمة جداً ، ولو أنه من العسير أن نقدر كم يكون عمرها . ويقال إن عدد البوشمان المتبقين فى الوقت الحالى يفوق الخمسين ألف نسمة ، ولكن من المعتقد أن هذا العدد فى تناقص مستمر . فالأحوال التى ساعدت على بقائهم – من مساحات شاسعة إلى فرص صيد كثيرة – كلها آيلة إلى الزوال . ثم إن البوشمان قد آلو إلى حالة من الذوبان مع الشعوب الأخرى بالتزاوج ، ومما لاشك فيه ، أنهم كجنس ، سوف ينقرضون ، ولن يكون ذلك فى المستقبل البعيد .

وأما الهوتنتوت Hottentot – ومعظم موطنهم الآن هو جنوب غرب إفريقيا – فهم يشكلون الناتج الحاصل من إختلاط البوشمان بالحاميين الأوائل . وهم أكثر طولا من البوشمان ، ويختلفون عنهم فى أنهم شعب رعوى يمتلك الماشية والأغنام . وثقافتهم عموماً أعلى من ثقافة البوشمان ، ولكن لا يبدو أنهم قد قاموا برسومات فنية صخرية Rock paintings .

النيجريللو Negrillos

وأولئك هم أقزام pygmies غابات الكنجو . وكان وجودهم معروفا للفراعنة الأوائل فى مصر القديمة . ولكن ما زال لا يعرف حتى الآن عن لغتهم أو ثقافتهم إلا القليل ، ولو أنه يقال عنهم أنهم يجيدون الرقص والغناء والتمثيل الهزلى mimicry إجادة تامة . وهم يعيشون أساسا على الصيد وجمع الثمار ، وأسلوبهم فى الحياه ، وإن كان بسيطا وبدائيا ، فإنه على ما يبدو قد صيغ ببراعة ليتفق والبيئة التى يعيشون فيها .

الأجناس غير الإفريقية Non-African races

ولكى نكمل الصورة الإفريقية فلابد وأن نشير إلى تلك الأجناس التى ولو أن هجرتهم كانت حديثة نسبياً إلا أنهم قد اتخذوا الآن من إفريقيا وطناً لهم . وأهم هذه الأجناس الآسيويون والأوربيون .

أما الآسيويون فهم أساساً من الهنود والباكستانيين ، ويوجدون فى زنجبار Zangibar – حيث استقروا لمدة أطول منها فى أى مكان آخر – وفى الأرض الأصلية فى شرق إفريقيا ، وفى ناتال Natal . وينقسمون إلى طائفتين أساسيتين : المسلمين والهندوس وكذلك هناك السيخ Sikhs ، والأغلبية العظمى منهم صناع ، ثم بعد ذلك يأتى الجونيون Goans من الهند البرتغالية ، وكثير منهم موظفون فى المكاتب .

وهناك شعب أوربى صرف فى « جنوب إفريقيا » ، وجماعات كبيرة من المهاجرين على شواطىء البحر المتوسط ، وأخرى غيرها أصغر منها فى إفريقيا الوسطى وكذلك فى المرتفعات الشرقية . هذا بالإضافة إلى التجار ، والإرساليين ، والموظفين المنتشرين فى القارة بأجمعها .

الثقافة الإفريقية

قد يبدو للمستكشفين الأوربيين من أهل القرن التاسع عشر أن إفريقيا الإستوائية تتسم بالبربرية والبدائية ، وأنها قد أسلمت نفسها لحروب قبلية ، وإيمان بالخرافات والخزعبلات . وباستثناء حالات هامة ، فإن الناس كانوا يعيشون فى حالة من الفقر وعدم الأمن ، يتلمسون حتى القليل من مطايب العيش فلا يجدونه ، ويشقون من أجل الحصول على ضروريات الحياة . وكان التنظيم الإجتماعى والسياسى يبدو إما بسيطاً أو متأخراً للغاية ، أو – حين يكون أكثر رقياً وتطوراً – بربرياً وجائراً .

ومن المسلم به أن الإفريقيين كانوا فى ذلك الوقت - نسبياً - غير متأثرين بالعالم الخارجى . ولم تكن إتصالاتهم بمن هم أرقى منهم حضارة ، فى تاريخهم الحديث ، لتعود عليهم بغير القليل من الفائدة فما رأوه من الأوربيين أو العرب سواء فى الجنوب ، أو الغرب ، أو الشرق ، لم يكن ليزيدهم إلا إقتناعا بأنهم ماهم إلا أناس من الخير لهم أن يفادوهم ، وأن أنفع الناس لديهم ، أو على الأقل أقلهم ضرراً من بين ممثلى الحضارة الأوربية أو الآسيوية ، هم الإرساليون المسيحيون العابرون ، والتجار الوافدون من أقطار كثيرة الذين كانوا عادة يلتزمون الساحل . ومما لا شك فيه أنه كان هناك دائماً نوع من الإتصال بين الشعوب الإفريقية نفسها ، ونوع من تبادل الأفكار والمهارات والأعمال بين شعب وآخر . فكثير من الحرف ، وتربية أنواع معينة فى الحيوانات الأليفة ، وزراعة نباتات بعينها ، إنما قد جىء بها فى يوم ما من الخارج ، ثم جاء الوقت الذى إنتشرت فيه عبر القارة . ولكن النسائم التى هبت من الخارج منذ أيام غزوات الحاميين حتى العصر الحديث كانت خفيفة ، وكانت الثقافة التى تطورت وارتقت فى معظم أرجاء القارة - طبعاً باستثناء المناطق العربية والأوربية - وطنية حقا .

وهناك من الشواهد حول إفريقيا ما يدل على أن هذه الثقافة لم تكن غير ناجحة . فزيمبابوى Zimbabwe بأسوارها وأبراجها الحجرية الشاهقة التى تعتبر أهم مثيلاتها فى جنوب إفريقيا الوسطى ، يشيع الاعتقاد الآن بأنها كانت من عمل جنس من الوطنيين ، وليس - كما كان المعتقد سابقاً - من عمل المهاجرين الساميين . وفى إنجاروكا Engaruka فى تنجانيقا توجد بقايا مدينة حجرية كانت من الضخامة بحيث كانت تتسع لإيواء ثلاثين أو أربعين ألف ساكن . ومن المحتمل أن كانت هذه كذلك من إنتاج حضارة وطنية . وفى مابونجوبوى Mapungubwe فى الترنسفال الشمالى توجد مقابر لدفن الموتى غنية بالنقوش الذهبية والأشياء المعدنية الأخرى التى يبدو أنها

كانت من وحى وإنتاج السكان المحليين . وليس من المستطاع أن نقطع برأى حول صحة نسب هذه الأشياء ، وأى إستنتاج يتوصل إليه إنما هو من قبيل التخمين والتجريب . فلن نستطيع ، مثلا ، أن نجزم برأى حول عمن يكون على وجه التحديد ذلك الذى قام ببناء إنجاروكا Engaruka وزمبابوى Zimbabwe أو من يكون المدفون فى مابونجوبوى Mapungubwe ، ولسنا كذلك نستطيع أن نعرف كيف ، ومتى ، ولماذا كان إختفاء ثقافتهم المختلفة ولكن هذه وغيرها من آثار الماضى تسمح لنا بالقول بأن من المحتمل أن كانت هناك فى أزمنة مختلفة ، إلى الجنوب من الصحراء الكبرى ، مجتمعات من الوطنيين الذين وصلوا إلى حالة من الحضارة كانت أرقى بكثير من تلك التى وجد عليها جزء كبير من القارة حين وفد إليها الأوربيون فى القرن التاسع عشر .

فإذا ما انتقلنا من الماضى إلى الأزمنة الحديثة ، وجدنا أن الثقافة الإفريقية تختلف إختلافا كبيراً ، من حيث النوع والخصائص ، من قبيلة إلى قبيلة ومن مكان إلى آخر ، وأنها تتراوح بين ثقافة مجتمعات بسيطة بدائية كثقافة الوثنيين فى نيجيريا الشمالية ، وبين أنظمة وأساليب غاية فى الدقة كتلك القائمة عند الباجندا Baganda . ولكنها فيها جميعاً من الأوجه المشتركة بين كل المناطق والقبائل ما يسمح لنا بأن نرسم ، بخطوط عريضة جداً - مع إتخاذ كل التحفظات الممكنة فيما يختص بالتفاصيل - تخطيطا عاما للثقافة الإفريقية كما وجدها الرحالة الأوربيون الأوائل ، والتى مازالت على حالتها التى كانت عليها إلى حد بعيد .

الديانة Religion

يؤمن معظم الإفريقيين بوجود كائن أعلى Supreme Being يقترن دائما بالسموات . وهو خالق كل شىء ، ولكنه يلعب دوراً قليل الأهمية

فى حياة الفرد . ولو أنه هناك من القبائل من تؤمن بوجود إله ذاتى a personal God ، يجيب الدعوات ويمنح الهبات ، فإن معظم الإفريقيين يرون أن الكائن الأعلى بعيد عنهم كل البعد ، كما أنه لا ذاتى impersonal ولا يهتم بخلقه إلا قليلا . ومنه يأتى عدد من الآلهة الأقل شأنا ، التى يمكن ترتيبها تنازليا وتقترن بالظواهر الطبيعية . وإلى حد بعيد ، فإن أهم وجه للديانة الإفريقية هو الاعتقاد بوجود قوى خفية غامضة تسير حياة البشر . هذه القوى قد تحل فى الكائنات البشرية ، أو الحيوانات ، أو الأشياء ، وقد تمنح الحياة قوة وتؤكد بقاءها فى الأحفاد بالتزام الطقوس الدينية الصحيحة .

وتقترن ، بطريقة ما ، بالقوى الموجودة فى الحياة أرواح الأجداد الراحلين . إذ يؤمن الإفريقيون بأن أرواح الموتى لها القدرة على أن تجلب الحظ الحسن أو الحظ السىء لأحفادهم فى الحياة . وعلى ذلك ، فمن الواجب استرضاء الأجداد وتكريمهم ، إما عن طريق تكريم رب الأسرة أو الزعيم أو القسس . وهذا الاعتقاد كان السبب فى أن بعض القبائل كانت ترى لزاما عليها ، حين يموت زعيمها ، أن تقتل خدمه ونساء قصره حتى يستطيعوا القيام على خدمة سيدهم فى العالم الآخر . وهذه الفكرة ليست طبعا مقصورة على إفريقيا ، ولكن يبدو أنها توجد لدى سائر البشر ، وتتمثل فى أوجه مختلفة بين الناس فى كل العالم وإن باعد بينهم المكان والزمان . وكذلك كانت العادة من وقت إلى آخر أن يقتل الناس حتى يقوموا بدور الرسل التى تحمل أنباء نشاط الزعيم إلى أجداده الراحلين . ولحسن الحظ أن معظم عقائد الأجداد لم تكن دموية على هذا النحو ، بل كانت دائما وما زالت ، تأخذ شكل الدعاء والتوسلات أو تقديم نذر من الطعام أو بعض حيوان صغير مستأنس .

وكذلك يعتقد الإفريقى بشكل عاطفى فى العرافة Sorcery ، التى تسمى استخدام قوى الحياة من أجل إيذاء الآخرين . وينظر إليها بالكثير من

الرعب والفزع ؛ ومن أجل إفساد مفعولها أمد المجتمع الإفريقى نفسه بفئة من الأشخاص الذين ينحصر عملهم فى ملاحقة العراف وإبطال سحره . وهؤلاء هم الأطباء العرافون الذين يختلط على الأوربيين أمرهم فيخلطون بين أعمالهم الخيرة وأعمال أولئك السحرة التى يعمل هؤلاء الأطباء العرافون على إفسادها . ويتضامن مع الأطباء العرافين أولئكم الأطباء الآخرون الذين يقدمون العلاج للشفاء من الكوارث العامة . وضمن هذه الفئة يأتى « صناع المطر » rain-makers ، تلك التسمية التى تعد غير مناسبة تماما والتى لا يرضونها لأنفسهم . فكل ما يفعلونه هو التأكد من السبب الذى حال دون سقوط المطر . وغالبا ما يرجع هذا إلى أن أحد أفراد المجتمع قد أساء إلى الأجداد ، وفى هذه الحالة ينصح الطبيب بما يتبع لرفع الإهانة . وقد يقوم أيضا بأداء طقوس معينة من أجل مصالحة الأرواح التى أسىء إليها . وعلى ذلك ، « فصانعو المطر » rain-mabers هم الذين يقومون بتشخيص الحالة وبدور الوسيط ، ولا أكثر من هذا . أما المحترفون الآخرون المهنة فهم يتخصصون فى درء أمراض مختلفة ، كمثل حالة الطيور التى تأكل الحب فتأتى عليه ، وآخرون — أكثر إيجابية — يعملون على التمكين من دوام وجود الطعام ، وأما الزعيم نفسه فغالبا ما يقوم بأداء طقوس تهدف إلى إزالة كل العقبات التى تحول دون تحقيق زراعة ناجحة ومحصول وفير .

كيف يعيش الإفريقى

ليس من المستطاع ، فى فصل واحد من هذا الكتاب ، وصف طريقة المعيشة لدى كل الإفريقيين ، ولا هو ضرورى كلية . وقد لا نذكر المهاجرين المحدثين مثل الأوربيين ، الذين أتوا إلى إفريقيا بثقافة موطنهم الأصلى ، ولم يكن دورهم فى الوطن الجديد ليعدو التعديل منها وتطويرها . ففى الغرب

الذين هبطوا أرض القارة منذ قرون عديدة مضت ، لا يختلفون كثيراً عن العرب من أى نوع فى أى مكان آخر . وعلى ذلك فنحن لا يعوزنا سوى أن نقتصر على ذكر الزنوج فيما بين الصحراء الكبرى والكاب ، الذين عاشوا فى القارة طويلا جداً مما يسمح لنا الآن باعتبارهم أصليين indigenous ، فهم جميعا ذوو خصائص معينة من الفكر والسلوك تميزهم عن الأجناس الأخرى ، وكذلك يشتركون فى ملامح عامة كافية ، مما يسمح لنا بأن نتحدث بوجه عام جداً عن أسلوب الحياة فى إفريقيا .

المجتمع The Community

إن السواد الأعظم من الإفريقيين ينضوى تحت لواء مجتمعات تسمى القبائل ، وهذه قد تكون كبيرة أو صغيرة . وتتميز القبائل عن بعضها باللغة والفروق الثقافية . نحن نجدها كلها من ناحية متشابهة : فكلها ذات تنظيم اجتماعى غاية فى التحديد ، وهذا يتراوح ما بين تنظيم إجتماعى بسيط يتكون من عدد قليل من رؤساء الأسر الذين يعتبرون أقدمهم رئيساً لهم ، وتشكيل بارع يكون الدولة ، التى يترأسها ملك يحوطه قضاته ووزراؤه ، وله ممثلون فى كثير من المدن والقرى . وعلى كل ، فمن الواجب أن يقال فى هذا السياق أنه كان يندر أن يكون هناك ظلم أو كبت فى إفريقيا . صحيح أنه كان هناك بعض الطغاة ، ولكن عموماً نجد أنه كان هناك من الضمانات ما يكفى لكبح جماح الرغبات الجامحة حين يمسك بزمام السلطة شخص واحد . فالزعيم تحوطه هيئة من المستشارين واضحى الاختصاصات ، ويلتزم باحترام ما يشيرون به . وعلى كل ، فمعظم الزعماء ، مهما كانت قوتهم ، يجدون من الحكمة أن يستمعوا لما يراه هؤلاء .

وبالإضافة إلى السلطات الدنيوية للزعيم ، من سياسية وقضائية واجتماعية ، فله كذلك اختصاصاته الدينية . فالكثيرون يعتبرونه الوسيط بين القبيلة وأرواح الأجداد التى تعد أكبر قوة ، وإليه يؤول أمر إقامة

طقوس البذار والحصاد ، وغيرها من الطقوس المتعلقة بالمناسبات الهامة من السنة . وفى بعض القبائل يحاط الزعيم بالكثير من التبجيل ، بينما فى أخرى غيرها نجد أن شخصه لا يلقى من الاحترام أكثر مما يلقاه شخص أعلى مرتبة من الناحية الاجتماعية .

وهناك الكثير من الإفريقيين الذين لا يتقيدون بالحالة القبلية ، وهؤلاء -- عموماً -- هم سكان المدن ؛ أولئك الذين انفصلوا بأنفسهم عن ذلك التنظيم التقليدى وأصبحوا الآن يخضعون لنوع من الحكومة المدنية . إلا أن الحنين إلى النظام القديم قد يكون من القوة بحيث نرى أفراد القبيلة الواحدة ، فى أغلب الأحيان ، وقد آثروا التجمع مرة أخرى حيثما كانوا ، حتى ولو كان أسلافهم قد رحلوا عن موطن القبيلة منذ وقت طويل .

ولابد وأن نتوقع أن النظام القبلى سوف يسلم نفسه كلية لأنواع أخرى من التنظيم السياسى ، ربما كانت ذات نمط أوربى . وأياً كان الشكل الظاهرى للنمط ، فمن الصواب أن نعتقد بأن هذه الأنظمة سوف تنفذ إليها العاطفة الإفريقية بشدة وأنه سوف يجرى تشكيلها لتتلاءم وأفكار وخصائص الجنس race .

وثمة ظاهرة مشتركة بين المجتمعات الإفريقية جميعها ، ألا وهى وجود شعور قوى بالمجتمع sense of community ، والمعيشة الجماعية والعمل الجماعى ، والمسئولية الجماعية . والإفريقى لا ينظر إلى نفسه اساساً كفرد أمام الله God وأمام الإنسان ، كما يفعل الأوربى . ولكنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأسرته ، وإن لم يكن قد تحلل من قبيلته كلية ، فبعشيرته وقبيلته . حياً كان أو ميتاً ، فأبناؤه وذوو قرباه ملتفون حوله فى جميع مناحى الحياة ، يشاركونه نجاحه وفشله ، ويقاسمونه الحظ الحسن أو السىء ، ويعيشون فيه كما يعيش هو فيهم . وإذا ما ارتكب إفريقى إساءة ، فمجتمعه

مسئول عنه . وإذا كان ناجحاً فى حياته فوصل إلى مركز السلطة والجاه ، بات من المتوقع أن تفيد أسرته وعشيرته مما بلغ . هذا الشعور بالمجتمع له جوانبه الحميدة : فالقبيلة الافريقية تخدم نفسها فى كل المجالات . فهى تتعهد المسنين فيها بالعناية والمعوزين بالطعام . وحتى الأرامل واليتامى يرثهم – كما ورث المتاع – قريب لهم من الذكور ، فيؤولون إليه ليرعاهم . وطالما أنه كان هناك أى طعام فلن يجوع أحد . وبالإضافة إلى هذه المزايا المادية فإن القبيلة تكسب الشعور بالانتماء إلى شيء قديم له احترامه ، وبالعشاء الربانى فى نظام روحى له إستمراره وبقاؤه ، وبالتوازن والثبات . على أن فكرة المسئولية الفردية البحتة ، التى جاء بها الإرساليون ، والتجار ، والاداريون ، والمحامون ، قد كان لها أثرها الكبير فى تقويض فكرة المسئولية الجماعية التى من المسلم به أنها تميل إلى إشاعة التراخى فى روح المبادءة والتقدم ، وتغرس روح التحفظ الشديد . وعلى كل ، فهناك من يأسف لقيام فكرة أن الأوربيين الحدثين ليسوا بالأفضل لأنه يعوزهم : الشعور بالالتزام نحو شيء أوسع من الفرد .

القضاء : Justice

أما القضاء الإفريقى فيتجاهل الفرق بين القانونين المدنى والجنائى ، ويقوم أساساً على مبدأ الإنصاف والتعويض Redress and Comp ensation.

وعلى هذا ، فإنى إذا ما أسأت إلى أحد من الناس بأية طريقة ، سواء بضربه أم بسرقته ، أم بإهمالى لماشيتى فتركتها تأكل من زراعته ، أم بعجزى عن أداء دين مستحق ، فالعلاج شيء واحد : لابد من أداء مبلغ مناسب إليه تعويضاً له عما لحقه من ضرر أو خسارة . فالعقاب بالمعنى الذى نعرفه يعد شيئاً غريباً على التقاليد الإفريقية . فيما عدا حالة السحر ، وربما كذلك فى حالة الإساءات أو الإهانات الموجهة نحو الزعيم . فالفرق بين الجرائم

والجنح torts ليس له مكان فى النظرية القانونية الإفريقية . وعلى كل ، فقد تغير هذا فى ظل النظرية الأوربية فأصبحنا الآن نرى التقسيم واضحاً بين القانون الجنائى والمدنى فى معظم الأنظمة القضائية الإفريقية .

المعيشة : Subsistence

وما رآه الرحالة من شواهد يبين عن أن معيشة الناس ، وقت التغلغل الأوربى فى القرن الماضى ، كانت بسيطة وكذلك غير مؤمنة . ولقد أفلح الإفريقى ، عبر القرون ، فى تكييف نفسه للبيئة ، بطريقة معقولة وناجحة ، ولكنه لم يتعلم أبداً كيف يخضعها لسيطرته . وكان يكسب عيشه ، جزئياً من الزراعة ، وجزئياً من تربية الماشية ، وأحياناً كلية من هذه أو تلك ، ويزيد من وقت إلى آخر من مأكله وملبسه بصيد الحيوانات المتوحشة . ولم يكن ليعد ناجحاً بمعنى الكلمة إلا فى الحرفة الأخيرة . وفى قارة يعد فيها سقوط المطر إما غزيراً جداً أو ضئيلا للغاية ، وحيث التربة عموما فقيرة ، وحيث تعرية التربة وإنهاكها يعد أمراً شائع الوجود ، وحيث المراعى موسمية ومقصورة على بعض فصول السنة ، وجدنا العادات الزراعية والرعوية التقليدية تميل إلى توكيد النتائج السيئة لتلك العوامل أكثر من أن تعمل على الحد منها . وبين القليلين – نسبيا – من الإفريقيين من كان من عاداتهم رى المحاصيل أو إتباع دورة زراعية ، أو حفظ التربة وتسميدها (فيما عدا الإسراف فى تقطيع النباتات وإحراق الغابات) ، وتخزين مؤونة الشتاء لماشيتهم ، أو تنقية قطعانهم . وحين كانت تنهك التربة أو المرعى فى أحد الجهات ، كان الإفريقى بكل بساطة يرحل عن الصحراء التى أوجدها ليصنع أخرى فى مكان آخر .

وإن الإهمال لأبسط مظاهر العناية بشئون الماشية لهو أمر يدعو إلى المزيد من الدهشة ، وذلك لما لها من دور حيوى فى الحياة الإفريقية . فهى

لا تعتبر فقط كرصيد إقتصادى يركن إليه ، ولكنها كذلك تشكل عاملا إجتماعيا له المرتبة الأولى من الأهمية . إنها تشكل عنصرا أساسيا فى إقرار الزواج حين تدفع مهرا من العريس إلى أهل عروسه . وفى روانداأوروندى نجد أن رعاية رجل لماشية رجل آخر لهى أمر يشكل نوعا من العلاقات الإقطاعية بين الرجلين . وفى كثير من القبائل نجد أن موضوع الماشية إن هو إلا وليد عقيدة ولذلك كانت تلقى من التبجيل ما يصل حد العبادة . وكثير فى الإفريقيين لا يبيع ما شيته إلا حين تعوزه الضرورة ، وكذلك ليس من عادتهم ذبحها من أجل الطعام . وكانت نتيجة هذا الموقف أن وجدنا ضغطا متزايدا على مراع ضئيلة ومياة شحيحة . وهذه الظاهرة الشائعة فى الفلاحة الإفريقية ليست بحاجة إلى التعمق فى بحثها .

وأما عن الفنون المنزلية domestic arts ، فقد كانوا يبنون بيوتهم مما كانوا يجدونه فى المتناول من طمى وحطب وعشب ، تلك المواد التى ما تلبث أن تكون فريسة للنمل الأبيض ، ولكنها كانت سريعاً ما تبنى وسريعاً ما تترك . وأما الملابس ، إذا كانت ترتدى إطلاقا ، فكانوا يصنعونها من مواد بسيطة ورخيصة كمثل القماش المصنوع من لحاء الشجر ، وهنا قد يقال إنه بواسطة عمليات بدائية ، ولكن كاملة جدا ، إستطاع الإفريقى صناعة ملابس تجمع بين حسن المنظر وقوة التحمل . وأما الآلات ، بمعناها الحديث ، فلم تكن موجودة . وكان من ناحية واحدة فقط أن إستطاع الإفريقى أن يرقى بنفسه فوق مستوى ظروفه . ففيه من حيوية الكد والعمل ما مكنه عبر العصور من أن ينتصر كجنس — ولو أنه هناك من أفراده الكثير ممن يذل ويخنع — على ظاهرة رداءة الطعام وعدم كفايته ، وعلى المرض والعديد من الجراثيم والطفيليات ، وعلى كل مساوىء المناخ غير الصحى . ويضاف إلى هذه الآن تلك الأمراض التى انتقلت إليهم عن طريق الإتصال بالغرباء . وقبل مجىء الحكم الأوربى كانت حيوية الإفريقى هى درعه

الوحيد الواق . والآن ، ونحن نعترف بأن المدنية قد جاءت إليه ومعها أدرانها ، فقد نتوقع أن الإفريقى ، وقد أوتى فرصة الحصول على الدواء الأوربى لعلاجة ، والتعليم والتوجيه فى رعاية أطفاله ، وأحوالا اقتصادية أفضل على وجه العموم ، سوف يتكاثر بوفرة فائقة .

الفنون The Arts

ربما لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الإفريقى أكثر الناس على وجه الأرض ولعاً بالموسيقى . وليس هذا يعنى أنه كان هناك من الإفريقيين من إستطاع أن يصل فى إنتاجه الفنى إلى مستوى بيتهوفن أو باخ Beethoven or Bach ، وذلك على حد ما نعرف . ولكن ما نعنيه هو أن كل كيانه ، وكل حياته قد تشربت بروح الموسيقى . ولا يكاد يكون هناك من الإفريقيين من هو ليس على إلمام تام بالموسيقى وغير قادر على أن يضيف شيئا جديداً إلى الموسيقى الشعبية لمجتمعه فالموسيقى موهبة تربى فيه منذ سن مبكرة جداً ، ولا عجب فى ذلك ، فهم يشركون الأطفال منذ نعومة أظفارهم فى عزف المقطوعات الموسيقية ، وفى الغناء والرقص . والإفريقى دائب كل يوم على إضافة الجديد من الأغنيات والجديد من الموسيقى إلى عالم الفن ، ولا غرابة فى ذلك ، فهو يجد موضوعا للغناء فى كل شىء يراه وفى كل شخص . وهذه الخاصية العنصرية نراها موجودة بعيداً عن موطن الأجداد ، وما الكاليبسو Calypso فى جزر الهند الغربية إلا شكل آخر لنفس الفن الذى يمارس فى أية قرية إفريقية فى أى وقت من النهار أو الليل . ولم يكن الأوربيون على شىء من الحكمة حين حاولوا تعليم الموسيقى لهؤلاء المتعمقين فيها ، ولكن العبقرية الإفريقية قد أثبتت أنها لم تكن دون مستوى التجربة ، فالأطفال الذين قد يسمعهم المرء فى الصباح وهم ينشدون النشيد الوطنى لتنجانيقا من تلحين كليمنتين Clementine إنما تعكس بشكل

طبيعى جداً تلك الموضوعات الموسيقية القديمة لجنسهم التى كانوا يعزفونها فى بيوتهم بالليل .

وجاء الرقص ليصاحب الموسيقى والغناء . وكما وجدنا الإفريقى دائماً يختار أغانيه حول مواضيع تتعلق بالعمل ، فكذلك رأيناه يترجم كل ألوان نشاطه إلى حركات إيقاعية . والرقص الإفريقى شىء يتسم بالقوة ، وغليان الدم فى العروق ، وسرعة الخاطر ، ثم بناحية جسدية شهوانية وأخرى درامية . والحركات كثيرة للغاية ، وغالبا معقدة ؛ كما أن إيقاع الطبول والراقصين بارع وخال من الأخطاء . أما النتيجة فمثيرة للغاية ، ولا شىء يدانيها على الإطلاق وما تحمله اليوم الموسيقى الأوربية الحديثة من صخب الموسيقى الإفريقية الجديدة ، ابتداء من المظاهر الأولى لموسيقى الجاز إلى الجايف والروك آند رول the jive and rock and roll القائم حاليا ، إن هو إلا تقليد باهت للشىء الحقيقى .

وفى الفنون التشكيلية plastic arts ؛ وجدنا الزنوج الحقيقيين لغرب إفريقيا أبرز ما يكونون ؛ أما أعمال النحت sculpture فقد اشتهر بها «إيف» و «بنين» Ife and Benin . وأما عن أعمال حفر الخشب ، فقد إستطاعت بعض قبائل البانتو فى الكنجو أن تنتج منها ما يعد ثروة بحق . وفى أجزاء أخرى من إفريقيا البانتو Bantu Africa حيث لا نجد للتقاليد الأصلية قوتها ورسوخها رأينا الفنانين والصناع يقعون تحت التأثير الأجنبى . ولقد شهدت السنوات الأخيرة نمواً كبيراً ، فى أجزاء عديدة من إفريقيا ، لنوع من الأدب ، أوربى فى لغته وشكله ولكنه ؛ إفريقى فى فكرته . فالتقاليد الفنى القديم لإثيوبيا يعبر عن نفسه فى الرسم والأدب الرفيع والزخرفة والفن المعمارى والموسيقى مع تشربه عن عمق بالمسيحية . وكذلك يركز الأدب الأثيوبى إهتمامه على المسيحية التى منها يستمد وحيه وإلهامه .

اللغات الإفريقية African languages

بإستثناء اللغات الأوربية التى جاء بها المهاجرون المحدثون ، من المستطاع تقسيم اللغات الإفريقية إلى خمس أسر : أسرة اللغة السودانية Sudanic ، وأسرة البانتو Bantu ، والحامية Hamitic ، والسامية Semetic ثم البوشمان .

أما أسرة اللغة السودانية فتنتشر عبر إفريقيا فى شكل حزام غير منتظم من رأس فيرد Cape Verde إلى حدود إثيوبيا ، مع وجود أفرادمنها داخل حدود الأسر اللغوية الأخرى ، مثل كوناما Kunama فى شمال إثيوبيا ، ولوو Luo قرب الطرف الشمالى الشرقى لبحيرة فيكتوريا ، ومبوجو Mbugu فى تنجانيقا . وهذه الأسرة تضم ما يزيد على المائتى لغة ، من بينها أشهر لغات غرب إفريقيا ، بإستثناء الهوزا .

أما أسرة البانتو فتوجد فى كل إفريقيا الجنوبية والوسطى ، وإلى الشمال الغربى حتى خليج الكاميرون ، والشمال الشرقى حتى نهر تانا . وهذه المساحات الشاسعة تتخللها مقاطعات من اللغات الأخرى التى سنشير إليها فيما بعد ، بينما هناك أيضاً من اللغات ما يتسم بطابع البانتو ويوصف بأنه شبيه بالبانتو Semi-Bantu فى المنطقة السودانية من غرب إفريقيا . وهناك من لغات البانتو ما يبلغ ٢٥٠ لغة والعديد الكثير من اللهجات . وبعض هذه اللغات لا يختلف عن البعض الآخر أكثر من إختلاف اللغة الإيطالية ، مثلا ، عن الفرنسية ، ولكنها جميعاً تشترك فى خصائص عامة لا يخطئها أحد . وليست هناك لغة حقيقية واحدة من لغات البانتو لا يدرك المرء للوهلة الأولى أنها عضو هذه الأسرة .

وكان القدماء المصريون يتكلمون اللغة الحامية . وكذلك كان الليبيون والنوميديون وبعض شعوب شمال إفريقيا اليوم . ولعل أنقى شكل للغات

الحامية هو ذلك الموجود فى شمال شرق إفريقيا ، الذى يعد موطن العديد من الشعوب الحامية مثل الصوماليين والجالا . ومن الواجب أن نذكر أنه كان هناك من الدلالات ما يبين عن وجود تقارب بعيد بين اللغات الحامية والسامية ، كما لو كانتا فى الماضى البعيد تشكلان فرعاً واحداً إنقسم فيما بعد .

وأقدم لغة إفريقية تمثل الأسرة السامية هى الجيز Géez وهى اللغة القديمة للكنيسة فى إثيوبيا . وأكثر اللغات تحدثاً بها هى العربية ، لغة شمال إفريقيا ومصر التى انتشرت جنوباً إلى السودان . وقد كان للغة العربية عميق الأثر على لغة الهوزا ولغة السواحيلى Swahili فى غرب وشرق إفريقيا على التوالى ، كما أنها ترتبط إرتباطاً وثيقاً بإنتشار الإسلام .

وأخيراً نأتى إلى لغات البوشمان التى يتكلمها شعب البوشمان فى جنوب إفريقيا . وهذه ليست بذات أهمية من الناحية السياسية ، ولكنها ، على ما يبدو ، شيقة جداً من الناحية اللغوية . فأحد خصائصها وجود عدد مما يسمى « بالفرقعات » Clicks ، وهى الصوت الذى يشترك فى أدائه كل من اللسان والأسنان والشفاه ، تلك الخاصيه التى لقيت كثيراً من البحث . وثمة قبائل أخرى فى إفريقيا تستخدم فى الكلام هذه « الفرقعات » Clicks: الهوتنتوت ، والزولو ، والإكسهوزا Xhosa فى جنوب إفريقيا ، والساندَاوى Sandawi فى شرق إفريقيا . ويحتمل أن يكون الزولو والإكسهوزا قد نقلوا هذه « الفرقعات » عن البوشمان أو الهوتنتوت . ونسبياً ، فإنه لا يعرف سوى القليل عن لغات البوشمان ، وليس هناك متسع فى هذا الكتاب لدراستها . وعلى ما يبدو ، فإنها قد أخلت السبيل للغات الشعوب المحيطة ، أوربية كانت أم أفريقية ، ولسوف تختفى كلية دون شك قبل مضى وقت طويل .

ويجب ألا يعتقد بأن اللغات الإفريقية ، لمجرد أنها كانت إلى وقت حديث لغة غير مكتوبة ويتكلمها شعب غـــير مثقف نسبياً ، لغات

بربرية ، بدائية ، خالية من التركيب اللغوى والقواعد اللغوية . وحتى لو كانت كذلك ، فهى ما تزال تستحق الدراسة . وهكذا يرى ورنر Dr. Werner ، أن أكثر اللغات بربرية إن هى ، على ما هى عليه ، إلا أداة للفكر الإنسانى ، وعلى ذلك ، فهى تستحق البحث والتمحيص بكل عناية وتدبر . وأولئك الذين درسوا اللغات الإفريقية دراسة كاملة (والكاتب يستند فى كلامه إلى معرفته بعدد من لغات البانتو) يعرفون أنها لغات منظمة تنظيما عالياً وأنها لغات مرنة ، وأنها فى أوجه عديدة تكيف وتعدل جيداً لتؤدى المعانى على وجه الدقة ، وأنها فى كثير من الأحيان عذبة للغاية . وبالإضافة إلى هذا ، فإنها تعتبر الأداة المعبرة عن أساطير شعبية دسمة . والمرء يعوزه ، من أجل أن يتكلم لغة إفريقية ، الكثير من الوقت والجهد ، ولكن هذا العمل لا يعد شيئاً صعب البلوغ . وبالنسبة لأولئك الذين ينوون المعيشة والعمل فى إفريقيا فهى شىء له قيمته . وبالنسبة للإرسالى ، والمعلم ، والفلاح ، والتاجر ، والإدارى ، فإن إجادة اللغة يعد معولا من معاول الحرفة . أما أولئك الذين لا تعد اللغة الإفريقية ضرورة حتمية بالنسبة لهم فسوف يجدون فيها وسيلة سهلة للإتصال بشعوب لطيفة ، ناهضة ، ولها أهميتها .

تاريخ إفريقيا

مصر القديمة : Ancient Egypt

على مبعدة من القاهرة بحوالى خمسة أميال ، وفى وسط صحراء مصر ، تقوم ثلاثة أهرامات ضخمة . يراها المشاهد فيرى فيها خشونة الطبيعة وقسوتها وقد جردتها من غلافها الأملس ، ولكنها مازالت على حالتها ، بلونها الأشهب وضخامتها المتناهية لتكون هى وأبو الهول أروع رمز لمصر القديمة .

ولو أنه قد اكتشف وجود آلات ترجع إلى الباليوليثى (الحجرى القديم) ومقابر ترجع إلى العصر الحجرى الحديث فى وادى النيل، فإن تاريخ مصر يبدأ، رسميا، بالملك مينا، أول ملوك الأسرة الأولى، الذى يعتبر كذلك أول ملوك مصر، والذى استطعنا الوقوف على كل تاريخه. ويرجع تقسيم الملوك المصريين إلى أسرات معددة إلى المؤرخ مانيثو Manetho (عام ٢٧٠ ق. م) الذى كتب تاريخ مصر استناداً إلى الآثار العظيمة الموجودة حينئذ. وقد احتفظ بمخطوطاته بمكتبة الاسكندرية، ويعتقد بأنها قد قضى عليها حين أحرقت المكتبة عام ٦٤٢ ميلادية. إلا أنه قد بقيت بعض قصاصات مما نقله عنها المؤرخون الآخرون.

ويختلف الثقاة حول تواريخ الأسرات السابقة، فيرجع البعض تاريخ أولاها إلى عام ٥٠٠٠ ق. م، وحتى إلى ماهو أبعد من ذلك، وآخرون إلى عام ٣٠٠٠ ق. م. وأياً كان التاريخ فإن من المتواضع به أن الأسرة الأولى كانت تشكل، لا بداية حضارة، بل استمراراً لواحدة كانت قد إكتملت بالفعل وصارت قديمة. فالمشتغلون بفن الحفر والنحت، وصياغة الذهب، كانوا على درجة فائقة من المهارة، كما أن الكتابة الهيروغليفية كانت آخذة فى الانتشار، وكذلك كانت الديانة متقدمة ذات سلم الكهنوت غاية فى التنظيم.

وإن فكرة بناء الأهرامات، من أجل غرض ما زال غير واضح تماما، قد بدأها ملوك الأسرة الثالثة. فالملك زوسر بنى هرم سقارة المدرج وسنفرو بنى هرما فى ميدوم وآخر فى دهشور. أما الأهرامات الثلاثة العظيمة فى الجيزة فقد بناها على التوالى ثلاثة من ملوك الأسرة الرابعة: خوفو وخفرع ومنقرع.

ومعظم معلوماتنا عن مصر القديمة Ancient Egypt إنما نستقيها من

المخطوطات وأعمال الفن التى وجدت فى مقابر الملوك والعظماء، من المعابد والأهرامات، ومن أوراق البردى ومن الآثار. وكثير من المقابر التى تم كشفها - وتعد قليلة جداً بالنسبة للآلاف التى ما زالت تحت الرمال - قد تعرضت للسلب والنهب قبل أن يكتشفها خبراء الآثار. فالسطو على المقابر يعد حرفة قديمة جداً فى مصر بدأت فى زمن الفراعنة أنفسهم. وعلى كل، فلدينا منها ما يفى بإعطاء القدر الكافى من المعلومات الموثوق بها عن تاريخ وديانة وثقافة هذا الشعب الخير المحب للفن، أكثر بكثير - مثلا - عما لدينا عن أجدادنا الذين عاشوا فى فترة أقرب إلينا بكثير، والذين لم يكونوا على هذا النحو من الولع بالفن، ولا - ربما - حب الخير. ولسوء الحظ أنه ليست لدينا الفرصة لمناقشة هذه المسائل على متن هذا الكتاب، وأولئك الذين يودون الاستزادة من المعرفة عن هذا الشعب، وكتابته ورسمه، وفنه وعلومه، وديانته التى عنها نشأت أشياء كثيرة، فعليهم الرجوع إلى أحد المؤلفات عن علم الحضارة المصرية القديمة، وكذلك - إن أمكن - أن يشاهدوا المجموعات المصرية المعروضة فى متاحف أوربا أو فى المتحف المصرى بالقاهرة. ويكفى أن نذكر فى هذا المقام أن وادى النيل كان منذ أربعة أو خمسة آلاف سنة خلت مهد واحدة من أعظم الحضارات وأخلدها التى جاء بها عقل الإنسان.

ثم جاء التجار والجنود المحاربون لينقلوا الحضارة المصرية إلى أعالى النيل حتى وسط القارة وتشهد بقايا مرو Meroe، حوالى مائة ميل جنوبا من الخرطوم، بوجود ثقافة نابعة إلى حد كبير جداً عن مصر. ومملكة مرو Me oc هذه، التى كانت تحتل ذلك الجزء الواقع فى انحناءة النيل ما بين الجندلين الرابع والسادس، قد جاءت بمصر بالأسرة الخامسة والعشرين أو الأسرة الإثيوبية، التى بلغت شأواً بعيداً من القوة والنفوذ. فلما كان القرن الرابع الميلادى سقطت هذه الأسرة بسقوط مملكة مرو على

يد مملكة أكسوم Aksum التى كانت تشغل الجزء الحالى من شمالى إثيوبيا .

وقد يقال بأن تاريخ مصر القديمة قد جاء إلى نهايته باحتلال الإسكندر الأكبر لهذا القطر عام ٣٣٢ ق . م . ـ اذا لم نكن نرجعه ، حقاً ، الى القرنين السالفين ـ وقت احتلال الفرس لها . ولكن حتى فى ذلك التاريخ الأحدث كان للدين من السلطان النفوس ما جعل الإسكندر يقوم ـ كشىء لازم ـ بزيارة واحة سيوة والتعبد فى معبد الإله آمون . ولعل ، من وجهة نظرنا أهم ملامح فترة البطالمة التى أعقبت ذلك تلك الكتابة الموجودة على حجر أثرى وتحمل مرسوما ملكيا يضفى الكثير من المجد والتكريم على بطليموس الخامس . وكان أحد هذه الأحجار الأثرية هو حجر رشيد ، الذى اكتشفه ضابط مهندس فرنسى فى مكان لايبعد كثيراً عن رشيد ، فى عام ١٧٩٩ ، وموجود الآن فى المتحف البريطانى . ويحمل الحجر ثلاث كتابات ، الأولى الهيروغليفية Hieroglyphic وهى الكتابة القديمة المصورة التى كانت تستخدم فى كتابة ـ تقريبا ـ كل وثائق الدولة واحتفالاتها التى يرون عرضها على الشعب ؛ ثم ثانيا الديموطيقية Demotic وهى الشكل التقليدى المختصر المعدل (وهو النوع الشائع للهيروغليفية الذى كان مستخدما فى فترة البطالمة) ؛ وثالثا الإغريقية Greek . وأما النص الهيروغليفى فهو يتفق مع الثمانية والعشرين سطراً الأخيرة فى النص الإغريقى ، وما دام أن الكتابة الإغريقية كانت بالطبع معروفة جيداً ، فإن الحجر المكتشف قد أمدنا ـ بهذه الطريقة ـ بمفتاح فك طلاسم الهيروغليفية .

وكما يعرف صغار التلاميذ ، فإن سلالة البطالمة قد انتهت بموت كليوباترا ومن بعدها أصبحت مصر مقاطعة رومانية . وبعد كثير من التقلبات التى أصبحت مصر بعدها ضعيفة فقيرة ، لم تجد جيوش المسلمين التى جاءت لغزوها فى عام ٦٣٩ ـ ٦٤٠ م ، تحت قيادة عمرو بن العاص قائد جيوش المسلمين أيام

الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، أية صعوبة فى ذلك . وعند هذه المرحلة ، التى توافق بداية عصر جديد ، نترك مصر بعض الوقت لننتقل غربا إلى شمال إفريقيا .

البربر وأهل قرطاجنة Berbers and Carthaginians

إن الشعوب الأولى لشمال إفريقيا التى استطعنا الوقوف على تاريخها إنما هى عنصر من الحاميين ذوى البشرة الفاتحة اللون ، الذين يسمون بالبربر Berbers ، والذين أمدوا الأوروبين فيما بعد . بهذه التسمية « بربرى » Barbary لتطلق على سكان الساحل الشمالى لإفريقيا بأجمعه .

وقد بدأ الفينيقيون إستعمارهم للساحل فى حوالى القرن الثانى عشر ق . م . فأسسوا أولا مستعمرات لهم فى ليبتيس Leptis ، وأويا Oea ، وفى طرابلس Tripoli وسابراطه Sabratha فيما بعد ، ثم تحركوا بعد ذلك غربا ليؤسسوا أهم مدينة لهم فى شمال إفريقيا ، قرطاجنة Carthage قرب تونس الحديثة . وبحلول القرن السادس ق م . كانت قرطاجنة مركزا مزدهرا لسلطة القرطاجنيين ، تستمتع بالسلطة المطلقة ابتداء من سرت Syrtica فى الشرق حتى مضيق جبل طارق فى الغرب . وكان أهل قرطاجنة أساسا ملاحين وتجارا ، ومن المحتمل أن احتلالهم للساحل لم يكن بشكل كثيف أو مستمر . ومن ناحية أخرى ، فقد كانوا يقومون برحلات بحرية طويلة جدا . فسفنهم كانت تصل بهم شمالا حتى بريطانيا من أجل القصدير الذى يحصلون عليه فى مناجم كورنوول ، وكذلك يقال إن أميرالا فى قرطاجنة ، وإسمه هانو Hanno ، قد أبحر حول الساحل الغربى لإفريقيا حتى خليج غانه ، وربما أبعد من ذلك حتى نهرا الجابون . وهكذا أصبحت قرطاجنة ، وقد استمدت ثروتها وسلطتها من التجارة البحرية ، سيدة البحر الأبيض المتوسط .

وتشغل معظم تاريخ قرطاجنة قصة حروبها مع الإغريق فى صقلية وكذلك مع الرومان . أما حروبها فى صقلية فقد استمرت بشكل متقطع مع اختلاف فى النتائج بين النجاح والفشل ، لحوالى مائتى سنة إبتداء من القرن الخامس ق . م . وأما حروبها مع روما ، وهى ما كانت تعرف باسم الحروب البونية Punic Wars ، فقد بدأت فى حوالى عام ٢٦٤ ق . م . ، واستمرت لمدة ١١٨ عاما . وكانت هذه هى الحروب التى جاءت بواحد من أبرز الشخصيات التاريخية فى العالم ، هانيبال القائد القرطاجنى (٢٤٧ - ١٨٣ ق . م) ذى الشخصية الفريدة والحنكة فى التنظيم ، فكان دون شك أخطر عدو شهدته روما أيام عظمتها .

وانتهت الحروب البونية بين قرطاجنة وروما عام ١٤٦ ق . م ، بسقوط قرطاجنة أمام روما والقضاء على المدينة قضاء تاما . وبذلك إنتقلت إلى روما السيادة على البحر الأبيض المتوسط .

أما التاريخ المبكر لليبيا الشرقية أو برقة Cyrenaica ، فيختلف عنه فى الأجزاء الأخرى من شمال إفريقيا . وكما فى باقى المنطقة ، فإن السكان الأوائل كانوا من البربر Berbers . ويبدو أنهم قد وقعوا فى حروب مع مصر ، وكانت أكثر أو أقل إتصالا ، وكثيراً ما كان جنود قدماء المصريين حين يحيون ذكرى إنتصارات الفراعنة يمثلون الليبيين وهم فى أتعس المواقف — وهم يقرعون على رؤسهم بالهراوات ، وهم تدوسهم عجلات المصريين ، أو يساقون إلى الأسر . ولم يثبت وجود آثار دالة على قيام استعمار قرطاجنى . فمدينة قيرين Cyrene قد أسسها الإغريق ، الذين أقاموا فى ذلك الوقت أربع مدن أخرى : بيرنيس Berenice (بنى غازى) ، برقة Barca (المرج) ، أبولونيا Apollonia ثم توكيرا Teucheira (طوكره) أو أرسينو Arsinoe . وفى أوائل القرن الثالث ق.م. أصبح القطر يعرف باسم بنتابوليس Pentapolis (أى المدن الخمسة) ، وكان يتكون من إتحاد من هذه المدن الخمس .

وكانت برقة Cyrenaica تشكل جزءا من إمبراطورية الإسكندر الأكبر ، ثم آلت بعد موته فى عام ٣٢٣ ق . م . إلى خلفائه فى مصر ، البطالمة . ثم جاء آخر حاكم فى البطالمة ، Apion ، ليترك القطر بعد موته ، فى عام ٩٦ ق . م ، لروما فأصبحت بذلك إقليما فى الإمبراطورية الرومانية .

الرومان فى شمال افريقيا .

حاول الرومان فى أول الأمر أن يقصروا إحتلالهم للأقاليم المغزوة الجديدة على مساحة صغيرة نسبيا حول قرطاجنة سموها مقاطعة إفريقيا . ولكن سرعان ما تبين لهم أنه من الاستحالة بمكان حصر مسئولية الحكم فى أيديهم ، وأن الالتزام بشىء لابد وأن يؤدى إلى إلتزام آخر وأنهم لايكادون يؤسسون إقليما حتى يصبح من الضرورى تأسيس إقليم آخر أوسع منه لحماية الأول . وبعد صراع طويل مع القبائل الثائرة ، ومع النوميديين Numidians ، والجرامانت Garamantes وآخرين غيرهم امتد حكمهم ليشمل الساحل بأكمله من برقة الى الأطلنطى ، وجنوباً حتى فزان .

واستمرت سيطرة الرومان على شمال افريقيا لما يقرب من ٦٠٠ سنة وكانت فترة ازدهار مادى كبير ، كما تشهد بذلك كثير من البقايا العظيمة للمدن والأبنية . فالزراعة ، وغرس الغابات ، قد لقيتا كل تشجيع وتطورت الأشغال العامة ونمت ، وازدهرت المستعمرات التجارية وآلت الى مدن جميلة ، كل ذلك تحت حماية نقط الحراسة الموجودة فى أعماق الصحراء فى أمكنة مثل بونجم Bu Ngem ، وغدامس Ghadames ، بل حتى جرمه Garama ، عاصمة الجرامانتيين ، المحاربين الأقوياء . وجدير بالذكر كذلك أن شمال افريقيا قد أعطى روما امبراطوراً عظيما ،

هو سبتيموس سيفيروس Septimus Severus (١٤٦م - ٢١١م.) الذى ولد فى ليبتيس Leptis (لبده الحاليه).

ويرجع تاريخ اتصال شمال افريقيا بالمسيحية الى قديم الزمان. فى بين الطوائف اليهودية العديدة التى كانت تسكن طوال الساحل نشأ سيمون Simon، أحد مواطنى قيرين Cyrene، الذى جاء من الريف ليحمل الصليب خلفا المسيح، وقد جاء فى رواية عيد العنصرة عند اليهود فيما يختص بالحواريين، أنه كان هناك من بين أولئك الذين وهبوا نعمة اللغات رجال من أجزاء فى ليبيا حول Cyrene. فترتوليان Tertullian مؤسس الأدب اللاتينى المسيحى، والقديس سيبريان Cyprian الأسقف والشهيد، كانا أصلا من قرطاجنة، فى المقاطعة الرومانيـة، بينما أن سانت أوجستين St. Angustine of Hippo من أعظم قساوسة الكنيسة اللاتينية، كان من مواليد تاجاستى Tegaste فى نوميديا.

الأفول والسقوط:

ومع تدهور سلطة الرومان صادف شمال أفريقيا أوقاتاً صعبة. وبدأت المتاعب فى القرن الرابع بثورة الدوناتست Donatists؛ وهم قسم انفصالى يمثل - بشكل ما - الجماهير التى انشقت على الكنيسة والحكومة. وفى عام ٤٢٨ م. تدفق الوندال Vandals من أسبانيا على شمال إفريقيا، يتزعمهم جنسيريك Genseric واحتلوا قرطاجنة وهكذا اشترك الدوناتست Donatists معهم فى قضية واحدة. وجاء جنسيريك ليحتفظ بالجهاز الإدارى القديم، وهكذا استطاع أن يقيم القانون ويحفظ النظام، ولكن ما لبث أن سار القطر إلى شىء من الفوضى حين مات فى عام ٤٧٧. وجاء جيش بيزنطى بقيادة بيلزاريوس Belisarius ليحرر القطر من الوندال

ولكن هذا النصر لم يكن ليأتى بالسلم والهدوء. فرأس جسر الحضارة فى إفريقيا الرومانيـة كان دائماً أضيق ما يكون. ففى الداخل كانت القبائل المتنقلة دائماً على استعداد لحمل السلاح فى وجه الجماعات المستقرة على الساحل. وطالما أن مناطق القتال كانت تمتد إلى الداخل جنوباً حتى فزان Fezzan، فإن السكان فى المدن الساحلية كانوا ينعمون بالأمن والهدوء. ولكن تلك الأزمنة قد ذهبت ولن تعود. فالمتبربرون barbarians فى الداخل أخذوا يرقبون البيزنطيين والفاندال فى حربهما ضد بعضهما ثم هم لا يلبثون أن يثوروا ضد المنتصر.

وأخمدت الثورة بصعوبة، وعمل البيزنطيون جهد إستطاعتهم لإعادة تنظيم الحياة فى الإقليم. فأما الإدارة فقد أعيد تنظيمها على نحو أمثل، وأما المسيحية، فبعد طول خضوعها للفاندال وخلفائهم الدوناتست Donatists. فقد بعثت من جديد وامتدت إلى القبائل فى الداخل. ولكن روح الحماس لها كانت قد نضبت، وقل إيمان الحكام بواجبهم، وأصبح النـاس لا يعنيهم من أمرها شيئاً؛ وعلى ذلك، فحين قام العرب بغزو شمال إفريقيا فى عام ٦٤٢، لم نجد غير قبائل البربر فقط، لحبها الكبير للحرية، تبدى الشديد من المقاومة.

غزوات العرب:

وحتى القرن السابع، كان العرب يعيشون داخل حدود الجزيرة العربية بعضهم كسكان للمدن، وبعضهم كرحل فى الصحراء. وفى حوالى عام ٥٧١، ولد النبى محمد ﷺ، الذى بإعلانه أنه نبى الله الواحد الأحد، قام بنشر الدعوة إلى الإسلام، الإسلام لله، واحد من أعظم الديانات فى العالم. وبعد موت الرسول فى ٦٣٢م.، راح العرب، وقد ألهبهم الإيمان بالعقيدة

الجديدة ، يتدفقون خارج حدود بلادهم إلى إفريقيا . فقاموا بغزو مصر فى عام ٦٢٩م ، وأخضعوها لسيطرتهم فى عام ٦٤١م . ولم يصادفوا غير القليل من المقاومة . وكانت الديانة المسيحية المصرية تمزقها الخلافات ، ولم تكن سيطرتها على النفوس من القوة لتبعث فيهم روح المقاومة . وبالمثل ، لحين واصل العرب تقدمهم غربا فى عام ٦٤٢م . تم لهم بسهولة إكتساح برقة وطرابلس ونزل المسيحيون إلى القتال هنا وهناك (فمدينة طرابلس قد صمدت فى حصارها لمدة ستة أشهر قبل أن تستسلم) ولكن البربر هم الذين أبدو من المقاومة أشدها وأصلبها ، بل وبالفعل أمكنهم فى إحدى المراحل أن يطردوا الغزاة ثانية إلى مصر ولكن هذا النجاح لم يكن إلا مؤقتا ، فما أن جاء القرن الثامن حتى رأينا العرب يتدفقون عبر اقطار من الشرق إلى الغرب ؛ وفى ٧١١م ، قاموا بغزو أسبانيا والبرتغال مدعمين بقوات من البربر ، وهناك أقاموا حضارة عريقة كان لها أثرها الكبير فى كل نواحى الحياة فى شبه جزيرة أيبيريا . ولقد أتم غزو العرب لشمال إفريقيا ، فى القرن الحادى عشر ، قبيلتان من مغاوير العرب الرحل من الجزيرة العربية ، بنو هلال وبنو سليم . أما بنو سليم فقد بقوا فى برقة ، وأما بنو هلال فقد واصلوا السير غربا يعملون السلب والنهب والتخريب فى كل شىء اينما ذهبوا ، وكم كانت شدة الدمار الذى ألحقوه بالبلاد حتى أنها لم تفق منه بعد ذلك تماما(١) .

ولو أن البربر قد نجحوا إلى حد كبير جدا فى المحافظة على نقاء عنصرهم بل ولغتهم فى بعض الأنحاء ، إلا أن معظمهم قد آل فى آخر الأمر إلى ديانة

(١) « لعل أخطر نتائج هذا الدمار أن وجدنا مناطق شاسعة وقد خرجت نهائيا من عداد المناطق المزروعة ، وهكذا جاءت الصحراء تزحف عليها . لقد قضى العرب سواء بطريق مباشر أم بواسطة ماشيتهم على معظم الغابات » بوبل .

العرب ، وتزيوا بزيهم ، وتحدثوا بلغتهم ، وتخلقوا بعاداتهم وطباعهم وكان بالفعل أن اختفت المسيحية رغم بقائها أبعد من ذلك شرقا ، فى مصر ، وفى إثيوبيا التى بقيت بمنأى عن الغزو . وكانت نتيجة هذه الغزوات أن انطبع شمال إفريقيا تماما بالطابع العربى فتحول إلى المغرب العربى او الجزء الغربى للعالم العربى .

مراكش : Morocco

وسمى العرب مراكش Morocco بالمغرب الأقصى ، الذى يعنى أقصى الغرب . وهو قطر معروف بجباله الكبيرة وسهوله الضيقة وامطاره الغزيرة ويختلف اختلافا كبيرا عن الأقطار التى كانوا قد مروا بها فى سيرهم الطويل حين أتوا من الجزيرة العربية . وهنا أسسوا الأسرة الإدريسية المالكة ، التى تنتمى إلى اسرة الرسول ﷺ وتعاصر هارون الرشيد خليفة بغداد . وهنا كذلك اقاموا مدينة فاس Fez ، المركز الفكرى المغرب . وفى القرن الحادى عشر ، وقع المغرب فريسة لغزو المرابطين ، اولئك البربر والمسلمون الأنقياء الذين بنوا مراكش وامتد حكمهم حتى الجزائر واقتحموا أسبانيا الإسلامية . ومن بعد المرابطين جاء الموحدون الذين وسعوا ممتلكاتهم لأبعد من ذلك ، فامتدت على أيديهم من التاجه Tagus إلى طرابلس . وامبراطورية بلغت من الإتساع هذا الشأن لا يمكن أن تبقى طويلا : ففى القرن الثالث عشر انقسم المغرب إلى ثلاثة أجزاء . فحاكم المقاطعة القديمة بإفريقيا أعلن استقلاله ، وبذلك اسس الأسرة الحفصية ، اما اسرة عبد الواحد المالكة ، فقد اخذت المغرب الأوسط حول الجزائر ، ثم جاء المجسمون بعد الموحدين فى المغرب . واما الأسرة الحاكمة فى وقتنا الحاضر فى المغرب ، اسرة الفلالى Filali ، التى جاءت اصلا عن اسرة

تافيلاليت Tafilalet فى الجانب الصحراوى فى جبال اطلس ، فقد جاءت إلى الحكم فى القرن السابع عشر .

عود إلى غزو أسبانيا :

واستمر احتلال العرب لأسبانيا لحوالى ٥٠٠ سنة . أما المسيحية فى أسبانيا ، بحيث لم ترق للغزاة وجدناها ترتد إلى الشمال ، إلى حيث كانت تسيطر على الأذهان فكرة عودة الغزو الشامل . ويتخلل الاحتلال وجود فترات كان ينشب فيها القتال ، ولكنها كانت عموماً تتميز بطابع التسامح وروح التعايش فى كلا الجانبين . إلا أن هذا التسامح ما لبث أن صار إلى تعصب شديد . فمن ناحية المسلمين ، كان هذا يعزى إلى مجىء المرابطين الذين لم يكن لديهم أى حب نحو المسيحيين ؛ ومن ناحية المسيحيين ، يعزى هذا إلى وصول كثير من الرهبان والمحاربين من فرنسا ، الذين ربطوا بين فكرة عودة الغزو وروح الحرب الصليبيـــة . وفى القرن الثالث عشر هاجم المسيحيون بكل عنف أسبانيا المراكشية ، وعندما انتصف القرن كانت مملكة غرناطة Granada هى الولاية الأسبانية الوحيدة تحت الحكم الإسلامى. وبقيت كذلك لحوالى ٢٥٠ سنة قبل أن تؤول إلى الأسبان فى عام ١٤٩٢ بعد قتال مرير . وفى أثناء ذلك الوقت كان هناك ضغط متواصل على المسلمين الباقين فى أسبانيا المسيحية ، فإما أن يتركوا العقيدة ، أو يذهبوا إلى غرناطة أو يتركوا أسبانيا كلية . وكان أن اختار الكثيرون منهم الحل الأخير ، وفى عام ١٦١٠ طرد من أسبانيا العرب المغاربة المتبقون ، وهم المسلمون الذين تحولوا إلى المسيحية .

التجارة عبر الصحراء الكبرى - امبراطوريات غرب أفريقيا :

قبل بزوغ فجر الإسلام بوقت طويل ، كان سكان السهل الساحلى لشمال إفريقيا يرسلون بتجارتهم نحو الجنوب ، عبر الصحراء الكبرى ، إلى زنوج غرب إفريقيا ، فيتبادلون الملح الآتى من مناجم تاغازا Taghaza ، وتاودنى Taodeni ، وتاوتيك Taotek ، بالذهب والرقيق . وكانت تنقل هـذه التجارة قوافل الجمال التى تسلك طرق التجارة المعروفة ، التى تجرى من مدن شمال إفريقيا عبر الواحات ومناجم الملح إلى المدن الموجودة على الحافة الجنوبية للصحراء . وكانت هناك ثلاثة طرق رئيسية : طريق غربى من المغرب إلى منحنى نهر النيجر والإقليم الموجود فى غربيه ، وطريق أوسط يجرى من تونس إلى المنطقة الواقعة بين النيجر وبحيرة تشاد ، ثم طريق شرقى يصل من طرابلس ومصر إلى بحيرة تشاد . وظلت التجارة التى تحملها هذه الطرق الثلاثة عبر القرون مزدهرة إلى أن أدى مجىء التجار الأوربيين إلى الساحل الغربى وقيام حالة من الفوضى فى السودان الغربى إلى تغيير مجرى التجارة جنوباً نحو البحر ، وهكذا اضمحلت التجارة مع الشمال .

ومنذ حوالى بداية العصر المسيحى ، بدأ سكان شمال أفريقيا الهجرة عبر الصحراء الكبرى ليستوطنوا فى جموع كبيرة شمال نهرى النيجر والسنغال، وبسطوا سيطرتهم على الزنوج الموجودين هناك ، ويمتزجوا معهم بالتدريج. ولقد زاد من هذه الهجرات غزوات العرب لشمال أفريقيا ابتداء من القرن الثامن فصاعداً ، ولكن ما لبث أن جاء الوقت الذى فيه نزح العرب أنفسهم إلى جنوب الصحراء الكبرى ، وتحول هذا الشعب الخليط فى هذه المنطقة ، الناتج عن امتزاج البربر بالزنوج ، إلى الإسلام .

وكانت نتيجة هذه الغزوات الآتية من شمال أفريقيا قيام عدد متتابع

من الإمبراطوريات الإقليمية الكبيرة فى ذلك الجزء الواقع شمال إقليم الغابات بغرب إفريقيا . ولقد أسس هذه الإمبراطوريات إما الغزاة ذوو البشرة البيضاء أنفسهم ، وإما شعوب زنجية أو شبه زنجية كانت قد تعلمت فنون الحرب عن طريق اتصالها بشعوب شمال أفريقيا وكان سر النجاح وجود تنظيم اجتماعى ذى طابع حرفى ، بالإضافة إلى حوزتهم للخيول والجمال . ولم تكن قبائل الزنوج لتستطيع الوقوف أمام شعب له مثل هذه الإمكانيات ، وسرعان ما قام الغزاه بتوسيع إمبراطورياتهم لأبعد من هذا حتى لم يعد ليوقف تقدمهم شىء سوى الغابات التى لم يفلح الفرسان فى اجتيازها . ولعل أقدم هذه الإمبراطوريات التى وقفنا على الكثير من المعلومات عنها هى غانا ، التى يظن بأنها قامت ، ربما على أيدى اليهود البرقيين فى حوالى عام ٢٠٠ م . ثم كان أن ذابت غانا فى إمبراطورية كانياجا Sosso Empire of Kaniaga فى أوائل القرن الثالث عشر ، ثم ذابت كانياجا بدورها فى إمبراطورية مالى العظيمة التى التهمتها ، والتى كانت تصل إلى أعماق الصحراء الكبرى وتمتد من فوتا جالون فى الجنوب الغربى حتى جاو Gao على النيجر الأوسط . وكانت أعظم أيام مالى تلك الفترة التى تخللت الجزء الأول من القرن الرابع عشر ، التى أعقبها إضمحلال مضطرد ؛ وبينا عظمة مالى آخذة فى الأفول ، إذا بمملكة سنغاى Songhai kingdom of gao تأخذ بالتدريج فى النمو والازدياد . وعلى كل ، ففى حوالى نهاية القرن السادس عشر ، لم يكن أهل المغرب قانعين بالتجارة عبر الصحراء ، فأرسلوا جيشاً لغزو جاو Gao أملا فى الحصول على مصادر الذهب فى غرب أفريقيا . ولم تكن إمبراطورية سنغاى Songhai — وقد أنهكتها الحروب ومزقتها الخلافات بين أفراد الأسرة المالكة — لتستطيع الصمود أمام الغزاة ، وسرعان ما انهارت . ولكن المغاربة كانوا قد أخطأوا تقدير الطبيعة الحقيقية لثروة جاو Gao .

فهذه كانت تقوم ، لا على امتلاك مناجم الذهب ؛ التى كانت بعيدة كل البعد فى الجنوب ، ولكن على التجارة مع الشعب الذى تقع هذه المناجم فى بلاده. ولم يكن المغاربة فى موقف يساعدهم على غزو المناطق المغلة للذهب، أو حتى تأمين أحوال السلم اللازمة لمواصلة التجارة ومن ثم فقد كان انتصارهم أجوف ، إلا أن الجيش استطاع أن يقوم على أمر نفسه وتدبير شئونه فى السودان الغربى لما يقرب من المائة سنة ، بالحصول على الجزية من الزعماء المحليين ، وانتخاب رؤسائه من الباشوات ، والمحافظة على أعداده بتجنيد الزنوج فى الخدمة . إلا أنه بمضى الوقت ضعفت سلطة الباشوات، وانهارت قوة الجيش ، وفى حوالى نهاية القرن السابع عشر انتقلت السلطة السياسية فى السودان الغربى إلى الحكام الوطنيين الأقوياء .

وبين الفولتا السوداء Black Volta والانحناءة الكبيرة لنهر النيجر ، أسست جماعة صغيرة نسبياً من الغزاة ، من المنطقة المجاورة لبحيرة تشاد — وقد يكونون من اللاجئين بعد غزوات البربر — عدداً من الولايات تسمى بولايات موسى — داجومبا Mossi-Dagomba States . وكانت هذه أكثر ثباتاً واستقراراً من معظم الامبراطوريات العظيمة شبه الصحراوية ، وحين جاء الأوربيون فى نهاية القرن التاسع عشر، كان لا يزال يحكم هذه الولايات أحفاد أولئك الذين أسسوها منذ حوالى ٥٠٠ سنة من قبل . وأبعد من ذلك شرقا ، قامت ولايات أخرى أسسها زنوج كانوا تحت حكم الحاميين ، وكانوا يتكلمون لغة تسمى الهوزا Hausa ؛ وقد وقعت ولايات الهوزا هذه فريسة لغزو الفولانى Fulani فى الفترة ما بين ١٨٠٤ و ١٨١٠ فى حرب دينية ، وهكذا تحولت إلى إمارات فولانية Fulani Emirates وهى التى اصطدم بها الأوربيون حين دخلوا إلى نيجيريا الشمالية فى الجزء الأخير فى القرن .

الأوربيون فى غرب أفريقيا :

لم يكن الأمير هنرى البرتغالى (١٣٩٤ — ١٤٦٠) الذى حظى بلقب « ملاح » Navigator ليستأهل هذا اللقب ، فلم يحدث مرة واحدة فى حياته أن ذهب فى رحلاته إلى أبعد من طنجة إلا أن ما أداه من نشاط فى مجال الكشف الافريقى لا يمكن أن يكون مبالغاً فيه . فقد حشد عدداً كبيراً من الجغرافيين المهرة ، وأسس مرصدا ومدرسة للملاحة ، وأعد البعثات الكشفية وجهزها بكل ما تحتاج إليه وأرسل بها إلى جهات لم تكن معروفة من قبل . وقد قام البرتغاليون فى أثناء حياته وبعد مماته بسلسلة من السياحات الكشفية الهامة حول الساحل الافريقى جنوباً ، التى وصلت بهم ، فى أواخر القرن الخامس عشر ، إلى رأس الرجاء الصالح Cape of Good Hope ، ثم المحيط الهندى .

ولقد جاء حماس هنرى ليكشف عن دوافع عدة . فقد عرف كل شىء عن تجارة الذهب بين غرب إفريقيا وشمالها ، وأراد أن يصل إلى مصدره بتطويقه للصحراء الكبرى . وكان يرجو الوصول إلى طريق حول إفريقيا لاقامة علاقات وإتصالات مع ذلك الملك الأسطورى بريستر جون Prester John ملك إثيوبيا . ومثل هذه الاتصالات تستحق الذكر لسببين : أنها فى حد ذاتها كانت تميل إلى توحيد العمل المسيحى ، ثم أنها فى ذات الوقت كانت ترمى إلى تطويق المسلمين الذين كانوا يقطعون الطريق إلى الشرق . وأخيراً فمن المحتمل أن هنرى كان مدفوعا إلى ذلك بمحض رغبته فى السعى وراء المعرفة . ولم تكن الرحلات البحرية التى بدأها مجرد مخاطرات فردية ، ولكنها كانت تشكل جزءاً من خطة محدودة . إذ كانت كل النتائج تجمع وتقارن ببعضها ، كما كانت كل بعثة كشفية تعتبر — وقد زودت بالخبرات السالفة — جزءاً من نظام كشفى منظم ومدعم بالوسائل العلمية وكان

البرتغاليون كلما إندفعوا جنوباً على طول الساحل كلما إزدادت خططهم نمواً وتوسعاً ، حتى إستطاعوا ، بالدوران حول طريق رأس الرجاء الصالح والانطلاق إلى المحيط الهندى ، التحكم فى تجارة جزر الهند الشرقيه .

وفى نفس الوقت ، فعلى الساحل الغربى تضاعفت المستعمرات البرتغالية وكانت عادة صغيرة ، تتكون من مجرد محطات تجارية أو جزر بعيدة عن الشاطىء ، ولو أنه فى بعض الأمكنة كانت تقام هناك قلاع ضخمة متينة البنيان ، كما هى الحال فى الميناElmina على ساحل الذهب . ورغم صغر هذه المحطات ، فقد كان لها نفوذ تجارى كبير ، وكان للتجارة البرتغالية على الساحل ، وخصوصاً على ساحل الذهب ، أهمية كبيرة ؛ وعلاوة على ذلك فقد كانت تجارة لم يكن للبرتغاليين فيها فى أول الأمر أى منافس . إلا أن هـــذه الأهمية لم يكن مقدراً لها أن تدوم طويلا . فقد جاء ليتحداها أهل قشتاله Castilians فى زمن يعد مبكراً ، وفى أواخر القرن السادس عشر نزلت إلى الميدان شعوب أوربية أخرى عديدة جاءت لتحطم الاحتكار البرتغالى وتقيم محطات تجارية خاصة بها . فأولا ، جاء الهولنديون ثم الإنجليز والفرنسيون — هـذا إذا لم نذكر شعوب براندنبرج Brandenburgers ، والسويد والدنمرك — فقد قذف كل منها بنفسه إلى النزال بكل حماس . وبإستثناء المحاولات الفرنسية لتنمية تجارة نهر السنغال فإن التجار الأوروبيين لم يكونوا ليدخلوا الأراضى الداخلية بأنفسهم ، ولـكنهم كانوا قانعين بمجرد إقامة محطات تجارية على الساحل . وكانت المهمة الرئيسية لهـذه المحطات هى تجميع الرقيق — الذين كانوا يشكلون السلعة الأولى فى التجارة — بعد تسليمهم من التجار الوطنيين ، إلى أن يتم ترحيلهم بحراً عبر الأطلنطى .

وقد أدى وصول الأوروبيين إلى الساحل إلى إحداث تغيير عميق فى

حالة الأقاليم الداخلية . فقد كانت اتصالات غرب إفريقيا بالعالم الخارجي حتى ذلك الحين تتم عن طريق شمال إفريقيا . فالامبراطوريات التى أسسها وحكمها البربر وغيرهم كانت تتوقف عند حافة الغابة . ولو أن الشماليين كانوا حقاً يزورون شعوب الغابة ، إلا أن ذلك لم يكن لغير التجارة والاغارة من أجل الحصول على الرقيق ، وليس الاقامة . وكان أن تغيرت وجهة التجارة وصارت إلى الساحل ؛ ولما انخرط رجال القبائل فى الغابة بكل قواهم فى إغارات الرق فقد أمكنهم الحصول على الأسلحة النارية ، وأصبحوا أغنياء وأقوياء ، وأسسوا دولا مشابهة لتلك التى كانت لها إتصالاتها بالشمال . مثال ذلك أويو Oyo ، وأشانتى A Shanti ، وداهومى Dahomey ، وبنين Benin . وشأن الدول الشمالية ، فقد كانت هذه تتكون من جماعات صغيرة نسبياً من المهاجرين الأغراب ، وكان تنظيمها — من أوجه كثيرة — مشابها لتنظيم غانا ومالى وجاو Gao وكذلك كانت هناك أوجه شبه كبيرة مشتركة بينها ، إذ أنها كانت تتكون من شعوب ذات تقاليد ثقافية مشتركة . وكما أن قيامها وارتقاءها كان على أساس من تجارة الرقيق ، فكذلك كان أفولها وسقوطها بسبب هذه التجارة الملعونة . فقد أدى اشتراكهم المحموم فى تلك التجارة إلى وقوع حروب مدمرة بينهم ، وقيام حكام فاسدين ، وانقسامات داخلية ، واعدام للفلاحين بالعشرات ، كما حال ذلك دون نمو أى نظام اقتصادى سليم .

وفى عام ١٥٧٨ ، تورط ذلك الملك الشاب سباستيان Sebastian ملك البرتغال — وقد تسلطت عليه فكرة حرب صليبية — فى حرب مع المراكشيين دفع إليها بشعب غير راغب فيها . وكان أن اتى هزيمة شنعاء فى القصر الكبير Ksar-al-Kebir (Alcazar) إنمحى فيها جيش قوامه ٢٦٫٠٠٠ من البرتغاليين . وقد قتل فيها الملك نفسه ، وراح ضحيتها زهرة

شباب الفرسان البرتغاليين . وكانت النتيجة المباشرة أنه فى عام ١٥٨١ ، إنتقل التاج البرتغالى إلى أسبانيا وإنهارت الامبراطورية البرتغالية فيما وراء البحار . ولو أن البرتغال قد إستعادت استقلالها فى عام ١٦٤٠ ، إلا أنها كانت بالفعل قد فقدت مكانها ليشغله الهولنديون كقوة لها سيادتها على الساحل الغربى . وفى حوالى منتصف القرن السابع عشر ، وجدنا شعوبا أوربية أخرى — وعلى الأخص البريطانين والفرنسيين — تستهويها تجارة الساحل الغربى لإفريقيا . وإقتداء بالهولنديين ، فقد أسسوا شركات تجارية وطنية مرخص لها بحق إحتكار تجارة شعبها على الساحل ، وخسر الهولنديون مكانهم أمام البريطانيين والفرنسيين الذين قامت بينهم حروب مريرة من أجل السيادة العالمية ، وكانت نتيجة الحروب البريطانية الفرنسية فى القرن الثامن عشر . بالنسبة لغرب إفريقيا ، أن أصبحت بريطانيا هى القوة السائدة فى تجارة الساحل الغربى لإفريقيا .

ولابد أن نؤكد أن هذا التفوق لم يكن غير مصحوب بقيام ممتلكات إقليمية شاسعة . ولم تكن المنافسة بين الشعوب إلا من أجل التجارة ، لا من أجل السيادة . وفى عام ١٧٦٤ ، قام البريطانيون بمحاولة غير ناجحة لتكوين مستعمرة يرأسها ملك ، تلك هى مستعمرة سينيجامبيا Senegambia ، ولكن الاستعمار الأوربى كان يعتمد أساسا على إقامة الحصون والمصانع التى يراها لازمة من أجل تسيير التجارة وحمايتها فى أراضى معترف بأنها ملك للوطنيين . أما الشركات فتعتبر نفسها هى المستأجر قبل الزعماء المحليين الذين بدون نواياهم الطيبة وبدون مساعدتهم يستعصى تسيير التجارة .

العرب فى شرق أفريقيا :

فى زمان مبكر ظهر دليل للتجارة والملاحة يسمى « دليل البحر الإريترى » ، قام بتجميعه فى حوالى عام ٨٠م تاجر وبحار إغريقى يصف بالتفصيل الرحلة البحرية حين الاتجاه جنوباً فى البحر الأحمر حتى الساحل الإفريقى المحيط الهندى وقد نستطيع التعرف بسهولة على كثير من الملامح الجغرافية التى ذكرت فى الدليل . ولكن أهميته تتمثل فيما ذكره المؤلف عن أمور السياسة والتجارة فى ذلك الحين . فنحن نعرف مثلا أن السكان فيما يبدو كانوا من أصل شبه زنجى negroid ، أنه كان يحكمهم الزعماء . ولكن يظهر كذلك أن هؤلاء الزعماء كانوا تحت نوع من السيادة العربية المطلقة ، وأنه كانت هناك بالفعل تجارة منظمة تنظيما جيدا تحملها السفن العربية والهندية بين إفريقيا ، والجزيرة العربية والهند .

وبعد ظهور هـذا الدليل بمئات السنين بقيت المعلومات التى نشرت حول شرق إفريقيا ضئيلة ، ولـكنه كان هناك من الشواهد ما يكفى ليرى أن حركة التجارة فى داخل القارة كانت مزدهرة ونشطة . وفى الفترة ما بين القرن الخامس وبين القرن السادس عشر ، كان العرب سادة التجارة فى المحيط الهندى أما تجارة شرق إفريقيا ، فقد وصلت إلى ما بعد الملايو ، إلى الصين ، كما كانت هناك « مستعمرة » عربية فى كانتون Canton . وكذلك لم تكن التجارة بأية حال ذات اتجاه واحد . فالسفن الهندية كانت تقف فى ثغور شرق إفريقية ، ولو أنه لم يكن هناك من الأدلة ما يقطع بوجود اتصال مباشر مع الصين ، إلا أن الكتب الصينية كثيراً ما كانت تشير إلى أن عملة شرق إفريقيا وعملة الصين كثيرا ما كانت تتداول فى الساحل الشرقى لافريقيا .

ثم جاء الوقت ، ربما فى زمن مبكر جدا ، الذى انتقل فيه العرب من التجارة إلى الاستعمار . ونحن لانعرف متى أقام العرب أول مستعمرات

لهم ولا أين . ولكن مما لاشك فيه أن هذا قد تم بالتدريج . فى أوائل العصور الوسطى كان هناك بالفعل صف من المستعمرات العربية من مقديشيو Mogadishu إلى صوفالا Sofala ، وكل منها مدينـــة دولة a city state ، على خلاف عادة مع واحدة أو أكثر من زميلاتها . ولم يكن هناك فى وقت من الأوقات شىء يماثل إمبراطورية العرب فى شرق إفريقيا . وكان أقرب شىء إلى الوحدة هو تلك السيادة التى تباشرها لفترات مختلفة ، على عدد متفاوت من المدن الأخرى ، مدينة يتفق أن تكون هى فى ذلك الوقت أقواها وأكثرها شغبا واعتداء . أما القبائل الساحلية غير المحبة للحرب فقد دانت للمستعمرين دون صعوبة كبيرة . ثم كان التزاوج بينهم ، فكان الحاصل هو شعب السواحيلى Swahili ، ذلك الشعب السواحلى الخليط الذى ليس بالمستطاع تحديده . ولم يحاول العرب القيام بأى استكشاف منظم ، أو استعمار للأراضى الداخلية . وكان جل اهتمامهم بالقبائل الموجودة فى الداخل منصباً على التجارة ، وإذا حدث فى مجرى نشاطهم التجارى أن أقاموا مستعمرات دائمة فى الداخل ، فهذه أيضا لم تكن لتقام حبا فى الادارة ، أو رغبة فى إنشاء مزارع واسعة ، أو استغلال الموارد الطبيعية ، أو لأى شىء آخر سوى التجارة . ولسوء الحظ أن السلعة الرئيسية الأولى فى هـذه التجارة هى الرقيق ، الذين كان يصدر عدد كبير جداً منهم إلى شبه الجزيرة العربيـــة والهند ، ثم عدد قليل إلى الصين .

وعلى مر السنين أصبح العرب فى شرق إفريقيا على درجة كبيرة من الازدهار ؛ فقد أصبحوا يسكنون المدن الكبيرة ، ويلبسون الملابس الفاخرة ، ويحاطون بكل ألوان المتعة والترف . ولقد قال ابن بطوطة ، ذلك الرحالة العربى العظيم ، حين زار شرق إفريقيا فى القرن الرابع عشر ،

ما وجدوه عليه من ثراء وتمدين ، فوصف مدينة كلوة Kilwa بأنها واحدة من أجمل المدن وأكثرها بهاء وتنظيما ، ووصف مقديشيو ، التى استضافه أهلها المتدينون الكرماء بأنها مدينة كبيرة جداً . هذه الحضارة التقدمية ـ ولو أنها ذات طابع مادى ـ قد أتى عليها تقريباً أولئك الذين غزوا شرق إفريقيا بعد ذلك ، وهم البرتغاليون .

البرتغاليون على الساحل الشرقى :

إن الساحل الغربى لإفريقيا ، الذى أضفت عليه تجارته أهمية بالغة ، لم يكن ليمثل غير مرحلة واحدة فقط فى خطة التوسع البرتغالى . ففى عام ١٤٨٥ وصل دياجو كاو Diego Câo إلى كيب كروس Cape Cross ، على خط عرض ٥٠ ٢١ جنوباً . وفى عام ١٤٨٨ وصل بارثولوميو دياز إلى أقصى جنوب القارة ، ثم استدار ثانية نحو الشمال الشرقى فوجد أن خط الساحل يتجه شرقاً ، وأنه كان قد دار حول إفريقيا دون أن يدرى ذلك . ووصل حتى خليج ألجوا Algoa ، ومر بالكاب فى رحلة العودة . وما أن مرت عشرون سنة على هذا الكشف الهام حتى كانت قد تحققت للبرتغاليين السيادة على الساحل الشرقى لإفريقيا . فقد بدأت الحملة بعد إستكشاف قام به فاسكو دى جاما فى الفترة ما بين ١٤٩٧ ـ ١٤٩٩ . لقد جاء أولا دى جاما فى عام ١٥٠٢ ليجبر سلطان كلوه Kilwa على الاعتراف بسيادة ملك البرتغال؛ وفى عام ١٥٠٣ إستطاع راى لورنسو دافاسكو إخضاع زنجبار . وفى عام ١٥٠٥ ، خرج أسطول مكون من عشرين سفينة ، بقيادة ألميدا Almeida وإحتل صوفالا Sofala وكلوه Kilwa ودمر ممباسا ، وفى عام ١٥٠٦ خرج أسطول آخر مكون من أربع عشرة سفينة ، تحت قيادة كل من ترستار دى كونها Tristâo de Cunha وألبوكيرك Albuquerque ، واستطاع إقناع لامو Iamu بالخضوع ، كما دمر أوجا Oja وباراوا Barawa ؛

ولم يكن إبقاؤه على مقديشيو إلا لأن فصل الإبحار كان قد قارب نهايته ولم يعد هناك متسع من الوقت . وفى عام ١٥٠٧ تم إعداد موزمبيق لكى تكون مستعمرة دائمة ، لها كنيستها ، وقلعتها ، وحاميتها ، وأجهزتها الحكومية . وفى عام ١٥٠٩ ، حين عين حاكم عام ، تم للبرتغاليين إحتلال الساحل الشرقى . وبالإضافة إلى إحتلال مواطىء لأقدامهم فى مدخل البحر الأحمر ، وفى الخليج الفارسى ، فقد تحققت للبرتغاليين السيطرة على المحيط الهندى .

وكانت غزوات البرتغاليين هذه ذات آثار وخيمة على المستعمرات العربية . فقد إدعى البرتغاليون بأحقيتهم فى التجارة البحرية فى المحيط الهندى وفرضوا عليها إحتكاراً صارماً ، وانقطعت صلات العرب القديمة بالهند ، وحتى الملاحة قرب الساحل أصبحت غاية فى الصعوبة . أما على أرض القارة نفسها ، فقد بذل البرتغاليون قصارى جهدهم لتقويض العلاقات التجارية للعرب مع القبائل فى الداخل ، ولكن لم يكن لهم من أثر على الداخل أكثر من أسلافهم العرب . وعلى ذلك ، فبينما قد أدت غزوات البرتغاليين إلى القضاء على ثروات العرب وسلطانهم ، فإنه لم يكن لها من النتائج الإيجابية غير القليل .

ومع إحتلال الأسبان للبرتغال ، وإنهيار إمبراطوريتها فى النصف الأول من القرن السابع عشر ، فقد البرتغاليون سلطانهم على التجارة على الساحل الشرقى . ثم أتبع ذلك مباشرة إخراجهم من معظم شرق إفريقيا . وكانت الطوائف العربية تكره فى البرتغاليين سيادتهم ، فما لبث أن قامت هناك ثورات عديدة ، ولكنها قمعت بشدة . ولكن التحدى الخطير الذى كانت له نتائجه الفاصمة إنما جاء من أهل عمان ، على ساحل شبه الجزيرة العربية . وبعد عداوات كانت تتجدد بين الحين والآخر ، واستمرت لسنوات عدة ، طرد البرتغاليون نهائياً من الجزء الشمالى لشرق إفريقيا

بأجمعه . وبحلول عام ١٧٤٠ كان جل ما بأيديهم هو القطاع الجنوبى فقط — وهو الآن ساحل المستعمرة البرتغالية لشرق إفريقيا — بينما صارت المستعمرات العربية القديمة فى الشمال تحت سيطرة عمان .

الهولنديون فى افريقيا الجنوبية :

فى السادس من إبريل من عام ١٦٥٢ تلقى جان فان ريبيك Jan Van Riebeeck تعليمات من شركة الهند الشرقية الهولندية التى كان يعمل بها بإنشاء محطة فى رأس الرجاء الصالح لتموين السفن الذاهبة إلى جزر الهند والعائدة منها ، فألقى مراسيه فى خليج تيبل TableBay وكان عليه أن يبنى قلعة تتسع لثمانين رجلا ، وأن يزرع حديقة ، ويحصل على عدد من الماشية عن طريق التجارة مع الوطنيين . وكانت التعليمات الصادره إليه صريحة واضحة : أن المكان لن يكون أكثر من مجرد « مخزن المواد اللازمة للسفن » وليس أكثر من هذا .

وهناك وجد فان ريبيك جنسين من الوطنيين يحتلان الجهات المحيطة ، البوشمان Bushmen والهوتنتوت Hottentots . وكان الأخيرون فقط هم الذين يحوزون الماشية ، فكان عليه أن يباشر معهم تجارته ، ولم تكن حال التجارة مع القبائل الموجودة فى المنطقة المجاورة مباشرة مرضية ، وعلى ذلك ، فمن أجل الحصول على لحوم طازجة حتى يوفى بإلتزامه نحو تموين السفن بمواد الطعام ، لم يجد فان ريبيك مناصا من أن يرسل بجماعات كشفية إلى ما هو أبعد من ذلك نحو الداخل . وهكذا ، فما أن جاء عام ١٦٥٥ حتى كان التوسع الهولندى فى جنوب إفريقيا قد بدأ بالفعل . وفى عام ١٦٥٧ جاءت شركة الهند الشرقية الهولندية ـ فى سبيل تأمين تموين السفن بالأغذية اللازمة — لتسكن بعض الفلاحين بالقرب من المستعمرة ومع

أنهم كانوا أحرارا (بمعنى أنهم لم يكونوا يعملون فى خدمة الشركة) إلا أنهم كانوا خاضعين لرقابات عديدة كانت تحد كثيرا من استقلالهم . لقد كان يقصد بهؤلاء السكان الأحرار أن يكونوا مجرد متعهدين لتوريد الأغذية للشركة . ولم تكن الشركة حتى ثلاثين سنة فيما بعد — فحتى ذلك الوقت كانت تعارض الهجرة عموما — لتبذل أى مجهود حقيقى نحو تشجيع الهجرة والإقامة . وفى عام ١٦٧٩ ، كما فى الأعوام التالية ، أصبح المستوطنين الحق الكامل فى تملك المزارع ، وأسست قرية ستيلينبوش Stellenbosch ، وقامت حكومة محلية ، وأخذوا يستوردون الشباب من الفتيات لإمداد المستعمرين بالزوجات ، ثم جاءت جماعة من الهوجونوت الفرنسيين French Huguenots إلى هناك فذابت بالتدريج فى المجتمع الهولندى ؛ وما أن حل القرن الثامن عشر حتى كان هناك من الأوربيين مايقرب من ١٧٠٠ نسمة ، بين رجال ونساء وأطفال .

وجاء فان ريبيك ليقابل الحاجة إلى قوة عمالية باستيراد الرقيق ، وكان أن ازداد فى السنوات التالية زيادة هائلة عدد الرقيق لدى السكان الأحرار . وفى عام ١٧١٧ أتخذ قرار خاص من أجل تنمية المستعمرة بجلب المزيد من الرقيق ، لا باستيراد عدد من العمال البيض الأحرار . وكان لهذا القرار الخطير نتائج بعيدة المدى . وفى ذات الوقت جاءت الحاجة إلى الماشية لتشجع على تربيتها ، ولأن هذا كان عملا يتطلب الكثير من الأرض فقد أصبح لزاما على المستعمرين أن ينتشروا سعيا وراءها .

وكانت الأرض فى ذلك الوقت غير محدودة ، وكانت العقبة الوحيدة فى سبيل احتلالها سلمياً هو وجود البوشمان الذين كانوا سرعان ما يتخلص منهم إما بالقتل أو بالطرد . وما أن كانت نهاية القرن الثامن عشر حتى إستحالت « محطة الأغذية » فى الكاب إلى مستعمرة تغطى جزءا كبيرا من

مديرية الكاب الحديثة ، سكانها من الأوروبيين ، والملونين « Coloured » ، كما كان يسمى أولئك الذين ينحدرون عن أصل خليط — ومزيج من الأجناس الأخرى في مدينة الكاب ؛ ثم عدد من الفلاحين المستقرين الذين يزرعون الكروم والقمح مستخدمين الرقيق في المنطقة المجاورة للعاصمة ؛ وأبعد من ذلك يوجد الفلاحون الذين يقومون بتربية الماشية وهم البوير الرحل Trek Boers الذين يجوبون هنا وهناك بحثا عن المرعى والماء والصيد ، بصحبة أسرهم وماشيتهم ورعاتهم من الهوتنتوت .

وكان هؤلاء البوير الرحل شعباً غريب الأطوار . لقد كانوا من أتباع كالفن Calivinist ، شأن الهولنديين الآخرين في جنوب إفريقيا ، وكانت ديانتهم مستقاة عن التوراة أكثر منه عن الإنجيل . وجاءوا ليشبهوا طوافهم وهيامهم على وجوههم بما كان عليه بنو إسرائيل ، ومن ثم فقد جاءوا ليعتبروا أنفسهم أشبه شيء بشعب مختار ، وليعتبروا القبائل الإفريقية الذين كانوا في صراع معها ضمن طائفة Amale Kites وطائفة Amorites وكل الأجناس المشابهة الأخرى الذين أخرجهم الإسرائيليون في اعتداءاتهم العديدة من أرض الميعاد Promised Land . ولم يكونوا ليقبلوا أي نوع من المساواة مع الأجناس الملونة ، فقد كانوا يعتبرون أن السماء قد وضعتهم منهم إلى الأبد في منزلة الخدم . أما وقد عاشوا عيشة فقيرة صعبة في عزلة عن المدنية ، فيها إكتفاء ذاتي كما كانوا يتوهمون ، وسادة لبيئة شظفة وعرة ، فقد رفضوا أي نوع من الرقابة الحكومية . وكل ما كانوا يسألونه هو أن تأتيهم الذخيرة بسخاء ، وإلا فليتركوا وشأنهم. هذا هو الشعب الذي ما لبث أن تصدى لقبائل البانتو التي كانت تستحث السير جنوبا . وجدير بالملاحظة في هذا السياق ، أنه في أجزاء عديدة من جنوب إفريقيا ، لم يكن إحتلال البانتو بأقدم من الاحتلال الأوربي بكثير ، بل أحدث منه في بعض الأجزاء . وكان للاتصال بين البانتو

والبوير نتائج عدة هامة . أولاها أن عادة الطواف القديمة قد أوقفت . وكان البانتو الفلاحون كذلك ، والبوير الرحل ، الذين كانوا يعتقدون منذ أمد بعيد بأن كل الشعوب الحرة لها كل الحق في حيازة ما وسعها من مساحات ، قد وجدوا أنه لا مناص من الحرب إذا ما أرادوا المزيد من الأرض . وقد أدى هذا إلى حدوث إغارات ، وإغارات مضادة وحروب كانت لها من النتائج الوبيلة ما كان له أثره المباشر ، أو آثاره في المستقبل البعيد . وليس من قبيل المبالغة أن يقال بأن كثيرا من التعقيدات العنصرية التي يعاني منها جنوب إفريقيا في وقتنا الحاضر إنما ترجع إلى حالة الحدود منذ مائة وخمسين سنة مضت .

وفي عام ١٧٩٥ غزت جيوش الثورة الفرنسية هولندا ، واحتلت بريطانيا العظمى مدينة الكاب بالاتفاق مع ملك هولندا ، وانتهى هذا الاحتلال في عام ١٨٠٢ . وبعد ذلك بأربع سنوات ، جاءت بريطانيا — وقد كانت في حرب مع نابليون وكانت تخشى أن يصير مفتاح الطريق إلى الهند إلى أيدي أعدائها — لتحتل المستعمرة من جديد ، ولكن في هذه المرة لصالحها الخاص .

تجارة الرقيق : Slave Traae

ويبدو أن تجارة الرقيق كانت أحد الأمراض المتوطنة في إفريقيا . فمؤلف الدليل يذكر أن الأرقاء الذين كانوا من عينة أفضل ، كانوا يصدرون إلى مصر من رأس هافون ، على الساحل الشرقي لصوماليا ، وأن الرقيق كانوا يشكلون مادة هامة في التجارة المراكشية التي كانت تجري بين غرب وشمال إفريقيا عبر الصحراء الكبرى . وكانوا كذلك ، إلى حد كبير ، السبب في إزدهار المستعمرات العربية في شرق إفريقيا في العصور الوسطى.

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت التجارة الأوربية مع الساحل الغربى لافريقيا تعنى تجارة الرقيق ، لقد بدأها البرتغاليون ، ولكن مالبثت الشعوب الأوربية الأخرى أن إقتدت بهم ؛ وفى عام ١٦٥٢ إشترك البريطانيون فى هذه التجارة حين باع سير چون هوكنز ٣٠٠ زنجيا من غرب إفريقيا إلى الأسبان الموجودين فى جزر الهند الغربية . ومنذ ذلك التاريخ والبريطانيون يشتركون فيها بشكل متزايد تحت رعاية ما يشبه السلطات العليا . ولما جاء عام ١٧٧٠ كان البريطانيون هم الذين يتولون نقل حوالى نصف المجموع الكلى للرقيق عبر الأطلنطى .

وكان هؤلاء الزنوج التعساء يلقون أثناء عملية النقل من صنوف العذاب ما يشق وصفه . وكان أقصر الطرق إلى جزر الهند الغربية - وكان يسمى بالطريق الأوسط the Midle Passage - يقع كلية داخل نطاق الحزام الإستوائى ، وكان الرقيق يحشرون فى أسفل السفينة فى حيز ضيق خانق من الحرارة ويضغطون كمثل سمك السردين ، هذا بالإضافة إلى أن الطعام كان رديئا ، ولا مراعاة على الإطلاق للامور الصحية . وفى الطريق يموت منهم أعداد كبيرة ، ويصل الباقون فى حالة سيئة للغاية ، فلايوجد منهم من يصلح للعمل المنتج أكثر من ٥٠٪ من العدد الأصلى .

ولم تكن المعاناة لتقتصر على هؤلاء التعساء . فقد كانت إحدى الطرق للحصول على الرقيق حمل الزعماء الوطنيين على الإغارة على الأقطار الأخرى وإيقاع عدد منها فى الأسر . فبالإضافة إلى فظائع الحروب القبلية قامت كذلك هناك هذه التجارة الرهيبة . لقد كان الساحل بأجمعه أثناء فصل الرق مسرحا لعمليات من العنف والإرهاب والتدمير . ومن الغريب أن تمارس تجارة كهذه لحقبة طويلة دون أن تلقى أدنى إعتراض أو تهجين . وكان ذلك لأسباب عدة . أولها ، بالطبع ، أن المواطن الإنجليزى العادى لم يكن ليعلم

عنها إلا القليل جدا . وكانت إفريقيا وجزر الهند الغربية بعيدة كل البعد عن بريطانيا ، ولم يكن أولئك القائمون على أمر هذه التجارة ليهتموا بإعلام الشعب عن مفصل عملياتهم . وكان الشعب الطيب فى ذلك الوقت معذورا فى جهله بأمور المستعمرات أكثر منا فى جهلنا بها فى وقتنا الحاضر ، ثم إن هذه التجارة كانت مربحة للغاية ، كما كانت تشكل جزءا هاما من تجارتنا البحرية . ولم يكن ذلك للمرة الأولى أو الأخيرة أن أستميح الخروج على الآداب والأخلاق لقيام ضرورات اقتصادية أو سياسية . وأخيرا فإن المهتمين بهذه التجارة كانوا يشكلون هيئة قوية مهيمنة لم يكن من السهل تحديها أو الوقوف فى وجهها .

ومع ذلك فقد كانت هناك بعض الاحتجاجات ، وكانت فى معظمها موجهة أولا من طائفة الكويكرز Quakers والطوائف الدينية الأخرى . ففى عام ١٧٦١ ، ذهبت طائفة الكويكرز الأمريكية إلى حد التبرؤ من كل أفراد الجماعة الذين إستمروا على نشاطهم فى تلك التجارة . ولكن أول إنتصار حقيقى هام أحرزه المهتمون بإلغائها كان ذلك الحكم القضائى الذى قضى به فى عام ١٧٧٢ قاضى القضاة مانسفليد Mansfield فى قضية جيمس سومرست James Somerset . وكان الحكم يقضى بأنه ما من عبد رقيق يطأ أرض الجزر البريطانية إلا ويصبح حرا طلقيا . لقد أفاد منه كل الرقيق الذين إستطاعوا الوصول إلى إنجلترا ، ولكن لم يكن ليفيد منه أولئك الذين كان يجرى شحنهم وإرسالهم عبر الأطلنطى من إفريقيا . ويرجع الفضل فى إلغاء هذه التجارة فى المحميات البريطانية أساساً إلى تلك الجهود التى بذلها كل من توماس كلاركسون Thomas Clarkson (١٧٦٠-١٨٤٦)، ووليم ولبرفورس William Wilberforce (١٧٥٩ - ١٨٣٣) وعدد من المتصلين بهما وكانت مهمتهم طويلة شاقة ، فقد كان أمامهم من التحيزات

ما كان يلزم مواجهتها ، ومن الحلفاء الأقوياء من كان يتحتم إقناعهم ، ومن المصالح الحيوية ما كان يجب إخضاعها . وجاء النصر فى عام ١٨٠٧ حين صدر قانون « يلغى إلغاء تاما ، ويحرم ، ويعلن عدم شرعية » أى تعامل فى الرقيق بين الرعايا البريطانيين وفى السفن البريطانية . وفى عام ١٨١١ ، أصبح الاتجار فى الرقيق جناية كبرى عقوبتها النفى ؛ وفى عام ١٨٣٣ ألغى نظام نظام الرق نفسه فى كل المستعمرات البريطانية .

ولم يكن إلغاء التجارة البريطانية الرقيق والرق البريطانى ليحطم النظام كله فى كل مكان . فقد استمرت هذه التجارة لا فى إفريقيا وآسيا وحدهما ، ولكن كذلك فى أجزاء من العالم تحت حكم الأوربيين ، فى المستعمرات البرتغالية والأسبانية والفرنسية ، وفى الولايات الجنوبية من أمريكا وفى أمريكا الجنوبية . ومن الصحيح أن كل الشعوب التى كانت تشترك سابقا فى هذه التجارة قد أصدرت القوانين وعقدت المعاهدات لإلغائها . ولكن ما كان ليوجد كل هذا إلا على الورق فقط ، فقد استمر خرق هذه الاتفاقيات بشكل منظم . وحق للبريطانيين أن يفخروا بأن إلغاء هذه التجارة بشكل نهائى إنما يرجع الفضل فيه إلى تعرض البريطانيين فى عرض البحر لسفن الشعوب الأخرى (بطريقة لم يكن ليألفها العرف الدولى) . وكان أن سقطت آخر معاقل هذه التجارة حين ألغى الرق نفسه فى الولايات المتحدة فى عام ١٨٦٣ ، وفى كوبا فى الفترة ما بين ١٨٨٠ - ١٨٨٦ ، وفى البرازيل بين ١٨٨٣ - ١٨٨٨ . وأما إلغاء تجارة العرب فى الرقيق ، فهذا ما سوف نتناوله فى فصل لاحق .

غرب أفريقيا فى القرن التاسع عشر

وكانت إحدى نتائج الحملة الموجهة نحو إلغاء تجارة الرقيق تأسيس مستعمرة سيراليون البريطانية . وكانت هذه أصلا مستعمرة تتكفل برعايتها

أنصار مبدأ إلغاء هذه التجارة الذين احتضنوا الرقيق الذين تحرروا فى فى انجلترا بمقتضى الحكم القضائى الذى أصدره مانسفيلد ، والزنوج الأمريكيين الذين حاربوا فى جانب بريطانيا فى حرب الاستقلال الأمريكية . أما البعثة الأولى — وكانت تتكون من الزنوج والعاهرات من البيض — فقد فشلت لسوء تنظيمها ، وأما الثانية التى كانت تحت رعاية شركة من أنصار مبدأ إلغاء هذه التجارة فقد صادفت إدارة أفضل من سابقتها بكثير . وقد أسست مستعمرة فى الموقع الحالى لمدينة فريتون Freetown ، وظلت تعانى صعوبات فائقة حتى عام ١٨٠٨ حين تولت أمرها الحكومة البريطانية تحت إسم مستعمرة سيراليون التابعة للتاج البريطانى .

أما جمهورية ليبريا فيرجع أصلها إلى ما قام به الأمريكيون من عمل مشابه . فى عام ١٨٢١ ، حصلت « الجمعية الأمريكية لشئون الاستعمار » على مساحة من الأرض عند رأس ميزورادو Cape Mesurado ، نفس الموقع الذى أصبحت تشغله منروفيا ، وأسكنت هناك وفى أمكنة أخرى على الساحل أعداداً من الزنوج المحررين من الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية . وقد أسست الجمهورية فى عام ١٨٤٧ . ولو أن حكومة منروفيا كانت تدعى الحق فى حكم السكان الوطنيين على الساحل والموجودين قليلا إلى الداخل ، فإنها فى الواقع لم يكن لها لسنوات عديدة أية سيطرة على غير المناطق الساحلية .

وفى أوائل القرن التاسع عشر كانت هناك على الساحل الغربى ثلاث مستعمرات بريطانية . وهذه كانت مستعمرة سيراليون التابعة للتاج البريطانى والمؤسسة فى عام ١٨٠٨ ، والحصون الموجودة فى ساحل الذهب والجامبيا ، وكانت تديرها شركة تجارية كانت تتجر مع غرب إفريقيا . قامت هذه الشركة

فى عام ١٨٢١ ، وتولت القيام على شئون المؤسسات فى الجامبيا وساحل الذهب الحكومة البريطانية التى عهدت بإدارتها إلى حكومة سيراليون . وفى الفترة ما بين ١٨٢٨ - ١٨٤٣ وضعت هذه المؤسسات مرة أخرى تحت إدارة لجنة من التجار كان يمثلها الكابتن جورج ماكلين الذى استطاع إقرار النظام والأمن فى إقليم مضطرب . وفى عام ١٨٤٣ تولى التاج البريطانى مرة ثانية حكمه لهذه المستعمرات ، وأصبح ماكلين كبير القضاة ، وإليه آلت مسئولية إقرار العدل وإدارة شئون القضاء بين القبائل المحلية . وإن التشريع الذى وضعه ماكلين قد أيدته وحددته تلك المعاهدة الشهيرة التى وقعها مع الزعماء المحليين والمعروفة بوثيقة عام ١٨٤٤ ، والتى فيها أقر الزعماء بأن الغرض الأسمى للقانون إنما هو حماية الأفراد والملكيات ، وأن القرابين البشرية والعادات البربرية الأخرى إن هى إلا أشياء ضد القانون ، وأن جرائم القتل والسرقة إنما يقضى فيها قضاة بريطانيون بمشاركة الزعماء وعن طريق الملاءمة بين عادات الإقليم والمبادىء العامـــة للقانون البريطانى . وفى عام ١٨٥٠ ، اشترى البريطانيون الحصون الدنمركية ، وفى عام ١٨٧١ اشتروا كذلك ما تبقى منها لدى الهولنديين ، وبموجب هذا أصبحت المينا Elmina ملكا لهم ، ذلك الحصن الذى كان أصلا من تأسيس البرتغاليين .

ومنذ أوائل القرن والمستعمرات الأوربية والقبائل الساحلية حوالها تتعرض لتهديد مملكة أشانتى العظمى فى الداخل . وقد تكررت اعتداءات الأشانتى وهجماتهم خلال القرن ، إلى أن كان عام ١٨٧٣ حين غزا جيش الأشانتى المجال البريطانى فهزم ورد على أعقابه ، وطورد فى السنة التالية حتى كماسى Khumasi ، عاصمة الأشانتى بواسطة جيش بريطانى تحت قيادة سير جارنت ولزلى Sir Garnet Wolseley . وكان أن وافق الأشانتى على على التخلى عن مطالبهم الإقليمية الواسعة ، وترك الطريق المؤدى إلى كماسى

مفتوحاً للتجارة ، وإلى دفع تعويضات كبيرة ، ونبذ عادة القرابين البشرية .

وفى عام ١٨٦١ ، وعلى طول الساحل أبعد من ذلك غرباً ، احتل البريطانيون جزيرة لاجوس التى لم يكن باستطاعة زعيمها - رغم صلاته الودية - أن يحول دون استخدام بلده كقاعدة لتجارة الرقيق . وفى عام ١٨٨٥ ، وفى ذروة التزاحم على إفريقيا ، أعلن أن حزام الغابات الآهل بالسكان والواقع بين لاجوس والكاميرون قد أصبح محمية بريطانية من أجل الحيلولة بين الألمان وبين هـذه المنطقة . هذه المحمية المسماة بمحمية أنهار الزيت Oil Rivers proectorate والتى صارت فيما بعد محمية ساحل النيجر ، بالإضافة إلى مستعمرة لاجوس كانت هى القاعدة الضيقة التى منها تقدم البريطانيون فى وقتنا الحاضر نحو الداخل وأسسوا نيجيريا الحديثة .

ولم يكن قد مضى على انتهاء حروب نابليون وقت طويل حين استعاد النشاط الفرنسى فى غرب إفريقيا قوته . ففى عام ١٨١٧ ، استطاعت فرنسا أن تستعيد بعض نفوذها الضائع فى شمال سيراليون ، ثم وجه التجار الفرنسيون اهتمامهم بعد ذلك نحو الجنوب وأظهروا ابتداء من عام ١٨٣٨ فصاعداً نشاطاً ملحوظاً فى تلك الأجزاء من ساحل غينيا التى لم تكن فى ذلك الحين تحت النفوذ البريطانى . ومع ارتقاء نابليون الثالث للعرش فى عام ١٨٤٨ قررت الحكومة الفرنسية تنمية التجارة مع السنغال ، وكان لهذه السياسة مظهر إيجابى ابتداء من عام ١٨٥٤ حين امتد النفوذ الفرنسى إلى أعالى نهر السنغال فى السودان الغربى . وكان للحروب الفرنسية الألمانية (١٨٧٠ - ١٨٧١) أثرها فى إيقاف التوسع الاستعمارى لفرنسا . ولم يكن هذا التوقف ، كما سنرى ، غير وقتى فقط .

كشف أفريقيا :

وكان القرن التاسع عشر بالنسبة لإفريقيا هو قرن الاستكشافات .

وحين بدأ ، كان ساحل البحر المتوسط لايزال إلى حد كبير موطىء القراصنة وأعمال الجور والتعسف . وأبعد من ذلك شرقا ، كان نلسون Nelson قد دمر الأسطول الفرنسي في موقعة النيل في عام ١٧٩٨ ، وبذلك أفسد محاولة نابليون في غزو مصر . وفي عام ١٨٠١ ، استطاع الأتراك ، بمساعدة البريطانيين ، استعادة سيطرتهم على مصر ، ولكن قبضتهم عليها لم تكن قوية ، ولم تكن لتستمر طويلا . وعلى الساحل الغربي استمرت تجارة الرقيق ولو أنها كانت على مقربة من نهايتها، ولكن شعوبا أوربية عديدة قد احتفظت بمستعمراتها على الساحل من أجل التجارة في السلع الأخرى . وعلى الساحل الشرقي عاد العرب إلى احتلال الجزء الشمالي من إمبراطوريتهم القديمة . ومنـــذ طرد البرتغاليين والسلاطين العمانيون في مسقط يدعون حق السيادة على كل هـذه المستعمرات العربية ، ولكن ممتلكاتهم كانت لا تزال متميعة متقطعة الأوصال . ولو أن شعوب أوربا كانت قد تركت بالفعل ، أو كانت على وشك أن تترك تجارة الرقيق ، إلا أن هذه التجارة كانت قد أصبحت حرفة هامة للعرب ، واستحالت زنزبار إلى قاعدة كبيرة لشراء الرقيق من داخل القارة وإرسالهم إلى شبه الجزيرة العربية والهند . وفي « جنوب إفريقيا ، كان البريطانيون يحتلون كيب تون Cape Town ، كما كان هنـاك عدد من المستعمرات التي تمتد إلى الداخل ، ولكن حزام المدنيـــه الغربية كان لايزال ضيقاً . ولم يكن داخل القارة بالطبع غير معروف كلية .فإثيوبيا ، والنيل الأزرق ، والسنغال، والصحراء الليبية ، والكنجو ، وأنجولا ، وماشونالاند Mashonaland كانت كلها موضع الزيارة بين الحين والآخر ؛ فقد تمت زيارة بعض هـذه الأقاليم في

زمن مبكر ، في القرن الخامس عشر ، من جانب كثير من الرحالة الأوربيين، الذين كان كثير منهم من القساوسة الكاثوليك الرومان . وأبعد من ذلك جنوبا كذلك ، كان الرحالة الهولنديون والانجليز يعرفون حوض نهر الاورنج معرفة لا بأس بها ، بل ذهب البعض إلى ما هو أبعد منه . ولكن لم يكن هناك ما يمكن أن نسميه بالاستكشافات المنظمة ، إذ أن هذه لم تبدأ حتى عام ١٧٨٨ حين أسس البريطانيون في ذلك العام الاتحاد الإفريقي . وكرس الاتحاد نفسه لمواجهة مشكلة النيجر وتبنى إرسال عدة بعوث إلى ذلك النهر من الشمال ومن الغرب ، وكان أشهرها تلك البعوث البطولية - ولكن ذات الحظ العاثر - التي قادها مونجو بارك Mungo Park . وبعد تأسيس الاتحاد ، تولت الحكومة البريطانية إرسال البعوث ، وكان أثمرها بعثة لاندر Lander ، خادم أحد المستكشفين ـ هيو كلابرتون Hugh Clapperton الذي كان قد مات في رحلة سابقة في نيجيريا الشمالية . وفي عام ١٨٣٠ ، تتبع لاندر نهر النيجر حتى المحيط ، وهكذا جاء بحل المشكلة الرئيسية لهذا النهر ثم تبعت ذلك محاولات عدة لاستكشاف النيجر ورافده بنو Benue ، ولكنها لم تصادف من النجاح إلا القليل ، إلى أن كانت بعثة بيكي Dr. W. B. Baikie في عام ١٨٥٤ . وفي نفس الوقت وصل جوردن لينج Major Gordon Laing إلى تمبكتو قادما من طرابلس في أغسطس ١٨٢٦ ، ولكنه قتل بعد وصوله بقليل . وسرعان ما قام بعد ذلك فرنسي يدعى رينيه كاييه René Caillié بعمل جبار ، ألا وهو الوصول إلى تمبكتو من جهة الغرب في صحبة قافلة متنكرا كواحد من الوطنيين وواصل رحلته إلى طنجة حيث وصل سالما بعد مصاعب فائقة. وفي الفترة ما بين ١٨٥٠ - ١٨٥٥ أضاف الرحالة الألمـــاني هنريك بارث Heinrich Barth ، الذي سافر برفقة اثنين آخرين تحت رعاية الحكومة البريطانية ماتا أثناء الرحلة ، المزيد من المعلومات الغزيرة عن السودان الأوسط . أما المستكشفون

الآخرين ، ومعظمهم من الفرنسيين والانجليز ، فقد نفذوا إلى الداخل من عدد من النقط الموجودة على الساحل ما بين الجامبيا وكالابار Calabar. وبعد ذلك بعدة سنوات ، فى عام ١٨٥٥ ومرة أخرى فى عام ١٨٦٣ ، قام الأمريكى الفرنسى پول دى شايو Paul du Chaillu بعدة بعثات هامة إلى ماهو أبعد من ذلك جنوبا فى منطقة نهر أجوى .

ولقد شـــهد النصف الأول من القرن التاسع عشر تقدما كبيرا فى استكشاف النيل. فقد عاش المستكشف الأسكتلندى جيمس بروس فى إثيوبيا فى الفترة مابين ١٧٦٩ — ١٧٧٢ عيشة كلها الأهوال ورأى بعينيه منبع النيل الأزرق . وفى عام ١٨٢١ ، وصل الفرنسيان كايود Cailliaud وليترزيك Letorzek إلى ملتقى النيل الأبيض بالأزرق ، وتبعهما بعد ذلك فى عام ١٨٢٧ لينانت دى بلفون Linant de Bellefond ، مبعوث الاتحاد الافريقى . وفى الفترة ما بين عامى ١٨٣٧ - ١٨٣٩ زار كردفان الرحالة الألمانى روبل Rüppel وجال فى منطقة النيل الأزرق . وفى نفس الوقت كان هناك فى إثيوبيا نشاط كشفى قام به مستكشفون من جنسيات مختلفة ، وعلى الأخص إخوان أبادى الثلاثة الفرنسيين Abbadie Brothers وما توصلوا إليه من معلومات كان لها شأنها فى وضع أساس للخرائط الدقيقة . وفى منطقة النيل الأعلى ،أوفد محمد على ، فى عام ١٨٤١ ، بعثة شقت طريقها جنوبا إلى جندوكورو Gondokare التى صارت فيما بعد ، فى عام ١٨٥٠ ، المقر الدائم للإرساليين النمساويين .

وأما الجانب الشرقى من إفريقيا فقد بقى مقفلا فى وجه المستكشفين الأوروبيين لمدة أطول قليلا منه فى باقى القارة ، ربما لأن الحزام الساحلى كان بالفعل فى يد المستعمرين العرب . وفى عام ١٨٤٩ ، شهد كرابف Dr. J. Krapf مندوب الجمعية الارسالية الكنسية قمة جبل كينيا ، وفى

نفس السنة ، شهد زميله ريبمان Rebmann قمة جبل كلمنجارو وقد أدت مشاهدة ريبمان لكلمنجارو ، بالإضافة إلى ما كان يحكيه العرب عن وجود بحيرات عظيمة فى الداخل ، إلى إمكانية قيام عدد كبير من الإكتشافات . فالجمعية الجغرافية الملكية أرسلت أولا بيرتون وسبيك Burton and Speke (١٨٥٦ - ١٨٥٩) ثم سبيك وجرانت Speke and Grant (١٨٦٠ - ١٨٦٣) ، إلى الداخل من الساحل المواجه لزنزبار . وقد وصلت أولى هاتين البعثتين إلى تنجانيجا ، وقام فيها سبيك بزيارة سريعة إلى الطرف الجنوبى من بحيرة فيكتوريا . وأما الثانية فقد مرت غرب بحيرة فيكتوريا ، وجاست خلال أوغندا ، ثم قابلت عند جندوكورو ، فى طريق عودتها عن طريق وادى النيل ، صمويل بيكر الذى بإكتشافه لبحيرة ألبرت يكون قد أكمل الخطوط العريضة لجغرافية النيل. وفى نفس الوقت ، أبعد من ذلك جنوبا ، صادف إثنان من الرحالة الألمان نهاية غير سعيدة : فألبرخت روخر Albrecht Rosher قتل فى عام ١٨٦٠ بالقرب من بحيرة نياسا . وكان الثانى هو البارون كارل فون ديرديكين Baron Karl Von der Decken ، الذى قتل بأيدى الصوماليين على نهر جوبا فى عام ١٨٦٥ بعد رحلة غير موفقة إلى كلوة Kilwa وأخرى أكثر حظا إلى كلمنجارو .

وفى عام ١٨٤٩ اكتشف دافيد لفنجستون بحيرة نجامى Ngami ، وفى عام ١٨٥١ وصل إلى الزمبيزى ، ثم بدأ فى ١٨٥٣ رحلة عظيمة وصل فيها أولا إلى الساحل الغربى عند لواندا ثم عاد ثانية عبر إفريقيا . وفى حوالى نفس الوقت جاس خلال إفريقيا جنوب الزمبيزى من ناحية الجنـوب الغربى فرانسيس جالتون الانجليزى وآندرسون السويدى ، ثم فيما بعـد آندرسون وحـده . ثم كان هناك رحالة آخرون أتوا إلى هذه المناطق ، فـكان منهم التـاجر جيمس تشابمان James Chapman ، والفنان توماس بين Thomas Baines ، والجيولوجى الألمانى كارل موش

Cark Mauch الذى كان لاكتشافه للذهب فى منطقة تاتى Tati عام ١٨٦٦ أثره فى التزاحم على استخراجه . وقوبل بحماس شديد فى إنجلترا ما قام به لفنجستون من أعمال كشفية ، فكان أن نظمت الحكومة البريطانية بعثة تحت لوائه لفتح سبيل التجارة فى هـذا الإقليم من أجل إيقاف تجارة الرقيق التى كانت لا تزال على ازدهارها بتشجيع من العرب . واستمرت البعثة من ١٨٥٨ الى ١٨٦٤ ؛ ولو أنها لم تكن بأية حال ناجحة تماما الا أنها قد أضافت الكثير الى ما كان هناك من معلومات عن منطقة نياسا ، كما أنها بإبرازها المفاسد المتأتية عن تجارة الرقيق قد أسهمت بعض الشىء فى اختفائها كلية . وفى عام ١٨٦٦ ، عاد لفنجستون مرة أخرى الى افريقيا ، ويمم صوب الداخل من نقطة على الساحل الشرقى عند ميكينداني Mikindani . وفى السنوات التالية ، وليس معه من المال إلا القليل ، وليس هناك من يصحبه غير خدامه وعدد من الحمالين الافريقيين الذين أنهكهم الجوع والمرض ، ولا من سند غير ايمانه بعمله وبأن العناية الالهية ترعاه ، استطاع كشف الاقليم فيما بين الساحل وبحيرة تنجانيقا بكل عزم وشجاعة وكان قد أتى الى نهاية قوته وزاده وبلغ منه التعب مبلغه حين أدركه ستانلى فى العاشر من نوفمبر ١٨٧١ فى أوجيجى Ujijé . وكان ستانلى قد ترك الساحل عند باجاموبو Bagamoyo فى الحادى والعشرين من مارس ، وبدفعه رجاله فى غير هوادة وصل الى تابورا Tabora فى الحادى والعشرين من يونية بعد أن مات فى الطريق كلا رفيقيه الأوروبيين فراكر وشو Faruhar and Show . ووجد ستانلى الاقليم حول تابورا وقد مزقته الحرب بين الزعيم الوطنى ميرامبو Mirambo والعرب ، فإشترك فيها فى جانب العرب ، وإنتهز فرصة هدوء فى الحرب ليتسلل خارجا ويصل إلى أوجيجى . وكان وصوله إلى هناك ومعه الكثير من الامدادات بمثابة الغوث للفنجستون ، وأمضى هذان الرجلان

عدة أشهر سويا رغم إختلافهما فى الطبع إختلافا شديدا ، بل حتى إشتركا معاً فى إستكشاف الطرف الشمالى لبحيرة تنجانيقا . ولو كان لفنجستون قد عاد إلى الساحل مع ستانلى فى ١٤ مارس ١٨٧٢ لكان من الممكن أن يبق على قيد الحياة بعد ذلك . ولكن ما حدث هو أنه كان مصمما على استكمال كشفه لنظام النهر فى الجنوب والغرب من بحيرة تنجانيقا . لقد ترك ستانلى عند تابورا ويمم صوب الجنوب على طول الجانب الشرقى للبحيرة متخذاً كاتنجا هـدفه الأول . ولكن المجهود كان أقسى من أن يستطيع بنيانه الواهن احتماله ، فكان أن وجده خدامه فى صبيحة أول مايو ١٨٧٣ ميتا فى مأواه بالقرب من بحيرة بانجويلو فى وضع الصلاة .

وكانت بعثة حكومية قد نظمت لاغاثة لفنجستون ، وكانت بسبيل التجمع فى زنزبار حين وصل ستانلى إلى الساحل . فلما تراءى للبعثة أن لفنجستون قد أغيث بالفعل ، عادت هى إلى إنجلترا . ولكن ما لبثت أن قامت من زنزبار ، فى الثانى من فبراير ١٨٧٣ بعثة إغاثة ثانية ، تحت قيادة الملازم لوفيت كاميرون ، فلقيت فى الطريق تشوما ، أحد خدام لفنجستون فى تابورا ، وهو يحمل مع رفاقه جثة سيده إلى الساحل . ومع ذلك ، فقد صمم كاميرون على مواصلة السير إلى أوجيجى ، حيث استطاع رسم خريطة الجزء الأعظم من بحيرة تنجانيقا ، ثم عبر إلى ساحل الأطلنطى بالقرب من بنجويلا التى وصلها فى نوفمبر ١٨٧٥ . وهكذا جاءت رحلة ستانلى العظيمة ، فى الفترة مابين ١٨٧٤ - ١٨٧٧ ، لتؤكد فى النهاية أن نظام النهر العظيم الذى كان لفنجستون يشتبه فى أنه النيل إنما اتضح فى الحقيقة أنه الكنجو .

الهجرة الكبرى للبوير : The Great Trek of the Boers

إن الحكومة البريطانية ، التى كانت تحكم فى كيب تون إبتداء من عام ١٨٠٦ فصاعدا ، لم تكن محبوبة لدى البوير . ولم يكن البوير بذلك الشعب

الذى يعجبه أى لون من الحكم ؛ وهذه الحكومة قد أبانت ، بما لا يدع مجالا للخطأ ، أنها تنوى الحكم على أسس جديدة . وبالإضافة إلى ذلك أنها كانت حكومة تنوى الاستماع لذوى النزعة الإنسانية والمحبين لخير البشرية . وكان هؤلاء هم المهتمون بإلغاء تجارة الرقيق والدعوة إلى مبدأ الأخذ بحقوق الوطنيين التى كانت تعنى بالنسبة للبوير - الذين كانوا يؤمنون بوجود فارق مقدس بينهم وبين الوطنيين - أن لا أمن هناك ولا سلام . إلا أن سبباً آخر لانعدام الراحة والهدوء ، أنه حتى فى تلك المساحات الداخلية الشاسعة التى كان البوير فى ذلك الوقت يحتلونها ، لم يعد باستطاعتهم وضع أيديهم على مساحات واسعة من الأرض - كسابق عهدهم - بالقدر الذى يعتبرونه ضروريا من أجل رفاهيتهم . وكان أحد الأسباب المؤدية إلى هذا أن حروب الشاكا الزولو الطاغية The Zulu tyrant Shaka ، كحجر ألقى فى بحيرة ، قد أحدثت موجات من هجـرة البانتو إلى كل الجهات ، اضطرت فيها قبائل بأجمعها إلى الهرب بحثاً عن موطن جديد فى مكان آخر . وكذلك أدت تلك المنافسة القائمة بين البوير والبانتو فى الحدود الشرقية للكاب إلى ما كانت تعرف بحروب الكفير Kaffir Wars ، التى وجدت الحكومة البريطانية أن لا مناص لها من الاشتراك فيها بصفتها السلطة الحاكمة ، فكلفها ذلك الكثير من النفقات والاستياء منها . وفى حوالى عام ١٨٣٥ ، بلغت هذه المتاعب أقصاها ، وصمم البوير على الرحيل بعيداً عن متناول الحكم البريطانى . وما أن جاء عام ١٨٣٦ حتى كانت تلك الهجرة الكبرى The great Trek ، التى حملت الأوربى إلى أقصى حدود ، جنوب إفريقيا ، بل وأبعد منها ، فى أوج نشاطها . لقد حمل البوير كل ما يملكون على عربات تجرها الثيران ، وركبت النساء والأطفال العربات وامتطى الرجال الخيول ، ورحل الجميع إلى أرض الميعاد فى الشمال . وفى السنوات التى أعقبت ذلك انتشر المهاجرون فوق أراضى نهر فال فى مجـاليسبرج

و زوتسبانبرج Magaliesberg & Zautspansberg ، وفى بلاد الزولو حيث قتل بايت رتيف Piet Ratief أحد زعمائهم ، وقتل معه عدد كبير من اتباعه على يد الزعيم دينجان Dingaan ، تلك المذبحة التى أخذوا بثأرها فيما بعد فى معركة نهر الدم Blood River . وهكذا أصبح جنوب إفريقيا فى وقت قصير معروفاً شمالا حتى الانحناءة الشرقية لنهر لمبوبو .

ولم يجد البوير المكان خالياً كلية من السكان ؛ لقد كان هناك بالفعل فى معظم هذه المناطق عدد كبير من قبائل الوطنيين ، التى قضت حروب الزولو على تنظيمها إلى حد كبير . وكذلك كانت هناك قبائل المتابيل Matabele ، يقودهــا قائد من الشاكا the Shaka صعب المراس يدعى مزيليكازى Mzilikazi ، الذى كان لابد من قهره وكسر شكيمته قبل أن يبدأ المهاجرون فى استثمار تلك السهول الفسيحة الممتدة بين الفال واللمبوبو . وأخيراً كان هناك الإرساليون الذين أوفدتهم الجمعية الإرسالية بلندن ، فأسسوا إرسالياتهم فى كورومان Kuroman فى بتشوانالاند الجنوبية عام ١٨١٧ ، وقاموا بالفعل بتوسيع دائرة نفوذهم ، عن طريق دافيد لفنجستون ، شمالا إلى حيث وصل البوير فى زحفهم ، وأثبتوا بمضى الأيام أنهم كانوا أعند ند وجد .

* * *

ولما كان عام ١٨٧٠ كانت كل المشكلات الجغرافية العويصة لإفريقيا قد حلت . فمجارى الأنهار الهامة وكثير من روافدها قد تتبعها المستكشفون ، وكذلك عرفوا كل شىء عن البحيرات العظمى ؛ وأما المساحات الشاسعة من الأرض فقد عبرها المستكشفون جيئة وذهاباً ورسموا خرائط لها . ومن ثم فقد أصبح هناك الوافر من المعلومات عن السكان ، والمناخ ، والنبات ، والحيوان ، والملامح الطبيعية ؛ وأصبح هناك الكثير من

الكتابات التى تدور حول إفريقيا ، لا أقاصيص الصيادين أو روايات الرحالة ، بل تقارير واعية عن الناس وأماكن إقامتهم ، وكلها تقوم على الحقائق والمشاهدة . وفى حوالى نفس هذا الوقت كذلك ، انتهى نوع من الاستكشافات . لقد كان ذلك الذى يستحثه حب الاستطلاع العلمى والرغبة فى الكشف من أجل ذاته . ومع رحلة ستانلى إلى الكنجو عام ١٨٧٤ بدأت مرحلة الاستكشاف السياسى الذى صار إلى نوع من التهافت على إفريقيا وانتهى بتقسيم القارة بين القوى الأوربية المختلفة .

الفرنسيون فى شمال إفريقيا :

قبل أن يدخل التغلغل الأوربى مرحلة التنافس — وكان الزحف على القارة قد بدأ فى حوالى عام ١٨٨٠ — كان الأوربيون يفدون إلى شمال وجنوب إفريقيا بأعداد ضخمة . ولما كان عام ١٨٤٠ ، كما رأينا ، كان البوير يتوسطون إقليم الفال Vaal ويعملون على الإنتشار حوالى إقليم الفلد الأعلى . وفى العشر سنوات التى أعقبت ذلك ، أقام الفرنسيون فى شمال إفريقيا ودعموا أنفسهم هناك .

وكانت الجزائر لحقبة طويلة مركز القراصنة البربر ، الذين كانوا يسطون على السفن من كل الجنسيات . وعند حلول القرن التاسع عشر كانت السيادة التركية قد تلاشت . وأصبح الساحل مرصعاً بعدد من المقاطعات الصغيرة التى كانت دائماً موضع الفوضى وليس لها من دخل غير ما كان يأتيها عن طريق القرصنة . وقد حاولت البعوث المختلفة ، من إنجليزية وهولندية وفرنسية وأسبانية وأمريكية ، فى مرات عديدة أن توقف أعمال القرصنة هذه دون جدوى ، إلى أن كان عام ١٨٣٠ حين قذف الأسطول الفرنسى الجزائر بمدفعيته فأخضعها ، وإحتل الفرنسيون المدينة . إلا أنهم لم يستطيعوا بسط نفوذهم على باقى القطر حتى عام ١٨٤٧ ، بعد

حرب طويلة مع ذلك المحارب العنيد الماهر عبد القادر . وهكذا بدأت الإمبراطورية الفرنسية العظمى فى إفريقيا فى التكوين .

مصر إبتداء من العصور الوسطى حتى الأزمنة الحديثة :

كان تاريخ مصر إبتداء من الغزو العربى إلى الأزمنة الحديثة مزيجاً من القلاقل ، والقتل ، والمذابح . وكان يحكم القطر فى بادىء الأمر حكام يعينون من قبل الخلفاء المتعاقبين . وفى أثناء هذه الفترة المبكرة تغير طابع الإحتلال الإسلامى . وكان الهدف أصلا هو مجرد إقامة نقط للحراسة ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى كان القطر قد احتل إحتلالا منظماً . وكانت هذه الفترة تتسم كذلك بقيام الأقباط بعدد من الثورات التى أخمدت جميعها ، وبإنتشار اللغة العربية بدلا من اليونانية . وتسمى الفترة من ١٣٥٢ — ١٥١٧ بعصر المماليك ، وسميت كذلك لأن السلاطين كانوا أصلا من الرقيق المحررين الذين كانوا يعملون ضباطا فى الجيش . ثم كان أن إستسلموا للأتراك وأصبحت مصر ولاية تابعة للباب العالى ، ولكن قوة المماليك لم تكن بأية حال قد قضى عليها تماما ، بل كانوا لايزالون أصحاب سطوة ونفوذ حين غزا مصر نابليون فى عام ١٧٩٨ .

ومع طرد الفرنسيين بواسطة البريطانيين والأتراك عام ١٨٠١ ، قام هنالك عراك دموى من أجل الحكم ، بين الأتراك والمماليك والجنود الألبانيين الذين ظهر من بين صفوفهم محمد على وإنتصر على الآخرين . لقد قضى على المماليك ، وهزم قوة بريطانية ، وما أن جاء عام ١٨٠٧ حتى كان هو الحاكم المطلق فى مصر ، ورغم إعترافه بالسيادة التركية على مصر ، فقد كان مستقلا بالفعل . ولما إستتب له الأمر ، أرسل الحملات إلى الجزيرة العربية ، واليونان والسودان ، ونظم إدارة قوية ولكن تعسفية ، ونهض بالأشغال العامة ولكن على حساب آلام الشعب ومعاناته ، وكذلك بدأ تجارة القطن

وشجعها . ومات فى عام ١٨٤٩ فخلفه فى الحكم حفيده عباس الأول الذى قتل فى عام ١٨٥٤ . ثم جاء سعيد ، أحد أبناء محمد على ، الذى أعطى فرديناند دى ليسيس فى عام ١٨٥٦ حق إمتياز حفر قناة السويس . وكان إسماعيل ، الذى أعقب سعيد ، حاكما تقدميا فأعاد تنظيم الحكم ، الذى كان منذ وفاة محمد على قد إستحال إلى شىء من الفوضى . ولكن المال والعمال ، اللذين كان يتطلبهما قيامه بمشروعات عامة واسعة ، إنما كانا ينتزعان بلا رحمة من الفلاحين البؤساء إلى حد أنه لم يعد هناك لديهم ما يؤخذ منهم ، بينما أصبح رصيد إسماعيل غاية فى الضنك حتى أنه لم يستطع الحصول على سلفة من السوق الدولية .

وفى عام ١٨٧٥ ، ومن أجل أن يواجه إسماعيل إحتياجاته ، باع حصته من أسهم شركة قناة السويس إلى الحكومة البريطانية بأربعة ملايين جنيه . ومن ثم فقد وجد نفسه مضطرا أكثر فأكثر للخضوع للإشراف الأوربى ، فبعض دور القضاء أصبحت دولية ، وكذلك أصبحت مالية الدولة تحت الإشراف الثنائى لإنجلترا وفرنسا . وفى عام ١٨٧٨ حاول إسماعيل العودة إلى أساليبه الأوتوقراطية القديمة ، ولكن سرعان ما طردته الحكومة التركية وجاءت بتوفيق . وفى عام ١٨٨٢ أعد برنامج للتعويضات والإصلاح ليقوم به البريطانيون والفرنسيون ، ولكنه مالبث أن أوقف لقيام ثورة عرابى باشا . لقد أخمد هذه الثورة البريطانيون وحدهم بعد أن رفض سلطان تركيا إخمادها ، ورفض الفرنسيون والإيطاليون معاونتهم . وجاء سير إيفلين بارنج Evelyn Baring – لورد كرومر فيما بعد – ليصبح القنصل العام البريطانى فى مصر فى عام ١٨٨٣ . وقد اتفق تعيين بارنج Baring وقيام ثورة ناجحة ضد الحكم المصرى فى السودان .

مصر فى السودان — المهدى — غردون فى الخرطوم :

فى عام ١٨٢٠ ، أمر محمد على بغزو بلاد النوبة Nubia الجزء الشمالى فى السودان . لقد تم الغزو فى السنتين التاليتين فى وجه مقاومة عنيدة من جانب النوبيين . وبعد الاستيلاء على النوبة ، وكذلك سنار وكردفان ، قامت حكومة مدنية غاية فى التعسف والفساد . فالسودانيون كانوا نهبا لحكامهم ، وفرضت عليهم الضرائب التى أثقلت كاهلهم ، وأصبحت تجارة الرقيق هى النشاط الأوحد للدولة ، وكان للحكومة دور إيجابى فيه . وفى عام ١٨٧٠ ، تحسن الموقف حين وصل سير صمويل بيكر إلى جندوكورو Gondokoro ليشغل منصب محافظ المديريات الاستوائية تحت إشراف الحكومة المصرية . وفى عام ١٨٧٤ خلفه الكولونيل غردون . لقد بذل كل من بيكر وغردون محاولات مضنية للقضاء على تجارة الرقيق ، ولكن السلطات فى الخرطوم لم يكن ليعنيها من الأمر شىء ، ولم تبد من المساعدة غير القليل . وغادر غردون السودان فى عام ١٧٨٦ ، ولكنه فى السنة التالية عين محافظا للمديريات المصرية خارج مصر . وجاء ليشن حربا لاهوادة فيها ضد تجارة الرقيق ؛ وفى عام ١٨٧٩ ، حين قبض جيسى Gessi مساعده على سليمان زبير وأعدمه هو وآخرين معه ، أطلق سراح مالا يقل عن ١٠٫٠٠٠ رقيق . ولكن ما لبثت أن عادت كل المساوىء السابقة للإدارة حين رحل غردون فى عام ١٨٧٩ — من ضعف وفساد فى وسط البلاد ، واغتصاب ورشوة على الحدود — وخلفه رؤوف باشا . وفى عام ١٨٨١ أعلن محمد أحمد ، من مواطنى دنقله ، أنه المهدى المنتظر . وجاء السودانيون ليلتفوا حوله .

وفى أوائل عام ١٨٨٤ كاد المهدى أن يصبح السيد المطلق فى السودان . وكان أن روع الحكومة البريطانية ، فى نوفمبر ١٨٨٣ ، القضاء

على الجيش المصرى بقيادة هكس باشا ، فأرسلت غردون لسحب الحامية المصرية . وكان مثاراً للجدل ما إذا كان غردون قد تعدى التعليمات الصادرة إليه وحاول لا إجلاءها بل احتلال السودان من جديد . وأياً كانت حقيقة الأمر ، فقد ساء الموقف حين عزل غردون فى الخرطوم بحيث لم تتح له فرصة الهرب . وفى ٢٦ يناير ١٨٨٥ سقطت الخرطوم أمام جحافل المهدى وقتل غردون . وكانت قد أرسلت بعثة إغاثة تحت قيادة لورد ولزلى Wolseley لإنقاذه ، ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان . ومات المهدى فى نفس السنة ، بعد أن قضى على الحكم المصرى فى السودان قضاء تاما ، نخلفه الخليفة عبد الله ، ذلك الأوتوقراطى العسكرى الذى كان يحكم بالإرهاب . وغلت مراجل الغضب فى انجلترا لفشل الحكومة فى إنقاذ غردون ، وأدى ذلك إلى سقوط حكم جلادستون فى عام ١٨٨٥ م .

العرب والبريطانيون على الساحل الشرقى :

لقد أعادت التجارة العربية للرقيق إلى الأذهان تلك الآثار البغيضة للتجارة الإفريقية الأوربية على الساحل الغربى لإفريقيا . فقد تكررت هنا تلك المشاهد التعسة من إغارات وحروب قبلية ، وخيانة ومذابح . وكان الأسرى كذلك يعانون من صنوف العذاب أثناء سيرهم الطويل حتى الساحل ما يشق وصفه . كانوا يسيرون مشدودين بالحبال معاً إلى ساق طويلة ، فيموت منهم من يموت ، ومن يسقط فكان يترك ليموت . وعند الوصول إلى الساحل ، كانوا يشحنون فى صنادل إلى زنزبار ، ومن هناك إلى المحطة النهائية ، كل ذلك فى ظروف مقيتة من عدم الراحة والإجهاد . « إن المناظر التى رأيتها ، ولو أنها تعد من المشاهد العادية لهذه التجارة ، إلا أنها شىء مفزع للغاية حتى أننى أود دائماً إبعادها عن مخيلتى » . فالكلمات للفنجستون وكان لفنجستون هو الذى أقحم على ضمير مواطنيه فظائع هذه التجارة فى

حملة بدأت إثر عودته بعد اجتيازه لإفريقيا عام ١٨٥٧ . فشخصيته ، وأعماله العظيمة ، وحياته البطولية التى كرسها لها ، قد أذكت خيال الشعب البريطانى . ولم تكن به حاجة إلى مثل الحملة التى اضطر ولبرفورس Wilbreforce إلى القيام بها لكسب التأييد الشعبى . فحين هبت الحكومة البريطانية للقضاء على هذه التجارة فى المحيط الهندى وجدت الرأى العام كله من ورائها يساندها ويشد من أزرها .

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر ازدادت قبضة سعيد بن سلطان على عرب مسقط . فبعد أن اغتصب لنفسه السيادة على مسقط وكرس النصف الأول من حكمه لتثبيت نفسه هناك بكل قوة وحزم ، أمضى النصف الثانى فى بناء مركز اقتصادى سياسى قوى فى شرق أفريقيا . وفى عام ١٨٤٠ ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك حين نقل مركز حكمه من مسقط إلى زنزبار ، ومنها باشر سيادته على أرض القارة . وكانت هذه السيادة تتسم بالحزم — إلى حد ما — على الساحل ، ولكنها كانت باهتة متراخية فى باقى الأقاليم . ومات سعيد فى عام ١٨٥٦ فخلفه فى زنزبار ابنه ماجد ، الذى كان ذا شخصية ضعيفة متقلبة . وبعد حكم دام أربعة عشر عاما ، تكتنفه الاضطرابات ، مات ليخلفه أخ له أصغر يدعى برغش ، وكان جريئاً ذا عزم وتصميم إلى حد أنه كان يتآمر ضد ماجد تقريبا منذ أن تولى الحكم .

وقد حظيت بريطانيا فى زنزبار بوجود عدد من ممثليها السياسيين ذوى القدرة والشجاعة الفائقة ، رجال من طراز همرتون Hamerton ورجبى Rigby ، وجون كيرك J. Kirk على وجه الخصوص . فإليهم آلت مسئولية صعبة وشائكة فى نفس الوقت ، مسئولية القضاء على تجارة الرقيق . وكانت السياسة الأولى تقضى بتضييق نطاقها ، وقصرها على ممتلكات سلطان

زنزبار مع منع تصدير الرقيق. ثم تقرر بعد ذلك ، إبتداء من ١٨٧٢ ، أن تلغى كلية ، وقد تم ذلك بالفعل فى مدة وجيزة لم تكن لتتعدى الثلاث سنوات. فلما كان عام ١٨٧٧ ، جاءت فكرة لفنجستون ، ثم تضافرت جهود القناصل البريطانيين والبحرية البريطانية ، ثم كذلك ـ فى آخر مراحلها ـ جهود برقش نفسه ، لتضع حدا نهائياً لهذه التجارة فى شرق إفريقيا .

التهافت على أفريقيا : The Scramble for Africa

فى حوال عام ١٨٨٠ ، قامت هناك منافسة دولية حامية للحصول على مستعمرات ، وكان أحد أوجهها ما يدعى « بالتهافت على إفريقيا » The Scramble for Africa . لحتى ذلك الحين كان التنافس على إفريقيا فى أساسه تجاريا ، كل شعب يبذل قصارى جهده لإخراج الشعوب الأخرى من نطاق التجارة فى هذه المنطقة أو تلك ، وكان ينـدر أن تفرض حكومة أجنبية لحكم أقطار لا تتفق وإقامة البيض . هذا النوع من التنافس كان مواتياً لبريطانيا إلى درجة بعيدة . فصناعاتها لم يكن ليفوقها شىء ، وأسطولها كان أقوى أسطول فى العالم ، وتجارها يمتازون بالجرأة والإقدام والإنتشار فى كل مكان . وكل ما كان يبدو ضروريا هو أن تصير لبريطانيا عدة حصون وقواعد هنا وهناك لدعم التجارة والقضاء على الرق ؛ أما بالنسبة لباقى الأهداف فقد كان من المسلم به أن تلك الأجزاء من العالم التى لم تكن ملكا لأحد من الشعوب ستبقى متفوحة إلى أجل غير محدود أمام التجارة البريطانية المشروعة . إلا أن ظهور ألمانيا كقوة عالمية ، وإنتفاضة فرنسا بعد هزيمتها فى عام ١٨٧١ قد بدد هذه الأفكار . فهذان الشعبان بدأ دورا يهدف إلى التوسع فيما وراء البحار ، وسرعان ما أصبح واضحا أنهما كانا يهدفان إلى إحتكار التجارة فى ممتلكاتهما الجديدة لنفسيهما . وفى ذات الوقت بدأ ملك البلجيك يصوغ لنفسه من حوض الكنجو مستعمرة خاصة ؛

أما إيطاليا فقد كان أول موطىء قدم لها فى إفريقيا هو إقليم أساب Assab على ساحل البحر الأحمر ، وما لبثت أن صارت لها بعد هذه البداية الصغيرة إمبراطورية كاملة فى « قرن إفريقيا » The Horn of Africa . وكان من الطبيعى أن تجد بريطانيا نفسها وهى التى تعارض القيام بأى توسع مضطرة إلى الاشتراك فيه ، وهكذا إستطاعت فى النهاية عن طريق تفويض عدد من الأفراد اللامعين ، أكثر من القيام بأية عمليات تنطوى على العنف من جانب الحكومة ، أن توجد لنفسها إمبراطورية ضخمة فى إفريقيا . وكذلك حفز بريطانيا إلى هذا الإشتراك وجود دوافع أخرى غير الإستعمارية والتجارية ، فرحلات الإرساليين والمستكشفين لم تبن فقط عن عظمة أفريقيا وإمجادها ، ولكن كذلك عن فظائعها . فغزو إفريقيا عن طريق الإرسالى ، والجندى المحارب ، والحاكم الإدارى ، والتاجر إنما كان معناه إلغاء تجارة الرقيق ، وإخماد الحروب القبلية ، والتخفيف من آلام البشرية .

ويتميز الزحف على إفريقيا بحدثين دوليين هامين . أولهما ذلك القرار العام الذى صدر عن مؤتمر الدول الكبرى عقد فى برلين فى عام ١٨٨٤-١٨٨٥ . وقد نص ـ من بين ما تضمنه ـ على حرية التجارة فى حوض الكنجو ، وحرية الملاحة فى نهرى الكنجو والنيجر . وثانيهما ذلك القرار الصادر عن مؤتمر بروكسل لعام ١٨٨٦ ـ ١٨٩٠ ، الذى تناول أساساً مسألتى الرق والمشروبات الروحية .

وإستمر الزحف لمدة تزيد قليلا على العشر سنوات . ولما كان عام ١٨٩٢ ، وجدنا معظم القارة وقد جزئت بين الدول الكبرى ، وجاءت خريطة إفريقيا بالشكل الذى بقيت عليه حتى عام ١٩١٤ . ولكنها كانت خريطة لا يزال ينقصها بعض التفاصيل ، وفى الفترة اللاحقة إعترتها تغييرات عديدة هامة ، وكذلك بعض التعديلات الصغيرة نسبيا فى الحدود الإقليمية . ولعل

أهمها كان العود إلى غزو السودان من جانب البريطانيين وإقامة حكم مشترك إنجليزي - مصري في ذلك الإقليم. وقد إتفق هـذا ووصول الماجور مارشاند Major Marchand إلى فاشودة على نهر النيل، على رأس قوة استعمارية فرنسية كانت تعتبر رأس الحربة لقوة تتقدم شرقا من إفريقيا الإستوائية. وبعد منازعات كثيرة، وقعت في مارس ١٨٩٩ إتفاقية إنجليزية - فرنسية تقضي بطرد الفرنسيين من حوض النيل ومنعهم من أي تقدم آخر من الغرب إلى الشرق. وثمة تعديلات هامة أخرى حدثت عام ١٩١١-١٩١٢ نتج عنها فرض الحماية الفرنسية على مراكش، وتنازل فرنسا لألمانيا عن شريحة من إفريقيا الإستوائية لتضاف إلى الكمرون الألماني، وتحديد المناطق الخاصة بكل من ألمانيا وفرنسا ومصالح كل منهما في وبالقرب من مراكش. وكان آخر عمل من أعمال التجزئة ما قامت به إيطاليا، التي باءت عملياتها الحربية لغزو إثيوبيا في عام ١٩٠٦ بالفشل حين صدت في عدوا Adwa، يوم أن إستحوزت لنفسها بسهولة نسبية على طرابلس وبرقة في عام ١٩١١ - ١٩١٢.

الإرساليات المسيحية: Christian Missions

تعتبر افريقيا بالنسبة لكل الأغراض والأهداف حقلا إرسالياً جديدا. وشمال افريقيا، موطن ترتوليان Tertullian وسانت سيبريان St. Cyprian وسانت أوجستين St. Augustine، كان لحقبة طويلة جزءا من العالم الإسلامي. وبإستثناء الأعمال العظيمة للقساوسة البرتغاليين في اقليمي الزمبيزي والكنجو، فإن النشاط الإرسالي في إفريقيا إلى الجنوب من الصحراء الكبرى لم يكن ليبدأ حتى منتصف القرن الثامن عشر. ومنذ ذلك الحين وهو آخذ في التوسع باضطراد وخصوصا في حوالي عام ١٨٨٠، وفيما بعد الحرب العالمية الأولى، حتى لم يعد هناك الآن في إفريقيا أجزاء

ليست فيها إرساليات تتبع هذا المذهب المسيحي أو ذاك إلا القليل. بل في بعض الأحيان نجد العديد من الإرساليات المختلفة وقد قامت في مساحة صغيرة مما يشعر المرء بوجود جو من التنافس.

وبينما أن الغرض الأساسي للإرساليات المسيحية إنما هو الدعوة إلى الإيمان بعقيدة المسيح، فإن إفريقيا مدينة لها بالكثير من الخدمات النوعية. فهي كجماعات أو أفراد قد حاربت الظلم والطغيان، وأثارت الرأي العام ضد الفضائح والمفاسد التي كانت موجودة في ذلك الحين، كما كانت السبب في قيام حركة للإصلاح لها إعتبارها. وفي الأيام الأولى للتوسع الأوربي لم يكن هناك من الخدمات الاجتماعية غير ماتقدمه الإرساليات. فالمدارس الوحيدة كانت مدارس الإرساليات، والخدمات الطبية الوحيدة هي ما كان يقدمه الإرسالي حين يبذل قصارى جهده بإستخدام الماء الدافىء والقليل من العقاقير البسيطة. ومع نمو المصالح الحكومية وتوسعها لم يعد الإرساليون هم المدرسون والأطباء الوحيدون، ورغم هذا فلا تزال معاهدهم التعليمية غاية في الأهمية، كما أن المستشفيات الإرسالية في كثير من الأمكنة تشكل جزءا هاما من التنظيم الطبي للقطر. وكذلك أسهمت الإرساليات المسيحية بقدر كبير في الدراسات الإفريقية. وكانت دائما هي السباقة إلى تدوين عادات أهل البيئة، وتعلم اللغات الإفريقية. وإذا كنا نوازن بين كل هذه الخدمات وما كان منهم من عدم إحساس بقيمة العادات القديمة غير الضارة، وذلك التزمت الشديد حين التزام أشكال المسيحية للقرن التاسع عشر، والميل إلى الشجار فيما بينهم، والقيام في بعض الأحيان بنشاط سياسي ملتو، فإنا نجد أن ميزان خدمات الإرساليات المسيحية في إفريقيا لا تزال ترجح كفته بشدة وتبين عن رصيد ضخم.

إفريقيا والاستعمار :

ويمكن إجمال تاريخ الأجزاء المختلفة فى إفريقيا فيما بعد فترة الزحف هذه فى الفصول الإقليمية من هذا الكتاب ، ولكن من المناسب فى هذه المرحلة — تجنباً للتكرار — أن نذكر قليلا من النقاط التى يمكن تطبيقها بوجه عام .

فالدول المختلفة الكبرى قد اتخذت لنفسها فى حكمها لمستعمراتها أهدافاً اجتماعية وسياسية غاية فى التباين . فالبريطانيون بما عرف عنهم من تقاليد قديمة من التحول والتحرر ، كان هدفهم الأكبر تدريب شعوب المستعمرات على الحكم الذاتى . ولأنهم كانوا مطبوعين على التسامح الدينى والسياسى ، ويحترمون التقاليد ، فإنهم لم يجدوا إطاراً عاماً للحكم أفضل من ذاك الذى جاء به الإفريقيون أنفسهم . لقد جاءت الأنظمة الإفريقية خالية من الأخطاء ، وتنحو إلى التعليم لمواجهة الحاجات المعقدة للعالم الحديث ، وهكذا أصبحت تشكل أساس الحكم الذاتى الإفريقى المستقبل .

أما الفلسفة الفرنسيـــة لحكم المستعمرات فلم تكن لتتضمن فكرة الحكم الذاتى المحلى local autonomy ، ولكن ، على العكس من ذلك ، كان الافتراض القائم هو أن المستعمرات إن هى بالفعل إلا جزء من فرنسا ، وما شعوبها غير شعوب فرنسية . ولم يكن من السهولة بمكان تطبيق هذا المبدأ على الأقاليم المترامية ، والبعيدة ، والبدائية التى آلت إلى فرنسا فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهكذا انقاد الفرنسيون إلى عمليات تذكرنا بما قام به البريطانيون . وعلى كل ، فإن نظـــرية « التماثل » assimilation لم تكن لتترك إلا مؤخراً جداً ، وكانت لا تزال هى حجر الأساس بالنسبة لدستور ١٩٥٨ الذى قام من جديد بتحديد العلاقات بين فرنسا وممتلكاتها فيما وراء البحار .

ولم يكن البلجيك ليهتموا بتوكيد الأهداف السياسية ، وكانوا — على ما يبدو — يدينون بالحقيقة القائلة بأنه كلما قلت صلات الرأى العام بالأمور السياسية كلما كان ذلك من الأفضل . فالحكم كان يتميز بروح السيطرة الأبوية paternalistic ، ولم يكن لا للأوربيين ولا للإفريقيين أية امتيازات على الإطلاق تنفرد بها إحدى الطائفتين . ومن ناحية أخرى ، فقد أوليت أهمية كبيرة للتنمية الاقتصادية ، ووجد الإفريقيون الكثير من التشجيع للاشتراك فى الصناعة على مستوى فنى عال نسبياً .

أما البرتغاليون ، فشأن الفرنسيين ، لا يأخذون بفكرة الحكم الذاتى autonomy ، ولكن يصرون على فكرة المماثلة identity . وهناك تكامل وثيق بين الممتلكات فيما وراء البحار وعاصمة المستعمر ، ولا حواجز للون ، بينما يصبح الإفريقيون الذين يحصلون على مؤهلات معينة أشخاصاً متماثلين assimilados ، وتصبح لهم مكانة المواطنين البرتغاليين الذين هم من أصل أوربى . ولسوء الحظ أن الخدمات المتاحة للحصول على التعليم العالى كانت من القلة بحيث كان من العسير الحصول على تلك المؤهلات ، وبالتالى فقد ظل عدد المتماثلين صغيراً .

وأما الألمان فقد دخلوا دورهم فيما وراء البحار وليست لديهم — على ما يبدو — أية فلسفة استعمارية غير فلسفة الحكم المباشر عن طريق الحكام الأوربيين على أساس من استخدام القوة . وكان كثير من هؤلاء الحكام تعوزه الخبرة والدراسة الخاصة ، وكذلك أدى تطرفهم وغلوهم إلى نشوب العديد من الثورات التى كان أشهرها ثورة هيريرو Herero فى إفريقيا الجنوبية الغربية . وقد أخمدت هذه الثورات بكل قوة . وعلى كل ، فقد كانت هناك محاولات صادقة للقيام ببعض أوجه الإصلاح التى عاق استكمالها وجنى ثمارها نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) .

وفى أوائل الفترة التى أعقبت تجزئة إفريقيا كانت التنمية بطيئة . فالقارة كانت تعوزها كافة الخدمات ، فالقوة العاملة غاية فى الندرة والمسافات مترامية . وفى بعض المستعمرات عهد بالتنميـــة إلى شركات احتكارية خولت سلطات الحكم والإدارة ، وفى مستعمرات أخرى أعطى الزراع مساحات شاسعة من الأرض ، وفى أخرى غيرها كان التاجر الأوربى يأتى برأس المال والتنظيم اللازمين لتنمية الصناعات الزراعية والخروج بمنتجاتها إلى الأسواق العالمية . ولم ينشأ الاعتراف اعترافاً كاملا بفكرة أحقية الدولة فى أن تكون لها الأولوية فى تخطيط وتمويل تنمية المناطق المتأخرة إلا بعد نهاية الحرب العالمية الثانية .

وكانت النتيجة أن كل الدول الاستعمارية أخذت تقوم بمشروعات للتنمية تهدف إلى تحسين المركز الاقتصادى لملحقاتها . ولم تكن التخطيطات البريطانية الأولى لتتراخى فى توفير الرفاهية والرخاء ، وسرعان ما أصبح واضحاً أن النفقات المتكررة للمشروعات العديدة لتوفير الرخاء سوف تثقل كاهل الخدمات القائمة عليها فتنوء بحملها الميزانيات المحلية . وفى السنوات القليلة الماضية ، لم يكن هناك اهتمام بتوفير الرخاء . بل أصبح الاهتمام كله موجهاً نحو تنمية تلك الخدمات التى يعتقد بأنها أفضل شىء يؤدى إلى خلق اقتصاديات قادرة على تحمل أعبائها بنفسها .

ونحن إذ نبحث سياسات وخطط الدول الاستعمارية المختلفة ، علينا أن نذكر أن كثيراً من الشعوب التى خطط لها المستقبل على هذا النحو قد آلت بالفعل إلى الاستقلال . وسوف نشير إلى ظاهرة القوميـــة الإفريقية فى فصل لاحق من هذا الكتاب . وفى نفس الوقت ، يكفى أن نسجل بأن إفريقيا تمر بحالة انتقال سريع ، وأن المشاريع التى يجرى تخطيطها اليوم قد تؤول إلى سلة المهملات فى الغد . ومن المحال أن نتكهن

عن الكيفية التى بها يزمع الكنجو المستقل ، أو الصومال المستقل ، تدبير أموره السياسية والاقتصادية ، ولكن لابد وأن الزعمـــاء الإفريقيين سوف يتبينون النقائص التى يحاول الحكام الحاليون جهد أنفسهم علاجها ، وأنهم سيضعون بأنفسهم خطط هذا العلاج إذا ما تبين لهم أن الخطط الكائنة ليست مناسبة . وأياً كان الأمر ، فواضع كتاب كهذا لا يستطيع أن يأتى شيئاً غير وصف الأشياء كما هى كائنة بالفعل ، ويرجو أن تكون الأسس التى يجرى وضعها سليمة ومقبولة لدى الحكومات المتعاقبة .

الجزء الثانى

من الناحية الإقليمية

إفريقيا الجنوبية .

إفريقيا الوسطى .

شرق إفريقيا .

القرن الإفريقى The Horn of Africa .

وادى النيل .

إفريقيا البحر الأبيض المتوسط .

غرب إفريقيا .

إفريقيا الإستوائية .

الجزر الصغيرة .

الفصل الأول

إفريقيا الجنوبية

تشتمل إفريقيا الجنوبية على تلك الجمهورية الجديدة ، وجمهورية جنوب إفريقيا ، التى كانت تتبع حتى عام ١٩٦١ الكمنولث البريطانى ؛ وإفريقيا الجنوبية الغربية ، التى كانت فيما سبق مستعمرة ألمانية ، والتى هى الآن تحت الحكم الجمهورى ؛ ثم تلك الأقاليم الثلاثة : باسوتولاند Basutulsnd ، ومحمية بتشوانالاند وسوازيلاند ، وهى تتبع بريطانيا مباشرة .

أما من الناحية التكوينية فإن المنطقة عبارة عن هضبة يتراوح معدل إرتفاعها بين أربعة وستة آلاف قدم ، تحوطها حافة عظيمة الارتفاع من جهة الشرق وتنحدر تدريجيا نحو الغرب . وفى الشرق والجنوب الشرقى تقوم جبال دراكنز برج لتمثل أعلى نقطة فى الحافة وتصل إلى إرتفاع أحد عشر ألف قدم . وفى الغرب نجد الحافة أقل تحديداً ووضوحا بينما يصل الارتفاع فى بعض المواضع إلى ستة آلاف قدم . وتغور الهضبة غرب الوسط لتكون منخفض كلهارى ، ويتراوح إرتفاعها بين ألفين وثلاثة آلاف قدم ، وتحوطها من كل الجهات عدا الجهة الشمالية هضاب متاخمة يتناهى إرتفاعها إلى خمسة آلاف قدم .

وفيما بين الحافة والبحر تهبط الأرض وتصبح سلسلة من المصاطب متباينة الإتساع تفصل كلا منها عن الأخرى سلسلة جبلية تجرى على وجه التقريب بحذاء الساحل . وتشاهد هذه المصاطب أوضح ما تكون فى الجنوب ، وتشكل الكارو الكبرى والصغرى The Great and little Karroo . والسهل الساحلى ضيق عموما فيما عدا فى الشمال الشرقى حيث

ينبسط ليحوى، إفريقيا الشرقية البرتغالية ،. والحزام الساحلى الشرقى ترويه مياه كثيرة وتكسوه فى بعض المواضع نباتات غنية كثيفة . وعلى جانب الأطلنطى توجد صحراء ، ناميب Namib الجافة ، التى يتراوح عرضها بين ثلاثين وثمانين ميلا ، وتمتد شمالا بحذاء الساحل لمسافة ٨٥٠ ميلا بين نهرى أورنج وكونين .

وما من وصف للطبيعة بنى إفريقيا الجنوبية حقها من العظمة والجلال . فى ناتال Natal بتلالها ووديانها ذات الحدائق المثمرة ، والمدن الجميلة والشواطىء الساحرة ، إلى الكاب بساحله الفسيح وأراضية الداخلية الخصبة التى تكسوها الأشجار ، نجد قطراً يمتاز بالمناظر الخلابة ؛ وحتى المنخفضات الرتيبة ذات النمط الواحد فى پوندولاند وترانسكى ، وذلك السهل العارى من الأشجار فى دولة أورنج الحرة ، ومساحات الاستبس المموجة فى كلهارى وكارو ، بينما هى ليست جميلة فإن لها جلال الفضاء اللانهائى .

والمناخ مختلف متباين فى المنطقة بأسرها . فالأحوال المناخية على الساحل الشرقى حارة مدارية ، والحرارة مرتفعة بعض الشىء والأمطار غزيرة على هذا الجانب من إفريقيا (فمدينة دربان يزيد معدل أمطارها على ٤٠ بوصة فى السنة) . أما مدينة الكاب فتمتاز بمناخ البحر الأبيض المتوسط ، فشتاؤها معتدل وصيفها دافىء فقط . وهذا ، مما لا شك فيه ، هو أنسب مناخ فى إفريقيا إلى الجنوب من الصحراء الكبرى . وعلى خلاف إقليم ناتال الحار ، والكاب المعتدل ، فإن الهضبة منطقة تجمع بين المتطرفات ، فالصيف حار ، والشتاء قارس البرودة . والمطر أغزر ما يكون على الجانب الشرقى المرتفع ، ويقل فى الغرب حيث يكثر الجدب والجفاف . ولا يتعدى سقوط الأمطار غير فترة قصيرة ، ويكون سقوطها بشكل

غزير . وكذلك يكثر حدوث العواصف الرعدية ، وفى فصول معينة تجتاح الرياح الشديدة السهول المتربة العارية . وهذه الأحوال السائدة هى السبب فى حدوث الكثير من التحات الذى يصيب التربة .

والمنطقة كلها ذات مساحة تزيد قليلا على المليون من الأميال المربعة . من هذه المساحة تشغل الجمهورية أقل من النصف بقليل ، وهى من الناحية الجغرافيـــة والإقتصادية والسياسية تعتبر القلب والعمود الفقرى من المنطقة .

جمهورية جنوب إفريقيا

تاريخها :

كانت سياسة الحكم البريطانى فى جنوب إفريقيا منذ أيام الهجرة الكبرى The Great Trek تقريبا حتى نهاية القرن التاسع عشر ، توحى بالتردد والتـــذبذب . فمن ناحية ، كان هناك بعض التردد فى التوسع الإستعمارى أو تحمل أعباء إلتزامات باهظة التكاليف فى أماكن قاصية . ومن ناحية أخرى ، فإن ظروف شعب كبير من الوطنيين المحاربين وعدد كبير من الفلاحين المتعطشين الأرض ، وبالتالى ، وجود سكان على الحدود يعتملون بالقلق والهياج ، قد حالت دون الوصول إلى البغية المنشودة ، ألا وهى تنحى الوطنيين وترك المستعمرين لترتيب أمورهم بأنفسهم . وما كانت الجهود التى بذلت من أجل الوصول إلى حل وسط بين النقيضين إلا لتزيد من حدة التردد التى إستمرت إلى أن كان وقت التهافت على إفريقيا ، حين أضطرت بريطانيا لإعتبارات دولية إلى الإتجاه نحو إستخدام القوة أكثر من ذى قبل والبدء — ولكن كذلك مع شىء من التردد — فى سياسة التوسع .

وكانت الشخصيتان المتحكمتان فى جنوب إفريقيا أثناء العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر هما بول كروجر وسيسيل جون رودس . فأما كروجر ، رئيس الترنسفال ، فكان مثال الرجل البوير ساكن الحدود ، قوى الشخصية ، بسيطاً ، اقتصادياً فى عاداته ، متديناً ، محافظاً ، متعصباً ، ثاقب الفكر ، غير محب للغرباء . وأما رودس فكان مراوغاً صاحب مناورات ، يميل إلى الأخذ بفكرة التوحيد بين الأقطار ، سياسياً أميناً ، وإلى جانب ذلك فهو صاحب رسالة يضع ثروته وكل إمكانياته فى خدمة وحدة جنوب إفريقيا والتوسع البريطانى فى القارة . وحين اكتشف الذهب فى وتووترسراند Witwatersrand ، هبط إلى مملكة كروجر ، تلك المملكة الريفية البسيطة ، نفر من الأجانب الذين جاءوا بحثاً عن الذهب ، أو الأوتلاندرز Uitlanders ، الذين أخذوا فى المطالبة بحقوق مدنية ، والذين تراءى لكروجر أنهم كانوا يشكلون تهديداً حقيقياً لحكمه . أما رودس ، فقد رأى فى الأوتلاندرز - وقد راودته أحلام توحيد « جنوب إفريقيا » - الأداة التى بها يستطيع الإطاحة بنظام البوير والدخول بالترنسفال إلى مجتمع دول جنوب إفريقيا . وكان أن تجمعت قوة بقيادة جيمسون أحد قواد رودس على حدود الترنسفال حين دبرت مؤامرة ثورية فى جوهانسبرج ، وفى ليلة ٢٩ — ٣٠ من ديسمبر عام ١٨٩٥ بدأ جيمسون مسيره إلى جوهانسبرج على رأس قوته . وكما يعرف الجميع ، فقد فشلت الحملة فشلا ذريعاً ، وكانت ذات نتائج وبيلة . فلقد تأكد للبوير أن الاستعمار البريطانى كان ينوى سحقهم وأنه سيلجأ إلى كل وسيلة تمكنه من ذلك ، وزاد من إثارة الرأى العام البريطانى ، الذى كان ينظر إلى جيمسون باعتباره بطلا ، والذى كان ينظر إلى مناورات الألمان فى جنوب إفريقيا بعين الشك ، وصول برقية تهنئة مرسلة من قيصر ألمانيا إلى كروجر . أما حملة جيمسون ، فقد

زادت من حدة التوترات ، وزادت من احتمال حدوث انفجار ، وهذا هو ما وقع بالفعل بعد ذلك بأربع سنوات .

وكثيراً ما نوقشت حرب البوير والأسباب المؤدية إليها فى كل الكتب التى تناولت تاريخ « جنوب إفريقيا » . وبالنسبة للرجل الإنجليزى الحديث ، الذى استطاع منذ ذلك الحين أن يخوض غمار حربين كانتا أكثر إراقة للدماء وأبعد مدى بكثير ، فإن حرب البوير — إذا كان يذكرها إطلاقاً — لا تعدو أن تكون مسألة مناورات بالذخيرة الحية . ولكنها ذات آثار عميقة فى ذاكرة سكان « جنوب إفريقيا » الذين ينحدرون من أصل بوير Boer ، كما أنها تشكل - إلى جانب الهجرة الكبرى The great Tek - حدثاً هاماً فى حياتهم .

وأياً كانت أسباب الحرب ، فمن المتفق عليه أن الصلح المعقود فى فيرينيجنج Vereeniging فى ٣١ مايو ١٩٠٢ ، بين بريطانيا العظمى والجمهوريات المهزومة ، كان مجزيا للغاية . فقد وعدوا بتخويلهم مسئولية الحكم . واعترف بمساواة اللغة الهولندية بالإنجليزية ، كما وافقت بريطانيا العظمى على المعاونة فى إعادة تعمير القطر . وكان أكبر خطأ فى المعاهدة استبعاد المسألة الوطنية إلى ما بعد منح سلطات الحكم . وعلى كل ، فمن المحتمل أن الإصرار على سياسة وطنية حرة فى تلك المرحلة كان من شأنه أن يقيم العراقيل بل يؤدى إلى وقف محادثات السلم كلية ، كما أثبتت التجارب منذ ذلك الحين أن أقوى التسويات الدستورية وأشدها تحصيناً ومنعه من الممكن — فى أية حالة — تخطيها أو فسخها .

لقد روعى تنفيذ المشروعات البريطانية بكل دقة ، ووجد لورد ملنر ، المندوب السامى — الذى انتقدت أعماله بأنها كانت أحد الأسباب المؤدية

إلى الحرب — فى أعمال الإنشاء والتعمير فيما بعد الحرب ميدانا فسيحا لإظهار قدراته .

وفى عام ١٩١٠ ، بعـــد مفاوضات استمرت سنتين ، أصبحت المستعمرات الأربع لجنوب إفريقيا : الترنسفال ، ودولة أورنج الحرة ، وناتال ومستعمرة الكاب تشكل اتحاداً واحداً هو « اتحاد جنوب إفريقيا » .

وفى عام ١٩٣١ صدر دستور وستمنستر Westminister ليمنح « جنوب إفريقيا » ، كما منح غيرها من المستعمرات ، الاستقلال الفعلى فى نطاق الإمبراطورية .

ولقد حارب « جنوب إفريقيا » ، منذ صدور قانون الاتحاد ، إلى جانب بريطانيا فى حربين عالميتين ، وكان الجنرال جان سمطس — الذى كان فى شبابه قائداً للفدائيين ضد البريطانيين ، ثم بعد ذلك قائداً عاما (فيلد مارشال) وسياسياً عالمياً — الشخصية التى سارت بالاتحاد على وجه العموم فى وفاق مع باقى الإمبراطورية البريطانية ، ولو أن من المسلم به أنه كانت هناك ، حتى فى ذلك الحين ، بعض أصوات لا تساير الركب . ومنذ سقوط حكومة سمطس فى عام ١٩٤٨ ، وموته بعد ذلك بسنتين ، و« جنوب إفريقيا » تحت حكم الوطنيين ، الممثلين المحدثين للبوير الذين هزموا فى عام ١٩٠٢ ويدعون الآن بالأفريكانرز Afrikaners .

وفى أكتوبر ١٩٦٠ ، وفى استفتاء شعبى أجرته حكومة « جنوب إفريقيا » فيما يختص بنوع الحكم ، جاء التصويت فى جانب الجمهورية بأغلبية ضئيلة . وفى اجتماع للـكمنولث فى أبريل ١٩٦١ ، أعلن رئيس وزراء « جنوب إفريقيا » أنه عند الانتقال إلى الحكم الجمهورى فسوف تنسحب بلده من الـكمنولث . وعلى ذلك ، فى نهاية مايو ١٩٦١ أصبح « جنوب إفريقيا » جمهورية خارج الـكمنولث .

الشعب :

إن تاريخ « جنوب إفريقيا » كله صراع ، ومع أن القطر الآن يشكل وحدة سياسية وكان كذلك لمدة خمسين سنة ، فإن هـــذه المنازعات التى كانت بين العناصر المختلفة ما زالت قائمة ، ولم يخفف من حدتها الزمن . ومن المحال أن نتحدث عن « شعب جنوب إفريقيا » بما يتضمن وجود صفة مشتركة بينهم كمواطنين أو أية وحدة فى الفـكر ووجهة النظر . فهناك « عدة شعوب لجنوب إفريقيا » يتميز كل منها عن الآخر من الناحية العنصرية ، وكل منها على خلاف مرير مع أقرانه ، وعلى ذلك فليس فى الإمكان بحث هذه الشعوب تحت عنوان واحد شامل ، ولـكن لا بد من بحث كل منها على حدة . فالتسمية « أوربى » ، بينما هى لا يحتمل إنطباقها تماما على أولئك الذين يتخذون من إفريقيا وطنا لهم ، فهى سوف تستخدم بالمعنى العنصرى لوصف البيض فى « جنوب أفريقيا » .

الأوربيون :

فى نهاية عام ١٩٦٠ بلغ تقدير عدد السكان من البيض أكثر من ثلاثة ملايين نسمة ، ونسبة من يعيش منهم فى المدن هو ٧٠ ٪ . وهذا العدد ينقسم إلى قسمين رئيسيين ، الأفريكانرز Afkrikaners والمتكلمين بالإنجليزية . أما عن كنه الأفريكانر فهذا ليس من السهل تحديده ، ولـكنه ـ بوجه عام ـ يعتبر الممثل الحديث للبوير ، الذى يتكلم الأفريكانز Afrikaans منذ مولده . واللغة الأفريكانز مشتقة من الهولندية التى كان يتكلمها المستوطنون الأوربيون الأصليون . وهى الآن تقاسم الإنجليزية مركزها كلغة رسمية ، بل ـ حقا ـ تميل إلى أن تـكون هى اللغة السائدة . فالمذكرات الرسمية تطبع بكلا اللغتين ، كما أن كلا اللغتين تعلمان فى المدارس ، وكذلك فإن معرفة اللغتين

ضرورة حتمية للتعيين فى الوظائف الحكومية ، وشىء له إعتباره فى غير
ذلك من الوظائف . وحتى العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة ، كان
الأفريكانرز يشكلون القسم الريفى من السكان ، والمتكلمون بالإنجليزية
القسم المدنى . ولم تعد الحال كذلك بعد أن جاء الأفريكانرز إلى المدن وأصبحوا
يشاركون إلى حد كبير فى الصناعات هناك .

والفلاحون الأفريكانرز مضيافون كرماء ، أمناء ، إقتصاديون ومحافظون .
وهم ، كفلاحين ، ليسوا على نفس الدرجة من المهارة . وكثير منهم ثاقبو
النظر ، مجتهدون ، وعلى درجة من الكفاءة ، إلا أن هناك عدداً كبيراً من
هم ليسوا كذلك . والأفريكانر ساكن المدينة من الطبقات العليا أو المهنية
رجل قادر ، مثقف ، لطيف المعشر . أما الصناع — بغض النظر عن
السياسة — فهم مثل الصناع فى كل مكان . وتأتى بعد المهنيين والصناع طبقة
أخرى من الأفريكانرز سكان المدن ، والذين كان بعضهم أصلا من
الفلاحين غير الناجحين ، ونزحوا إلى المدينة حيث أصبحوا بالتدريج عمالا
صناعيين . ووسط هؤلاء يوجد كثير ممن يدعون « البيض المساكين »
the poor whites .

ومعظم الأفريكانرز يتيهون فخرا بعنصرهم ، ولعل أهم مظاهره تلك
الحركة الواعية نحو نشر اللغة الأفريكانز ، وثقافتهم وأدبهم . وتتقمصهم
بشدة روح تلك الهجرة العظيمة the Great Trek التى كان لها أكبر الأثر
فى كل حياتهم العاطفية والثقافية . و « الكفير » thc kaffir — كما لا يزال
يدعى الرجل الأسود — هو العدو الدائم ، وهو فى أحسن حالاته يمثل مشكلة
لديهم ، كما أن روح عدم التسامح لدى الوطنيين the Natives ، التى أوجدتها
الحروب المتكررة مع الإكسهوزا Xosa ، والزولو the Zulu ، والمتابيل
Matabele وغيرهم ، قد أذكتها الآن روح الخوف من المنافسة الوطنية

والقلق من أن يكون إزدياد الملونين مدعاة إلى موازاة أسلوب الحياة الغربية .
ومن ثم كان ذلك الإصرار على حاجز اللون colour bar ورفضهم لأى نوع
من المساواة بين السود والبيض . وكل الأفريكانرز ، على وجه التقريب ،
ينتمون إلى هذا الفرع أو ذاك من فروع الكنيسة الإصلاحية الهولندية ،
التى تجمع بين لاهوت غامض لكالفين Calvinus وتذوق للسياسة ، الذى
نزع إليه أعداد كبيرة من المبشرين والوعاظ بكل حماس . وليس لهذه الديانة
من أثر فى حمل الأفريكانر على التخفيف من عدم تسامحه فيما يتعلق بمسألة
اللون .

والمتكلمون بالإنجليزية من أهل جنوب إفريقيا فى معظمهم من سكان
المدن ، وهم إما من رجال الأعمال ، وإما من المشتغلين بالصناعة ، أو
العاملين بالتعدين والحرف الأخرى . وعلى كل ، ففى ناتال وجزء من الكاب
الشرقى نجد أن غالبية الفلاحين يتكلمون الإنجليزية . ويرجع الفضل فى
التنمية الاقتصادية لجنوب إفريقيا ، إلى المتكلمين بالإنجليزية من الأهالى
هناك . والمتكلمون بالإنجليزية من أهل جنوب إفريقيا ، هم المسئولون
عن أعمال التعدين والتنمية الاقتصادية ، ومد السكك الحديدية ، وإقامة
البلدان والمدن ، والقيام بأعمال التجارة والبنوك وأعمال السفن وبناء
الموانى ، بل فى الحقيقة إليهم يرجع الفضل فى تغيير وجه جنوب إفريقيا ،
من مجتمع زراعى متأخر إلى دولة حديثة شبه صناعية . وكذلك فقد أسهموا
بقدر واف جداً على غاية من الأهمية فى النواحى التعليمية والثقافية لهذا
القطر . وعلى كل ، فموقفهم نحو زملائهم من المواطنين الإفريقيين هو فى
جوهره — إلى حد كبير — نفس الموقف الذى إتخذه الأفريكانرز ، ولكنهم
أكثر من الأخيرين حذرا فى التعبير عن وجهة نظرهم .

الافريقيون :

أما السكان غير الأوربيين ، فغالبيتهم من الإفريقيين البانتو Bantu Africans الذين يبلغ تعدادهم حوالى إثنى عشر مليون نسمة وهم ينقسمون إلى أربع فئات سلالية رئيسية : النجونى Nguni ، والسوذو Sotho ، والشنجانا – تونجا Shangana-Tonga ، والفندا Venda . أما مجموعة النجونى Nguni ، التى تشمل قبائل الزولو Zulu والإكسهوزا Xosa الهامة ، فتستوطن الشرق والجنوب الشرقى ، فى ناتال وفى المديرية الشرقية للكاب ؛ وأما السوذو Sotho فتنتشر فى شكل حزام عريض من الدراكتربرج عبر دولة أورنج الحرة والترنسفال إلى بتشوانا لاند ؛ وأما الفندا فتعيش فى الجزء الشمالى من الترنسفال ؛ وأما الشنجانا – تونجا فتسكن المناطق الساحلية على الحدود الجنوبية لشرق إفريقيا البرتغالية . وعلى كل ، فمن الأهمية بمكان أن نذكر أنه على الرغم من أننا نتكلم عن الموطن القبلى Tribal home ، فإنه لا يعيش غير ثلث الإفريقيين فى المناطق التى ولدوا فيها أو – كما تدعى – مستعمرات الإقامة the reserves . والباقون يوجدون فى المدن ، وفى المزارع التى يملكها الأوربيون خارج هذه المستعمرات ، ومعظمهم يعملون كمستخدمين لدى الأوربيين .

مستعمرات الوطنيين The Reserves

والمستعمرة المخصصة لإقامة الوطنيين من الإفريقيين Native reserve هى منطقة تمثل بكيفية ما أجزاء من تلك المناطق التى كانت تستوطنها القبائل أصلا قبل الغزو الأوربى . وإن سياسة إقامة مستعمرات خاصة يعيش فيها الإفريقيون فى حرية تامة دون إستغلال أو مضايقات من الأوربيين هى فى الحقيقة سياسة كان يوصى بها بشدة الإرساليون الأوائل وآخرون

من ذوى المبادىء الإنسانية ، وهى الآن ، بعد مرور حوالى مائة وثلاثين سنة ، تشكل جزءاً هاماً من نظرية التفرقة العنصرية Apartheid التى سنبحثها فيما بعد .

هذه المستعمرات موضوعة تحت إشراف « إدارة تطوير البانتو » . أما حكم القبائل من يوم إلى آخر فهو فى أيدى الزعماء التقليديين . ومن الواجب أن نشير بوجه خاص إلى ترانسكى Transkei ، حيث أقيم هناك نظام مكون من مجالس المقاطعات (غير قائم على أسس وراثية) ويشكل أول عمل من صنع « جنوب إفريقيا » أسهمت به فى فن حكم الإفريقيين .

الافريقيون خارج المستعمرات الوطنية

ويعيش حوالى ستة ملايين إفريقى خارج المستعمرات الوطنية ، وهم منتشرون فى كل جزء من « جنوب إفريقيا » ، وعادة يعملون – كما سبق أن ذكرنا – فى خدمة الأوربيين . ومعظمهم يعيش فى المدن ، كما أن النزعة للنزوح ، بل التدفق من الريف إلى المدينــة هو الطابع الأساسى لميول السكان فى « جنوب إفريقيا » أثناء القرن العشرين ، كما كانت هى الحال فى إنجلترا أثناء القرن التاسع عشر وكون أن هؤلاء المحدثين نسبيا من سكان المدن يعيشون فى ظل أحوال رديئة فليس اللوم فى هذا كله يقع على عاتق السلطات ، فالتدفق على المدينة كان مفاجأة لهذه السلطات ؛ ورغم أنه كان قد أعد لذلك برنامج للإسكان يتسم بالطموح والنشاط ، فلابد وأن الأمر كان يتطلب مرور فسحة كبيرة من الوقت قبل أن تستطيع حركة بناء المنازل الوفاء بكل المطلوب . وعلاوة على ذلك ، فإن الفكر السياسى « لجنوب إفريقيا » كان يرى أن الإفريقى ساكن المدينة إن هو إلا ساكن عابر ، يعيش فى المدينة طالما كان يمكن الإفادة منه ، وليس من المتوقع أن يتشبث بالبقاء هناك وأن يتخذ من المدينة موطنا . ولكن بقيت هذه

الحقيقة ، أن كثيراً من الإفريقيين لازالوا يعيشون ، بل سيعيشون على الدرام في مدن غير صحية من الأكواخ تعتبر مرتعاً خصباً للجريمة والمرض. وأما أكثرهم حظاً فيسكنون في أماكن منظمة ، وأما الأكثر حظاً فأولئك الذين يجدون المسكن والمأكل لدى مستخدميهم . وبعض المدن الصغيرة تحظى بوجود مساكن إفريقية غاية في الجودة ، هذا بالإضافة إلى وجود المدارس وصالات اللهو والترفيه. وتتمثل أتعس الأحوال المعيشية في العواصم الكبرى مثل دربان وجوهانزبرج ، حيث يعيش الكثيرون من الإفريقيين في ظل أحوال شديدة من البؤس والرذيلة .

ويوجد ثلث التعداد الكلي للسكان الإفريقيين في المزارع الأوربية إما كعمال أو كحائزين للأرض بوضع اليد. ولو أن الأحوال هنا قد تختلف باختلاف المالك أو صاحب العمل من حيث الخلق والمقدرة فإن الحياة من الناحية الجسمانية أو الأخلاقية تعد أكثر صحة واستقامة .فالمسكن قد يكون من النوع البسيط ، ولكنه – على الأقل – ليس هناك ما يشينه . ومن المؤكد أن العامل يلقى كل تشجيع لإحضار أسرته معه ، التي قد تعمل هي أيضاً إذا اقتضى الأمر ذلك . والمزارعون عادة رحماء يتسمون بالإنسانية ويهتمون بشئون خدمهم . وهكذا يجد الخدم من يصغي إليهم ويلجئون إليه إذا ما وقعوا في ضائقة أو أعوزهم الأمر ، وبالإضافة إلى ذلك فهم في مأمن من حيف التطرف المقيت لتطبيق القانون وكذلك من إغارات السلب والنهب وأعمال العنف التي يأتيها المجرمون . ومن ناحية أخرى فإنه تعوزهم كل مباهج المدنية الحديثة ، إلى جانب أن الأطفال قد لا يجدون الخدمات التعليمية اللازمة كما أن العمال يتقاضون أجوراً بسيطة وليس في العمل ما قد يساعد على تربية المهارة أو غرس النشاط أما الحياة في المدينة ، فقد يكون فيها ما هو محط بالإنسانية ، ولكن من يحظون بالعمل هناك – على الأقل – يتعلمون أساليب فنية جديدة ويكسبون مهارات جديدة يستطيعون استخدامها،

ولكن في حدود ، من أجل تحسين مركزهم في الحياة .

الملونون The Coloured People :

وفي مركز وسط بين السود والبيض يأتي الملونون ، الذين قدر عددهم في آخر عام ١٩٦٠ بحوالي مليون ونصف نسمة . وهم جنس مختلط mixed سلالة الزواج أو الاتصال غير الشرعي بين الأوربيين والإفريقيين الوطنيين والملاجاش Malagaehe ، والسنغاليين والأجناس الشرقية الأخرى . وهم موزعون في القطر بأجمعه ، ولكن غالبيتهم العظمى موجودة في مديرية الكاب . وهم يعملون كصناع حرفة البناء ، وإلى حد ضئيل جداً في الحرف التي تتطلب مهارة خاصة ، أو في الأعمال المهنية كمدرسين وأطباء . ومنذ عام ١٨٥٣ ، حين حصلت مستعمرة الكاب لأول مرة على حق الحكم النيابي ، حتى عام ١٩٥١ ، كان الملونون في الكاب تجمعهم والأوربيين قوائم انتخابية واحدة . وفي السنة الأخيرة قامت الحكومة الوطنية بفصلهم من هذه القوائم تحدياً منها لواحد مما تدعى «بالبنود الحصينة» في قانون جنوب إفريقيا . وقد أدى هذا العمل إلى فقدان الملونين للشطر الأعظم من نفوذهم السياسي . فصوت الملونين كان له أثر كبير في الكثير من الدوائر الانتخابية وأثره الحاسم في العديد منها ، ومما لاشك فيه أنه كان سيدلى به ضد الحزب الوطني . أما الآن فلم يعد باستطاعة الملونين الاشتراك في انتخابات عامة ، وكذلك ، فبينما كان لهم سابقاً صوت في عدد كبير من الدوائر الانتخابية في الكاب فإنه لم يعد لهم الآن غير حق انتخاب أربعة أعضاء فقط . وقد أثارت هذه الإجراءات الكثير من الغضب في «جنوب إفريقيا» ، ليس فقط بين الملونين الذين كان تأثيرها عليهم مباشراً ، ولكن كذلك بين الكثير من الأوربيين الذين باتوا يعتقدون أن الحكومة قد خرقت الدستور .

ولو أن الكثير من الملونين يطمحون إلى تولى مراكز هى بوجه عام بعيدة عن متناول الرجل الأسود ، فما زال الكثير منهم فقراء ولا زالت مساكنهم — على وجه العموم — ذات مستوى خفيض . أما وقد جاء وضعهم من الناحيتين الإقتصادية والسياسية بين البيض والسود ، ينبذهم الفريق الأول وينبذون هم الفريق الثانى ، فإنهم يبدون أكثر عطفا على ضحايا التفرقة العنصرية .

ولعل من المناسب فى هذا المقام أن نذكر أن الأسيويين الملايو فى الكاب The Cape Malays جماعة يبلغ تعدادها حوالى ٤٠٫٠٠٠ مسلم ، وكان أجدادهم قد وفدوا من الشرق ، بعضهم كرقيق ولكن معظمهم كمنفيين سياسيين ، ثم تزاوجوا مع الأوربيين وغيرهم ، ولكنهم بقوا على دينهم . وهم أصحاب حرف مهرة ، ورجال أعمال على درجة من الفطنة والذكاء ، وعلى ذلك كانت أحوالهم الإقتصادية رائجة لا بأس بها . أما ديانتهم ، التى تغرس فى معتنقيها وتربى فيهم الشعور بالتعالى والإقتصار ، فهى منهم الدرع الذى يقيهم من حاجز اللون .

الهنود

وكان أول من أتى من الهنود إلى «جنوب إفريقيا» العمال المتعاقدون الذين جاءوا للعمل فى مزارع قصب السكر فى ناتال Natal فى حوالى عام ١٨٦٠ حين استعصى على المستوطنين البريطانيين الحصول على كفايتهم من العمال المحليين . وما لبث أن لحقت بهم أسرهم وأصدقاؤهم وتضاعف عدد الهنود ، شأنهم فى كل مكان ، وما أن جاء وقت وقف الهجرة الحرة فى عام ١٩١١ حتى كان هناك بالفعل فى هذا القطر مجتمع كبير من الهنود وفى عام ١٩٦٠ ، كان هناك من الهنود فى «جنوب إفريقيا» ما يقرب من ٤٧٧٫٠٠٠ ،

من هذا العدد يعيش حوالى الثلاثة أرباع فى ناتال ، والباقون فى الترانسفال والكاب . ومن غير المسموح به أن يعيشوا فى دولة أورنج الحرة . ومعظم الهنود يعملون بالتجارة ، وبعضهم يزرع الفاكهة لطرحها فى الأسواق . ولأنهم غاية فى الجد والإقتصاد وجدناهم يشكلون مجتمعا ناجحا كثير من أفراده من الأثرياء . وعلى كل ، فمن الناحية الاجتماعية ، فإن الهنود فى «جنوب إفريقيا» ليس من السهل تماثلهم مع المجتمع الذى يعيشون فيه . إذ أنه لديهم الاستعداد الطبيعى للتجمع تحت أية ظروف وتكوين الأحياء الفقيرة حيثما أقاموا . وفى عام ١٩٢٧ ، توصلت حكومتا «جنوب إفريقيا» والهند إلى عقد إتفاقية كيب تون Cape Town للتعاون على إنجاز مشروع للهجرة المعاونة بالنسبة للهنود الذين يرغبون فى العودة إلى الهند . ولما كان عام ١٩٤٧ ، كان قد أفاد من هذا المشروع ما يقرب من ١٥٫٠٠٠ هندى ، ولكنه أعترف فى ذلك الحين بأن إمكانية بقائه قد تضاءلت إلى حد كبير . وتتطلع حكومة «جنوب إفريقيا» فى وقتنا الحاضر إلى الأخذ بقانون مناطق الجماعات (١) « Group areas act ، وذلك من أجل تحديد مناطق إقامة الهنود . وفى خارج مديرية الكاب ، التى كانت دائما أكثر تسامحا من غيرها من المديريات بالنسبة لمسألة اللون ، ليس للهنود أية حقوق إنتخابية ، سياسية كانت أم للمجالس البلدية

---

(١) هذا القانون ، الذى صدر فى عام ١٩٥٠ ، يخول للحكومة حق إعلان أية منطقة من مناطق الجماعات بأنها مخصصة للأوربين أو الملونين ، أو الإفريقيين ، أو الأسيويين . والقصد من ذلك أنه حين يأتى الوقت المناسب سوف تعيش كل من الجماعات العنصرية فى نطاق المنطقة المحددة لها . أما الممتلكات الموجودة فى أى من هذه المناطق فلا يجوز تملكها من جانب شخص ينتمى إلى منطقة مغايرة . وكان لهذا القانون نتائج غير مواتية بالنسبة لبعض الأجناس كالهنود مثلا ، فقد يجبرون على الرحيل عن مكان قد تكون لهم فيه أعمال هامة راسخة منذ أمد طويل .

الاقتصاديات :

١ — التعدين :

يعرف « جنوب إفريقيا » بوفرة معادنه . ولعل أبرزها وأهمها هو الذهب . فأكثر من نصف إحتياطي الذهب في العالم يأتي من « جنوب إفريقيا » ، وأكبر جزء من هذا الناتج يأتي من الترنسفال . لقد أكتشف الذهب في الوتووترسراند Witwatersrand في عام ١٨٨٦ . وسرعان ما إجتذب إليه أعداداً كبيرة من الباحثين عن الثروة الذين قاموا ببناء قرية جوهانزبرج فوق تلك القمة العارية الشديدة الرياح . وجوهانزبرج الآن مدينة آهلة بالسكان ، ومركز منطقة عظيمة التعدين تشكل هلالا يمتد مائة ميل شرقا ومائة ميل غربا قبل أن يستدير جنوبا ليجرى مائة ميل أخرى في دولة أورنج الحرة . وبحذاء هذا الهلال توجد حقول الذهب تضم خمسة وخمسين منجما تنتج إنتاجا وفيراً . بينما لا تزال هناك ستة مناجم أخرى في طور التكوين . وثمة ثلاثة مناجم شهيرة : Robinson Deep, City Deep Crown ، تقع على مسافة تتراوح بين ثلاثة أو أربعة أميال من « جوهانزبرج سيتي هول » Johannesburg City Hall . وفي بعض الأمكنة تجرى عمليات الحفر إلى أعماق بعيدة جداً . فمنجم E.R.P.M. الذي يبلغ عمقه ١١٫٣٠١ قدم يعد أعمق منجم في العالم . وفي عام ١٩٦٠ ، كان الناتج من مناجم الذهب في جنوب إفريقيا يوازي حوالي ٢٦٠ مليون جنيه إسترليني .

ومنذ أربع وتسعين سنة تصادف أن عثر صبي صغير ، إبن الفلاح يدعى جاكوب Jacobs ، على حصاة على ضفة نهر أورنج . وإتضح أن هذه الحصاة ماسة تزن ٢١ وثلاثة أرباع قيراطا . ثم كان أن أكتشفت فيما بعد

عروق من الماس في كمبرلي Kimberly ، وهكذا وضع الأساس لصناعة كانت تمد بالأموال اللازمة لغزو إفريقيا الوسطى وبناء مناجم الذهب في إقليم Witwatersrand . أما مناجم الذهب الرئيسية في « جنوب إفريقيا » فهي تلك التي توجد حول كمبرلي ، ومنجم Premier Mine بالقرب من بريتوريا ، ثم منجم Jagersfontein في دولة أورنج الحرة . أما أحجار الماس الرسوبية فهي تلك التي توجد في أو بالقرب من نهر فال في القرب من كمبرلي ، وفي الجنوب الغربي للترنسفال ، وعند مصب نهر أورنج . أما ماسة الكالينان Cullinan التي كانت تزن رطلا ونصف رطل فكانت أكبر ماسة بيضاء أكتشفت ، وقد وجدت في منجم Premier Mine عام ١٩٠٥ . وهناك حجر رسوبي — ماسة يونكر Jonker التي تزن ٧٢٦ قيراطا وكانت في حجم بيضة الدجاجة — وجد بالقرب من منجم Premier Mine في عام ١٩٣٤ . وقد وضعت هذه الصناعة تحت إشراف دقيق حتى لا يكون هناك تضخم يؤدي إلى هبوط في الأسعار .

وبالإضافة إلى الذهب والماس فإن « جنوب إفريقيا » يصدر أنواعا عديدة من المعادن . ويذكر الكتاب السنوي بنوع خاص أسماء ثلاثة وأربعين معدنا بالإضافة إلى عدد آخر تحويه القائمة ولم تسمه ، وكذلك هناك إنتاج لشبه الأحجار الكريمة . والذهب أقيم المعادن المصدرة . وأما المعادن الصاعدة فهي اليورانيوم ، والماس ، والنحاس ، والأسبستوس asbestos ، والمنجنيز ، والكروم . وعلينا أن نذكر أن كثيرا من المعادن يستخدم على نطاق واسع في الصناعات المحلية . وهذا ينطبق على وجه الخصوص على الفحم والحديد الخام اللذين لا يصدر من إنتاجهما غير النزر اليسير .

ويقدر عدد العاملين بالتعدين بحوالي نصف مليون عامل ، ولكن من

الحال إحصاءكم من الناس تتأثر حياتهم عن طريق غير مباشر بهذه الصناعة
ولعله من الصواب أن نذكر أن كل شخص تقريبا فى « جنوب إفريقيا »
تتأثر حياته بطريقة أو بأخرى بالتعدين ، وأن الحال ستستمر كذلك إلى
مدى طويل .

٢ — الصناعات :

ولقد لقى قيام الصناعات فى « جنوب إفريقيا » حافزا قويا إبان الحرب
العالمية الثانية حين أصبح من العسير ، إن لم يكن من المستحيل ، الحصول
على بعض أنواع معينة من السلع من وراء البحار . وكان أهم تطور حدث
هو قيام صناعة الصلب . فقد قامت الحكومة بتكوين « هيئة الصناعات
الحديد والصلب » ISCOR ، التى كانت تستخدم الخامات المحلية من الحديد
والفحم وتهـــدف إلى أن يكون إنتاجها السنوى بحلول عام ١٩٦١ هو
٢٫٢٥٠٫٠٠٠ طن من الصلب ، وكذلك تعد صناعة المنسوجات غاية فى
الإزدهار . وثمة صناعات هامة أخرى مثل صناعة المعادن ، والكيماويات
والطباعة ، وصناعة السيارات ، والأحجار الكريمة ، والوقود ، والإنارة
والقوى الصناعية المحركة .

٣ — الزراعة وتربية الحيوان :

كان الفلاحون من الأوربيين الأوائل فى « جنوب إفريقيا » يزرعون
القمح والكروم فى شبه جزيرة الكاب أو بالقرب منها . ولما انتشر السكان
فى مناطق بلغ من شدة جفافها أن إستحال قيام الزراعة وجدناهم يأخذون
أنفسهم بتربية الماشية . إلا أن زراعة الكروم لا تزال تسود الزراعة فى
مناطق معينة من إقليم الكاب ، وهكذا جاء « جنوب إفريقيا » لينتج
أنواعا متعددة من النبيذ الجيد . أما صناعة منتجات الفاكهة التى تقوم هناك

فهى ، نسبيا ، حديثة الوجود ، ولكن على عظيم من الأهمية . وتقوم على
زراعة قصب السكر صناعة كبرى فى الحزام الساحلى لزولولاند وناتال .
وأما التبغ فيشكل محصولا إقتصاديا ناجحا آخر ، وينمو بوفرة حول
رستنبرج Rustenburg فى الترنسفال . ولعل أهم الحبوب جميعا هو الذرة ،
ويعد واحـــداً من أقيم الحاصلات الغذائية بالنسبة للإفريقيين . ويقوم
بزراعته كل من البيض والسود فى منطقة «مثلث الذرة» the maize triangle
فى الترنسفال ودولة أورنج الحرة . ويلى الذرة فى الأهمية القمح والشوفان
والسرغو sorghum ، والشعير والشيلم . أما صناعة منتجات الماشية والألبان
فلا تفى لغير الإستهلاك المحلى ولا يتبقى منها أى فائض للتصدير . وهناك
حوالى ١٤ مليون رأس من الماشية يقوم بتربيتها كلا الأوربيين والإفريقيين .
ويعتبر النوع الأفريكاندر أساس وجود كل الأبقار وماشية الألبان ، وهذا
النوع نتيجة الإرتقاء والإختيار من بين السلالات الوطنية .

وأعظم أهمية من الماشية هى الأغنام ، تلك التى جىء بها فى أول
الأمر من هولندا إلى « جنوب إفريقيا » عام ١٦٥٤ ! . وحوالى ٨٠٪ من
الأغنام الآن من النوع المارينو التى تبين لهم ، فى أوائل القرن التاسع عشر ،
أنه من المستطاع أن تتكيف وأحوال « جنوب إفريقيا » على نحو أتم .
ويعد الصوف من أهم غلات هذا القطر ، ويأتى بعد الذهب مباشرة فى قائمة
الصادرات . ومعظم الصوف يأتى من إقليم الكاب — وعلى الأخص من
الكارو العظيم The Great Karroo — الذى يلائم تربيـــة الأغنام على
وجه الخصوص .

أما الزراعة فى المناطق المخصصة للوطنيين فهى تعانى من العيوب
المعتادة فى الفلاحة الإفريقية ، ومن ثم كان الإنتاج أقل مما يجب . وأما عن
الحاصلات الأساسية فهى الذرة ، والدخن ، والسرغو ، والفول والبطاطا .

والماشية أهمية إجتماعية ودينية كبيرة ؛ ويفضل الكم عادة على الكيف ، ولهذا كانت ماشيتهم ضعيفة صغيرة الحجم ، ولو أنه هناك ماليس كذلك .

وعموما ، فإن الفلاحة فى « جنوب إفريقيا » لا تبشر بالخير الكثير . لجزء كبير من القطر جاف مجدب ، كما أن التربة فى كثير من المناطق قليلة الجودة . وكذلك فهناك تحات كبير ، ليس فقط فى المناطق المخصصة للوطنيين ، ولكن أيضا فى المزارع الأوربية . ولقد زاد من هذه الأحوال الطبيعية غير المواتية نزوح القرويين من السكان إلى المدن ، ونكوص أولئك الذين إستمروا فى الفلاحة عن الأخذ بالأفكار الحديثة والطرق المستحدثة . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المجال أن الإتهام ليس موجها إلى الإفريقيين وحدهم بالمغالاة فى المحافظة على القديم .

٤ — المواصلات :

لما كان لجنوب إفريقيا خط ساحلى مستو ، فقد قل وجود موان من الطبقة الأولى . فصبات الأنهار كلها على وجه التقريب تعوقها السدود الرملية ، كما أن الخلجان المحمية لا يكاد يوجد منها شىء على الإطلاق . وعلى كل ، فالموانى الموجودة هناك صالحة تماما . ولعل أكثرها حركة ميناءا كيب تون ودربان Cape Town & Durabn ، ثم يلى ذلك ميناء پورت إليزابث ، فميناء إيست لندن ، فميناء موسل باى Mossel Bak .

ولقد أتبع كشف الماس والذهب إنشاء الخطوط الحديدية ومدها إلى مسافات بعيدة ، وهكذا جاءت السكك الحديدية بجنوب إفريقيا لتربط الداخل بالموانى ولتخدم كل المناطق الهامة فى القطر . وكذلك هناك خط حديدى يمتد من كيب تون عبر محمية بتشوانالاند إلى روديسيا الشمالية والجنوبية ، والكنغو ونياسالاند . وكذلك هناك هيئة النقل البرى التى

تخدم المناطق الريفية . وبالإضافة إلى ذلك فهناك نظام شامل من الخدمات الجوية الذى يخدم الكثير من المراكز الهامة بالقطر ويربط « جنوب إفريقيا » بالعالم الخارجى .

الاقتصاد والسكان

لقد جاء التطور الاقتصادى لجنوب إفريقيا ، فى معظمه ، نتيجة لإستغلال المعادن . فالتعدين كان السبب فى بناء السكك الحديدية وتشييد الصناعات ونمو المدن وقيام أسواق راسخة لتصريف المنتجات الزراعية . ولم تكن النتائج الاجتماعية بأقل أثرا . فأهل الريف ، من السود والبيض ، قد نزحوا إلى المدن فى أعداد كبيرة . وكان من نتائج هذا عند الوطنيين أن إختفت الآداب والعادات القديمة المتميزة بالبساطة ، وإنمحى الولاء للقبيلة . ولو أن هذا قد يصدق كذلك على الرجل الأوربى فقد كان له أثر آخر سياسى ؛ فبينما كان من المسلم به ، على وجه العموم ، فيما سبق ، أن الحزب القومى كان فى غالبيته الساحقة حزبا ريفيا يعتمد على أعوانه من الفلاحين الأفريكانرز ، فإن الحال لم تعد كذلك . فقد جاء الأفريكانر Afrikaner ليغزو ، ويهدد ، الدوائر الانتخابية فى المدينة ، تلك الدوائر التى كان يعتبرها « الحزب الإتحادى » the United Party هى حقه دون منازع . وعلى ذلك ، فقد أصبح من المحتمل أنه مالم يحدث هناك خلل بين صفوفهم أو إضطراب مدنى خطير فإن القوميين سيبقون فى الحكم لعدة سنوات فى المستقبل .

ومن النصف مليون إفريقى المستخدمين فى صناعة التعدين يأتى أقل من نصف هذا العدد من الجمهورية ذاتها . أما الآخرون فيأتون من الأقاليم أو المستعمرات المجاورة . وهناك ثلاثة أنواع من عقود العمل ؛ فتحت نظام

النوع الأول نجد أن أقل فترة للإرتباط بالعمل هى ١٨٠ دورة . وأما العمال المرشحون للعمل فيجرى فحصهم طبيا بأحد المراكز الكائنة بنفس القطر الذى وفدوا منه ، ثم يرسلون على نفقة الصناعة إلى المنجم الذى يقع إختيارهم عليه . وهنا ، مرة أخرى ، يعاد فحصهم طبيا ؛ أما المرفوضون فيرسلون إلى أوطانهم ، على نفقة الصناعة كذلك . أما النوع الثانى من التعاقد فهو « النظام الإختيارى المعان » Assisted Voluntary System ، الذى بمقتضاه يقبل العمال بعد فحص طبى فى الجمهورية أو فى الأقاليم التابعة للمندوب السامى ويتعهدون بالتقدم بطلباتهم للعمل فى أحد المناجم فى مدى ثلاثين يوما . ويتلقون سلفة للسفر ويختارون المنجم الذى يرغبون العمل به بعد فترة وجيزة من التعاقد . وتعاد إليهم نفقات سفرهم إذا هم أتموا فترة عمل مستمرة قوامها ١٨٠ دورة تحت الأرض . وأخيرا فهناك أولئك الذين يسعون بأنفسهم إلى المناجم ، وهؤلاء يصير إرتباطهم كذلك على أساس « النظام الإختيارى المعان » . وكثيرون من الفئة الأخيرة يستخدمون فى العمل على ظهر الأرض . وأما الحياة فى منطقة المنجم فهى أشبه شىء بحياة الرهبان ، وقد يخالها المرء قذرة مملة ، ولكن الطعام يحضر جيدا وبطريقة علمية كما تراعى الشئون الصحية بكل عناية ويحظى العمال برعاية طبية فائقة . ويختار مديرو التعدين ممن لهم خبرة عميقة بالإفريقيين ومعرفة جيدة باللغات الإفريقية ، وهم لا يدخرون جهدا فى سبيل بث روح الحماس بين العمال وتوفير الراحة النفسية لهم . ويلاحظ أن عمال المنجم يكونون عادة أحسن صحة فى نهاية تعاقدهم منه عند بداية العقد ، ويتضح من عودتهم للعمل بالمناجم المرة تلو المرة أن العمل ليس غير مؤات . أما الصناعات الأخرى فيعمل بها حوالى ١/٢ مليون من الوطنيين . وهنا نجد أن الأجور أعلى بكثير منه فى التعدين ، ويرى الوطنى بعض الأمل فى تحقيق شبه المهارة فى عمله . ومن

ناحية أخرى ، فإن الظروف ليست دائما مأمونة ، وقد يواجه المستخدم بكثير من المضايقات ، مثل عدم إستطاعته الحصول على مسكن ، تلك المضايقات التى لا توجد فى حالة التعدين .

ومع إستيراد الرقيق للعمل لدى المستوطنين الأوائل جاءت « شركة الهند الشرقية الهولنديه » لتضع أسس نظام العمل فى « جنوب إفريقيا » التى بمقتضاها تصير الأعمال الشاقة من نصيب الوطنيين . ولو كان فى ذلك الوقت قد اتخذ قرار باستيراد وتشجيع العمال البيض لمكان الطرف الجنوبى من إفريقيا قد أصبح بلد الرجل الأبيض ، مبنياً - مثل أستراليا ، وكندا ، ونيوزيلاند - بأيدى البيض من العمال . وفى جنوب إفريقيا يعتبر الرجل الأبيض نفسه معفيا من أداء العمل البدنى الشاق ، إذ أن هذا يعتبر من نصيب الرجل الأسود . وهكذا نجد الاقتصاد الصناعى لجنوب إفريقيا مقسما إلى طبقتين أفقيتين ، إحداهما فوق الأخرى ؛ فإبتداء من الرئيس الأعلى لأى عمل من أعمال التعدين ، هبوطا إلى الرئيس المشرف على مجموعة من الصبيان ، فإنه الرجل الأبيض هو الذى يشرف ويدبر ، والرجل الأسود هو الذى يقوم بالأعمال البدنية . وفى مجال الحرف نجد أن حاجز اللون الصناعى ، المراعى فى مجال الصناعة ، يقوم حائلا بين السود والحرف التى تحتاج إلى مهارة فيختص بها الأوروبيون ؛ ورغم المساوىء الاقتصادية لهذا النظام وما أدت إليه من ارتفاع فى التكاليف ، فان إتحادات الحرف الأوروبية لازالت تحرص على بقائه .

المشكلات العنصرية :

ويعزى موقف جنوب إفريقيا من مسألة اللون - إلى حد ما - إلى التاريخ . فأول من رأى المهاجرون الأوائل من الإفريقيين هم الهوتنتوت والبوشمان ، الذين كانوا يتخوفون من أى إقتراح (كذلك الذى أبداه الإرساليون) يرمى إلى إشراكهم فى أى عمل مع أناس كهؤلاء . ولقد

أعقبت فترة الإستيطان الأولى أخرى توسعية ، فإذا بالمستوطنين فى توسعهم يقعون فى صراع مع قبائل البانتو . ولا يكاد يكون هناك وقت من الأوقات ، حتى أواخر القرن التاسع عشر ، لم تكن هناك فيه حرب أهلية فى أحد الأرجاء . وهكذا جاء الإفريقى لينظر إليه على أنه العدو ، فإذا كان من المستطاع إخماده وكبته فلبعض الوقت ، ولكن مما لاشك فيه أنه يتحين الفرصة لقيام شاكا جديد a new Shaka أو دنجان جديد a new Dingaan ليتبعه فى حرب ضد البيض . وإلى جانب الخوف من قيام الثورة والخوف من المذابح علينا أن نضيف الآن الخوف من المنافسات الإقتصادية والسياسية . « فلنمنح السود المساواة التامة فى عالم التجارة والسياسة فيكتسحوننا لمجرد تفوقهم فى العدد » ، هكذا يقول البيض . وأخيراً فهناك الخوف الاجتماعى الذى ينعكس فى هذا السؤال الذى تردده الألسن ، « كيف ترضى لأختك بأن تتزوج زنجيا ؟ » .

هذه العوامل أدت إلى قيام حاجز اللون colour bar الذى يحول بين غير البيض وبين أى اشتراك أو اندماج على قدم المساواة فى مجتمع البيض ، فالرجل الأسود لا يعيش مع الأبيض ، ولا هو يأكل أو يشرب معه ، ولا يدرس أو يعمل أو يلعب أو يستحم أو يسافر معه ، ولا هو يرتاد أماكن اللهو التى يذهب إليها ولا أماكن العبادة ، ولا حتى يصافحه باليد . والمكانة الوحيدة للرجل الأسود فى مجتمع البيض إنما هى مكانة الخادم أو العامل الذى يؤدى عملا غير أعمال المهارة .

وسياسة التمييز هذه التى أتبعت ضد الملونين فى « جنوب إفريقيا » قد أثارت كثيراً من النقد فى عالم غالبيته من الملونين . ومثل هذا النقد قد يأتى مسموما من بعض أقطار قد تكون أحوالها الداخلية ، فيما عدا بين الطبقات الحاكمة ، أسوأ بكثير منه فى « جنوب إفريقيا » . وعلى كل ، فكثير من

الاتهامات كانت صحيحة ، وأما « جنوب إفريقيا » ، فرغم اقتناعها بأنها الدولة الوحيدة التى سلكت هذا السبيل ، فقد آثرت فى ردها على هذه الاتهامات إلا أن تكون أكثر زيغاً ومضياً فى هذه السياسة .

ونظرية التفرقة العنصرية Apartheid ، التى تعنى الفصل والعزل separateness ، ليست فى الجوهر — شأن حاجز اللون — توكيداً للسبق والتفوق superiority ، ولكنها تعنى فقط أن الأبيض والأسود سيعيش كلاهما منفصلا عن الآخر . وكما يقول الكتاب الدليل بطريقة ملطفة ، « إن المقصود أنه حين يأتى غير الأوربيين إلى تطوير مناطق إقامتهم فسوف يتولون هم أنفسهم وظائف العمل فى المكاتب ، والمدارس ، والشرطة ، والمستشفيات ، إلى غير ذلك من الأعمال ، فتتاح لهم بذلك فرص التقدم والترقى التى لم تكن متاحة لهم من قبل » . وبينما أن المقصود من حاجز اللون هو حماية وضع أو مركز مميز ، فإن التفرقة العنصرية Apartheid خطة ، بمقتضاها يستطيع جنسان أن يعيشا جنباً إلى جنب دون احتكاك .

والأفريكانر لا يميل بطبعه إلى الاختلاط بالعناصر الأخرى سواء أكانت من البيض أم السود ، وعلى ذلك فالتفرقة العنصرية ليست شيئاً جديداً بالنسبة له . ومن الواضح أن البوير الذين رحلوا عن مستعمرة الكاب عام ١٨٣٦ ، قد حاولوا جهد استطاعتهم فى أول الأمر أن يتحاشوا الوقوع فى أية تعقيدات مع الإفريقيين ولكنهم لم يفلحوا فى ذلك لأسباب عدة ، وحتى أولئك الذين توغلوا بعيداً جداً بحثاً عن الأراضى الخالية سرعان ما وجدوا أنفسهم يعقدون الصداقات أو يقعون فى خلافات مع القبائل الوطنية . ولو كان البوير شعباً من صغار الملاك وكان « جنوب إفريقيا » قد بقى دولة زراعية رعوية فقيرة ، لكان من المحتمل قيام نوع من التمييز العنصرى . ولكن ما حدث هو أن كل فرد من البوير كان يعتبر أنه من

حقه بحكم مولده أن تكون له مزرعة لاتقل مساحتها عن ٦٠٠٠ فدان ، وعلى ذلك كان مضطراً إلى أن يضم إليه الملكيات الزراعية للوطنيين ، فأصبح بذلك أصحابها الأصليون أتباعا له أو ملاكا بوضع اليد ؛ ثم كانت الثورة التى استحدثها التعدين والتى جاءت المناطق الصناعية بالآلاف من الإفريقيين ، ثم بالملايين ، ليعيشوا فى وئام مع الرجـــل الأبيض . وكان المقصود بالتفرقة العنصرية Apartheid أن تبعث من جديد الفصـل بين الأجناس ، وأن توقف إجراء كان يعتبره أهالى « جنوب إفريقيا » محطا بالإفريقى ومثار تهديد للأوربى . فالمكان الصحيح للإفريقى هو بين قبيلته داخل مستعمرة الإقامة والحكم الذى يخضع له ليس ديموقراطية نيابية بل حكم قبلى تقليدى ، وعلى ذلك فهو ليس بحاجة إلى أية حقوق انتخابية . وحيث نجد أن الإفريقيين ، لسوء الحظ ، قد انقطعت بهم صلتهم عن الحياة القبلية ولم يعد لهم من موطن آخر غير المدينة ، تتخذ الإجراءات بمقتضى « قانون مناطق الجماعات » the Group Ayeas Act لإسكانهم فى المناطق المخصصة لهم ، على مبعدة من تلك التى يعيش فيها الأوروبيون . وفى ذات الوقت ــ وهذا ليس من ابتكار القوميين ــ يخضع الإفريقيون فى المدن لعدد من التقييدات المهينة ، ولعل أشقها قوانين المرور . فهذه كثيراً ما توقع الإفريقيين فى صراع مع الشرطة ، وتغص المحاكم بالمخالفين للوائح ، وتملأ السجون بأناس ليسوا أصلا بمجرمين .

والتفرقة فى أنقى أشكالها ليست بنظرية عنصرية لايمكن الدفاع عنها . بل يمكن القول بأن العناصر المختلفة ستكون أسعد حالا إلى حد كبير إذا هى عاشت منفصلة عن بعضها وليس لأحدها مطالب قبل الأخرى . ولسوء الحظ أن الآتى هو ما كان قائماً بالفعل : لقد اعتاد الرجل الأبيض وجود الرجل الإفريقى فأصبح يرى فيه الأساس المكين لكل كيانه (ولننظر إلى مناجم الذهب) بحيث لايستطيع الاستغناء عنـــه . ومن جهة أخرى فإن

الإفريقى لم يفته أن يطالب بنصيب كبير فى كل الأشـــياء التى يواصل الأوربى الأكثر ذكاء فى صنعها وابتكارها فالأسود والأبيض قد أصبحت الآن حياتهما غاية فى التشابك بحيث لم يعد من المستطاع فصـــل أحدهما عن الآخر .

والتفرقة كذلك تحول بينها الأحوال الطبيعية وحدها . فمستعمرات الوطنيين التى تمثل ١٣ ٪ فقط من أراضى القطر غاية فى الازدحام بالسكان . ولإنشاء بانتوستان Bantnstan يستطيع فيها الإفريقى أن يعيش فى رحب وسعة مثلما يعيش ، مثلا ، فى نيجيريا أو تنجانيقا ، فى ظل حكومته هو ، وله مدارسه ومستشفياته إلى غير ذلك من الخدمات ، وعنده من الموارد ما يعينه على ذلك ، يكون من الضرورى رسم خريطة جنوب إفريقيا من جديد حتى يجـــد كفايته من الأرض التى تفى بكل حاجاته ، ولتكن مثلا حوالى ثلثى المســاحة الكلية الموجودة ، فى شكل قطع متجانسة مع وجود حصانات ضـد سوء استخدامها . ولن يشمل التحويل المساحات العارية وحدها ، بل الموجودات الاقتصادية كذلك ، وسوف يتحتم الاعتراف بأن المناجم ، والموانى ، والسكك الحديدية ، إلى غير ذلك سيشملها التحويل وبأن تتخذ الترتيبات لكى تعمل هذه المرافق وفقاً لصالح المالكين الجدد . أما الأموال الأوربية ، والعقول الأوربية ، والأساليب الفنية الأوربية فسوف يحتاج إليها لسنوات ، ولكن سيأتى الوقت الذى ستنشأ فيه هيئة مدنية إفريقية ويختفى بالتدريج طاقم الموظفين الأوربيين . فإذا ما جرى تحويل الأرض تكون للأوربى حرية اعتبار الباقى وطنا للرجل الأبيض ، وعليه أن يعمل كأى فرد آخر إذا هو أراد أداء عمل من الأعمال ، وأن يعرق ويكد دون معاونة الملونين ، فيؤديه على وجـــه أفضل . هـذه هى التفرقة العنصرية الصحيحة True Apartheid ، ولا يعقل أن تكون

هناك حكومة لجنوب إفريقيا تستطيع حتى بمجرد طرح هذه الفكرة وتبق فى الحكم .

فإذا ما صرنا إلى نبذ التفرقة العنصرية ، فما الذى يتبقى عمله ؟ لا شىء غير إجراء تغيير جذرى فى النظام الحالى . فالأجناس قد تبقى حيث هى لتعيش جنبا إلى جنب فى حياة متشابكة، ولكن هناك لونان على الأقل من حواجز اللون يتحتم إلغاؤهما ، الصناعى والسياسى . ففى مجال الصناعة ، وفى مجال المهن سيكون من اليسير على الأوربيين الأكثر كفاءة وإنتاجا أن يبقوا فى مراكزهم ، ولكن هناك من الإفريقيين من آلوا على أنفسهم إلا أن يصلوا إلى أعلى السلم ، ويجب ألا يكون هناك ما يحول دون ذلك . أما الأوربيون الأقل كفاءة فعليهم أن يتعلموا أنه قد إنقضى منذ أمد بعيد ذلك الوقت الذى كان فيه الحصول على ميزة معناه الكف عن الإشتغال بالمعول والجاروف . وفيما يختص بالسياسة فليس من الضرورى أن تكون هناك قوائم عامة للانتخابات ، ولكن الإفريقى من الواجب أن يمثل تمثيلا كافيا فى كل من البرلمان والحكومة المحلية بممثلين من جنسه . وثمة إجراء تشريعى الإصلاح غاية فى الأهمية ، ألا وهو إلغاء قوانين المرور ، وإلا فلتطبق على الجميع . وفى الحقل الاجتماعى ، قد يكون من المرغوب فيه إجراء نوع من التقسيم للمناطق السكنية على أساس من العنصر . ولكن إذا تم هذا فعلى أساس من الحنو والعطف ، كما أنه من الواجب إمداد كل المناطق بالخدمات الصحيحة . أما العلاقات الشخصية بين الأجناس وبعضها فهى إلى حد كبير مسألة عادة ووجهة نظر ، ومن العسير أن يكون هناك تشريع خاص بهما . ومن الواجب بذل الجهود نحو تحسين آداب السلوك عند الرجل الأوربى فى الطريق العام نحو مواطنيه من الإفريقيين . وثمة كلمات مثل Kaffir (كفير) ؛ nigger (زنجى) ، Coon Coolie (أجير

أو فاعل) من الواجب ألا تعتبر ضمن الحصيلة اللغوية للأناس المحترمين ، وألا يصدر من الأقوال أو الأفعال ما يعد تسافلا وإستبدادا . ولعل من أهم الإصلاحات الممكنة وأيسرها وأنجعها جميعا إصلاح السلوك .

الجمهورية :

إن الإستفتاء الذى حول إتحاد جنوب إفريقيا إلى جمهورية إنما جاء لصالح البيض فقط ، وهذا يعنى أن ما يزيد على عشرة ملايين من رعايا صاحبة الجلالة قد انقطع بهم ولاؤهم بفعل تصويت ما يقل عن مليون آخر دون أن يؤخذ رأيهم ، وإلا فضد إرادتهم . وليس فى الإمكان تقدير كم من التأييد العام كان هناك للإنسحاب من الكمنولث ، وربما كان بقدر ما كان هناك للجمهورية ، وربما أقل . ولابد من المبادرة بالتنويه بأن الاستفتاء كان يدور حول الشئون الداخلية أكثر بكثير منه حول مسألة الملكية Monarchy أو الجمهورية ، وقد تتمثل النتيجة فى فوز الحكومة بالثقة بأغلبية ضئيلة فى التصديق على سياستها الوطنية . وعلى كل، فمن غير المحتمل أن التغيير إلى الجمهورية سيؤثر على حالة الإفريقيين ما دام أن قوة الحكومة البريطانية فى التأثير على السياسة الوطنية لجنوب إفريقيا لا يمكن أن تكون أضعف مما كانت عليه بالفعل . ومن ناحية أخرى ، فإن جمهورية يستبعد منها تيسير قيام وحدة بين الشعب بفصم عرى الولاء ، الاستعمارى ، الذى يكنه أهالى «جنوب إفريقيا» البريطانيون كما عد القوميون the Nationalists لمن المحتمل كثيراً بأن تزيد من الصدع بين قسمى البيض . وليس من المحتمل، بعد أن يأتى المنتصرون القوميون على الآثار الأخيرة للسيادة البريطانية المطلقة ، أن يبقوا على ما يتبقى من التراث الإنجليزى . وقد يتوقع الناطقون بالإنجليزية من أهالى «جنوب إفريقيا» أن يروا لغتهم وهى تتوارى يوما بعد يوم بالنسبة للغة الأفريكانز Afrikaans ، وأن يروا فرصهم فى الحصول على

المراكز الحكومية فى تناقص مستمر ، بينما تصعب عليهم أكثر من ذى قبل المحافظة على صلاتهم مع بريطانيا ، والعالم الخارجى وقد يؤدى بهم تفتيت مركزهم على هذا النحو إلى إنفجار عنيف .

إن مستقبل « جنوب إفريقيا » كجمهورية خارج الكمنولث غامض حقا . ففكرة أن مجتمعا صغيرا منقسما على نفسه من الأوربين يشغل مركزا إستراتيجيا هاما فى الطرف الجنوبى من إفريقيا ، تغمره أعداد غفيرة من الشعوب الإفريقية المحيطة به ، ويباشر سياسات معادية لكل من الإفريقيين وبقية العالم ، ثم يستطيع المحافظة على مركزه فى عزلته وتحديه انما هو الامحض وهم وخيال .

إفريقيا الجنوبية الغربية

South West Africa

القطر :

تبلغ مساحة « إفريقيا الجنوبية الغربية » حوالى ٣٢٠٠٠٠ ميل مربع ، وهى تشغل الجانب الأجف من القارة إبتداء من كلهازى إلى المحيط الأطلنطى . ومعظم هذا الإقليم عبارة عن هضبة يبلغ معدل إرتفاعها ٣٦٠٠ قدم تتخللها عدة سلاسل جبلية . والحزام الساحلى هو الصحراء المسماه Namib . وليس هناك فى هذا الإقليم نهر دائم الجريان ، والمجارى المائية الوحيدة الجارية إنما هى تلك التى على الحدود ، نهر أورنج فى الجنوب ونهرا كونين وأوكافانجو فى الشمال . أما سقوط الأمطار فشىء لا يمكن الاعتماد عليه كما أن القحط كثير الحدوث . وأعلى معدل للمطر هو ذلك الموجود فى الركن الشمالى الشرقى ، الذى يعد كذلك أكثر أجزاء الإقليم إزدحاما بالسكان وأشدها كثافة . أما الهضبة الكائنة حول وندهوك Windhock

العاصمة ، فينمو بها العشب فى مساحات مترامية ، ولذا كانت صالحة جداً لتربية الدواب والماشية . أما قطاع كابريفى Caprivi Strip فهو لسان متقلب من الأرض طوله مائة ميل وعرضه ثلاثون ، وهو يجرى غربا من الطرف الشمالى الشرقى للإقليم ليفصل أنجولا وجزءا من روديسيا الشمالية عن محمية بتشوانالاند وهو تروية بغزارة مياه أنهار أوكافانجو ، كواندو أو لينياتى ثم الزمبيزى ، وكثيراً ماتغمره مياه الفيضان فى بعض الأنحاء .

الاستعمار الألمانى وما بعده

فى عام ١٨٨٢ إشترى تاجر ألمانى يدعى فرانز لودريتز Franz Luderitz مساحة من الأرض حول Angra Pequena من الزعيم المحلى للجهة . ورفضت الحكومة البريطانية أن تفيد من الفرصة السانحة حين طلب إليها المستشار الألمانى بسمارك أن تكون هى السلطة الحامية لها ، وكان أن رأى بسمارك نفسه ، فى عام ١٨٨٤ ، بعد مفاوضات طويلة مملة أن يؤمن لودريتز Luderitz ورفاقه بالحماية الألمانية . وقد أدى هذا إلى إحتلال ألمانيا لبعض المستعمرات والأراضى الداخلية . وفى عام ١٩٠٣ قامت قبيلة هيريرو Herero بثورة فى وجه الألمان ، تلك الثورة التى أخمدت بوحشية مروعة بلغ من شدتها أن هبط عدد أفراد القبيلة من ٨٠ر٠٠٠ إلى ١٥ر٠٠٠ فقط . وإشترك الهوتنتوت فى الثورة ، ولم يتمكن الألمان من إستعادة سلطانهم حتى عام ١٩٠٨ . ولم تكد قوانين إصلاح النظام الإستعمارى الألمانى تبدأ فى مباشرة مهامها حتى قامت الحرب فى عام ١٩١٤ ووقع « جنوب غرب إفريقيا » فى قبضة قوات « جنوب إفريقيا » . ولما إنتهت الحرب خولت « جنوب إفريقيا » حق الإنتداب لإدارة الإقليم نيابة عن عصبة الأمم . وكان أن شمل الإقليم موضع الإنتداب قطاع كابريفى

Caprivi Strip . ونظرا لصعوبة الوصول إلى القطاع وما إستتبع ذلك من صعوبة إدارته من «جنوب غرب إفريقيا» ، فقد وضع تحت إدارة الإتحاد the Union .

وينقسم إقليم «إفريقيا الجنوبية الغربية» ، من الناحية الإدارية إلى المنطقة البوليسية the Police Zone ، وهى عموما منطقة الغزو الألمانى ، والمنطقة القبلية the Tribal Area التى تقع فى أقصى شمال الإقليم . ففى المنطقة البوليسية نجد أن نظام الحكم هو الحكم المباشر ، وهو يقوم على أساس من القانون الأوربى . أما إدارة المنطقة القبلية فمتروك أمرها — إلى حد كبير — للسلطات التقليدية .

حالة الإقليم :

وفى نهاية الحرب العالمية الثانية جاءت «جنوب إفريقيا» ، وحدها دون سائر الدول المشرفة على الإنتدابات ، لترفض وضع «إفريقيا الجنوبية الغربية» ، تحت وصاية الأمم المتحدة على أساس أن هيئة الأمم المتحدة لم تكن هى بالوريث الشرعى للعصبة الراحلة ، وأن الأخيرة لم يكن لها سلطة تحويل مهامها إلى أية هيئة أخرى . وبالإضافة إلى ذلك ، فقد إقترحت «جنوب إفريقيا» ، بالنسبة للعلاقات الوثيقة بين القطرين ، بأن تضم «إفريقيا الجنوبية الغربية» إلى الإتحاد كمديرية خامسة ، وأيدت هذا العرض بقولها إن أغلبية الوطنيين فى جانب هذا الرأى .

ورغم المزيد من الضغط الدولى ، فإن «جنوب إفريقيا» ، بينما هى تؤكد نيتها على حكم «إفريقيا الجنوبية الغربية» بروح الإنتداب ، فقد أصرت فى نفس الوقت على موقفها من الأمم المتحدة . وبقيت المسألة دون الوصول إلى حل . ولم يطالب بالضم أو الإدماج ، ولكن من الملاحظ

أن القطرين قد توثقت بينهما الصلات السياسية أكثر من ذى قبل حين خولت «إفريقيا الجنوبية الغربية» ، حق التمثيل النيابى (تمثيلا أوربيا خالصا بالطبع) فى مجلس العموم والشيوخ «لجنوب إفريقيا» ، وحين صدر قانون الجنسية للمواطنين لعام ١٩٤٩ الذى بمقتضاه يصير بإمكان الغرباء ممن أسقطت عنهم الجنسية بالتقدم بطلباتهم مرة أخرى من أجل الحصول عليها .

وفى عام ١٩٥٨ ، أنتدبت لجنة من قبل الأمم المتحدة لإجراء مشاورات مع حكومة الاتحاد فيما يختص بإقتراح الأساس الممكن للوصول إلى إتفاق فاقترحت إمكان تجزئة «إفريقيا الجنوبية الغربية» ؛ فالشمال الذى يضم معظم الوطنيين من السكان يؤول حكمه إلى الاتحاد كجزء مكمل له تحت وصاية الأمم المتحدة ، أما باقى الإقليم فيلحق بالإتحاد . وأعلنت حكومة الاتحاد عزمها على دراسته إذا هى دعيت إلى ذلك من جانب الأمم المتحدة، ولكن فى الجلسة التالية رفضت الأخيرة التجزئة كحل ، ومنذ ذلك الحين وشعوب عديدة تبدى قلقها حول شئون «إفريقيا الجنوبية الغربية» ، ولكن ليس من المحتمل أن تبقى المسائل معلقة كما هى .

السكان :

أن الهيريرو Herero . بعد أن أبادهم الألمان إبادة تامة تقريبا ، قد إستعادوا الآن قوتهم . وقد بلغ عددهم فى «إفريقيا الجنوبية الغربية» حوالى ٣٢٫٠٠٠ نسمة . وكذلك توجد مستعمرات راسخة للهيريرو فى محمية بتشوانالاند ، تضم أحفاد أولئك الذين فروا من الألمان . وهم يشغلون مركزا مميزا ، وليس من المحتمل بأن يعودوا إلى «إفريقيا الجنوبية الغربية» . والهيريرو شعب مظهره يستلفت النظر لفرط طول قامته ونحافته ،

وإعتدال وضيق ملامحه ، وكلها تعزى إلى أصـــل حامى . أما الأوفامبو Ovambo فهى قبيلة هامة يبلغ تعدادها ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة ، وتتخذها موطنا فى الشمال بالقرب من حدود أنجولا ، ولم يحدث أن خضعوا للألمان ، ولكنهم يلتزمون القانون ، مسالمون ، ويحافظون فى عاداتهم ، وأما الناما the Nama الذين يبلغ تعدادهم ٣٠ر٠٠٠ نسمة يسكنون جنوب الاقليم ، فهم من أصل هوتنتوت ، ولكنهم قد تحللوا الآن من قبليتهم على نحو تام تقريبا . وأما البراجداما the Bragdama أو الدامارا the Damara ، وهم شعب غير معروف إلا قليلا ويبلغ تعدادهم ٢٥ر٠٠٠ — ٣٠ر٠٠٠ نسمة ، فيعيشون فى مستعمرات صغيرة فى شمال الإقليم ووسطه . ويبدو أنهم زنوج أنقياء ولو أنهم يتكلمون لغة الناما هوتنتوت the Nama Hottentot ، الذين سبق لهم فيما مضى أن أسروهم وإسترقوهم . وكذلك تأثرت عاداتهم بجيرانهم الباتنو . أما شعب الباستاردز the Bastards ، ذلك الطراز العجيب الذى لا يبدو أنه يستنكر التسمية (فكلمة bastards معناها أبناء غير شرعيين) فهو شعب ملون ، سلالة الأوربيين والهوتنتوت ، ويشكل مجتمعا قوامه ٨٩٠٠ نسمة يتركزون حول مدينة رهبوث Rehoboth . وأخيراً هناك حوالى ٢٠ر٠٠٠ من البوشمان ، أو أكثر قليلا (١٩٥٣) . أما قطاع كاپريفى Caprivi فسكانه أناس نهريون Riveraln يشتغلون بالزراعة وصيد الأسماك .

أما السكان البيض فيبلغ تعدادهم ٧٠ر٠٠٠ تقريبا ، وهم فى معظمهم يعملون بالفلاحة والتعدين ، أو أصحاب حرف ، أو أصحاب مهن ، هذا بالطبع بالإضافة إلى عدد من الإرساليين والموظفين الحكوميين . وليس فى الإمكان الآن أن نذكر النسب التى توجد بها العناصر الأوربية المختلفة ، ولكن منذ عدة سنوات ، حين كان تعداد الأوربين أصغر منه الآن ،

قيل إنه كان يتكون من ٣٠ر٠٠٠ من المتكلمين بالأفريكانز ، ١٥ر٠٠٠ من المتكلمين بالألمانية ، ٥٠٠٠ من المتكلمين بالإنجليزية .

الاقتصاديات :

تعد اقتصاديات « إفريقيا الجنوبية الغربية » واحدة من أقوى اقتصاديات إفريقيا الجنوبية . وفيما عدا فى الشمال ، فإن الأحوال الزراعية فقيرة وذلك لقلة سقوط المطر ، كما أن معظم الإقليم قد وقف نفسه على تربية الماشية من أجل الألبان ومن أجل اللحوم . وتربى على وجه الخصوص الأغنام الباراكل barakul من أجل جلودها وأصوافها فكانت صناعة مزدهرة . وكذلك قام هناك تطور هائل فى مصايد الأسماك على ساحل الأطلنطى حتى أصبحت الآن تشكل عاملا هاما فى إقتصاديات البلاد وفيما يختص بالقيمة الإنتاجية فإن الصناعة الرئيسية هى التعدين . وإلى مسافات طويلة تمتد رواسب من الماس الرسوبى الذى يعد من أجود الأصناف ، إبتداء من مصب نهر أورنج شمالا حتى خليج Conception Bay ، وهى مسافة تبلغ ٣٠٠ ميل . أما المعادن الأخرى فهى النحاس ، والرصاص ، والڤاناديوم Vanadium ، والصفيح ، والمنجنيز ، والبريل (الزمرد المصرى) bery! ، والليثيوم litbium . والعديد من الأحجار شبه الكريمة .

وتربط « إفريقيا الجنوبية الغربية » بجنوب إفريقيا ، خطوط السكك الحديدية للقطر الأخير ، كما تربط وندهوك بالعالم الخارجى خطوط جوية . ويمتاز كل من Wabis Bay و Luderitz Bay (Angra Pequêna سابقا) بأنه ميناء طبيعى جيد .

سيدة البراندبرج البيضاء :

من بين لوحات البوشمان العديدة الدقيقة فى كهوف البراندبرج فى هذا القطر إلى الشمال من Wabis Bay هنالك لوحة معينة تلقى إهتماما خاصا . تلك هى « سيدة البراندبرج البيضاء » The White Lady of the Brand berg إنها صورة لإمرأة شابة جذابة الملامح ، نحيفة القد ، لها حول شعرها شبكة من اللؤلؤ ، ويزين ردفيها ونهديها عدد من الأشرطة واللآلىء . تحمل فى يدها اليمنى كأسا ، وفى اليسرى قوسا وأربعة أسهم . وتحلى أحد ساعديها بسوار من الريش ، ثم هى ترتدى حذاء . أما وجهها وجيدها ، وجسمها من أعلى وسطها حتى قدميها ، فكلها بيضاء تنبض بالشباب والنضارة والرشاقة ، ولم يكن من غير الطبيعى أن تثير الكثير من التأمل والجدال . فمن تكون هذه السيدة البيضاء ؟ أهى أميرة ؟ أهى جاءت من مصر أم من شمال إفريقيا ؟ أم تنتمى إلى جنس مبكر قد قضى ومضى ؟ وثمة رأى أقل رومانتيكية يرى أنها ليست غير إمرأة محلية كان وجهها وجسمها قد تلطخا بالوحل . وأياكانت هى فإن صورتها تعد أهم لوحة صخرية فى إفريقيا ، بل — باستثناء ما هو موجود فى أسبانيا — فى العالم كله .

الأقاليم التابعة للمندوب السامى

تضم جمهورية جنوب إفريقيا أقاليم ثلاثة : باسوتولاند Basutoland ، ومحمية بتشوانالاند ، ثم سوازيلاند . هذه الأقاليم الثلاثة تقع فى نطاق الجمهورية ، ولكنها لا تشكل جزءاً منها لأنها ملحقات بريطانية يحكمها المندوب السامى للمملكة المتحدة فى « جنوب(١) إفريقيا » .

(١) كممثل دبلوماسى بريطانى فى « جنوب إفريقيا » ، فانه لم يعد مندوبا ساميا إعتبارا من ٣١ مايو ١٩٦١ ، بل أصبح سفيرا للجمهورية الجديدة ، واستمر فى حكمه للأقاليم البريطانية الثلاثة كمندوب سام .

فأما بتشوانالاند وسوازيلاند فمحميتان ، وأما باسوتولاند فمستعمرة ، وليس ثمة فرق حقيقى كبير بين المستعمرة والمحمية ، وقد يكون من المناسب أن يشار إليها جميعا كمحميات . ولكل إقليم منها شكل خاص من الحكم المحلى تحت إدارة مندوب سام بريطانى مقيم ، كما أن أساليب الحكم تشابه تلك المتبعة فى الملحقات البريطانية الإستوائية ، مع الإهتمام بوجه خاص بحقوق الوطنيين وكرامتهم وحريتهم (١).

باسوتولاند :

تاريخها :

لقد تأسست « أمة الباسوتو » الحديثة فى حوالى عام ١٨٣٠ على يد زعيم يدعى موشش Moshesh أثناء الإضطرابات التى تسببت عن حروب الشاكا Shaka زعيم الزولو . فقد جمع موشش حواليه فلول القبائل المهزومة وبحنكة سياسية ومهارة دبلوماسية أصبح الزعيم المعترف به لدى جماعة كبيرة نامية من الشعب أصبحت تعرف فى وقتنا الحاضر بالباسوثو Basotho ، أو الباسوتو Basuto حسب التسمية الشائعة غير الصحيحة .

ومع مجىء البيض إلى بلده رأى موشش أن أفضل ضمان لمستقبل شعبه هو الحماية البريطانية ، ومن ثم فقد اتجهت سياسته نحو بلوغ هذه الغاية . وفى عام ١٨٦٨ أعلنت باسوتولاند إقليما بريطانيا .

ومات موشش فى عام ١٨٧٠ ، وفى السنة التالية ألحقت باسوتولاند بالكاب ، تلك الخطوة التى اتخذت تقريبا دون الرجوع إلى الشعب . ثم نشبت الحرب بين الكاب وباسوتولاند فى عام ١٨٨٠ حين أرادت حكومة

(١) تغيرت هذه الصور السياسية فى الوقت الحالى فأصبحت بتشوانا وباسوتو دولتين مستقلتين — المعربان

الكاب نزع السلاح من الباسوتو . ولم تكن النتيجة بائنة قاطعة ، فكان أن أعقبت الحرب السافرة فترة من الإضطرابات والشغب . وأخيراً طلب الكاب إلى الحكومة البريطانية إعفاءه من هذه التبعة الثقيلة ، وجاءت الحكومة البريطانية التى كانت غاية فى الفتور لتسلم بالأمر . وفى عام ١٨٨٤ تولت مهام الباسوتو مرة أخرى السلطات الإمبريالية . ومنذ ذلك الضم الأخير وباسوتولاند تحيا حياة غير مليئة بالأحداث ، كتابعة بريطانية صغيرة . وفى الحرب العالمية الأولى ١٤ — ١٩١٨ ، تطوع عدة آلاف من الباسوتو للخدمة فى « كتيبة العمال الإفريقيين » . وفى الحرب العالمية الثانية ٣٩ — ١٩٤٥ إنضم أكثر من عشرين ألف إلى « كتيبة الكشافة الملكية » ، تخدموا فى شمال إفريقيا ، وفى الشرق الأوسط وإيطاليا . وقد شُهر هذا القطر بطريقة مشئومة كنتيجة لما تدعى بالاغتيال الشعيرى ritual murders ، وهو مظهر غريب مروع كان يرجو المرء ألا يكون فى آونتنا الحاضرة . فأجزاء الضحايا تستخدم فى عمل أدوية يقال بأنه يقصد بها أن تزيد من السلطة والمكانة السياسية للشخص الذى تعطى له . وفى العشر سنوات ما بين ١٩٤٧ — ١٩٥٧ ، بلغت حالات القتل التى أبلغت إلى الشرطة من هذا النوع مائة حالة .

القطر (الصورة الجغرافية) .

وباسوتولاند أشبه شىء بجزيرة فى وسط « جنوب إفريقيا » ، تحوطها أقاليم ثلاثة : ناتال ، وأورنج الحرة والكاب . وهى إقليم جبلى مرتفع تبلغ مساحته ١٢٠٠٠ ميل مربع ، ولا أقل من ثلثيه يصل إرتفاعه إلى ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، بل أكثر ، فجبال دراكنز برج تبلغ حوالى ١١٠٠٠ قدم . ولم يكن هباء أن سميت « سويسرا إفريقيا الجنوبية » . وينبع منها نهران من أكبر أنهار جنوب إفريقيا ، هما أورنج وتوجيلا Orange

& Tugela ، كما أن القطر يروى جيداً بواسطة مجارى مائية عديدة تنساب من الجبال . وهذا القطر الجبلى ليست به سكك حديدية ، كما أن معظم الطرق البرية الرئيسية توجد فى أجزائه المنخفضة الغربية . أما بالنسبة لباقى أجزائه فهناك الدروب وطرق الدواب التى يستخدمها الناس حين إنتقالهم من مكان إلى آخر .

الشعب وحكومته

إن الباسوتو ، شأن معظم سكان الجبال ، شعب صعب المراس ، عظيم الزهو بنفسه ، غير محب للإعتماد على الغير . يحكمه زعيم أعظم يعاونه عدد من الزعماء والرؤساء أقل مرتبة وينتمى معظمهم إلى أسرة موشش Moshesh . أما السلطة البريطانية فيمثلها المندوب السامى المقيم ونظام من المرظفين الإداريين والفنيين ورجال الشرطة وتتضامن الإدارة البريطانية والزعماء بطريقة مرضية للغاية فى حكم القطر (١) . وأما الشئون اليومية للشعب فيصرفها الزعماء ، وأما الشئون الخارجية والمسائل الداخلية التى هى غاية فى الأهمية فتتولاها السلطات البريطانية . ولوقت قريب كان برلمان باسوتولاند هو نفس مجلسها ، وهو يتكون من أعضاء منتخبين ومعينين ، وكلهم من الباسوتو . وكانت مهمة المجالس إستشارية محضة . وفى عام ١٩٥٨ طلب الباسوتو إستبداله بجمعية تشريعية . ووافقت الحكومة البريطانية على ذلك ، وهكذا خطت باسوتولاند خطوة كبيرة نحو مسئولية الحكم .

(١) أصبحت باسوتو دولة مستقلة تحت اسم مملكة ليسوتو ـ المعربان

الاقتصاديات :

تعتمد إقتصاديات باسوتولاند على الزراعة وتربية الماشية ، فالشعب من سلالة صغار الفلاحين . وهناك إقبال شديد على الأرض . وكان تعداد الإفريقيين فى عام ١٩٥٦ مايقرب من ٦٤٢٠٠٠ نسمة ، أما الأرض الصالحة للزراعة فلا تمثل أكثر من ١٢٪ — ١٣٪ من المساحة الكلية للقطر . وأما المناطق الوطنية فهى مزدحمة بالسكان إلى حد التشبع مما أدى إلى انتشارهم فى مناطق الجبال ، تلك المناطق التى كانت إلى وقت قريب محتجزة لرعى الماشية . ومنذ عام ١٩٣٦ والسلطات الحاكمة هى والشعب تكافحان كفاحا مريرا ضد تفتت التربة . وفى سبيل ذلك يتلقون منحاً مالية من الحكومة البريطانية . والصادرات تشمل الصوف والموهير ، ثم يليهما فى الأهمية القمح والسرغو والماشية . وليس لهذا القطر صناعات تذكر ، ولذا فهم يستوردون كافة السلع الإستهلاكية والرئيسية ، بل بعض المنتجات الزراعية وبعض الحيوان . وتفوق قيمة الواردات عن الصادرات ، ولكن يعادل هذا تصديرهم للعمال للعمل فى مناجم وصناعات « جنوب إفريقيا » (إذ يذهب إليها كل عام حوالى ٦٠٠٠٠ عامل للعمل هناك) ، وبالتالى عودة الأموال إلى القطر مرة أخرى .

بتشوانالاند :

القطر (الصورة الجغرافية) .

تبلغ مساحة محمية بتشوانالاند ٢٢٥٠٠٠ ميل مربع (١)، وهى تمتد من نهر مولوبو Melopo ، أحد روافد نهر أورنج ، فى الجنوب ، حتى نهر تشوب

(١) زالت عنها الحماية وأصبحت دولة مستقلة فى سنة ١٩٦٦ — المعربان

Chobe ، الذى يتحد مع الزمبيزى ، فى الشمال . وتحدها شرقا الترنسفال وروديسيا الجنوبية ، ومن الغرب « إفريقيا الجنوبية الغربية » . وعلى ذلك فهذه المحمية تحوطها « إما جنوب إفريقيا ، أو إقليم تحت إشراف جنوب إفريقيا فيما عدا الخط المتاخم لروديسيا الجنوبية .

ومعظم المحمية يتكون من صحراء كلاهارى ، موطن البوشمان ، التى لا تعد صحراء بالمعنى الذى تعد به الصحراء الكبرى ، بل هى بالأحرى نوع من الإستبس Steppes حيث ينمو العشب حين يسقط المطر ، وبذلك يمكن بسهولة قيام الحياة البشرية والحيوانية إذا ما توفر وجود المياة الجوفية ، وهذا ليس بأية حال من غير المحتمل .

والجانب الشرقى من المحمية كثير التلال ، كما أنه خصب نسبيا ، ويجرى خلال هذا الجزء اللطيف نسبيا خط السكك الحديدية من كيب تون Cape Town إلى روديسيا .

ويسمى الركن الشمالى الغربى من المحمية نجاميلاند Ngamiland وهو يشكل دلتا نهر أوكافانجو Okavango الذى ينبع من أنجولا ثم ينساب إلى المحمية فى شكل جدول رائق واسع ، ثم هو لا يلبث أن ينتشر فى شكل مستنقع فسيح يستحيل إلى قنوات ضيقة يتخللها نبات البوص وأوراق البردى . وباستثناء نهر أوكافانجو ، وجاره الشمالى نهر تشوب Chobe ، وقليل من الجداول التى ليست بذات أهمية فى الجانب الشرقى ، فليست هناك أية مجار مائية فى المحمية . ويندر جدا كذلك وجود غابات حقيقية ، إلا أنها تتمثل بنوع خاص فى ذلك الحزام الكائن على طول الضفة الجنوبية لنهر تشوب . وهناك مساحات شاسعة من أشجار الموپان Mopane التى

قد يخطئها البصر فتبدو للرائى – إذا لم يكن مدققا – وكأنها غابات ، ا... باقى المحمية فهو فى معظمه إما مساحات من الإستبس الخالية من الأشجار أو النباتات الشوكية الدنيئة .

تاريخها .

فى عام ١٨١٧ أقامت « الجمعية الإرسالية لمدينة لندن » مركزا لها على نهر كورومان Kuruman فى بتشوانالاند الجنوبية ، على بعـد حوالى ١٤٠ ميلا إلى الجنوب من المحمية الحالية . واستطاعت إرسالية كورومان هذه تحت إشراف روبرت موفات Moffat أن تحتل مكان الصدارة بين الإرساليات البروتستانتية فى « جنوب إفريقيا » . وكان أبرز أبناء هـذه الإرسالية هو دافيد لفنجستون الذى أمضى السنين الأولى من حياته الكهنوتية فى بتشوانالاند . وفى عام ١٨٣٦ جاءت الهجرة العظيمة The Great Trek بالبوير إلى حدود بتشوانالاند التى كان عليها فيما بعد أن تواجه الضغط المتوالى من المهاجرين المتعطشين للأرض . وفى عام ٨٤ – ١٨٨٥ جاءت الحكومة البريطانية ، التى كانت حتى ذلك الحين على شىء من التردد ولكن أصبحت تستحثها دوافع عديدة ، أولها الخوف من التوسع الألمانى من « إفريقيا الجنوبية الغربية » ، لتضطلع بالمسئولية فى معظم بتشوانالاند وتضم الجزء الجنوبى كمستعمرة تحت اسم « بتشوانالاند البريطانية » ولتعلن أن ذلك الجزء من القطر شمالى نهر مولوپو قد أصبح محمية . وفى عام ١٨٩٥ آل حكم بتشوانالاند البريطانية إلى مستعمرة الكاب ثم أصبحت جزءا من « جمهورية جنوب إفريقيا » ، ولكن المحمية ، التى كانت فى نفس الوقت قد امتدت إلى الزمبيزى ، بقيت – حسب رغبة أهلها – تحت المسئولية المباشرة للحكومة البريطانية ، واستمر هـذا الوضع إلى « أن استقلت » (١) .

---

(١) المعربان

السكان .

يبلغ عـدد الافريقيين أقل من ٣٠٠٠٠٠ نسمة ، وهو يتكون من البتشوانا Bechuana (وصحتها Batswana) ، وهم سوتو Sotho غربيون ، وعدد من القبائل التابعة . ومن الطبيعى أن الجزء الأعظم من السكان يعيشون على الجانب الشرقى ، ولكن يوجد هناك ٣٠٠٠٠ نسمة فى نجاميلاند Ngamiland ، فى الشمال الغربى . والبتشوانا ، ولو أنهم ليسوا فريدين فى هذا ، إلا أنهم يختلفون عن الكثير من القبائل الإفريقية فى كونهم يعيشون فى مدن كبيرة بعض الشىء . أما الأراضى الصالحة للزراعة والمراعى فغالبا ما تكون على مسافات بعيدة من المدن ، ويقضى البتشوانا جزءا كبيراً من السنة بعيدين عن بيوتهم ، إما فى أراضيهم أو فى المراعى حيث ترعى ماشيتهم .

الاقتصاديات

لقد إعتاد البتشوانا ، مثل الباسوتو ، منذ أمد طويل ، العمل فى المناجم والصناعات بجنوب إفريقيا ، ولعله من الصواب أن نقول إن حوالى نصف القوة العاملة القادرة قد إعتادت التغيب عن المحمية فى أى وقت من الأوقات دفعة واحدة . ويعمل البتشوانا فى بلدهم بفلاحة الأرض ثم على وجه الخصوص بتربية الماشية . وهناك فى هذه المحمية مايزيد على المليون رأس من الماشية ، ومع تنمية موارد الحياة فسوف يرتفع عدد الماشية إلى ماهو أكثر من هذا وخصوصا إذا ما أفادت من المشروعات المعدة لإستغلال صحراء كلاهارى والتى قد بدأت بالفعل . ولهيئة تنمية المستعمرات فى هذه المحمية مذبح ومخازن للتبريد . وتصدر معظم الماشية المذبوحة أو الحية إلى « جنوب إفريقيا » ، وروديسيا ، والكنجو . بل أصبحت لحوم الأبقار

تصدر بالفعل إلى لندن . ولكن ، لسوء الحظ ، تهدد الماشية دائماً أمراض القدم والفم . وحين تنتشر هذه الأمراض تقفل أسواق التصدير .

أما الصادرات الزراعية فهى أقل من ذلك بكثير ، إذ أن محصول المحمية من الحبوب لا يكاد يكفيها ، ولكن قد تصدر كميات كبيرة من الفول إذا كان هناك محصول طيب .

ويعرف عن المحمية بأنها تحوى بعض المعادن ، إلا أن هذه لم يتم كشفها بعد على الوجه الأكمل . ويعتقد بأن « منجم الملك » The Monarch Mine الكائن بمنطقة « تاتى » Tati هو أقدم منجم للذهب فى « جنوب إفريقيا » فى عصرنا الحديث . وكذلك هناك كميات كبيرة من الفحم . وثمة معادن أخرى من بينها الأسبستوس Asbestos والمنجنيز والنحاس.

سوازيلاند : Swaziland

ينتمى الشعب السوازى The Swazi إلى الفرع النجونى The Nguni من أسرة البانتو ، وعلى ذلك فهم قريبو الشبه من الزولو والإكسوزا The Zulu & Xosa . ويبلغ عددهم حوالى ٢٥٤٫٠٠٠ نسمة ، ويسير حكمهم وفق نظام تقليدى يرأسه زعيم أعظم يعمل بمساعدة مجلسين ، الأول يتكون من الزعماء والوجهاء ، والآخر مجلس استشارى أصغر يرجع إليه عند البت فى أموره الشخصية والعائلية . أما المندوب السامى المقيم فيتخذ له مقراً فى مدينة مبابان Mbabane فى الجانب الغربى من المحمية. وهو على اتصال وثيق بالزعيم الأعظم كما أن له مجلس استشارى أوربى أعضاؤه من بين السكان الأوربيين البالغ عددهم ٨٧٠٠ نسمة والذين هم فى معظمهم - باستثناء الموظفين الرسميين - من الفلاحين والعاملين بالتعدين والمشتغلين بمشروعات التنمية المختلفة.

القطر (الوصف الجغرافى) :

وتبلغ مساحة سوازيلاند حوالى ٦٧٠٠ ميل مربع ، وهى تحوطها - مثل بتشوانالاند - أقاليم تابعة « لجنوب إفريقيا » ، فيحدها من الشمال والغرب والجنوب الترنسفال ، ومن الشرق تونجالاند فى إقليم ناتال ؛ ولكنها لها من الشرق كذلك حدود مشتركة مع إفريقيا الشرقية البرتغالية كما أن ميناء لورنسو ماركيز يمكن الوصول إليه بسهولة بواسطة طريق برى.

وينقسم هذا القطر من الناحية الجغرافية إلى ثلاثة أقسام متميزة ، متساوية الحجم بوجه عام ، تسير من الشمال إلى الجنوب وتعرف بالفلد الأعلى ، والأوسط ، والأدنى . وهو إقليم ترويه مياه وفيرة ، وحيث يحدث ألا يسقط المطر - كما هى الحال فى بعض الأحيان - فإنه يروى بمياه أنهاره الممتازة العديدة التى يحظى الإقليم بوجودها فيه .

تاريخها :

يقول السوازيون The Swazi إنهم كانوا يعيشون أصلا فى تونجالاند الجنوبية ، وأنهم قد هاجروا منذ حوالى ١٥٠ عاما إلى ذلك الإقليم الذى يقع فى الغرب من جبال ليبمبو Lebombo ، بين نهرى بنجولا Pongola وأسوتو العظيم Great Usutu . وفى حوالى عام ١٨١٥ وقعوا فى نزاع مع الندواندوية The Ndwandwe ، وهم قسم آخر من النجونى Nguni ذاب عن آخره فى زولو الشاكا Shakas Zuluo . وهرب السوازيون إلى الموقع الذى يشغله اليوم شعب البريمرزدروب Bremersdrop فى الترنسفال الشرقى ، تحت إمرة زعيمهم صبحوزا Sobhuza . وهنا ازدهرت حياتهم وأصابوا الكثير من النمو . وتحت زعامة Sabhuza وخلفه مسوازى Mswazi احتلوا القطر حتى باربرتون Barberton فى الشمال ، وكذلك

امتدوا نحو كارولينا Carolina و إرميلو Ermelo فى الغرب . وكذلك يدعون بأن القبائل الموجورة فى تلك الناحية التى تعرف الآن باسم ليدنبيرج eLydnburg قد منحت ولاءها الزعيم السوازى هذه الممتلكات الشاسعة قد تناقصت فيما بعد إلى حد كبير ، ففى عام ١٨٤٦ تنازل Mswazi عن كافة حقوقه حول ليدنبيرج لجمهورية ليدنبيرج . ثم كانت اتفاقية بريتوريا لعام ١٨٨١ ، التى حددت حدود الترنسفال ، فذهبت إلى ما هو أبعد من هذا حين انقصت المساحة التى كان السوازيون يبسطون نفوذهم عليها من قبل . لقد تمت هذه التعديلات كلها بسلام ، ولم يكن هناك ما يؤرقهم من حروب خطيرة بعد هجرتهم الأصلية إلى الشمال من موطنهم فى تونجالاند . ومن وقت لآخر كانوا يتعرضون لإغارات الزولو ، ولكنهم كانوا دائماً يخرجون منها سالمين ، ثم حدث بعد ذلك أن قتل الزعيم الزولو دنجان Dingaan - قاتل شاكا Shaka وخلفه - بأيدى السوازيين حين هرب شمالا طلباً للنجاة بعد هزيمته من البوير ونفس أخيه مباند Mpande . وثمة إغارة قام بها الزولو فى عام ١٨٤٧ ، وفى عام ١٨٥٥ تنازل السوازيون للبوير عن شريط ضيق من الأرض بحذاء الضفة الشمالية لنهر بونجولا Pongola بقصد حصر الأوربيين بين الزولو وبين أنفسهم .

وبغض النظر عن هذه الحوادث الطفيفة ، فإنه يبدو أن السوازيين قد استطاعوا الصمود أمام ظروف القرن التاسع عشر بقلب ثابت . وقد يرجع هذا إلى أنهم كانوا من عتاة المحاربين وأنهم كانوا يعرفون جيداً كيف يرعون شئون أنفسهم وكذلك يبدو أنهم قد استطاعوا تكييف أنفسهم مع الأوربيين بسهولة أكثر مما استطاع الباسوتو أو البتشوانا . فقد كانوا لمدة طويلة أصدقاء وحلفاء للترانسفاليين وكذلك كانوا أصدقاء للبريطانيين. واستطاع السوازيون المحافظة على التوازن المريح بين الطرفين حتى أواخر القرن ، ولو أنهم فى النهاية قد تورطوا هم أيضاً فى المنافسة القائمة وقتذاك

بين البوير وعدد من البريطانيين . إلى أن كان عام ١٨٩٤ فآل حكمهم إلى جمهورية ، جنوب إفريقيا .

وبعد حرب البوير ألحقت سوازيلاند بلجنة الحاكم العام للترنسفال ، وفى عام ١٩٠٦ صار حكمها إلى المندوب السامى لجنوب إفريقيا .

أرضها :

أما مسألة الأرض فغاية فى التعقيد بسبب تلك الامتيازات الطائشة التى منحها خليفة مسوازى Mswazi الذى يدعى مباندينى Mbandeni . لقد باع هذا الزعيم التعس كل حق يمكن تصوره بحيث استحال القطر كله إلى مجرد أجزاء فى أيدى أصحاب الإمتيازات . وفى عام ١٩٠٧ نزعت ملكية ثلث القطر وأصبحت متاحة للوطنيين ، ومنذ ذلك التاريخ والحكومة والزعيم الأعظم يشتريان المزيد من الأرض حتى أصبح الآن ما يقرب من نصف القطر متاعا للوطنيين .

وأما توزيع الأرض فى سوازيلاند فهى لا تعدو أن تكون عملية ترقيع ، ولذلك فقد جاءت المناطق الأوربية والإفريقية لتتشابك وتتعقد كثيراً لقد قيل بأن هذا الموقف ، بينما هو يزيد من صعوبة حكم القطر ، فقد جاء بنتيجة حسنة ، ألا وهى زيادة التفاهم بين العنصرين ، وكذلك أدى بالإفريقى إلى اتخاذ مستويات أعلى فى الإسكان وفى الزراعة .

الاقتصاديات :

يبدو أن الزراعة فى سوازيلاند تستطيع ، إلى حد كبير ، الوفاء باحتياجات الناس بمدهم بالحاصلات الضرورية . وهناك من الماشية ما يقدر عدده بحوالى نصف مليون رأس (١٩٥٨) . والواردات فى

معظمها من السلع الرئيسية ذات الأنواع العديدة . والصادرات تفوق الواردات فى القيمة . ولعل أهم سلع الصادرات هو الأسبستوس asbestos المستخرج من منجم هافيلوك ، الذى يعد أحد أكبر مناجم خمسة للأسبستوس فى العالم . وثمة معادن أخرى ذات أهمية كبيرة هى الباريتيز barytes والدياسبور diaspore . وهناك صناعات صغيرة عديدة تختص أساساً بتصنيع المنتجات المحلية . ولقد اشتركت « هيئة تنمية المستعمرات » اشتراكا فعالا فى استثمار العديد من المشروعات . أما الهجرة العمالية فلا تمثل هنا أحد الملامح القوية المميزة للاقتصاد – كما هى الحال فى باسوتولاند وبتشوانالاند – ولو أنه هناك ما يتراوح بين ستة وسبعة آلاف عامل يذهبون سنويا للعمل فى « جنوب إفريقيا » .

مسألة الإدماج :

قد يتهم المؤلف بأنه قد تناول بالبحث الأقاليم التابعة للمندوب السامى أكثر مما يتطلبه موقعها وثرواتها ، ولكن هذه الأقطار ، رغم ما يحوطها من غموض ، فإن لها من مغزاها السياسى ما يكسبها أهمية ذات طابع خاص .

فلطالما ادعى حكام « جنوب إفريقيا » بأن الأقاليم التابعة للمندوب السامى إنما يجب أن تكون تابعة لهم ؛ ومشكلة الإدماج هذه تجعل المستقبل غير معروف . وليس فى الإمكان أن نتناولها بإسهاب فى هذا الكتاب . فقضية « جنوب إفريقيا » إنما تقوم على أسس جغرافية واقتصادية وسياسية بعضها غاية فى القوة . فأما المناقشات الجغرافية والاقتصادية فليس فى الإمكان الإجابة عنها إلا بصعوبة ، ولكن من الواجب أن نقر بالحقيقة الواقعة ، أن الأقاليم إنما هى بالفعل محاطة « بجنوب إفريقيا » ، وأنها – إلى حد كبير – تعتمد عليها من الناحية الاقتصادية . وأما المناقشات السياسية فمن السهل الرد عليها . ولكن هناك سببان شاملان يحولان دون تحويل هذه الأقاليم

إلى « جنوب إفريقيا » . أحدهما أن الشعب كله إصرار على معارضته ، وأنه سيقاوم ذلك بكل ما أوتى من قوة ؛ وثانيهما أن بريطانيا مرتبطة بأقوى الالتزامات ، تاريخياً وأدبياً ، فعليها مواصلة الحماية المباشرة لهذا الشعب طالما أن الأمر كان يتطلب هذه الحماية . ويبدو أن هذين السببين غاية فى الإقناع(١) .

ولكن إذا افترضنا أن الأقاليم التابعة للمندوب السامى قد بقيت ملحقات بريطانية British dependencies ، فهناك أسئلة ثانوية ، ولكنها مازالت على جانب من الأهمية ، تلح فى طلب الإجابة عنها . ألهذه الأقاليم من الإمكانيات ما يعينها على أن تتيح لشعوبها حياة أكمل وأكثر رفاهية ، الشىء الذى من حقها أن تطمح إليه ؟ والإجابة عن هذا السؤال فى وقتنا الحاضر هى بكل تأكيد لا . ومن الناحية الأخرى فإن التنمية الاقتصادية – وجزء كبير منها تموله بريطانيا ، بل هى التى توجهها كلها – ماضية إلى الأمام ، وعلى الأخص فى سوازيلاند وبتشوانالاند ، بأسرع ما تسمح به الموارد البشرية ؛ وفى عام ١٩٥٩ ، قامت لجنة اقتصادية بعمل مسح شامل لكل الاحتياجات والموارد الطبيعية ، ذلك الذى ستظهر نتائجه مما لاشك فيه . أما الخدمات الاجتماعية فقد بدأت وهى الآن فى طريق النمو ؛ ومع أنها ليست غاية فى الوفرة إلا أنها – إلى حد ما – ذات أثر كبير . وأما الشعب فعلى استعداد للانتظار ، وعلى أية حال فسيفضل بكل تأكيد البقاء تحت الحماية البريطانية على أن يدمج فى « جنوب إفريقيا » ، حتى ولو كان الإدماج معناه (كما لم يثبت أبداً) المزيد من الرخاء والرفاهية المادية .

---

(١) منذ كتابة هذه الكلمات و « جنوب إفريقيا » جمهورية خارج الكمنولث ، ويبدو أن الأمل فى الإدماج قد أصبح أقل احتمالا عن ذى قبل .

الفصل الثاني

إفريقيا الوسطى

تشمل هذه المنطقة الأقاليم البريطانية ، السابقة فى ، (روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالاند، التى كانت تشكل إتحاد روديسيا ونياسالاند، كما تشمل من المستعمرات البرتغالية موزمبيق (إفريقيا الشرقية البرتغالية) وأنجولا . وهى تمتد عبر القارة فى شكل حزام عريض ، ويحدها من الجنوب إفريقيا الجنوبية ، ومن الشمال تنجانيقا والكنجو. ولو أنه قد يقال بأن المستعمرات البرتغالية لاتتبع إفريقيا الوسطى بالمعنى الصحيح إلا أن هناك من الأسباب ما يدعونا إلى أن نوردها فى هذا الفصل . وتقع أنجولا بوجه عام على نفس خط العرض الذى تقع عليه إفريقيا الوسطى البريطانية سابقاً ؛ وهى تشمل الحوض الأعلى لنهر الزمبيزى الذى يشكل أحد الملامح الهامة المميزة لإفريقيا الوسطى ؛ وكذلك فهى ذات صلات تاريخية حديثة قوية مع الأقطار التى أصبحت فيما بعد روديسيا ونياسالاند . وعلى الجانب الآخر من القارة تشكل شرق إفريقيا البرتغالية بشكل واضح المنفذ البحرى لإفريقيا الوسطى. وكانت لقرون عدة هى المنفذ الموصل إلى زمبيزيا Zambesia (إذا إستطعنا إطلاق هذه التسمية على ذلك الجزء من القارة الذى يجتازه النهر) ثم هى الآن مستودع للبضائع والتجارة فى هذه المنطقة .

الأقليم :

يحف بهذه المنطقة من كلا الجانبين سهل ساحلى يرتفع بانحدار متفاوت خلال منطقة انتقال ذات مدرجات غير منتظمة إلى تلك الهضبة

العظيمة التى تشكل العمود الفقرى لإفريقيا . وفى موزمبيق نجد الحزام الساحلى أوسع ما يكون فى الجنوب ثم هو يأخذ فى الضيق نحو الشمال . والمناخ على الساحل إستوائى حار ، والأمطار غزيرة والنباتات كثيفة وافرة النمو . وهضبة موزمبيق هذه يبلغ معدل إرتفاعها ٣٥٠٠ قدم وتحف بها الجبال من جهة الغرب . ويلطف الإرتفاع من درجة الحرارة ، ويقل سقوط الأمطار كلما اتجهنا من الساحل نحو الداخل ليزداد مرة أخرى فى المرتفعات . ويوجد فى موزمبيق عدد من الأنهار الهامة ، ولعل أشهرها نهر الزمبيزى العظيم الذى يشطر القطر إلى قسمين ، ثم نهر ليمبوبو الذى ينبع من الترنسفال ويصب فى المحيط الهندى إلى الشمال من لورنسو ماركيز Lourençu Marques . وأما النباتات الطبيعية فهى فى معظمها من نوع السفانا ، ولكن هناك غابات كثيفة فى الداخل إبتداء من بيرا Beira ، وهناك مناطق خصبة فى الجهات التى ترويها تلك الأنهار العظيمة وفى الجهات المرتفعة بالقرب من حدود تنجانيقا . والملاريا من الأمراض المتوطنة على الساحل وفى المناطق المنخفضة ، وتوجد ذبابة تسى تسى فى كثير من الأمكنة بل ويعتقد بأنها فى مزيد من الإنتشار . وتبلغ المساحة الكلية للإقليم حوالى ٢٩٨٠٠٠ ميل مربع .

وفى أنجولا يتراوح إتساع السهل الساحلى بين ثلاثين ومائة ميل ، وهو ليس فى الحقيقة إلا الإمتداد الشمالى لصحراء إفريقيا الجنوبية الغربية ومعدل سقوط الأمطار منخفض ، وليس من منقذ للساحل من الجدب الشديد غير الرطوبة النسبية للجو . ويتراوح إرتفاع الهضبة بين أربعة وسبعة آلاف قدم ، وهى تشكل سهلا مرتفعا متدرجا جيدا الرى ينحدر شرقا ليلتقى بحوض الكنجو والزمبيزى ، وجنوبا ليلتحم بصحراء إفريقيا الجنوبية الغربية . ويتدفق من الهضبة نحو الشمال عدد كبير من الجداول والأنهار التى أهمها كوانجو Kwango والتى تجرى شمالا متجاوزة الهضبة لتصب فى الكاساى

Kasai الذى يعد واحدا من أكبر روافد نهر الكنجو ، والذى هو فى مجراه الأعلى ، ولمسافة ثلاثمائة ميل ، يشكل الحدود الفاصلة بين أنجولا وأراضى الكنجو . وثمة أنهار أخرى تنبع من الهضبة هى الكوانزا the Kwanza والكونين the Kunene ، وكلاهما يجرى غربا إلى الأطلنطى . ويشكل الأخير فى مجراه الأدنى الحدود الفاصلة بين أنجولا وإفريقيا الجنوبية الغربية . وأما نباتات أنجولا فهى السفانا بأنواعها المتعددة ، وهناك بعض الغابات بحذاء الأنهار العظمى فى الشمال . وتبلغ مساحة الإقليم حوالى نصف مليون ميل مربع .

والأقاليم البريطانية الثلاثة سابقاً تقع كلها على الهضبة الإفريقية العظيمة . أما روديسيا الجنوبية فتبلغ مساحتها حوالى ١٥٠٠٠ ميل مربع وهى تتكون من حزام من الهضاب يزيد معدل إرتفاعه على ٣٥٠٠ قدم ويجرى خلال منتصف القطر من الجنوب الغربى إلى الحدود الشرقية المليئة بالجبال ، وتحوطه الأراضى المنخفضة لنهرى الزمبيزى وليمبوبو وأراضى موزمبيق من الشمال ، والجنوب والشرق . ويبلغ معدل سقوط المطر ٣٢ بوصة فى السنة ، كما أنه أكثر وفرة فى الجانب الشرقى منــه فى الغرب ، وأما الجنوب الغربى الإقليم فيميل إلى الجفاف . والنباتات الطبيعية هى السفانا ، ولكن هناك مساحات كبيرة من الغابات المفتوحة ، وفى الأراضى الوطيئة المحيطة بالزمبيزى نجد الغابات أشد كثافة ، وفيها توجد أشجار ذات قيمة خشبية كبيرة .

أما روديسيا الشمالية (زامبيا) فتبلغ مساحتها حوالى ٢٩٠٠٠٠ ميل مربع ، هى مسطحة غير متموجة ذات إرتفاع يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف قدم فى المعدل ، وقد يبلغ إرتفاعها أحيانا ٥٠٠٠ قدم . وهناك قمم جبلية فردية يصل إرتفاعها إلى ٨٠٠٠ قدم . وتشمل المنطقة جزءا كبيراً من الأراضى

المرتفعة بين نهرى الزمبيز والكنجو . ويتراوح سقوط المطر بين ٥٠ بوصة فى الشمال ، ٢٥ بوصة فى الجنوب والقحط غالبا ما يكون بين شهرى مايو وأكتوبر . أما النباتات فهى السفانا التى لاتلبث أن تتحول إلى إقليم أشجار حيث تكون الأمطار أغزر . والمناخ محتمل جدا فيما عــدا فى وادى الزمبيزى ووادى لوانجوا أثناء فصل الحرارة والأمطار .

وأهم شىء فى جغرافية نياسالاند هو وادى الصدع العظيم The Great Rift Valley . الذى يجرى خلال «الدولة» من أولها إلى آخرها مكونا الحوض الذى فيه تقع بحيرة نياسا . وتتكون المحمية(١) من البحيرة نفسها وقطاع ضيق من الأرض إلى الغرب منها . وإلى الشرق والغرب من الصدع العظيم نجد أن طبيعة الإقليم جبلية ، فهناك هضاب عالية يتمثل أقصى إرتفاعها جنوب البحيرة فى جبال زومبا (٧٠٠٠ قدم) وجبال ملانجى (١٠٠٠٠ قدم) فى مرتفعات شير Shire Highland . وفى الطرف الآخر نجد أن الصدع فى الجنوب يتراوح ارتفاعه بين ٣٠٠ - ٦٠٠ قــدم فقط فوق سطح البحر . أما نهر شير Shire River فينبع من الطرف الجنوبى للبحيرة ثم ينضم إلى الزمبيزى على مبعدة ٢٥٠ ميلا من البحيرة . ويختلف المناخ باختلاف الإرتفاع ، وعلى شاطىء البحيرة يكون الجو حارا بعض الشىء وغاية فى الرطوبة . ثم هو فى وادى شير أكثر من ذلك حرارة فى بعض شهور السنة ، ولكنه لطيف جدا فى المرتفعات وصحى ، بل قد يخيم الضباب ويشتد البرد فى بعض الليالى فيلذ للمرء أن يجلس إلى المدفأة فى منزله . ويستمر موسم الأمطار من نوفمبر إلى إبريل . ويتراوح معدل الأمطار ما بين ٣٠ وأكثر من ٦٠ بوصة فى السنة . وتبلغ المساحة الكلية لنياسالاند ٤٦٠٠٠ ميل مربع ، منها أكثر من ٩٠٠٠ ميل مربع من المسطحات المائية .

---

(١) أصبحت نياسالاند دولة مستقلة منذ سنة ١٩٦٤ تحمل اسم جمهورية مالاوى .

السكان :

كان يسكن إفريقيا الشرقية البرتغالية منـــذ أقدم الأزمنة أناس قد إندثروا منذ أمد بعيد ، ولـكنهم تركوا ما يدل على سابق وجودهم فى شكل آلات ورسوم صخرية . وكذلك هناك من الأبنية ما يمثل حضارة زمبابوية Zimbabwe تشهد أنه كان هناك فى وقت من الأوقات جنس أسمى يحتمل أن يكون من السكان الأصليين . والسكان اليوم فى غالبيتهم من البـانتو ، ولـكن ما زال يوجد هناك بقايا من جنس أقدم ، قد يكون جنس ما قبل البانتو Pre-Bantu race الذى يتمثل فى التشوپى the Chopi . هذا الجنس القديم لم يكن ليعرف الحـديد ، وقد سيطرت عليه وأخضعته لها قبائل البانتو الغزاة . ومن المحتمل أن هؤلاء الغزاة كانوا أجداد شعب التونجا الذى يسيطر الآن على ذلك الجزء من القطر إلى الجنوب من نهر سـابى Sabi River (١) وليس معروفا على وجه الدقة متى كان الغزو ، ولـكن من المقطوع به أنه تم فى أزمنة بعيدة بعض الشىء . وبعد أن عاشوا لعدة قرون لا يتهددهم شىء ، وقع التونجـا أنفسهم فريسة لغزو سوشـانجين Soshangane وقبـائله النجونى Nguni ، الذين كانوا يسعون لإقامة إمبراطورية خاصة بهم وقد وجدوا ضالتهم فى جازالاند Gazaland حيث أخضعوا قبائل التونجا ـ على الطريقة الصميمة للزوللو ـ بالإغارة والسلب والنهب ثم ضم الشباب إلى قواتهم المحاربة وهاجر الـكثيرون من التونجا إلى الترنسفال ، حيث لا يزالون موجودين ، عادة كرعايا الزعماء المحليين من السوذو والڤندا the Soth & Venda . وبعد موت سوشانجين

---

(١) ليس ثمة ما يدعو إلى الخلط بين هؤلاء وبين مجموعة صغيرة من التونجا تعيش حول Inhambane . فالأخيرون ، مثـــل التشوپى tha Chopi ، هم المتبقون من السكان الأسبقين . وهناك من التونجا من يوجدون فى المديرية الشمالية لنياسالاند وكذلك مجموعات فى روديسيا الشمالية (زامبيا) .

اختلف أبناؤه من بعده حول مسألة من يخلفه ، وكان ذلك سبباً فى قيام حرب طويلة واضطرابات كثيرة . وكان حفيده نجنجنيان Ngungunganeآخر من جاء من الزعماء النجونى المستقلين ؛ وبعد أن لعب دوراً فى المنافسة الأنجلو ـ برتغالية انتهى به الأمر إلى إخضاع البرتغاليين إياه فى عام ١٨٩٥ .

أما الحزام الأوسط من المستعمرة الذى يقع بين نهرى سابى وبنجوى Sabi & Pungwe فتحتله قبيـلة كبيرة تدعى نداو Ndau ذات صلة بشعب الماشونا Mashouna ، على الجانب الشرقى لروديسيا الجنوبية . وإلى الشمال من بنجوى يوجد خليط من قبائل الـكثير منها كذلك صلات بالماشونا . وفى الجزء الشمالى من الأقليم يحتل الياو the Yao ذوو الشجاعة الفائقة الركن الشمالى الغربى ، وإلى الشرق منهم توجد قبيلة الماكوا the Makua ، تلك الجماعة الـكبيرة التى تنقسم إلى قبـائل فرعية كثيرة تمتد من الروفوما the Rovuma إلى دلتا الزمبيزى . ويبلغ تعداد السكان الإفريقيين فى موزمبيق حوالى ستة ملايين نسمة ، وفى عام ١٩٥٥ كان هناك ٦٦٫٠٠٠ من الأوربيين ، ١٧٫٠٠٠ من الآسيويين ، ٣٠٫٠٠٠ من أجناس مختلطة .

وليس معروفا على الإطلاق ، على النحو الأكمل ، وصف السلالات البشرية لأنجولا . ولـكن يبدو أنه هناك أوجه شبه بين القبائل التى تعيش فى القسم الساحلى الشمالى وبين جيرانهم فى شمـال الـكنجو من الناحيتين الثقافية واللغوية ، ولو أن كلاهما الآن يعيش فى ظل أنظمة سياسية مختلفة. وأما السكان فى جنوب الإقليم فمن الممكن أن يقال بأنهم من البانتو الغربيين Western Bantu ، الذين تظهر على الـكثيرين منهم دلالات الاختلاط بالجنس الحامى ، وآخرون يبدو أنهم من فصيلة الزنوج الأقزام والبوشمان Negrillo & Bushman . ويبلغ تعداد الإفريقيين من سكان أنجولا حوالى

خمسة ملايين ، والأوربيين حوالى ٢٠٠ر٠٠٠ نسمة .

ومن المعتقد أن تعداد السكان فى اتحاد روديسيا ونياسالاند ، سابقا ، يزيد على الثمانية ملايين، ويشمل هذا العدد ٢٩٧ر٠٠٠ من الأوربيين، ٢٥ر٠٠٠ من الآسيويين ، ١٣ر٥٠٠ من الملونين . ويبلغ عدد الإفريقيين فى كل من نياسالاند، ملاوى، وروديسيا الجنوبية حوالى ثلاثة ملايين لكل إقليم . أما فى روديسيا الشمالية، زامبيا، فإن عددهم يتراوح بين ٢ ١/٤ — ٢ ١/٢ مليون نسمة .

وليس توزيع الأوربيين بقائم على أساس من التكافؤ ، فهناك ما يزيد على ٧٠٪ من مجموعهم الكلى فى روديسيا الجنوبية ، ٢٦٪ فى روديسيا الشمالية وأقل من ٣٪ فى نياسالاند .

وهنالك من الدلائل ما يشير إلى أن هذه المنطقة كان يسكنها فى الماضى شعب قوى على درجة عالية من الحضارة — بالنسبة لغيره — . وما بقايا زمبابوى Zimbabwe ، بقلعتها الشامخة — وقد بنيت من القوالب الصغيرة من الجرانيت دون الاستعانة بالملاط فكانت عملا من أعمال المهارة — إلا خير شاهد على صناعة أرقى بكثير من أية صناعة قامت بين سكان القرن التاسع عشر هناك . وثمة مبان على نفس النمط ، ولكن على نحو أبسط وأصغر ، موجودة فى أجزاء أخرى من المنطقة . ويعتقد الآن عموما — كما سبق أن بينا — بأن زمبابوى إن هى إلا من صنع جنس من الوطنيين .

ومنذ الأيام الأولى لإستيطان البرتغاليين هناك راحت القصص تحكى عن وجود ملك عظيم فى الداخل كان يدعى ، أو كان لقبه ، مونوماتابا Monomatapa ، يحكم شعباً يسمى ماكارانجا Makaranga . وقد زاره بالفعل أحد المستكشفين البرتغال ، أنطونيو فرنانديز Antontio Fernandez ، فى عاصمته ، شمال الموقع الحالى لسالزبورى . والتقارير

البرتغالية لا تدع مجالا للشك فى أنه كان هناك مثل هذا الزعيم القوى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ولو أننا لا نستطيع الزعم بأن قومه كانوا هم بناة زمبابوى . ولكن ثمة شيء مؤكد ، هو أن أصحاب الإقليم القدامى كانوا ينقبون عن الذهب ، وأن أعمالهم هناك خير شاهد على ذلك وما لبثت أن تسربت إلى الجنوب أخبار هذه الأعمال فكان أول شيء لفت أنظار الطلائع الأولى للأوربيين هو الاعتقاد بأن الإقليم الواقع إلى الشمال من ليمبوبو Limpopo كان يحوى ثروة ضخمة من الذهب .

أما السكان الإفريقيون المحدثون فى روديسيا الجنوبية فهم المتابيل The Matabele فى الغرب ، وتجمعات الماشونا The Machona فى الشرق . والأخيرون مازالوا يدعون فى بعض الأحيان بالماكارانجا The Makaranga ولكن هذه التسمية لا تصدق بالمعنى الصحيح إلا على مجموعة واحدة من القبائل فى هذا الجمع . والمتابيل هم النجونى The Naguni الذين انفصلوا عن إمبراطورية زولو الشاكا Shaka's Zulu ثم هاجروا بعد ذلك تحت ضغط البوير إلى المنطقة المجاورة حيث يسكن البولاوايو المحدثون The Bulawayo . وكانوا شعباً محباً للحرب متعطشاً للدماء ، أقام إمبراطورية من الإرهاب بين وادى الزمبيرى والليمبوبو ، بل وأبعد من ذلك . وكان الماشونا أحد الشعوب التى كانوا يغيرون عليها بانتظام من أجل الحصول على الرقيق ، ويعتبرونهم كرعايا لهم .

وكان على القبائل حول بحيرة نياسا أن تعانى — مثل الماشونا وسكان السهل الساحلى — من جراء توسع الزولو . إلا أن زعيما آخر من النجونى زوانجندابا Zwangendeba ، فى هجرة له تعد قطعا من أشهر الهجرات فى التاريخ الإفريقى (ولو أنه مازالت هناك هجرة تماثلها فى الشهرة والتى سنأتى إلى وصفها فيما بعد) ، شق طريقه إلى الطرف الجنوبى لبحيرة تنجانيقا .

وبعد موته انقسم أتباعه ، الذين أصبحوا الآن يدعون بالأنجونى the Angoni (١) ، إلى أقسام عدة ، ولكن ليقيموا جميعاً حول بحيرة نياسا وحواليها ، حيث لم يجدوا صعوبة فى توطين انفسهم بين سكان البحيرة المسالمين نسبيا والذين تزاوجوا معهم ، وضموا الكثيرين منهم إلى نفس نظامهم . وفى حوالى منتصف القرن التاسع عشر وقع القطر فريسة للغزو كذلك من جانب الياو the Yao ، من إفريقيا الشرقية البرتغالية واليوم يتكون السكان الوطنيون فى نياسالاند — وهم يزيدون على الثلاثة أرباع بقليل — من القبائل الأصلية ومن السكان الذين هاجروا من إفريقيا الشرقية البرتغالية أثناء القرن الحالى . أما الباقى ، وهو يشكل حوالى ٢٤٪ من التعداد الكلى ، فيتكون من الياو والأنجونى ، والأولون هم الأكثر عددا على وجه التقريب .

وأما روديسيا الشمالية «زامبيا» فتشمل ثلاثا وسبعين قبيلة تتكلم ثلاثين لهجة مختلفة تضمها ست مجموعات لغوية رئيسية وهذه القبائل ، باستثناء عدد قليل منها أقل أهمية ، تنحدر عن أولئك الذين غزوا القطر حين جاء بعضهم من جهة الكنجو وبعضهم سالكا الطريق الواصل من شرق بحيرة تنجانيقا ، وذلك ليس قبل بداية القرن الثامن عشر . وكثير من هذه القبائل صغير ، وكثير منها غير منظم ، ليس بينها من التماسك إلا القليل ، ولا يجمعها ولاء قوى لأية سلطة يقرونها . وكانت الحروب القبلية وتجارة الرقيق قد أدت بهم بالفعل إلى التفكك قبل مجىء الأوربيين . واستطاعت بعض القبائل أن تصمد أكثر من غيرها أمام هذه العمليات التى تنخر فى بنيانها ، مثال ذلك البمبا فى الشمال The Bemba والباروتس فى الغرب The Barotse . ومنذ حوالى ١٣٠ سنة مضت وقعت باروتسيلاند Barotseland فريسة للغزو

(١) هكذا صار هجاؤها اليوم . ومن الواضح أنها مشتقة من تسميتها النوعية Nguni

من جانب قبائل من أصل سوذو Sotho تدعى فوكنج Fokeng كانت قد آلت بها الحروب القبلية إلى الطرد من نهر أورنج ، فوصلت إلى وادى الزمبيزى بعد رحلة مشابهة تماما لرحلة أنجونى زوانجندابا Zwangendabas Argoni . وفى ظل زعامة Sebetwane ، الذى أصبح فيما بعد صديقا للفنجستون ، انتعشت حياة هؤلاء الماكولولو the Makololo — كما يدعون — وازدهرت لبعض الوقت فى موطنهم الجديد . ثم آلوا إلى الأفول فى ظل من خلفوه ، وفى عام ١٨٧٣ قام سيبوبا Sepopa ، وهو زعيم محلى أصلا ، بثورة قضى فيها على كل الرجال من الماكولولو . وآلت النساء إلى الغزاة الذين حافظوا هم أيضا على لغة السوذو التى لا تزال حتى اليوم هى لغة الكلام فى باروتسيلاند .

إفريقيا الوسطى البريطانية «سابقا»

الاقتصاديات :

ليس ثمة اقتصاد فى إفريقيا قد نما وتطور على نحو أسرع منه فى روديسيا الشمالية والجنوبية . فالمبانى الجديدة والإنشاءات الحديثة قامت كلها دفعة واحدة كما لو كان ذلك بفعل السحر ، وهناك من المدن مثل سالزبورى وبولاوايو Bulawayo ولوزاكا وغيرها ما نما فى عشر سنوات أو يزيد قليلا ، نموا هائلا غير من معالمها . إلا أن ذلك البريق الذى اكتسبته ما لبث أن زال عنها فى الخمسينات الأخيرة بسبب هبوط سعر النحاس فى عامى ٥٦ و ١٩٥٧ . ولقد صاحب هذا هبوط فى أسعار المنتجات الأولية الأخرى فأدى بالتالى إلى الحد من النشاط التجارى بوجه عام . وعلى الرغم من هذه النكسة فإن التقارير الواردة عن اتحاد إفريقيا الوسطى

سابقاً ، إنما تدل على النمو ، ومن وجهة النظر الإقتصادية فإن التخطيطات الطويلة الأجل تبشر بالخير .

التعدين :

يشكل حزام النحاس لروديسيا الشمالية أعظم مصدر للنحاس فى الكمنولث وأكبر رابع مصدر فى العالم (١٩٥٩) . وقد أكتشف لأول مرة فى حوالى عام ١٩٢٠ حين كان لا يزال مجرد غابة ليست بها أية مسالك للعبور ، وما أن حل عام ١٩٣٩ حتى كان التعدين يجرى فى أربعة مناجم من المناجم الستة الحالية . وسرعان ما تغيرت النظرة الإقتصادية وارتفعت الميزانية من مجرد نصف مليون جنيه إلى عشرة ملايين فى سنين قلائل . وإلى حد كبير كان يعتمد على النحاس قيام المنشآت الجديدة من مدارس ومستشفيات وشق للطرق وما ترتب على ذلك من وجود حالة من الرخاء المتزايد . وقام إلى جوار كل منجم عدد من المدن ؛ وتستخدم هذه المناجم ٨٠٠٠ من الأوربيين و ٤٧٠٠٠ من الإفريقيين . أما المعادن الهامة الأخرى — وكلها تأتى من روديسيا الشمالية — فهى الكوبالت والزنك والرصاص والمنجنيز . ولا يفوتنا أن نذكر فى هذا المجال أن التكوين الصناعى الثنائى الطبقة الذى لاحظناه فى إفريقيا الجنوبية موجود كذلك فى روديسيا الشمالية . ولو أن البلجيكيين فى كاتنجا المتاخمة قد أوضحوا فيما مضى أن الإفريقى قد أوتى القدرة على القيام بأعمال المهارة فى المجال الصناعى إلا أن عامل التعدين الأوربى فى الحزام النحاسى قد أبى إلا أن يحتجز لنفسه الطبقة الأعلى خالصة له وحده ، وليست هذه هى سياسة الحكومة ، ولا هى سياسة شركات التعدين الكبرى ، ولكن هذا الحاجز قد أملته الغيرة المتأججة لدى إتحادات الحرف القوية التى كرست نفسها للحفاظ على مركز العمال الأوربيين .

أما روديسيا الجنوبية فلم تكن بمثابة الإلدرادو the Eldorado الذى كانت تتوقعه الطلائع الأولى من الأوربيين ، فلم يكن هناك إمتداد كبير للشعب الصخرية الساحلية كما هى الحال فى إقليم الراند The Rand ، كما أن التعدين كان يقوم به أناس محدودو الموارد فى مناجم صغيرة . وأما الأسبستوس فقد أصبح سلعة تصديرية أغلى من الذهب ، كما أصبحت روديسيا الجنوبية هى الدولة الأولى فى العالم التى تنتج أعلى درجات الأسبستوس ، ولو أنها تعد الدولة الثالثة من حيث إنتاجه الكلى . وتبلغ الطاقة الإنتاجية لمناجم وانكى Wankie للفحم الحجرى خمسة ملايين طن فى السنة ، كما أن خام الكروم قد أصبح سلعة تصديرية صاعدة ، وكذلك ازدادت أهمية الكثير من المعادن الأخرى .

ويوجد فى نياسالاند أنواع عدة من المعادن ، إلا انه إلى يومنا هذا لم يقم هناك من أعمال التعدين إلا القليل .

الأرض والزراعة :

والقطر الوحيد من الإتحاد السابق ، الذى جرى فيه تحويل ملكية الأرض على نحو له مغزاه هو روديسيا الجنوبية . فهناك نجد أن تقسيم الأرض تحكمه لائحتان هامتان من التشريع . فقانون تقسيم الأرض لعام ١٩٣٠ قد نص بالفعل على تقسيم أرض المستعمرة بين الأوربيين والإفريقيين . وتبلغ المساحة الزراعية الكلية ٩٦ مليون فدان ، منها ٢١ مليون ونصف كانت محجوزة للوطنيين ، وحوالى ٣١ مليون كانت مخصصة للأوربين قبل صدور القانون . ثم أفرد القانون سبعة ونصف مليون أخرى كمناطق مخصصة لمشترى الوطنيين يستطيع فيها الإفريقيون حيازة الأرض وتملكها كأفراد ، وثمة سبعة عشر ونصف مليون أخرى مخصصة لمشترى الأوربين

أما الباقى وقدره حوالى ١٨ مليون فدان فقد ترك دون تخصيص لقد زيد من المساحات المخصصة للشراء ، وبالإضافة إلى ذلك فهناك من المساحات ما يقارب العشرة ملايين من الأفدنة التى أعلن بأنها أصبحت مناطق خاصة بالوطنيين Special Native areas ، ولكن يتوقف شغلها على مستويات الزراعة التى تتطلبها الحكومة .

ثم جاء قانون فلاحة الأرض الوطنيين لعام ١٩٥١ مكملا لقانون تقسيم الأرض ، وليحول دون إساءة استعمال الأرض ، والعمـــل على تحسين الزراعة الإفريقية . ولا يهدف هذا القانون الجرىء إلى أقل من تحقيق الفردية التامة لحيازة الأرض لدى الوطنيين على النمط الأوربى بالإضافة إلى تحقيق مستويات عالية من إدارة الأرض . ولمواجهة مطالب القانون يتعين على الإفريقى أن يعمل كل الوقت وأن يكون ذا مهارة عالية .

أما تحويل ملكية الأرض فى روديسيا الشمالية ونياسالاند ، إذا ما هو قورن بالموقف فى ردويسيا الجنوبية ، فيكاد يكون مهملا . فنسبته المئوية فى روديسيا الشمالية هو ٢ر٥ ، وفى نياسالاند ١ر٥ .

ويشكل التبغ المحصول التجارى الرئيسى فى الاتحاد ، وهو كسلعة تصديرية يأتى بعد النحاس مباشرة ، ويسهم بحوالى ١٢٪ من صادرات التبغ فى العالم . ويقـــوم بزراعته الأوربيون فى روديسيا الجنوبية ، والأوربيون والإفريقيون فى روديسيا الشمالية ونياسالاند ، والذرة أهم حاصلات الحبوب . وهى ليست فقط الطعام الأساسى للإفريقى ولكنها تشكل كذلك – بالنسبة للإنتاج المتزايد فى السنوات الأخيرة – محصولا تصديريا هاما فى روديسيا الشمالية والجنوبية . وتعتبر نياسالاند المنتج الإفريقى الأول للشاى ، وبالإضافة إلى ذلك فهى تنتج القطن والفول

السودانى وزيت التونج (الجولا كا) . ويعتبر الفول السودانى محصولا نقديا هاما فى روديسيا الشمالية حيث نجد إنتاجه فى توسع مستمر . ولقد بدأت روديسيا الجنوبيه أخيراً فى إنتاج الشاى ، وأما قصب السكر فيزرع فى وادى الزمبيزى .

وحوالى $\frac{1}{8}$ روديسيا الشمالية موبوء بذبابة تسى تسى ، الأمر الذى أدى إلى الحد من الصناعات القائمة على الماشية . وعلى كل ، فهناك فى الإقليم ما يزيد على المليون رأس من الماشية ، ومعظمها ملك للإفريقيين . ويبلغ تعداد الماشية فى نياسالاند حوالى ٢٥٠ ألف رأس ، وفى روديسيا الجنوبية – حيث نجد تربية الماشية من جانب الأوربيين تشكل عاملا هاما – هناك ٣ر٣٦٠ر٠٠٠ رأس من الماشية ، منها ١ر٥٥٣ر٠٠٠ ملك للأوربيين والباقى ملك للإفريقيين .

الصناعات الثانوية :

وثمة عوامل عدة أدت إلى نمو الصناعات الثانوية ، ولعل أهمها التكاليف الباهظة للسلع المستوردة وصعوبة الحصول عليها . ثم كانت الهجرة العالية بعد الحرب الأخيرة فى أعداد غفيرة لم يكن لها مثيل من قبل ، فجاءت بالقوة العاملة وأدت فى وقتنا الحاضر إلى تنمية العديد من الصناعات . وهذه تشمل الحديد والصلب ، والنسيج والملابس ، وتصنيع المعادن ، والصناعات الهندسية وكثير غيرها . وقد يتساءل المرء عما إذا كانت السوق تستطيع أن تستوعب التوسع فى الصناعات الثانوية على نحو أكثر بكثير . فمن المؤكد أنه لابد وأن يكون هناك حد لمعدل الزيادة فى السكان الأوربيين ، كما أن القوة الشرائية لدى الإفريقيين لا تزال ضعيفة بعض الشىء ، وكذلك يبدو أنه ليس هناك أمل كبير فى وجود سوق لتصدير السلع المصنعة .

وثمة عامل مناهض آخر هو العجز فى الأيدى العاملة سواء أكانت من العمال المهرة أو غير المهرة.

الهجرة العمالية :

وثمة عامل هام له أكبر الأثر فى الاقتصاد الإفريقى فى كل من الأقاليم الثلاثة هو العمل بالأجر داخل الإقليم أو خارجه . ففى نياسالاند ، عام ١٩٥٨ ، لم يكن عدد الذين يعملون خارج المحمية فى الأقطار الأخرى بأقل من ١٦٩٠٠٠ رجل . وفى أوج دورات العمل يبلغ عدد من تستخدمهم من العمال ١٦٠٠٠٠ رجل . وفى روديسيا الشمالية ، عام ١٩٥٨ ، كان هناك من العمال ممن يعملون بالأجر حوالى ٢٢٣٠٠٠ رجل ، ويشمل هـــذا العدد ١٨٠٠٠ من الأغراب ممن وفدوا من خارج المحمية . ولما كان الحزام النحاس له إغراؤه الشديد وجدنا معظم أهل روديسيا الشمالية يعملون داخل الإقليم ، ولم يلجأ إلى الهجرة للعمل فى الأقطار الأخرى فى عام ١٩٥٨ غير حوالى ١٢٠٠٠ فقط .

أما روديسيا الجنوبية فتمثل ، إلى حد ما ، حالة أخرى . فمن بين السكان الإفريقيين البالغ قدرهم ٢ر٥٩٠ر٠٠٠ نسمة (١٩٥٨) كان هناك ما يزيد على ٦٠٠٠٠٠ يعملون بالأجر داخل نطاق المستعمرة . ورغم ضخامة هذا العدد فهو لا يفى بإحتياجات الصناعات المتعددة ، ولذا كانت هناك سوق رائجة للعمال المهاجرين . ولكن نتائج هـــذا العمل بالأجر Wage labour قد لا تكون هنا هى نفس النتائج فى نياسالاند وذلك بسبب الإنفصال المتزايد فى روديسيا الجنوبية بين السكان الزراعيين والسكان الصناعيين . ولكن إذا كان « قانون فلاحة الأرض للمواطنين الافريقيين Native Land Husbandry Act يؤدى الغرض الذى جاء من أجله فإن

الإفريقى ان يعود قادرا على توزيع وقته بين الخدمة المؤقتة فى المدينة والزراعة الفصلية غير المجدية لمساحة صغيرة من الأرض داخل مستعمرته. فعليه أن يختار بين الزراعة والصناعة ، وعلى ذلك فسوف تنمو هناك - كما هى الحال فى الدول الأكثر تقدما - مجتمعات دائمة منفصلة ، حضرية وريفية . ولو أنه كان هناك توكيد شديد لأهمية تعليم الفلاح وتحسين الزراعة ، فإنه لم يبذل شىء من هذا القبيل حتى الآن بالنسبة للسكان الدائمين فى المدن ، وهكذا لم يكتمل علاج أحد أوجه التطوير العميق والمفيد بوجه عام الذى استحدثته السياسة الحاضرة . وفى عام ١٩٥٨ قامت لجنة منتدبة خصيصاً لدراسة حياة الإفريقيين فى المدن بتقديم تقرير بلومان Plewman الذى اشتمل على توصيات معقولة ومفيدة . ولكن هذا التقرير أهمل ، فضاعت بذلك فرصة علاج المشكلة بطريقة واقعية وهى لا تزال فى المهد .

القوى المحركة :

توجد فى الاتحاد حقول للبترول لا يعلم مداها على وجه التحديد ، ولكنها لابد وأن تكون مترامية . وقد ورد من قبل ذكر مناجم وانكى Wankie للفحم الحجرى التى يقدر احتياطيها بحوالى ٥٢٠٠ مليون طن من فحم البتومن bituminous coal ، وجزء كبير منه من فحم الكوك وثمة حقول كبيرة من الفحم متفاوتة فى الجودة فى الشمال الغربى والشمال الشرقى لروديسيا الجنوبية ، وفى نياسالاند وفى روديسيا الشمالية . والحقل المنتج الوحيد هو حقل وانكى .

ولم يكن الاتحاد يعتمد على الفحم وحده من أجل الحصول على الطاقة . فالهيدروكهربية مصدر آخر للطاقة غاية فى الأهمية . فمشروع خانق كاريبا Kariba Gorge على الزمبيزى سيضاعف من طاقـــة الاتحاد فى إنتاج

الـكهرباء . وفى الإمكان كذلك استغلال بعض أنهار أخرى فى الإتحاد لهذا الغرض . فنهر كافيو Kafue قد تمت دراسته فى وقت من الأوقات ، قبل كاريبا ، ليكون هو المشروع الأول ؛ وكذلك يمكن الإفادة من نهر شير Shire فى نياسالاند ، ونهر تشامبيزى Chambezi فى روديسيا الشمالية فى نفس الغرض . وفى نفس الوقت توجد محطات عدة لتوليد الـكهرباء فى الاتحاد تمد المدن والحزام النحاسى بما يلزمها من الطاقة الـكهربية ، وقد زيدت طاقتها حديثاً . وأخيراً ، فإن وجود خامات اليورانيوم فى أمكنة عدة لهو شىء يبعث الأمل فى إقامة محطات لإنتاج القوة النووية . وهكذا يتوافر للاتحاد وجود الوقود والطاقة الـكهربية بشكل مرض للغاية(١) .

وسائل النقل :

كان أول خط للسكك الحديدية أنشىء لخدمة روديسيا هو ذلك فى الذى قامت بمدة شركة جنوب إفريقيا البريطانية من فريبرج Vryburg فى بتشوانالاند البريطانية خلال محمية بتشوانالاند إلى بولاوايو Bulwoyo فى عام ١٨٩٧ . أما الخط الحديدى من بيرا Beira إلى سالزبورى عبر أومتالى Umtali فقد أفتتح فى عام ١٨٩٩ ، وتم إنشاء الخط الواصل من سالزبورى إلى بولاوايو فى عام ١٩٠٢ . ومد الخط من بولاوايو إلى شلالات فيكتوريا فى عام ١٩٠٤ . ومن هناك مد عبر روديسيا الشمالية إلى الـكنجو حيث وصلها فى عام ١٩٠٨ . وفى الاتحاد الآن من الخطوط الحديدية ما يبلغ طوله ٢٤٠٠ ميل تشكل جزءاً من شبكة متصلة فى الـكنجو ، وإفريقيا الشرقية البرتغالية ، و« دولة » بتشوانالاند ، و« جمهورية » جنوب إفريقيا وإفريقيا الجنوبية الغربية إلى موانى السواحل الشرقية والجنوبية والجنوبية الغربية لإفريقيا . وكانت هناك فيما سبق حركة كبيرة تنوء بها ميناء بيرا Beira ،

(١) لم يعد اتحاد وسط أفريقيا قائما ، بل انقسم إلى دول ثلاث هى زامبيا (روديسيا الشمالية سابقا) وملاوى (نياسالاند سابقا) ثم روديسيا ذات الحكومة العنصرية ـ المعربان

ولكن افتتاح خط حديدى جديد فى عام ١٩٥٥ بين روديسيا الجنوبية ولورنسوماركيز قد خفف كثيراً من الأعباء الملقاة على سكك حديد وميناء بيرا Beira .

وتجرى الطرق البرية الرئيسية فى كل مكان من روديسيا الشمالية والجنوبية بحذاء الخطوط الحديدية مع وجود تفرعات كثيرة جداً . وعموما فإن الطرق من التراب ، ذات مستوى خفيض ، ولكنها فى تحسن مستمر . وهناك من طرق الدرجة الأولى ما يبلغ طوله بضع مئات من الأميال . وخصوصاً فى روديسيا الجنوبية ؛ وكذلك نجد فى روديسيا الجنوبية كثيراً مما يدعى بالطرق الشريطية strip roads التى تتكون من شريطين متوازيين من الحصباء والأسفلت ، على مبعدة من بعضهما بعدة أقدام ، يتيحان مواصلة السير لحركة المرور حين يستعصى ذلك فى الطرق المتربة . وطرق نياسالاند فى معظمها من التراب ؛ ولو أن بعضها قد يعتبر صالحاً لكل طقس فإن معظمها يتوقف السير فيه على نوع الفصل السنوى .

وفى الاتحاد كذلك توجد بعض الطرق المائية التى لا تعد مهملة بأية حال . ففى بحيرة نياسا تسير بعض البواخر التابعة للسكك الحديدية لتحمل الركاب ؛ أما الزمبيزى فصالح للملاحة لمسافات قصيرة ، وأما بحيرة بنجويلو Bangweulu فتجرى فيها حركة نقل محلى . وأما بحيرة تنجانيقا فتجرى فيها حركة تجارية من منطقة أبركورن Abercorn إلى الخط المركزى لتنجانيقا .

وفى عام ١٩٤٦ أسست الخطوط الجوية لإفريقيا الوسطى لتنقل الركاب إلى أمكنة كثيرة فى الاتحاد . وكذلك تقوم الخطوط الجوية لإفريقيا الوسطى برحلاتها إلى شرق وجنوب إفريقيا وإلى لندن . وهناك عدد من الخطوط الجوية الدولية تصل الاتحاد بالأقاليم الأخرى ، وكذلك عدد من

شركات الطيران التى تنظم الرحلات الخاصة . وبالإضافة إلى الميناء الجوى الدولى الرئيسى الموجود فى سالزبورى فهناك عدة موان جوية فى لفنجستون، وفى بولا وايو ، ولوزاكا، وندولا .

هذه الصورة لذلك الاقتصاد الصاعد قد شوه من جلالها تلك المخاوف والشكوك الاقتصادية الاجتماعية . فإذا كان فى الإمكان إزالتها وإعادة الثقة إلى النفوس فإن المستقبل الاقتصادى لهذه المنطقة سيرجى منه الكثير .

روديسيا الجنوبية

تاريخها :

فى عام ١٨٨٨ حصل ثلاثة من مبعوثى سيسل رودس Cecil Rhodes هم رود Rudd، تومسون ، ماجوير، على امتياز لاستخراج المعادن من لوبنجولا زعيم المتابيل Matabele . وكان هذا هو امتياز رود Rudd. ثم صدر مرسوم ملكى لشركة جنوب إفريقيا البريطانية ، التى أسسها رودس فى السنة التالية على أساس امتياز رود ، يخولها كل سلطات الحكم فى « حقل العمليات ، الشاسع . ثم فى عام ١٨٩٠ جاءت إلى ماشونالاند جماعة من الرواد وبدأت فى تكوين مزارعها والتنقيب عن الذهب .

ولم يكن هناك مفر من الوقوع فى صدام مع المتابيل الذين كانوا ينظرون إلى الماشونا على أنهم رعاياهم ويعتبرون ماشونا لاند جزءاً من بلادهم . أما لوبنجولا نفسه فلم يكن إطلاقا يقصد بأن يؤدى امتياز رود Rudd إلى الاحتلال الصحيح لأراض كان يعتبرها ملكا خالصا له ، ومع كل ، فقد حاول جهد استطاعته أن يحافظ على السلام . ولكن ما لبث أن قام نزاع مسلح فى عام ١٨٩٣ حين دخل مغيرون من المتابيل إلى المنطقة

المستعمرة وذلك - حسب قولهم - لتأديب بعض المنحرفين من الماشونا . ولكنهم ردوا على أعقابهم بعد أن تكبدوا الكثير من الخسائر ، واستطاعت قوة من الرواد ، بمعونة حرس الحدود فى بتشوانالاند ، أن تحتل ماتابل لاند Matableland . وندمر جيش لوبنجولا فى موقعتين ، وفر الزعيم نفسه ، ومات بعد ذلك ببضعة أسابيع ، فانهارت كل مقاومة وأخذ الغزاة فى تخطيط المزارع والبحث عن الذهب فى ماتابل لاند . ولم يكن هذا ليثبط من همة المتابيل أو ليقلل من روحهم المعنوية ، فقاموا بثورة فى عام ١٨٩٦ . وزاد الموقف تعقيداً نشوب ثورة بين الماشونا الذين كان يعتقد فيهم حتى ذلك الحين بأنهم قوم هيابون للحرب ، محبون للسلام . وعن طريق مفاوضات أجراها رودس بشجاعة فائقة مع الزعماء ، استطاع أن يقنع المتابل بإلقاء السلاح . ومع ذلك ، استمرت ثورة الماشونا حتى عام ١٨٩٨ وانتهت بهزيمة قادتهم وبذلك تكونت روديسيا الجنوبية بتوحيد ماتابلاند وماشولاند .

وتاريخ روديسيا الجنوبية يدل على نموها باضطراد وبشكل ملحوظ ، كمستعمرة للإستيطان . وكان ثمة جدل كثير فى بداية هذا القرن حول مستقبل هذا القطر . وكان هناك امتعاض متزايد نحو حكم الشركة مما حدا بالمستوطنين إلى بحث استبداله بنوع آخر من الحكم . وكان أمامهم أحد شيئين: إما أن يكون الحكم ذاتياً ، أو أن يلحق القطر باتحاد جنوب إفريقيا وكان إستفتاء عام ١٩٢٢ الذى اختار الحكم الذاتى ؛ وفى عام ١٩٢٣ أصبحت روديسيا الجنوبية مستعمرة بريطانية تضطلع بمسئولية الحكم . وقد أسهمت روديسيا الجنوبية بنصيب كبير فى الوقوف إلى جانب بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ، نخدم أهل روديسيا فى كل الجبهات وفى شتى الأسلحة واشتركوا فى أعنف معارك تلك الحروب .

وأصبحت المستعمرة كذلك جزءاً هاماً من الخطة الإمبراطورية للتدرب على الطيران ، وهكذا جاء الآلاف من رجال الطيران للتدرب على الخدمة في سلاح الجو الملكي بمراكز التدريب في روديسيا .

روديسيا الشمالية ونياسالاند

كان البرتغاليون - وكانت لهم مستعمرات على الساحل الشرقي - ينظرون إلى وادي الزمبيزي منذ زمن بعيد على أنه ملك خالص لهم ، إلا أن هذا الإدعاء لم يكن له ما يدعمه من محاولات أكيدة للإستيطان ، وكذلك جاء ليتحداهم في هذا السبيل الإرساليون والمستكشفون البريطانيون قبل أن تبدأ موجة الزحف على إفريقيا بزمن وطويل. فقد جاء ڤنجستون وأرس قواعده عند مصب الزمبيزي في عام ١٨٥٨ ثم اكتشف بحيرة نياسا في السنة التالية . أما البعوث الجامعية المرسلة إلى إفريقيا الوسطى ، والتي جاءت لاستغلال هذا الحقل الجديد ، فقد صادفت بداية سيئة بموت عدد من أعضائها - وكان أحدهم الأسقف ماكنزي - فرجعت إلى زنج بار من أجل إعداد تخطيط آخر أفضل للسير باستكشافاتها . وتخليداً لذكرى ڤنجستون أقامت « الكنيسة الاسكتلندية الحرة » إرسالية ڤجستونيا عام ١٨٧٥ ، وفي السنة التالية أقامت كنيسة اسكتلندا إرسالية لها في بلانتير Blantyra . وفي عام ١٨٧٨ وصل الإخوة موار Moir لينشئوا شركة البحيرات الإفريقية التي نسقت عملها على أساس من التعاون الوثيق مع الإرساليات . وفي عام ١٨٨٦ حاولت البرتغال اتخاذ خطوات مضادة لما اتخذته بريطانيا في إفريقيا الوسطى ، وذلك بعقد معاهدات شاملة مع فرنسا وألمانيا اعترفت فيها هاتان الدولتان بأحقية البرتغال في كل الأقاليم الواقعة بين إفريقيا الشرقية البرتغالية وبين أنجولا . ومعنى هذا أن تعطى البرتغال حزاما عريضا عبر القارة تماما ، وهكذا تحول دون تقدم البريطانيين من

الجنوب . واحتجت الحكومة البريطانية ولم يسفر احتجاجها عن شيء ، ولكن في ذات الوقت ، بينما كان سيسيل رودس يتأهب لاحتلال ماشونالاند ، كان هناك ثلاثة رجال غاية في الحنكة والاحترام - هاري جونستون القنصل البريطاني في موزمبيق ، وألفريد شارب ، وجوزيف تومسون - يجرون المفاوضات لعقد معاهدات مواتية للبريطانيين مع الزعماء من بحيرة نياسا حتى دولة الكنجو الحرة أي في نفس الإقليم الذي يطالب به البرتغاليون ، وفي نفس الوقت كان لوكنر Lochner ، أحد موظفي شركة جنوب إفريقيا البريطانية ، يعقد اتفاقية مع ملك بارتسيلاند . وفي عام ١٨٩٠-١٨٩١ تحول الزحف على إفريقيا إلى سلسلة من الاتفاقات بين الدول الأوربية . فالاتفاقية مع البرتغال قد أكدت أحقية بريطانيا العظمى في نياسالاند وماشونالاند . وكذلك فإن الاتفاقية ، بطريقة عرضية ، قد وضعت حداً لمحاولة جريئة قامت بها شركة جنوب إفريقيا البريطانية لتملك جازالاند Gazaland ، التي حكم بأنها تقع داخل منطقة النفوذ البرتغالي ثم جاءت الاتفاقية مع ألمانيا لتحدد الحدود بين منطقة النفوذ البريطاني وبين شرق إفريقيا الألمانية . وفي عام ١٨٩١ أصبحت نياسالاند محمية بريطانيا ، وأصبح القطر الواقع إلى الغرب منها ، والذي كان يسمى روديسيا الشمالية تحت حكم « شركة جنوب إفريقيا البريطانية » .

أما وقد استقر الوضع الدولي والقانوني فقد أصبح في الأمكان مكافحة تجار الرقيق العرب الذين كانوا يسطون على القبائل الضعيفة شمال بحيرة نياسا . وكانت شركة البحيرات الإفريقية ، بمساعدة المتطوعين الأوربيين ، قد مارست الحرب لبعض الوقت ضد تجار الرقيق ، ولكنها لم تصب الكثير من النجاح . ثم جاء هاري جونستون ، المندوب السامي البريطاني للمحمية ، ليكرس نفسه للقضاء علي الوباء بقوات قليلة ولكن

غاية فى القوة ، ونجح بالفعل فى إنجاز مهمته عند حلول عام ١٨٩٦ حين اضطره اعتلال صحته إلى العودة إلى وطنه . وفضلا عن ذلك فقد وضع الأسس الأولى للإدارة فى نطاق الحمية ، وعقد اتفاقية الأراضى ، وأدخل نظاما للضرائب . لقد كان عملا عظيما أنجزه رجل عظيم .

ومنذ انتهاء تجارة الرقيق حتى وقتنا الحديث وتاريخ نياسالاند يمتاز بالهدوء . وكان الموقف فى بداية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) محفوفا بالمخاطر وذلك بسبب الحدود المشتركة مع شرق إفريقيا الألمانية ، ولكن ما أن زال الخطر حتى أسهم القطر بنصيب وافر فى القوات التى كانت تحارب فى حملة شرق إفريقيا . ولقد حدث أثناء هذه الحرب ان قام جون شيلمبوى - وهو وزير إفريقى تلق بعض تعليمه فى الولايات المتحدة - بتشجيع من الألمان ، هو وزملاؤه ، بقتل العديد من الأوربيين فى ناحية بلانتير . ولكن مالبث ان قتل شيلمبوى نفسه وفشلت الثورة . وفى اثناء الحرب (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ذهب ٣٠٫٠٠٠ من اهالى نياسالاند ، وفيهم نسبة عالية من السكان الأوربيين القليلى العدد ، للخدمة فى القوات المحاربة .

وفى أراضى شركة جنوب إفريقيا البريطانية شمال الزمبيزى ، لم يكن من المستطاع فى أول الأمر فعل شىء أكثر من المحافظة على سير وسائل النقل ومحاربة تجارة الرقيق . وعلى كل ، ففى عامى ، ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ جرى تقسيم القطر إداريا إلى قسمين : روديسيا الشمالية الغربية وروديسيا الشمالية الشرقية ، ولكن ما لبث أن ضما إلى بعضهما مرة أخرى فى عام ١٩١١ تحت اسم روديسيا الشمالية Northern Rodesia . وفى ذات الوقت كان الأوربيون قد دخلوا إلى القطر وطالبوا بأن يمثلوا فيه . وقد تحققت رغبتهم هذه عام ١٩١٨ فى شكل مجلس استشارى . ثم أثيرت مسألة إدماجه فى روديسيا الجنوبية ، وربما بعد ذلك فى جنوب إفريقيا أيضا

وطالما بحثت هذه الفكرة أثناء السنوات الأولى لاستيطان الأوربيين . وجاء جزء كبير من الرأى العام فى كلا القطرين ليعارض إدماج الروديسيتين الذى بدونه ما كان ليتاح وجود صلات أوثق بين روديسيا الشمالية وبين جنوب إفريقيا . هذا فضلا عن أن الرأى العام الأوربى فى روديسيا الشمالية كانت تفزعه مظاهر القومية الأفريقانية Afrikaner nationalism فى كلا جنوب إفريقيا ، وبين بعض المستوطنين أنفسهم ، كما أفزعته كذلك طريقة حكومة جنوب إفريقيا فى علاجها لمشاكل العمل بين العمال البيض . ومع نهاية الحرب العالمية الأولى ظهر امتعاض الأوربيين من الشركة نفسها ، وأصبحوا يتطلعون بالفعل إلى وزارة المستعمرات لتتولى هى مسئولية حكم القطر . وفى عام ١٩١٩ طالب كل القادة الأوربيين بتحويل روديسيا الشمالية إلى مستعمرة تابعة للتاج مع قيام تمثيل نيابى سليم . وفى نهاية عام ١٩٢٤ انتهى حكم الشركة ، وأنشىء مجلس تشريعى ، وأصبحت روديسيا الشمالية محمية مهابة .

الاتحاد الفيدرالى : Federation

ولو أن المقترحات الأولى لإدماج الروديسيتين لم تثمر ثمارها ، فقد كان صحيحا وجود طائفة من المصالح القوية المتزايدة بين الأقطار البريطانية الثلاثة وعلى ذلك فإن مسألة قيام تحالف أوثق لم تكن لتستبعد ، بل على العكس من ذلك كانت موضع البحث والتمحيص من قبل لجنة مشكلة برياسة لورد بليدزلو Bledisloe فى سنة ١٩٣٨ . وجاء تقرير اللجنة ضد الإدماج السريع ، وأوصت بدلا منه بإقامة هيئة إقليمية داخلية لتنسيق الخدمات المشتركة المتعددة ولم ينجز شىء فى سنوات الحرب ، ولكن بدىء فى عام ١٩٤٥ بتنفيذ توصيات اللجنة بإقامة « مجلس إفريقيا الوسطى » The Central African Council ، وهو هيئة استشارية لها سكرتارية دائمة

ولكن على خلاف مثيلتها فى إفريقيا الشرقية ، ليست لها جمعية تشريعية مركزية. وتوالى الضغط من أجل الوصول إلى صلات أوثق ، وفى عام ١٩٥٠ شكلت لجنة من الرسميين لدراسة المسألة . وأعقب ذلك محادثات طويلة انتهت فى صيف ١٩٥٣ بقيام اتحاد روديسيا ونياسالاند . ودستور الاتحاد بارع محكم ، فهناك حاكم عام يمثل الملكة ، وهناك وزارة يرأسها رئيس وزراء فيدرالى . وأعضاء الوزارة يختارون من قبل « الجمعية الفيدرالية » Federal Assembly التى تضم تسعة وخمسين عضواً . وهؤلاء يجىء أربعة وأربعون منهم بالانتخاب ، أربعة وعشرون من روديسيا الجنوبية ، وأربعة وعشر من روديسيا الشمالية وستة من نياسالاند وهناك ثمانية أعضاء من الإفريقيين منهم أربعة يأتون من روديسيا الجنوبية وإثنان من كل من روديسيا الشمالية ونياسالاند . وهناك ثلاثة أعضاء من الأوربيين هم المسئولون عن المصالح الإفريقية ينتخب أحدهم من روديسيا الجنوبية والآخران يجيئان بالتعيين من قبل الحاكم العام من كل من روديسيا الشمالية ونياسالاند وأخيراً فهناك أربعة أعضاء من الإفريقيين ينتخبون خصيصا إثنان من كل من روديسيا الشمالية ونياسالاند . ولا يفوتنا أن نذكر أن ثلاثة وخمسين من التسعة والخمسين عضواً ينتخبون من قبل ناخبين هم فى غالبيتهم العظمى فى ذلك الوقت من الأوربيين وأن أربعة فقط ـ هم الإفريقيون المنتخبون خصيصا ـ ينتخبون من الإفريقيين دون منازع .

وقد بحثت بتلهف شديد مسألة تأمين المصالح الإفريقية ، وكانت ثمرة هذا البحث تشكيل لجنة دائمة منبثقة عن الجمعية الفدرالية تسمى « لجنة الشئون الإفريقية » ، وتتكون من ثلاثة أعضاء أوروبيين يمثلون المصالح الافريقية وواحد عن كل قطر من الأعضاء الإفريقيين المنتخبين وتتلخص وظيفة اللجنة فى « أن تقدم إلى الحكومة من الإقتراحات والعروض ، فيما يختص

بأية مسألة فيدرالية ، ما قد تراه اللجنة متفقا ومصلحة الإفريقيين ، وأنه ، إذا ما قدمت حكومة إقليمية إلتماسا ما ، تساعد تلك اللجنة الحكومة فى دراسة المسائل التى تمس مصالح الإفريقيين » . ومن أخص وظائف اللجنة « توجيه الإنتباه نحو أى تشريع فيدرالى ، إذا رأت أن « مثل هذا التشريع يشكل نوعا من التمييز » ، بمعنى انه يفرض على الإفريقيين من التعقيدات ما لا يخضع له الأوربيون بالمثل .

وكان يتمتع الإتحاد الفيدرالى بسلطات مطلقة للتشريع فى العديد من المواضيع وعلى الأخص فى الشئون الخارجية والدفاع ، وكثير من الأوجه المالية والتجارة ، والمواصلات الإقليمية والدولية ، وكل التعليم العالى . وكذلك هناك عدد من المواضيع التى تستطيع الحكومات الإقليمية أن تشرع فيها بالإتفاق مع الحكومة الفيدرالية ، مع إتباع القانون الفيدرالى فى حالة قيام نزاع ، بينما تشرف الحكومات الإقليمية على شئونها الداخلية وعلى الأخص ما يتصـــل منها إتصالا وثيقا بالحياة اليومية للشعوب الإفريقية .

والنظام الفيدرالى بالنسبة للغرباء يشكل ـ إلى حد ما ـ مسألة محيرة . فكل الأوربيين المعنيين لم يكونوا ليوافقوا عليه بأية حال ، كما أن الكثيرين من الإفريقيين ذوى الرأى كانوا يعارضونه بشدة . فإذا كان من المقطوع به وجود ميزات للوحدة كمصدر للقوة والمكانة الإقتصادية من أجل مقاومة شدة الجذب الجنوبى لإتحاد جنوب إفريقيا فلا بد وأن نضع فى الكفة الأخرى من الميزان عدم التكافؤ بين العناصر التى قصد قيام وحدة بينها . فمن ناحية ، نجد مستعمرة تحظى بحكم ذاتى فيها طبقة حاكمة أوربية كبيرة تستأثر بمعظم السلطات وتحوز نصف الأرض ، ومن ناحية أخرى نجد محميتين فيهما الأغلبية الساحقة من الإفريقيين ، إحداهما غنية

والأخرى فقيرة ، ويحكمان من لندن على أسس إستعمارية تقليدية . وفى فبراير ومارس ١٩٥٩ وقعت هناك فى نياسالاند بعض حوادث الشغب وإراقة الدماء بسبب - على ما يبدو - عدم الثقة فى النظام الفيدرالى والخوف من أن سياسات روديسيا الجنوبية ، التى يسود فيها الأوربيون ، سوف تمتد إلى نياسالاند . وليس يكفى الآن أن نؤكد بأن هذه المخاوف كانت على غير أساس ، وأن النظام الفيدرالى من ناحية أخرى قد جاء ، لنياسالاند على وجه الخصوص ، بفوائد مالية ما كانت بدونه لتحظى بها على الإطلاق . لقد وقع الضرر وأصبحت نفس كلمة « فيدرالى » بالنسبة للإفريقيين رمزاً لمظالمهم ، بل خلاصة مخاوفهم والعقبة الكئود فى سبيل آمالهم . لقد أصبحت الغول الذى ليس من السهل طرده .

أما بالنسبة للأوربين ، فلا بد وأن نوضح بأن أولئك الذين كان يستمد منهم سير روى ويلنسكى Sir Roy Welensky ، رئيس وزراء الإتحاد وبطله الأول ، قوته ليسوا فى الأصل من الأرستقراطيين ملاك الأراضى كأولئك الذين وقفوا فى الماضى ضد أية حركة للإصلاح الحر فى أقطار مثل جزر الهند الغربية أو الولايات الجنوبية من أمريكا . بل إن سير روى نفسه رجل من الشعب ، ولو أنه نسق بين الناس فى إنجلترا لكان زعيما لإتحادات الحرف أو سياسياً إشتراكياً . وبالمثل فإن مؤيديه ، وعلى الأخص فى روديسيا الجنوبية ، هم الصناع ، وصغار الموظفين ، والمهاجرون الجدد الذين لو إشتركوا فى الإنتخابات فى إنجلترا لانحاز الكثيرون منهم إلى الجناح اليسارى . واليوم ، فى روديسيا الجنوبية ما بعد الحرب ، يحظون بمستوى عال للمعيشة ويستمتعون بكل إمتيازات الطبقة الحاكمة . وقد لا يكون لديهم الحماس الشديد نحو النظام الفيدرالى ، ولكنهم مصرون على الإحتفاظ بمركزهم الحالى الإجتماعى والإقتصادى والسياسى وسوف

تؤدى بهم حوادث الشغب والإضطرابات من جانب الوطنيين إلى التجمع وراء أى زعيم يقف نفسه للدفاع عن مصالح البيض .

وينص دستور النظام الفيدرالى على وجوب مراجعته على الأقل كل سبع سنوات ، أو تسع سنوات على الأكثر من تاريخ صدوره ، وقد أوضحت إضطرابات عام ١٩٥٩ بأن الوقت قد حان لمراجعته ، مراجعة شاملة . وقد شكلت لجنة برئاسة لورد مونكتن Lord Monckton لإبداء النصح والمشورة اللازمة للحكومات الخمس - تمهيدا للمراجعة المقررة فى عام ١٩٦٠ - فيما يختص بالإطار العام للبرنامج الدستورى الذى يعتقد بأنه الأوفق لتحقيق الأهداف التى اشتمل عليها دستور ١٩٥٣ . . . . . . ثم جاء تقرير اللجنة ، المقدم فى أكتوبر ١٩٦٠ ، ليوصى بإجراء عدد من التغييرات التى تعد غاية فى الأهمية . وهذه تنطوى على إعادة تشكيل الحكومة الفيدرالية حتى تكون أكثر تمثيلا للإفريقيين ، وتحويل عدد من المهام الهامة إلى الأقاليم لتتولاها هى بنفسها ، عدا الدفاع والشئون الخارجية وتنظيم الإقتصاد فتترك للحكومة الفيدرالية ، وإيجاد بعض الضمانات الدستورية الجديدة مع إلغاء التفرقة العنصرية ، وأخيراً تخويل حق الإنفصال عن الإتحاد الفيدرالى بعد تجربة التنظيمات الجديدة تجربة كافية ، وسوف تكون هذه التوصية الأخيرة أكثر التوصيات مثاراً للجدل فالمشايعون للفيدرالية سيقولون بأن الإنفصال سيؤدى إلى تقويض النظام الفيدرالى ، أما الإفريقيون المتطرفون فسيقولون إنهم يطلبون الإنفصال لا فى المستقبل بل الآن . وليس أى من الرأيين منطقياً كلية . وقد يكون من الأفضل الإبقاء على كثير من الميزات الحسنة للنظام الفيدرالى فى شكل تحالف أكثر ليونة . ومن ناحية أخرى فسيكون من المؤسف أن يعطل جهاز بارع الصنعة عظيم الإنتاج فى كثير من المجالات قبل أن تتخذ كل الضمانات الواقية من سوء استعماله .

وجدير بالذكر أن الجدل قد انتقل أخيراً من مسألة الإتحاد الفيدرالى نفسه إلى مسألة التقدم السياسى الإفريقى داخل نطاق الأقطار التى تشكل الإتحاد الفيدرالى .

الأقاليم البرتغالية

تاريخها :

موزمبيق :

لقد وجد البرتغاليون فى مستعمراتهم الحالية بشرق إفريقيا منذ زمن بعيد ، بل يعد وجودهم هناك أقدم بكثير من بعض قبائل البانتو التى تسكن الآن فى الداخل . وحين إمتدت إمبراطوريتهم لتشمل الساحل الإفريقى الشرقى بأجمعه كانت لهم مع المونوماتابا the Monomatapa معـاملاتهم وتجارتهم للحصول على الذهب فى أعالى الزمبيزى . وبحلول عام ١٥٣١ كان قد تم لهم إنشاء مركز تجارى فى سينا Sena ، حوالى ١٠٠ ميل من منابع النهر ، وآخر فى تيت Tete بعد ذلك بسنوات قلائل . وفى عام ١٧٥٢ أبحر فرانسسكو بارتو Barreto نحو أعالى النهر ومعه إثنتان وعشرون سفينة وألف رجل ، وحين مات هو ومعظم بعثته من الحمى ، وجدنا خلفه هومم Homem يشق طريقه مرة أخرى إلى الداخل ، حيث أنشأ مركزا تجاريا فى أعالى الزمبيزى عند شيكورا Chicora ومراكز أخرى على المازو the Mazoe ، ووصل إلى حقول مانيكا Manica للذهب عن طريق الريڤو the Revue . ولم يكن هناك أى تفكير فى إحتلال الداخل إحتلالا دائماً . وهكذا فإن القبائل الموجودة فى أعالى القطر لم تكن لتتأثر بمجىء البرتغاليين أكثر من تأثرها بمجىء العرب من قبل . وثمة محاولة قامت بها الإرساليات

المسيحية للتبشير بين السكان فى الداخل . وفى عام ١٥٦٠ قام اليسوعيون بإرسال بعثة وصلت إلى ما بعد مانيكا ، ولكنها سحبت فى عام ١٥٦٢ بعد مقتل رئيسها . ونجح الدومينيكان فى إقامة مراكز لهم على الساحل وأعالى وادى الزمبيزى . وقد أظهر الإرساليون الكثير من الشجاعة وقوة التحمل ولكنهم لم يتركوا من الأثر إلا القليل جداً .

وفى أثناء النصف الثانى من القرن السابع عشر أخذت الإمبراطورية البرتغالية فى شرق إفريقيا تذبل وتتوارى إزاء هجوم العرب ، وسرعان ما ذهب كل شىء ولم يتبق غير المستعمرات الكائنة جنوب رأس دلجادو Cape Delgado التى ازدادت على مر السنين فساداً وتلفاً ، ولم ينقذها من الزوال والفناء غير المشاركة الفعلية للمستعمرين (بما فيهم كبار الرسميين) فى تجارة الرقيق .

وفى أيام بعثة لفنجستون فى الزمبيزى عام ١٨٥٨ كان البرتغاليون لا زالوا يطالبون بحق السيادة المطلقة على الأراضى الداخلية ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً نحو تحقيق ذلك . وحيث كنا على أية مسافة من الساحل وجدنا الأحوال تضطرم بالفوضى . فإغارات الياو the Yao من أجل الرقيق بوحى من البرتغاليين والعـرب كانت إحدى الأمراض المتوطنة ؛ وفى المنطقة المجاورة لبحيرة نياسا كانت تكتسح القطر وتسيطر عليه قبيلة وحشية تدعى المازيتو . قال كيرك (١) « وحدود هذا الإقليم عبارة عن صحراوات . ولقد كانت مجزرة بشعة يوم أن قتل كل السكان ، واكتست الشواطىء بالجماجم البشرية ، وحيثما مرت جماعة من الكلانين وجدت المزيد من الجثث المتعفنة التى توجد متناثرة على الرمال » ، ومرت عدة سنوات قبل أن يحدث شىء لوقف هذه الأهوال والقضاء على تجارة الرقيق من هذا المصدر . وباستثناء رعاية الحكومة

(١) K. Coupland, Kirk on the Zambesi, p. 206.

البريطانية لبعثة لفنجستون فإنها لم تبد أى اهتمام بالأراضى الداخلية لشرق إفريقيا البرتغالية حتى عام ١٨٧٧ ، حين جاء فردريك إلتون القنصل البريطانى فى موزمبيق ليزور إقليم نياسا . ومنذ ذلك الحين وإفريقيا الوسطى تشهد ألواناً من التوترات الشديدة بين البريطانيين والبرتغاليين التى لم يكن لها من حل إلا فى عام ١٨٩١ حين عقدت اتفاقية أصبحت هى أساس كل العلاقات الأنجلو — برتغالية فى إفريقيا .

ومن أجل تطوير الأقاليم المعترف الآن بملكيتها للبرتغاليين ، لجأ البرتغاليون — مثل البريطانيين فى روديسيا الشمالية والجنوبية — إلى طريقة الشركات المرخصة Chartered companies . وقامت شركتان من هذه الشركات ، شركتا موزمبيق ونياسا ، باستصدار التراخيص اللازمة نحو تطوير وحكم المناطق المترامية الواقعة فى نطاق إمتيازيهما . وكانت شركة موزمبيق إلى حد كبير مستقلة عن الحكومة ، لها حاكم خاص وجهاز مدنى مستقل للخدمات ، ولم تحتفظ الحكومة لنفسها بغير إدارة القضاء والدفاع ، والسياسة الخارجية وانتهى امتياز الشركة فى عام ١٩٤١ ، وحلت فى العام الذى يليه .

أما شركة نياسا فقد انتهت فى عام ١٩٢٩ . وثمة شركة ثالثة هى زامبيزيا Zambezia ، كانت لها امتيازات فى مناطق شاسعة بما فيها بعض أجزاء من أخصب جهات الإقليم ، ولكنها لم تكن تملك من السلطات الإدارية ما كانت تملكه الشركتان المرخصتان . ومرت عدة سنوات قبل أن يستطيع البرتغاليون بسط نفوذهم فى كل الإقليم . إذ لم يستطع البرتغاليون ، حتى عام ١٩١٢ ، إخضاع ماتاكا Mataka ـ آخر الزعماء الذين لم يكونوا قد أخضعوا بعد ـ حين اضطر إلى الفرار عبر روفوما Rovuma إلى الإقليم الألمانى ، وهكذا أصبح الطريق ممهداً للتطوير الداخلى .

أنجولا :

لقد اكتشف دياجو كاو Diego Cào نهر الكنغو عام ١٤٨٢ وأقام عند مصبه نصباً حجرياً . وأرسل أربعة مبعوثين من رجاله إلى زعيم الجهة الذى كان يعيش على مسافة فى الداخل ، ولما وجد عند عودته من استكشافاته أبعد من ذلك جنوباً أن مبعوثيه قد احتجزهم الزعيم فى بلدته ، أسر هو وأربعة من الإفريقيين وأخذهم معه قافلا إلى البرتغال . أما ملك البرتغال فقد عامل الأسرى الأربعة كضيوف شرف وأمر بتلقينهم العقيدة المسيحية ، وقام هو نفسه بدور الأب الروحى الذى تولى تعميدهم. وعلى ذلك فحين عاد بهم دياجو كاو إلى وطنهم عام ١٤٨٥ وجدنا رسل السلام هؤلاء يمهدون الطريق لإقامة علاقات طيبة مع المانيكونجو the Manicongo أو ملك الكنغو ، كما كان يدعى الزعيم . تلك العلاقات التى ساعدت فى عام ١٤٩٠ على إرسال بعثة برتغالية تصحب معها عدداً من القساوسة ، والعمال المهرة ، ومجموعة من الإفريقيين الداخلين فى المسيحية . وكانت هذه البعثة تهدف إلى تحويل الزعيم إلى المسيحية ، وخلق دولة متمدينة تحت زعامته ، فى تحالف وصداقة مع البرتغال . ومن المؤسف ، ولكن ليس من المستغرب فى ظل الظروف السائدة ، أن تبوء تلك المحاولة الجريئة لنقل المدنية الغربية بالفشل . وعلى كل حال ، فهى جديرة بالذكر كتجربة مستنيرة فى العلاقات بين الأجناس .

أما البعثة البرتغالية الهامة التالية إلى أنجولا فكانت تختلف تماماً عن الأولى . ففى عام ١٥٧٤ ، أبحر باولو دياز دى نوفيه Paulo Diaz de Novais من لشبونة مخولا حق تملك مساحة كبيرة إلى الجنوب من نهر كوانزا كهبة له . وكانت هذه الهبة donataria تمثل نوعاً من الملكية الإقليمية التى

تخضع لشروط معينة للتطوير وتماثل إلى حد ما تلك التراخيص التى منحت للشركات البريطانية بعد ذلك بقرون . ولم يستطع دياز أن يفعل شيئاً حيال معارضيه الوطنيين ، وحين مات فى عام ١٥٨٩ لم يكن قد تم شىء تقريباً نحو تنفيذ شروط الهبة . وحين أدمجت البرتغال مع أسبانيا تحت التاج الأسبانى عام ١٥٨١ ، استولى الهولنديون وهم فى سبيل حربهم ضد أسبانيا على لواندا Luanda ثم بنجويلا Benguela . وعاد البرتغاليون مرة أخرى فى عام ١٦٤٨ ، وشغلوا لسنوات عدة بتدعيم مركزهم والتمكين لأنفسهم فى الإقليم . ولما تم لهم ذلك فى تلك المنطقة الصغيرة جداً التى اتخذوا منها موطناً لهم لم يكونوا ليهتموا بالقيام ببرامج هامة للتطوير فاهتمام البرتغال كان منذ وقت طويل قد تحول عن انجولا إلى تلك الفرص البراقة فى البرازيل حيث كانت توجد ثروات ضخمة لا تحصى فى انتظار استغلالها بواسطة العمل الدؤوب من العمال السود . وبحلول عام ١٥٠٠ كان الأوغاد من سكان سانت توماس قد أحالوا جزيرتهم إلى مستودع كبير لتجارة الرقيق ، وأصبحت أنجولا فى أوائل القرن السادس عشر حقل صيد للمتنافسين من تجار الرقيق . وكانت هذه التجارة مربحة للغاية بحيث لم تكن لتكلف القائمين بها من المال أو الجهد إلا النزر اليسير حتى أنها حلت محل كل المهن الأخرى المحترمة . ومن ثم فلم تكن هناك أية محاولة لتطوير الزراعة أو التعدين وأهملت كلية كل الفرص المتاحة للقطر . لقد فسد الحكام ، وفسدت الإداره العامة ، وانهارت المثل العليا القديمة للإرساليات ، وصار القطر إلى حالة من الكساد لم يفق منها ، رغم الجهود الفردية للحكام حتى القرن العشرين .

ورغم الزحف « الأوربى » على إفريقيا فقد تركت البرتغال آمنة مطمئنة فى تملكها لأنجولا . وكانت على الدوام تطالب بالمزيد من الممتلكات ، بما فى ذلك كل مصب الكنجو ، ولكن هذه المطالب المتزايدة لم تكن لتقابل

إلا بالاعتراض من جانب بريطانيا التى كان شاغلها الأول فى تلك الجهات هو القضاء على تجارة الرقيق وفى عام ١٨٨٤ اشتركت بريطانيا والبرتغال فى التوقيع على معاهدة سلمت فيها بريطانيا بمطالب البرتغال على الساحل ، بما فى ذلك مصب النهر وبعض المساحات إلى الداخل ، ولكن بشرط ضمان حرية الملاحة فى النهر التى وضعت تحت إشراف لجنة أنجلو - برتغالية . وقد أثارت هذه المعاهدة عاصفة من الاحتجاج ولكن البرتغال ، وقد أدركت بأنها لا بد لها من التخلى عنها ، استدارت نحو ألمانيا وفرنسا واقترحت عقد مؤتمر دولى . وكان أن أدى هذا الاقتراح إلى عقد مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ – ١٨٨٥ . أما المفاوضات والاتفاقيات اللاحقة فقد حددت الحدود الشمالية لأنجولا بالشاطىء الجنوبى لنهر الكنجو ، وكذلك أعطت للبرتغاليين مقاطعة كابندا Kabinda التى تقع شمالا ، ولكن ليس شمال مصب الكنجو مباشرة .

الاقتصاديات :

لقد كانت هناك منذ عام ١٩٣٨ سلسلة من التخطيطات التى تهدف فى الممتلكات البرتغالية فيما وراء البحار إلى تطوير اقتصاد مكمل لاقتصاد القطر الأم . ففى موزمبيق كان التخطيط يشمل تطوير الخطوط الحديدية والموانى ، وتطوير الشئون الصحية ، والمدن ، وإنشاء محطات للقوى الكهربائية وتنمية صناعة القطن . وكذلك كان هناك اهتمام كبير بتخصيص الأراضى عن طريق منح الامتياز ، وبمعنى آخر ، إعطاء منح مؤقتة من الأرض تثبت وتصبح فى حكم الدائمة عند إنجاز شروط معينة للتطوير . وقد تشمل بعض هذه الامتيازات مساحات كبيرة جداً بحيث يبلغ الحد الأقصى للإمتياز الواحد ١٢٥٫٠٠٠ فدان ، وقد لا تتعدى فى بعض الأنحاء ٢٥٫٠٠٠ فدان للإمتياز الواحد . أما حاصلات التصدير الأوربية

الأساسية فهى السكر ، والشاى ، وجوز الهنـد المجفف ، ونبات السيزال Sisal ، والقطن ؛ هذا بالإضافة إلى زيادة مضطردة فى تصدير الأخشاب . وكذلك يزرع الأوربيون الذرة والعديد من الحاصلات الثانوية أما الوطنيون فبالإضافة إلى الحاصلات الغذائيـة التى تستهلك محلياً ، فهم ينتجون كذلك الحاصلات التصديرية كالقطن ، والفول السودانى ، وجوز الكاشو .

ولو أنه من المعروف أن الإقليم يحوى الكثير من المعادن فإنه لم يبرز فى الأهمية غير الفحم فقط . وكذلك يوجد هناك عدد من الصناعات النامية التى تقوم على المواد الخام المحلية ، وأهمها صناعة السكر ، وتقطير الكحول ، وصناعة منتجات الأسمنت والأسبستوس ، والصابون ، والدقيق ، وحلج القطن ، وإنتاج التبغ .

ويحد من نوبة الماشية وجود ذبابة تسى تسى ، وعلى كل فهناك حوالى ٨٠٠ر٠٠٠ رأس من الماشية فى هذا القطر ، منها ١٥٠ر٠٠٠ رأس فى أيدى الأوربيين . وعلى الأوربيين يقع عبء تموين الأقليم بالجزء الأعظم من اللحوم والألبان .

ويوجد بشرق إفريقيا البرتغالية عدد من الموانى الجيـــدة التى أهمها لورنزو ماركيز ، التى تعد منفذاً للترنسفال ، وبيرا Beiro ، التى تخدم كلا من روديسيا الشمالية والجنوبية ، ونياسالاندوكانانجا . وتشكل التجارة الترانزيت التى تمر بهذه الموانى أحد الملامح الهامة للجانب الاقتصادى للإقليم . وهناك إثنا عشر خطاً حديدياً تجرى من الموانى إلى الداخل . منها ثلاثة غاية فى الأهمية : الخط الذى يجرى من لورنز ماركيز إلى رسانو جارشيا Ressano Garcia حيث يلتقى بالخطوط الحديدية لجنوب إفريقيا المؤدية إلى جوهانزبرج ، والخط الذى يجرى من لورنزو ماركيز إلى مالفيرنيا Malvernia الذى يلتقى

بالخطوط الحديدية لروديسيا الجنوبية المؤدية إلى بولاوايو ، ثم خط بيرا – ماشيباندا الذى يلتقى بالخطوط الحديدية لروديسيا الجنوبية المؤدية إلى سالزبورى .

ولوجود موارد طبيعية هائلة وازدياد السكان بشكل مضطرد وإجراء تحسينات فى المواصلات ، ووجود عدد من الموانى الجيدة كانت المطامح الاقتصادية عظيمة . أما الصعوبات الأساسية فهى على ما تبدو مالية . فخطط التنمية ذات مطامح عالية باهظة التكاليف ، ولا يعرف ما إذا كان هناك من رأس المال العام أو الخاص ما يكفى لمواجهة ما تتطلبه هذه الخطط .

والصورة الاقتصادية لأنجولا ليست بذات طابع خاص والإفريقيون يهتمون بنوع خاص بزراعة محاصيل الإعاشة ، وجنى الثمار وشمع العسل من الأشجار ، وفى بعض الجهات يزرعون البن والقطن . أما المستعمرون الأوربيون على الهضبة فيزرعون الحبوب وبعض الحاصلات البسيطة ذات الأحجام الكبيرة ولكنها قليلة القيمة وينتجها الإفريقيون بأسعار أرخص . وهنـاك عدد من المزارع التى تنتج الحاصلات الإقتصادية مثل البن وقصب السكر ونبات السيزال sisal والتبغ والكتان وزيت النخيل . وأهم سلعة تصديرية هى البن الذى كان يمثل فى عام ١٩٥٧ حوالى ٤٥ ٪ من صادرات أنجولا . وتزرع كميات هائلة من الذرة للإستهلاك المحلى والتصدير . أما صناعة الأسماك فتمثل نشاطاً اقتصاديا هاما ، وتبلغ منتجات الأسماك حوالى ١٢ ٪ من الصادرات . ومن المعتقد أنه يوجد بهذا القطر حوالى ١ر٢ مليون رأس من الماشية ، ولكن الصناعات القائمة عليهـــا لم تتطور تطوراً واسعاً . وهناك احتمال كبير بوجود بعض المعادن ولكن لا يعرف عنها إلا القليل . وعلى كل ، فإن الماس يمثل حوالى ١٢ ٪ من المجموع الكلى للصادرات التى تشمل كذلك الملح والنحاس وعلى الأخص المنجنيز . والأمل

كبير فى اكتشاف زيت البترول، ويجرى الآن اختبار بعض الآبار بالقرب من لواندا Luanda . ويقال إنها ستعطى إنتاجا وفيراً .

وتوجد فى أنجولا أربعة خطوط حديدية ، أهمها خط بنجويلا الذى يصل ميناء لوبيتو Lobita بمدينة ديلولو Dilolo على حدود الكنغو ، وهكذا يعطى مناجم كاتانجا منفذا للوصول إلى الأطلنطى ؛ أما الخطوط الأخرى فتجرى إلى الداخل من موانى لواندا ، موساميدز Mossamedes وأمبوين Amboin .

وقد استوجبت خطط التنمية تحسين الموانى والسكك الحديدية والمطارات ، والطرق والجسور ، وتطوير الخطط الهيدروكهربية ، وإعادة تنظيم الزراعة ، وإجراء مسح جيولوجى .

وفى النصف الأول من عام ١٩٦١ قامت ثورة فى أنجولا اكتنفها مقتل عدد كبير من الأوربيين بأيدى الإفريقيين وقيام الجيش بأعمال وحشية انتقامية . وفى يونيو ، لم يكن هناك ما يبشر بانتهاء أعمال العداء . ومن الواضح أن الموقف قد أخذ طابع الحرب الأهلية مع التطرف الشديد من كلا الجانبين وإزهاق الأرواح البريئة .

مدغشقر وجزر كومورو

Madagascar and the Comoro Islands

مدغشقر — القطر والسكان :

تبلغ جزيرة مدغشقر حوالى ١٠٠٠ ميل فى الطول ، ٣٦٠ ميلا فى العرض فى أوسع أجزائها . وهى رابع أكبر جزيرة ـ ليست قارة ـ فى العالم وهى تقع فى مواجهة ، شرق إفريقيا البرتغالية ، ويفصلها عنها قنال موزمبيق الذى يبلغ معدل إتساعه ٢٥٠ ميلا . ومن ناحية التضاريس فهى ليست مغايرة للقارة الإفريقية التى كانت مدغشقر تشكل جزءاً منها فى الأزمنة القديمة ، بمعنى أنها عبارة عن هضبة يبلغ إرتفاعها حوالى ٤٠٠٠ قدم تجرى وسط الجزيرة ويحف بها من كلا الجانبين سهل ساحلى . أما العمود الفقرى ، فهو أقرب كثيراً إلى الشرق منه إلى الغرب ، وهكذا كان السهل الشرقى ضيقا ؛ والإرتفاع نحو الهضبة فجائى ، بينما السهل الغربى عريض بعض الشىء وعلى ذلك كان الإنحدار أكثر تدرجا . والساحل الشرقى عبارة عن خط معتدل تقريبا ، وأما مدينة تاماتاف Tamatave ، الميناء الرئيسى فلا يحميها غير الشعب المرجانية . وفى أقصى الشمال الشرقى يوجد تعرج غاية فى السعة هو ، خليج دياجو — سوارز Diego—Suarez التى تعد من أجمل موانى العالم . ويوجد على الساحل الغربى عدد من الخلجان الصغيرة وكذلك يوجد ميناء جيد فى تولير Tulear . وتقع عاصمة مدغشقر ، أنتاناناريڤو Antananarivo ، فوق الهضبة فى موقع مهيب ، على قمة جبلية تشرف على ما حولها من حقول الأرز .

والجانب الشرقى للجزيرة حار رطب وتسقط أمطاره طوال العام .

وأغزر الفترات أمطاراً هى الفترة من ديسمبر إلى يولية ، وليست هناك فترة جفاف بمعنى الكلمة ، بل يعتبر شهر أكتوبر — الذى يبلغ معدل سقوط المطر فيه حوالى ٤ بوصات — أجف شهور السنة . وكذلك فإن الساحل الشرقى فى مهب الأعاصير . أما على الساحل الغربى فإن فصلى المطر والجفاف غاية فى التحديد ففصل الأمطار ، الذى هو فصل الحرارة كذلك ، يأتى بين أكتوبر وإبريل ، وأما فصل البرودة والجفاف فيأتى من مايو إلى سبتمبر . والهضبة باردة نوعا ، وتصل البرودة فيها إلى درجة التجمد تقريبا فى فصل الجفاف من مايو إلى سبتمبر . أما أثناء باقى السنة فهى بين الدفء والإعتدال . والمعدل السنوى لسقوط المطر ، الذى يسقط معظمه فى الفترة ما بين ديسمبر ومارس ، هو ٥٤ بوصة . وليست هناك فى الجزيرة جهات مجدبة ، فيما عدا الحافة الجنوبيـــة منها وأقصى الجنوب الغربى .

وهناك على الهضبة قمتان جبليتان شاهقتان ، وكلاهما من أصل بركانى ، قمة Tsaratanana (٩٤٥٠ قدم) فى الشمال وقمة Ankaratra (٨٥٧٥ قدم) فى وسط الجزيرة . والجانب الشرقى للجزيرة ، حيث درجة الانحدار شديدة والأمطار دائمة ، تقطعه الخوانق التى تشقها مجارى الأنهار الدائمة وعلى الجانب الغربى الأقل إنحدارا ، حيث الأمطار فصلية ، تجرى الأنهار — وهى أصغر — أثناء فصل الأمطار فقط . وأكبر أنهار الجزيرة هو نهر Betsiboka الذى يصب فى البحر فى الشمال الغربى من الساحل . وأما الأنهار الأخرى فى الجانب الغربى فهى مانيا Mania ، مانجوكى Mangoky ، وأونيلاهى Onilahy . وأهم أنهار تجرى شرقا نهرا المانجورو Mangoro والمانجورى Maningory . وفى الجنوب يوجد نهر المانانارا Mananara الذى يتلقى مياه منطقة شاسعة . ولا توجد بمدغشقر بحيرات كبيرة

بمعنى الكلمة ، إذ تبلغ أكبرها ، الآوترا Alaotra ، حوالى خمسة وعشرين ميلا فى الطول ، ولكنها كانت فى الماضى البعيد أكبر من ذلك بكثير .

أما الزراعة فتختلف بإختلاف المناطق المناخية . فالحرارة والأمطار على الجانب الشرقى قد جاءت بالغابات الدائمة الخضرة التى أزيل جزء كبير منها إما بالحريق أو بالقطع من أجل الزراعة . والهضبة ، برياحها العاصفة وتربتها الفقيرة ، فى معظمها لا تنمو بها سوى الأعشاب والسفانا . أما الجانب الغربى ذو الأمطار الفصلية فغاباته من النوع الذى ينفض أوراقه فى فترات معينة . والنباتات فى الجنوب والجنوب الغربى — حيث الجفاف — قليلة الكثافة شبه صحراوية ، وتنمو الغابات الإستوائية التى تتخذ منها العقاقير الطبية فى المستنقعات التى تكتنف مصبات الأنهار الغربية .

أما أن مدغشقر قد انفصلت عن القارة الإفريقية فى عصور سحيقة فهذا ما توضحه تلك الفروق الشاسعة بين حياة النبات على أرض الجزيرة وتلك على أرض القارة . ولا يقل عن ذلك مغزى أن كثيراً من الحيوانات الإفريقية مثـــل إنسان الغابة anthropoid ، وذوات الأظلاف ، وآكلة اللحوم ، ليست موجودة فى مدغشقر . ومن ناحية أخرى فإن الجزيرة بها كثير من الحيوانات الصغيرة التى تعرف عنها ، ولذلك فإن المجموعة الحيوانية بها على وجه العموم تتميز بشخصيتها المستقلة الفريدة التى ترجع إلى عزلة طويلة عن المناطق الحيوانية الأخرى . فهناك مالا يقل عن تسع وثلاثين فصيلة من الليمور Lemur (قرد مدغشقر) ، بعضها غاية فى التخصص ، وأنواع متعددة من الحرباء ، وأنواع عديدة من القط الزباد civets التى يشكل أكبرها — cryptooprocta ferox — فصيلة وأسرة قائمة بذاتها ، وكذلك العديد من أنواع الطيور ، والحشرات ، والأسماك . وجدير بالذكر أن المجموعة الحيوانية بالجزيرة ذات صلات آسيوية أكثر منها إفريقية

وهذا يؤيد النظرية القائلة بأن مدغشقر ، بينما هي كانت ذات يوم جزءاً من إفريقيا ، فقد كانت كذلك ترتبط طبيعيا بآسيا .

ومن المؤكد أن السكان ليسوا إفريقيين في الأصل . فالملاجاشي The Malagasy كما يدعون جميعاً ، هم أصلا من مجموعة بولينيزيا وماليزيا والملايو ، وهم بذلك يشبهون سكان الأرخبيل الهندى والهادى فى الشكل ، والعادات ، واللغة على وجه الخصوص . وقد امتزجوا بالإفريقيين - ويتجلى هذا بين القبائل الغربية على وجه الخصوص - كما أنه هناك العديد من المستعمرات العربية . وكذلك هناك الهنود والصينيون ، وحوالى ٥٤٠٠٠ نسمة من أصل فرنسى . ويتراوح التعداد الكلى للسكان بين ٥ - ٥ر٥ مليون نسمة .

وأهم طائفه بين السكان الوطنيين وكذلك أكثرهم عدداً وتقدماً هم الميرينا Merina أو الأمبانياندرو Ambaneandro ، الذين يعرفون بالهوفا Hova[1] ، وموطنهم إيمرينا Imerina على الهضبة بالقرب من أنتاناناريفو ؛ أما الساكالافا Sakalava فيشغلون معظم الجانب الغربى للجزيرة ، كما يشغل البتسى ميزاراكا Betsimisaraka جزءاً كبيراً بحذاء الساحل الشرقى . وإلى الجنوب من الهوفا على الهضبة يوجد البتسيليو Betsileo حول Fianarantsoa وثمة قبائل هامة أخرى هى الأنتيمورو Antaimoro ، وزعماؤها من أصل عربى وما زالو يستخدمون الكتابة العربية ، ثم الأنتيساكا Antaisaka ،

---

(١) إذا توخينا الدقة فى التعبير لوجدنا أن كلمة « Hava » تصدق على طبقة واحدة فقط من طائفة الميرينا Merina ، الطبقة المتوسطة أو طبقة الأحرار . فالنبلاء هم الأندريانا Andriana والعبيد هم الأنديفو Andevo . والآن تسمى القبيلة كلها بالهوفا « Hova »

والأنتانوزى Antanosy والبارا Bara . وأكثر القبائل تخلفاً هى الماهافالى Mahafaly والأنتاندروى Antandroy فى أقصى الجنوب .

تاريخها :

وكان أول أوربى رأى مدغشقر قبطان برتغالى يدعى دياجو دياز Diego Dias ، الذى وقع بصره على الساحل الشرقى للمرة الأولى فى العاشر من أغسطس عام ١٥٠٠ . وقد صادف ذلك اليوم عيد سانت لورنس ، فسمى دياز مكتشفه بجزيرة سانت لورنس . ولطالما حاول الفرنسيون أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر إقامة مراكز لهم على الجزيرة ، ولكنهم كانوا يفشلون فى كل مرة بسبب مقاومة الوطنيين . وكانت الجزيرة فى تلك الأيام مسرحا مرذولا لأعمال القرصنة التى كان المحيط الهندى موبوءاً بها . وكان من الواضح أن سكان الجزيرة - وحتى الوقت الحديث - ينقسمون إلى قبائل صغيرة . وعلى كل ، فقد شهد القرن السابع عشر نمو مملكة الساكالافا التى كانت وهى فى أوج مجدها تحتل نصف الجزيرة ولما إضمحلت هذه الإمبراطورية أعقبتها مملكة Merina تحت حكم الملك Andrianampoinimerina ، ثم الملك راداما Radama (١٨١٠ - ١٨٢٨) ؛ وكان الأخير ملكا بارعا جعل من إميرينا Imerina مملكة متقدمة توسعية . وفى أيام حكمه بدأت جمعية لندن الإرسالية عملها فى أنتاناناريفو وأصبح للغة شكلها المكتوب ، وترجم الكتاب المقدس ، وشيدت المدارس . أما الملكة رانافالونا الأولى Ranavalona I (١٨٢٨-١٨٦١) ، زوجة راداما Radama وخلفه ، فكانت تعارض بشدة وجود أى نفوذ أجنبى ، وهكذا أعادت النظر فى كثير من أعمال سلفها ، ثم خلفها على العرش إبنها راداما الثانى ، ولكنه ما لبث أن قتل بعد فترة

وجيزة من حكم غير ناجح ، وعلى كل ، فإن خليفتها على العرش ، الملكة رازوهرينا Rasoherina (١٨٦٣ - ١٨٦٨) والملكة رانافالونا الثانية (١٨٦٨ - ١٨٨٣) - وكانت الأخيرة متزوجة من رئيس وزراء بارع - قد أثبتتا كفاءة عالية فى الحكم ، إذ قامتا بإصلاح وتنظيم الإدارة ، وتشجيع المسيحية والتعليم ، وأقامتا علاقات دبلوماسية مع بريطانيا ، وفرنسا والولايات المتحدة ، فأرسلت جميعها بقناصلها إلى مدغشقر .

وفى عام ١٨٨٣ قامت خلافات بين الملاجاش وبين الفرنسيين الذين قاموا باحتلال تاماتاف Tamatave وماجونجا Majunga . وفى عام ١٨٨٥ قبلت الملكة رانافالونا الثالثة أن تكون مملكتها محمية فرنسية ، ولكن بعد فترة من العلاقات المتوترة استمرت حوالى عشر سنوات جاءت حملة فرنسية واحتلت تاماتاف ؛ وفى عام ١٨٩٦ أصبحت مدغشقر تابعة لفرنسا ، ثم ألغيت السلطات الملكية ، وفى العام التالى أرسلت الملكة إلى المنفى ، أولا إلى Réunion ، ثم بعد ذلك إلى الجزائر . وقد نيط أمر إعادة السلام والهدوء فى المستعمرة الجديدة وإقامة حكم فرنسى إلى ذلك الإنسان النشط البعيد النظر جالينى Gallieni ، الذى ، باستثناء إنتماء لايوتى Lyautey - أحد معاونيه فى وقت من الأوقات - إلى حكمه ، يعد أعظم الحكام الفرنسيين فى القرنين التاسع عشر والعشرين على السواء .

وفى عام ١٩٤٢ احتل البريطانيون مدغشقر حتى يحولوا دون احتلال اليابانيين لها ، وفى السنة التالية سلمت إلى الفرنسيين الأحرار . وفى عام ١٩٤٧ قامت هناك ثورة خطيرة لم يتم قمعها إلا بصعوبة . وقد أحرزت مدغشقر فى العشر سنوات التالية - شأن المستعمرات الفرنسية الأخرى - تقدماً سياسياً سريعاً جداً ، وأصبحت الآن جمهورية ذات حكم ذاتى داخل رابطة الشعوب الفرنسية تحت اسم « جمهورية مالاجاش » The Malagasy Republic.

الاقتصاديات :

أهم حاصلات الحبوب هى الأرز الذى يزرعه كلا الفلاحين الملاجاش والمزارعين الأوروبيين . وهو المحصول الغذائى الرئيسى ، ويزرع فى كل أجزاء الجزيرة عدا المناطق القاحلة فى الجنوب . ويزرع منه ما يفى بحاجة السكان ويكفى لتصدير فائض . ويلى ذلك فى الأهمية نبات الكاسافا cassava (نبات النشا) ومنه تستخرج التابيوكا tapioca . وكذلك تعتبر الذرة والفول والبطاطا من الحاصلات الهامة ؛ ويزرع القطن والتبغ للاستهلاك المحلى ، كما يزرع قصب السكر فى المناطق التى يمكن ريها ، أما البن فيزرع على المنحدرات الشرقية للمرتفعات الوسطى ؛ وقد روعى الاهتمام كثيراً بإنتاج الزيوت الضرورية ، ومن ثم فقد قامت هناك فى الشمال الغربى زراعات جوز الهند التى تغل محصولا تصديرياً من الكوبرا (العجينة) ؛ أما زراعة الفانيليا فقد أدخلت من Réunion ، وأما القرنفل فيزرع فى جزيرة سانت مارى على مبعدة من الساحل الشرقى وفى المنطقة المقابلة من أرض مدغشقر . وكذلك يزرع هناك نبات السيزال sisal وأشجار زيت الخروع . أما الكاكاو فلم تصادف زراعته كثيراً من النجاح ولو أنه أعطى محصولا لا بأس به حول تاماتاف .

وعلى الهضبة نجد أن تربية الماشية تشكل المحور الرئيسى للاقتصاد الوطنى . والماشية من نوع الزيبو Zebu type وليست من صنف جيد ، ومع كل فيصدر جزء منها إلى رينيون وموريتوس Mauritius وكذلك تقوم عليها صناعة تعبئة اللحوم بالجزيرة . ويبلغ تعداد الماشية حوالى سبعة ملايين ، وكذلك هناك حوالى ٤٠٠,٠٠٠ رأس من الأغنام ذات الليه وحوالى نفس العدد من الماعز والخنازير . وتشكل جلود الحيوان الخام والجلود المدبوغة سلعة تصديرية لها قيمتها .

أما المعادن فتوجد فى وفرة لا بأس بها ، وأهمهـــا الجرافيت الذى تعتبر مدغشقر من أكبر أقطار العالم إنتاجاً له . وثمة معادن هامة أخرى هى الذهب ، والفحم ، والميكا ، والأحجار شبه الكريمة .

وهناك من الطرق الجيدة ما يصل المدن الكبرى ببعضها ، وكذلك هناك شبكة من الطرق الترابية غير المعبدة التى تستخدم فى فصل الجفاف . وهناك أربعة خطوط حديدية يجرى الخط الرئيسى منها من تاماتاف مجتازاً مورامانجا إلى أنتاناناريفو . وهناك خط يجرى من مورامانجا إلى تلك المنطقة الشاسعة الشهيرة بزراعة الأرز الواقعة حول بحيرة ألا أوترا Alaotra . وهناك خط آخر يجرى جنوباً من أنتاناناريفو إلى مدينة Antsirabé ، كما أن فيانارانتسوا Fianarantsoa — مركز البتسيليو Betsileo — يربطها بالساحل خط يجرى إلى ماناكارا Manakara . وبعض الأنهار ، خصوصاً على الجانب الغربى ، صالح للملاحة بعض الشىء ، وعلى الجانب الشرقى توجد سلسلة من البحيرات الضحلة lagoons — وتصلها ببعضها قنوات تسمى pangalanes — تمتد إلى الساحل لمسافة ٤٠٠ ميل لتحمل المسافرين والبضائع وكذلك هناك خدمات جوية لنقل المسافرين من أنتاناناريفو إلى فرنسا .

وحين احتلت القوات البريطانيـــة مدغشقر عام ١٩٤٢ وجدت أن سكان الجزيرة ، تحدياً منهم للحصار المضروب حولها ، كانوا يعيشون دون عناء شديد على الموارد المحلية . فالخبز كانوا يصنعونه من دقيق الأرز ، والخضروات واللحوم والدهنيات كانت غاية فى الوفرة ، والكحول الوقود كانوا يصنعونه من قصب السكر . وأما الخدمات العامة فكانت تسير مجراها الطبيعى ، وظلت الأسواق على نشاطها المعتاد ، كما كانت وسائل

النقل تلقى كل عناية . وكانت الصعوبة الحقيقية الوحيدة هى النقص فى وجود الملابس . وكان الاكتفاء الذاتى للجزيرة يرجع فى معظمه دون شك إلى حذق الفرنسيين وبراعتهم ، ولكن هذه البراعة ما كانت لتؤتى ثمارها لو لم توجد المـــواد الخام بهذه الوفرة وعلى هذا النحو من التنوع ، وعلى ذلك فاقتصاد مدغشقر أقل ما يقال عنه أنه متوازن تماما كأى اقتصاد آخر فى أى من الدول التى استقلت حديثاً فى إفريقيا أو حولها .

* * *

أما جزر الكومورو Comoro islands فتقع فى قنال موزمبيق على مسافة ٣٠٠ ميل من ساحل مدغشقر وحوالى ٢٠٠ ميل من الساحل الشرقى لإفريقيا . وتتكون المجموعـة من أربع جزر رئيسية : مايوت Mayotte ، أنجوان Aujouan أو جوهانا Johanna ، موهيلى Moheli ، وأخيراً جراند كومورو Grand Comoro . والسكان مزيج من الملاجاش والزنوج والعرب ، ويبلغ تعدادهم ١٨ ٠٠ نسمة . والنفوذ العربى قديم ومعظم السكان من المسلمين .

وقد استولى الفرنسيون على جزيرة مايوت عام ١٨٤٣ ثم امتدت الحماية الفرنسية إلى الجزر الأخرى الثلاث فى عام ١٨٨٦ وفى عام ١٩٠٨ ألحقت المجموعـــة لأسباب تتعلق بالحكم والإدارة بجزيرة مدغشقر ، وأعلنت مستعمرة فرنسية فى عام ١٩١٢ ، ذلك الإجراء الذى تم التصديق عليه عام ١٩١٤ . وهكذا أصبحت الآن هذه الجزر لها حالة الممتلكات الفرنسية فيما وراء البحار .

وتمتاز جزر الكومورو بخصب تربتها، ولهذا تنمو بها الحاصلات الغذائية بوفرة؛ وتشمل الصادرات الكوبرا، وألياف الكاكاو، والسكر، والفانيليا، ونبات السيزال sisal، والفلفل الأسود والزيوت الهامة. ولا يوجد من الماشية غير أعداد قليلة فقط وذلك بسبب الطبيعة الجبلية لهذه الجزر. ومناخ هذه الجزر لطيف للغاية وليست هنالا ثعابين سامة.

الفصل الثالث

شرق إفريقيا

الأقليم: (الصورة الجغرافية)

تضم هذه المنطقة الوحدات السياسية البريطانية والألمانية السابقة فى شرق إفريقيا، وعلى ذلك فهى تشمل كينيا، أوغندا وتنجانيقا، جزيرة زنجبار ومعها بمبا Pemba، ثم إقليم رواندا أوروندى الذى كان تحت الوصاية البلجيكية. ويحد هذه المنطقة من الشمال إثيوبيا والسودان، ومن الغرب الكنجو وبحيرة تنجانيقا، ومن الجنوب روديسيا الشمالية ونياسالاند وشرق إفريقيا البرتغالية، ومن الشرق المحيط الهندى. ويفصل الحافة الشمالية الشرقية لكينيا عن البحر البروز الجنوبى لجمهورية الصومال. والمدن الرئيسية هى نيروبى وممباسا فى كينيا، وكمبالا وعنتبه وجنجا فى أوغندا، ودار السلام وتانجا وتابورا فى تنجانيقا، وأوزومبورا فى رواندا أوروندى، ثم مدينة زنجبار. وتبلغ المساحة الكلية حوالى ٧٠٤ر٠٠٠ ميل مربع، ويبلغ السكان أكثر من ٢٧ مليون نسمة (١).

(١) والتوزيع كالآتى :

كينيا	المساحة	٢٢٤ر٩٦٠	ميل مربع	السكان	٦ر٤٥٠ر٠٠٠	نسمة
أوغندا	»	٩٣ر٩٨١	»	»	٦ر٥٣٦ر٠٠٠	»
تنجانيقا	»	٣٦٢ر٦٨٨	»	»	٩ر٠٠٠ر٠٠٠	»
رواندا أوروندى	»	٢٠ر٥٧٥	»	»	٤ر٨٦٠ر٠٠٠	»
زنجبار	»	١ر٠٢٠	»	»	٣٠٠ر٠٠٠	»

أما السهل الساحلى فهو ضيق بعض الشىء ، ويتراوح إتســاعه بين ١٠ — ٤٠ ميلا ، ويمتد من حدود الصومال فى الشمال إلى شرق إفريقيا البرتغالية فى الجنوب . وتحف به شعب الصخور المرجانية التى تتخللها من آن إلى آخر فتحات مائية عميقة ، أما الموانى الطبيعية التى تصلح لعابرات المحيط الضخمة فقليلة ، والمناخ دافىء والجو رطب . ويبلغ معدل سقوط المطر ٤٥ — ٤٧ بوصة فى الجزء الأوسط ، وأقل من ذلك بكثير فى الشمال وفى الجنوب . وتسقط الأمطار فى فصــول غاية فى التحديد ، فالأمطار الطويلة الفترة فى إبريل ومايو ، والقصيرة والأخف فى نوفمبر وديسمبر . وتكتنف دلتاوات الأنهار مستنقعات ضخمة تنبت بها أشجار المانجروف الإستوائية Mangrove swanps ، ويلى ذلك مباشرة حزام رفيع من أشجار النخيل التى لاتلبث أن تستحيل إلى حشائش من السفانا ذات أشجار ، وفى بعض الأمكنة إلى غابات أكثف بكثير من السفانا الأبعد من ذلك إلى الداخل .

وخلف السهل الساحلى توجد هضبة منخفضة شاسعة تسمى « النييكا » the nyika . وهى منطقة خفيفة التربة وفقيرة — فيما عدا على شواطىء الأنهار — يتراوح معدل سقوط المطر فيها من خمس إلى ثلاثين بوصة ، تكتنفها بين الحين والآخر أرض مرتفعة بل سلاسل من التلال . وهذه الهضبة التى تشبه فى شكلها الساعة الرملية تنتفخ فى الشمال لتغطى معظم المقاطعة الشمالية من كينيا ، وفى الجنوب لتشمل كل المقاطعة الجنوبية من تنجانيقا . أما العنق فيبلغ إتساعه حوالى ١٠٠ ميل إلى الداخل من تانجا .

وإلى الغرب من « النييكا » ترتفع الأرض بالتدريج نحو الهضبة القارية العظمى التى يتراوح إرتفاعها فى شرق إفريقيا بين ٤٠٠٠ — ١٠٠٠٠ قدم . وخلال الهضبة ، وفى إتجاه شمالى جنوبى بوجه عام ، يجرى ذراعا وادى الصــدع the Rift Valley . أما الذراع الأيمن فهو عبارة عن حوض

مستطيل عميق يبلغ إتساعه فى بعض الأمكنة ٤٠ ميلا وإنخفاضه ٣٠٠٠ قدم تحت مستوى الجهات المحيطة ، وتتناثر فى قاعه البحيرات والبراكين الخامدة وأما الذراع الأيسر فيشمل بحيرات تنجانيقا ، وكيفو ، وإدوارد وألبرت . وبين الذراعين يوجـــد ذلك المنخفض الذى يشمل بحيرة فيكتوريا ومنابع النيل .

ويطل على الهضبة فى معظم طولها عدد من الكتل الجبلية ، أهمها سلاسل جبال كينيا ، وسلسـلة جبال رونزورى Ruwenzori على حدود أوغندا والكنجو ، وجبال شمال وجنوب تنجانيقا . وأكثرها إرتفاعا جبال كلمنجارو (١٩ر٣٤٠ قدم) ، وجبال كينيا (١٧ر٠٤٠ قدم) ، ثم قمة ستانلى فى سلسـلة رونزورى (١٦ر٧٩١ قدم) . وكلها - عدا الأخيرة منها — عبارة عن براكين خامدة . أما كلمنجاروا ، أعظم جبال إفريقيا إرتفاعا ، فتنتهى قمته كيبو Kibo بفوهة بركان كاملة تقريبا .

ومناخ الهضبة غاية فى التنوع ، ويتوقف هـذا كثيرا على الإرتفاع . ويتراوح معدل سقوط المطر بين ١٠٠ بوصة فى الركن الشمالى الغربى من بحيرة فيكتوريا وبين ٢٠ بوصــة فى وسط تنجانيقا . وتمتاز الأجزاء الأكثر إرتفاعا بمناخ بارد منشط ملائم للأوربيين للغاية . وفى الأجزاء الأقل إرتفاعا ، أقل من ٥٠٠٠ قدم مثلا ، قـد يكون المنـاخ حاراً جداً ، ولكن الرطوبة لا تكون شديدة ، وقـد تتبدل حرارة النهار ببرودة فى الليل . وكم من مسافر فى هـذه الأجزاء كان يلذ له الجلوس بجانب المدفأة فى الليل .

وتتنوع النباتات تنوع المنـاخ . فكم من مساحات شاسعة من الهضبة وعلى الأخص تجاه الجنوب ، تكسبها السفانا وشجيراتها وأشجارها

القصيرة منظر الحدائق والمنتزهات . وبعض الأجزاء الأكثر جفافا لاتنتج شيئاً آخر غير النباتات الشوكية والدنيئة ، ولكن المناطق الجبلية التى تمتاز بمعدل عال للمطر ما زالت تشتمل على مساحات كبيرة من الغابات الطبيعية الرائعة ، التى كانت فى الماضى أكثر من ذلك من اتساعا .

وتغطى الجبال العالية نباتات ذات أهمية خاصة ، ومن أخص مظاهرها الغابات المحتوية على اشجار بابونج الطير Groundsels وانواع العملاقة من التبغ الهندى Lobelia .

ويجتاز الجزء الجنوبى من المنطقة نهران عظيمان وعدة أنهار أخرى أصغر منهما ، فنهر روفوما Rovuma يشكل الحدود مع شرق إفريقيا البرتغالية ، ويجرى نهر روفيجى Rufigi إلى البحر مكوناً دلتا واسعة على بعد ٨٠ ميلا إلى الجنوب من دار السلام . وهناك نهرا روفو Ruvu وبانجانى Pangani اللذان يصبان فى المحيط الهندى ، ونهر الملاجاراسى Malagarasi الذى يغذى بحيرة تنجانيقا بمياهه . وأبعد من ذلك شمالا نجد الأنهار أصغر وأقل . فنهر تانا Tana يصب فى المحيط الهندى إلى الجنوب من لامو Lamu على ساحل كينيا . أما نهر كاجيرا Kagera الذى يجرى بين تنجانيقا وأوغندا فهو ذو أهمية خاصة : فهو النهر الرئيسى الذى يغذى بحيرة فيكتوريا بالمياه ، وهكذا يمكن القول بأنه يشكل بداية أعظم — فى الطول على الأقل — الأنهار الإفريقية كلها وهو النيل . وهناك ، بالطبع ، عدد لا يحصى من النهيرات التى تجرى خلال المنطقة ، ولكنها فصلية فى الغالب ولا تجرى إلا أثناء فترة سقوط الأمطار وبعدها بفترة قصيرة .

وتقع جزيرة زنجبار فى المحيط الهندى على بعد إثنين وعشرين ميلا ونصف من ساحل تنجانيقا ، ومعها ملحقتها بمبا Pemba التى تقع على بعد خمسة وعشرين ميلا إلى الشمال الشرقى . ويتكون ثلثا زنجبار من أجزاء

منخفضة مرجانية ، ولو أنه هناك قمة جبلية يبلغ ارتفاعها ٣٩٠ قدماً فوق مستوى سطح البحر على الجانب الغربى . ومن ناحية أخرى فإن جزيرة بمبا تشكل فى معظمها إقليما غنياً خصباً . ويبلغ ارتفاع أعلى نقطة فيها حوالى ٣١١ قدما فوق مستوى البحر . والظروف المناخية السائدة تشبه إلى حد كبير ظروف ساحل القارة فيما عدا أن معدل سقوط المطر بعد أعلى ، كما أن الحرارة غالبا ما يلطف منها نسيم البحر . وكان لهذه الأمطار الأغزر الفضل فى نمو نباتات أكثف منه على أرض القارة ؛ وكانت كلتا الجزيرتين فيما سبق تغطيهما الغابات ، ولكنها أزيلت كلها على وجه التقريب من أجل الزراعة .

وشرق إفريقيا موطن أعداد لا تحصى من الحيوانات المتوحشة ، ولو أنها بالتأكيد لم تعد بنفس الكثرة التى كانت عليها من قبل . فنمو السكان وإنتشارهم فى ظل أحوال أكثر أمنا وإزدهاراً فى مناطق لم تكن مأهولة من قبل ، والتنمية الاقتصادية ، والتعمق فى الزراعة أكثر من ذى قبل ، وصيد الحيوانات دون تمييز من أجل اللحوم أو من أجل الحصول على تذكار له قيمته ، كل هذه عوامل أدت إلى تناقص عدد الحيوانات ، وحتى الحيوان الذى كان يسلم من الصيد فإنه كان يهرب إلى المناطق الأكثر بعدا عن منال الإنسان . وتعنى كل الحكومات فى شرق إفريقيا بتوكيد أهمية الإبقاء على الحيوانات بما يتماشى وإحتياجات الإنسان ، وكذلك هناك إهتمام كبير نحو المعادلة بين مصالح الإفريقيين والمحافظة على الحيوان بإصدار التشريعات الواجبة ، وتخصيص مناطق معينة له وحدائق عامة .

ذبابة تسى تسى .

وكان لشرق إفريقيا ، وعلى الأخص فى الجهات الأقل إرتفاعا ، نصيب عادل من الآفات التى تهدد حياة الحيوان وكذا الإنسان بطريقة أو بأخرى ،

ولكن أخطرها وأصعبها مراسا هى ذبابة تسى تسى التى تصيب الإنسان والماشية بمرض النوم Trypanosomiasis . لقد أمكن التوصل إلى إستئصال بعوضة الملاريا ، التى كانت فيما سبق أخطر عدو للإنسان فى المناطق الإستوائية ، ولكن الجهود التى بذلت نحو إستئصال ذبابة تسى تسى قد باءت كلها بالفشل ، بل إن الوسائل التى توصل إليها حتى الآن لحصرها فى أضيق نطاق غير مضمونة فضلا عن أنها شاقة ، باهظة التكاليف . ولحسن الحظ أن النوع الذى يصيب الإنسان من هذا المرض قد أمكن علاجه ، وفى الإمكان درؤه بالإبتعاد عن منطقة موبوءة بذبابة تسى تسى . أما أن يعالج مرض النوم عند كل الحيوانات التى تصاب به ، فهذا أمر عسير للغاية ، باهظ التكاليف فى ظل الأحوال الإفريقية السائدة . وأكثر الأقطار تأثراً به بشكل خطير تنجانيقا ، حيث نجد أن حوالى ثلثى المنطقة مصاب بذبابة تسى تسى التى تنتشر بشكل مضطرد . أما كينيا وأوغندا ففى كل منهما مناطق واسعة موبوءة ، ولكنها أقل من تنجانيقا . ولذبابة تسى تسى نتائج ديموجرافية واقتصادية بعيدة المدى . فالقطر الموبوء قد لا يكون غير صالح للسكنى ، ولكن من المؤكد أنها تؤدى إلى تركيز السكان فى المناطق الأقل إصابة فمناطق شاسعة قد أصبحت عاقمة من وجود الإنسان فيها . وكذلك فإن وجود ذبابة تسى تسى يجعل من تربية الماشية أمراً مستحيلا ، وعلى ذلك فقد أصبح من العسير على سكان منطقة موبوءة أن يكون لديهم إقتصاد متكافىء يجمع بين الزراعة وتربية الماشية .

السكان :

الأوربيون :

يعيش الأوربيون فى كينيا منذ حوالى ثلاثة أجيال ، تخلقوا من هذا القطر البكر أثناء هذه المدة بلداً متمدينا جميلا ذا منازل جيدة ، وحدائق

بديعة ، ومزارع منظمة معتنى بها ، ومدنا بها عدد كبير من المبانى الفاخرة . وهم لا يعملون بالفلاحة فحسب ، فالفلاحون فى الواقع هم الجزء الأصغر من المستوطنين الأوربيين ، فهناك طائفة رجال الأعمال ، والمهنيين ، وعمال المناجم ، والصناع ، والحرفيين ، وعمال المحلات التجارية ، وطبعا موظفى الحكومة من كل نوع ، والإرساليين . وهناك من الأوربيين فى كينيا حوالى ٦٦ر٤٠٠ أوربى معظمهم من البريطانيين . وفى تنجانيقا ، يبلغ عددهم حوالى ٢٣ر٠٠٠ أوربى ، وهم أكثر تنوعا . فهناك — طبعاً — البريطانيون الذين يشكلون حوالى ٧٠٪ من المستوطنين الأوربيين ، ولكن هناك كذلك اليونانيون ، والإيطاليون ، والهولنديون ، والألمان ، والسويسريون ، والأمريكيون وغيرهم . وحوالى نصف الأوربيين فى تنجانيقا يعيشون فى المدن ويعملون بالأعمال المهنية والتجارية المعتادة . ومعظم الآخرين من الفلاحين ، والعاملين بالمناجم ، والمشرفين على المزارع ورؤساء العمال أو موظفى الحكومة أو الإرساليين ، وهم موزعون على كل القطر ، وكثير منهم فى المحافظات الشمالية والجنوبية بمرتفعات تانجا . ويوجد فى أوغندا ١١ر٠٠٠ من الأوربيين ، غالبيتهم فى هذا القطر ذى الأغلبية الإفريقية الساحقة من الرسميين والإداريين . أما السكان الأوربيون فى زنجبار — ومعظمهم من الرسميين الحكوميين أو التجار — فعددهم صغير .

الآسيويون :

الصلة بين شبه القارة الهندية وبين شرق إفريقيا صلة قديمة ، فهناك من السكان الهنود والباكستانيين فى الأقاليم البريطانية الثلاثة « سابقا » على أرض القارة ما يتراوح عددهم بين ٣٠٠ر٠٠٠ — ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة يمثلون فئة مستوطنة أكثر منها مهاجرة . والقسمان الرئيسيان هما المسلمون والهندوس ، ولكن هناك كذلك السيخ الذين هم فى غالبيتهم من الصناع ، والجوايون

Goans من الهند البرتغالية . وهم يحتكرون لأنفسهم الحرف الصغيرة ويسيطرون على نسبة كبيرة من تجارة الصادرات والواردات ؛ وكذلك يسودون كصناع ؛ وإلى حد كبير ، إليهم يرجع الفضل فى تنمية صناعة حلج القطن وتطوير مزارع قصب السكر فى أوغندا ، وليس لهم من منافس فيهما الآن غير الإفريقيين . وهم دائماً يحبون إلتزام القانون ، مجدون ذوو شأن كبير فى المنافسات التجارية . وتشتهر طائفة الإسماعيلية ، من المسلمين أتباع أغا خان ، بحسن تنظيمها فلها إدارة مركزية - وإتصالاتها الدولية الواسعة النطاق ، وتنظيماتها البارعة فى نواحى التعليم والتأمين وأعمال البنوك والإسكان . وتمتاز الطوائف الأخرى - ولو أنها لم تبلغ من التنظيم كسابقتها مبلغاً كبيراً - بإكتفائها الذاتى بشكل ملحوظ ومقدرتها على علاج أمورها بنفسها .

العرب :

هؤلاء السادة السابقون لساحل إفريقيا الشرقى يعيشون الآن فى حالة متضائلة بعض الشىء ، ولكنهم مازالوا يستمتعون بحظوة كبيرة بين الإفريقيين .وعن طريقهم كان إنتشار الإسلام ورسوخه على ساحل القارة وفى تلك المدن الداخلية التى كان يستوطنها العرب بأعداد كبيرة وقد بقيت للعرب شهرتهم وعلو كعبهم فى الحياة العامة على ساحل كينيا ، وفى زنجبار حيث نجد أن السلطان نفسه من العرب وكذلك معظم ذوى المكانة والجاه فى الجزيرة .

الإفريقيون

يتكون السكان الإفريقيون فى شرق إفريقيا - إلى حد كبير - من شعوب البانتو ، مع وجود بقع من الحاميين والنيليين . وهم يمثلون

مراحل مختلفة من الثقافة ، ابتداء من الباجندا المتقدمـــة ذات التنظيم السياسى الراقى إلى الواتندجا البدائيه Watindiga فى تنجانيقا الذين لايكادون يفترقون عن بوشمان جنوب إفريقيا فى شىء . وهم يشملون كذلك شعوباً متباينة تتراوح بين الذكاء الحاد كشعب التشاجا Chagga فى كلمنجارو الذين نقلوا عن الحياة الغربية مظاهر معينة ، وبين العزلة والكبرياء كما هو لدى المساى Massai الذين يصرون ويتمسكون بأساليبهم وطرقهم الخاصة وهناك الإفريقيون الرحل nomads وشبه الرحل semi nomads ، والذين يمتلكون الماشية والذين لا يمتلكونها ، وهناك الفلاحون والصيادون ، وزراع البن أو القطن ، ثم أولئك الذين هم بالفعل لا يزرعون شيئاً على الإطلاق . وبالمثل ، فهنـاك من القبائل ما هى ذات دستور راسخ ، وهيئة كهنوتية رسميـــة ، ويحكمها زعيم شبه مقدس له هيبته . وهناك اخرى لا تعترف بأية سلطة أعلى من رب الأسرة . وفى هذا المجال لا نستطيع شيئاً أكثر من إيراد بعض أمثلة على مسافات مختلفة من بعضها فى نفس المقياس .

ولعل الباغندا Baganda أكثر شعوب شرق إفريقيا تطوراً ونمواً . وهم يعيشون فى مملكة بوغندا Buganda ، إحدى المديريات الأربع فى محمية أوغندا[1] . وفى الحقيقة أن بوغندا كانت فيما سبق مجرد جزء من إمبراطورية Bunyoro ، ولكنها وقت وصول الطلائع الأولى للمستكشفين الأوربيين كانت قد ارتقت وعلا شأنها لتحتل الصدارة فى المنطقة . ومملكة بوغندا هى الحاصل الختامى لهجرة الحاميين التى أقامت من الغرباء أرستقراطية ، هى الباهيما Bahima ، ذات « نظام طقوس

---

(١) إن « Bu » و « U » مقطعان مختلفان من طبقة واحدة فى نطـاق الإسم . وعلى ذلك ، فلفظة « بوغندا » ولفظة « أوغندا » هما نفس الكلمة فى لغتين مختلفتين ، ولو أنهما الآن من الناحية الجغرافية مختلفان فى المعنى .

ملكى بارع ، على شعوب البانتو التى تعيش حول البحيرات . وبينما كانت Bunyoro آخذة فى الإضمحلال ، فإذا بيوغندا تأخذ فى النمـــو وجدها الأوربيون دولة محكمة التنظيم تتركز سلطانها فى شخص الملك ، أو ـ كما يدعى ـ الكاباكا Kabaka ، مع وجود نظام طبقى قوى فعال من الزعماء الذين يعينهم الملك ويتولون مراكزهم حسب رأيه . وبوغندا الآن قطر يتكون من ملاك الأراضى ، والمستأجرين ، والعمال المعدمين ، وكثير من الأخيرين كانوا أصلا من المهاجرين ثم أصبحوا سكانا دائمين . والكاباكا يرأس نظاماً حكومياً جيد التنظيم ، ويعاونه الوزراء ومجلس كان فيما سبق من اختياره كلية ولكنه أصبح الآن يميل إلى أن يكون تمثيلياً . والقطر مقسم إلى عدد من المقاطعات ، وشبه المقاطعات ، والأبرشيات ، كل منها تحت رئاسة زعيم أو رئيس له مكانته . والناس غاية فى الفطنة والذكاء ، شديدو الحساسية ، مرحون ، ذوو استعداد فطرى للتجارة وحاسة للسياسة . ولقد شغفوا كثيراً بالآلات الدقيقة الغربية ، والدراجات ، والسيارات ، والجراموفونات وأجهزة الراديو ، وسوف يأتى الوقت الذى فيه يستخدمون أجهزة التليفزيون . أما النساء فمن أكثر نساء إفريقيا تحرراً (١) .

وفى رواندا ـ أوروندى توجد أرستقراطية رعوية من أصل حامى ، هم الواتوسى Watusi ، تشغل مركزا مشابها لمركز الباهيما فى أوغندا . وكان من المعتقد منذ القدم أنهم قد أتوا من الشمال الشرقى منذ حوالى خمسمائة سنة مصطحبين معهم ماشية ذات قرون طويلة بشكل غير مألوف . وكان إختلاطهم بالفلاحين من البانتو المحليين وهم الباهوتو ، أقل مما فعل الباهيما فى أوغندا مما ساعد على إحتفاظهم بميزاتهم الجسمية بشكل

(١) استقلت أوغنده فى أكتوبر ١٩٦٢ كجمهورية داخل نطاق الكومنولث البريطانى وأصبح الكاباكا أول رئيس للجمهورية .

ملحوظ . فهم يتميزون برأس طويل ، وملامح جميلة ، وقامة غاية فى الطول ، حيث نرى الكثيرين منهم يبلغون حوالى سبعة أقدام .

وإذا إتجهنا شرقا وجدنا قبائل التشاجا the Chagga الذين يعيشون على منحدرات كلمنجارو ، وهم فلاحون غاية فى الذكاء ، يزرعون البن ويبيعونه عن طريق جمعياتهم التعاونية ، ولهم من التطلعات ووجهة النظر الحديثة ما للباجندا ، بل أكثر منهم مضيا ومضاء .

أما الكيكويو Kikuyu ، أو الأجيكويو Agikuyu كما يسمون أنفسهم ، فهم أكبر وأهم قبيلة فى كينيا . لقد بدأوا ـ كما تروى قصتهم ـ كمجرد قبيلة فى المنطقة الحالية لفورت هول Fort Hall ، فالمكان الذى نشأوا فيه أصلا ، هو على وجه التحديد شجرة ضخمة من أشجار السنط . وبسبب الضغط المتزايد للسكان ، زحفوا جنوبا فى حوالى القرن السادس عشر إلى كيامبو Kiambu ، التى كانت تحتلها فى ذلك الوقت قبيلة من الصيادين وجماع العسل تدعى الواندوروبو Wandorobo . وإشترى الكيكويو Kikuyu الأرض من الواندوروبو بطريقة غاية فى التعقيد وكان للطقوس الدينية فيها دور جوهرى . وكانت قطعة الأرض التى تشترى على هذا النحو تسمى جيثاكا githaka ؛ وقد نشأ عن هذا النظام لتملك الأرض قيام طبقة حقيقة من ملاك الأراضى تعد شيئا نادر الوجود فى إفريقيا . ولكل جيثاكا حصتها من المستأجرين ، وكان أن أصبحت منطقة كيامبو Kiambu بعد مرور عدة قرون منطقة مزدهرة آهلة بالسكان . وبينما كان الكيكويو Kikuyu يهبطون إلى منطقة كيامبو ، فقد كانوا فى نفس الوقت يتحركون كذلك إلى أعلى حيث التلال الواقعة أسفل سفح جبل كينيا .

وفى نهاية القرن التاسع عشر إجتاحت هذا الجزء من إفريقيا أربع كوارث كبرى : إنتشار وباء الجدرى بشكل خطير ، وإنتشار طاعون الماشية ، وحدوث قحط أعقبته مجاعة شنيعة ، ثم حلول الجراد وفتكه

ولو أن هذه الكوارث لم تكن مقصورة على كيكويولاند Kikuyuland إلا أنها كانت بها ذات نتائج معينة غير مباشرة سنأتى إلى وصفها فيما بعد .

والتنظيم الاجتماعى لقبائل الكيكويو غاية فى التعقيد ولا يمكن وصفه هنا بالتفصيل . وهو ذو وجهين متميزين : فمن ناحية ، هناك نظام أبوى مرتبط إرتباطا وثيقا بملكية الأرض ويتفرع إلى بطون ، ومن ناحية أخرى هناك تنظيم يقوم على وحدات إقليمية معينة يطلقون عليها « وحدات القمة » . والكيكويو ، منذ القدم ، ليس لديهم زعماء بالمعنى الذى يفهمه الأوربيون . وكانت السلطة سابقاً تتمثل فى مجالس الكبار Councils of elders التى تنبثق عن الوجهين التوأمين لنظامهم الاجتماعى . أما الزعماء لدى الكيكويو اليوم فهم إلى حد كبير من صنع الإدارة الأوربية .

ويعد الكيكويو أكثر شعوب شرق إفريقيا نشاطا وتقدما . ومن أبرز مميزات شعب الكيكويو اليوم أنهم شعب فطر على التجارة والسعى وراء الربح ، لديه وعى عميق بكل مايتصل بالأرض ، ونزعة كبيرة نحو المشاكسات وخلق المتاعب ، وشغف كبير بالتعليم . وكذلك يتسمون بنشاط سياسى كبير يظهر فيه تحيزهم ضد الحكومة وضد الأوربيين . وقد بلغ هذا التحيز أقصاه حين اتخذ شكل التعصب فى حركة الماوماو ، ولكن هذا التعصب نفسه قد انتاب الكثيرين من الكيكويو بشكل آخر حين وقفوا فى وجه الماوماو بل وحاربوهم . ومع الليو Luo فى المنطقة المجاورة لبحيرة فيكتوريا ، يشكل الكيكويو العنصر السائد فى القومية الإفريقية فى كينيا .

أما الماساى the Masai فهم النيليون — الحاميون الرعويون PastoraltNilo — Hamites الذين يعيشون فى سهول كينيا وتنجانيقا

ويمتازون بطول القامة ورشاقة القد ، وبشرة حمراء ، وشعر ينتهى بضفيرة طويلة ، وشملة مرسلة فى غير عناية فوق الجسم ، ورمح يلازم أيديهم ، يرعون الماشية ، ويعيشون بروح من التعالى والأنفة والبعد عن المنازعات التى مزقت بقية القارة . ويبدو أنهم قد أصبحوا الآن واعين لتظاهر الكيكويو بالقومية ويخشون أن تصير كل السلطة فى كينيا المستقلة إلى تلك القبيلة . ولمواجهة هذا الخطر يبدو أنهم قد توصلوا إلى نوع من التفاهم مع الآخرين من النيليين — الحاميين مثل النائدى بقصد حماية مصالح ماتدعى بشعوب كالينجين Kalenjin peoples (١) .

وبين الكيكويو من ناحية والماساى من ناحية أخرى يتخذ السواحيلى Swahili مركزا وسطا . وهؤلاء هم الإفريقيون على الساحل ، وفى زنجبار ، وهم من البانتو الذين امتزجوا بالعرب بنسب متفاوتة ، ولكن ثقافتهم عربية فى أغلب الأحيان . وهم جميعاً — على الأقل من الناحية الإسمية — من المسلمين . أما لغتهم — وهى أداة مرنة للغاية من أصل بانتو وتضم الكثير من الكلمات العربية والأجنبية الأخرى — فهى لغة اللنجوا فرانكا lingua franca لشرق إفريقيا والتى يتكلم بها حتى فى الكنغو والسواحيلى أناس دنيويون ، على درجة من الذكاء والأدب . ولهم فى الشعر تقاليدهم القديمة ، كما أن آدابهم هى الآداب الوحيدة الحقة فى شرق إفريقيا . وهم

---

(١) لقد أفاد البروفسور تكر A. N. Tucher ببعض المعلومات عن كلمة Kalenjin ويبدو أنها تسمية سياسية — سلالية Ithno—political من أصل حديث تشمل كل أولئك الذين يتكلمون لغات المجموعة المتفرعة عن النائدى the Nandi ، وهى تعنى فى النائدى « لقد قلنا لك » . وهى لا تمت إلى الماساى ، أو إلى شعب Teso—Turkana—Karamojong وعلى ذلك فهى لا يمكن أن تعادل — من الناحية اللغوية — بالنيليين الحاميين ، أو — من الناحية السياسية — بال K. A. D. U. (والأخيرون — ال K. A. D. U. — هم الحزب الحاكم الآن فى كينيا ، ويعارضهم حزب Luo—Kikuyu K. A. N. U.) ، ولو أن الماساى ليسوا إطلاقا من الكالينجينين Kalenjin ، إلا أن المرء لابد وأن يظن أنهم فى سلوكهم يشعرون بميل نحو النيليين الحاميين الآخرين ، وذلك كما يستدل من الاتجاهات الحاضرة .

على درجة من الفطنة فيما يختص بالتجارة . وأكثرهم سفسطة يحملون حوالهم جوا من التدهور ليس غير شائق ، ذلك الطابع الذى تتسم به المدينة العربية القديمة على الساحل .

وعلى ذلك فليس هناك نمط معين للسكان فى شرق إفريقيا . ولكن بدلا من ذلك ، هناك عدد كبير من شعوب مختلفة تمثل مراحل مختلفة من الحضارة والثقافة ، كل منها يسلك أسلوبا فى الحياة يختلف بطريقة ما عن أساليب أقرانه ، وتتباين مطامحهم وآمالهم كاتتباين الوسائل المادية والعقلية الموصلة إليها .

تاريخ الإقليم

انتهى التزاحم على إفريقيا باعتراف ألمانيا بالحماية البريطانية على زنجبار وبتقسيم أرض القارة فى هذا الإقليم بين ألمانيا وبريطانيا ، على أن تأخذ ألمانيا الجزء الجنوبى وبريطانيا الجزء الشمالى . وقد لجأت كل من ألمانيا وبريطانيا فى محاولاتهما الأولى لإحتلال شرق إفريقيا إلى حيلة خاصة هى تكوين شركة تجارية تخول كل سلطات الحكم . ففى عام ١٨٨٤ ، قام المكتشف الألمانى كارل بيترز Karl peters بتأسيس الاتحاد الألمانى المستعمرات ، أما الحكومة البريطانية ، التى كانت دائما جد شغوفة بتجنب المتاعب ، فقد سرها أن تعهد بالأقاليم الجديدة إلى الشركة البيريطانية الإمبريالية لشرق إفريقيا التابعة لسير وليم ماكينون . وكانت السنوات الأولى للاحتلال الأوربى غاية فى المشقة ، فالشركة الألمانية جوبهت بمقاومة عنيدة من العرب وعجزت عن إخماد ثورة بوشيرى Buchiri نسبة إلى زعيم من هذه الجماعة . وكانت الشركة غير منتجة مما حدا بالحكومة الألمانية إلى أن تتولى السلطة بنفسها وأعلن الإقليم محمية فى عام ١٨٩١ . وعلى كل ؛ فقد استمرت المتاعب

الداخلية لسنوات عدة ، وكانت هناك ثورات قبلية كثيرة أخمدت كلها بشدة . وكان أخطرها جميعا ما عرفت بثورة ماجى ماجى Maji Maji التى حدثت فى عام ١٩٠٥ - ١٩٠٦ وشملت كل الجزء الجنوبى الشرقى من الإقليم .

أما فى النطاق البريطانى فقد كان الإرساليون يعملون فى أوغندا منذ عام ١٨٧٧ ، البروتستانت أولا ثم كاثوليك الرومان بعد ذلك ، وكانوا يعرفون لدى الوطنيين على التوالى باسم Waingereza ، أى الانجليز ، و Wafarrnse ، أى الفرنسيين . وقد دبر ملك بوغندا (الكاباكا) Mwanga تحت تأثير العرب . مقتل الأسقف هاننجتون Hannington وقت أن هبط أرض القطر ، ثم أخذ يطارد المسيحيين ويضطهدهم بطريقة وحشية ، فمات الكثيرون منهم موت الشهداء والأبطال . وفى مثل هذه الحالة من الفوضى والاضطرابات أسندت إلى الكابتن لوجارد Logard ، ممثل الشركة البريطانية الإمبريالية لشرق إفريقيا ، تلك المهمة العسيرة لحفظ النظام بأية طريقة ، ولكن كانت لاتلبث أن تقوم الاشتباكات بين الحين والآخر ، واستمرت الحال كذلك حتى عام ١٨٩٢ .

ولم تكن موارد الشركة لتسمح بأية حال على الإطلاق بمواجهة موقف كهذا ، وبلغ من خطورة الموقف أن أصبح هناك احتمال كبير بسحب كل السلطة البريطانية من هناك ، وبعد كثير من التردد تدخلت الحكومة البريطانية وأعفت الشركة من كل تبعاتها غرب بحيرة نيفاشا وأعلنت مملكة بوغندا محمية بريطانية عام ١٨٩٤ . ثم كان أن أضيفت إليها بعد ذلك أجزاء أخرى . وفى السنة التالية أعفت الحكومة الشركة من الجزء الباقى من النطاق البريطانى فأصبح الإقليم الممتد من نيفاشا إلى الساحل محمية شرق إفريقيا ، ثم كينيا فيما بعد . وفى عام ١٩٠٢ أضيف إليها الإقليم الشرقى من أوغندا ثم أعقب ذلك فى عام ١٩٢٦ إضافة إقليم رودلف

Rudolpf . ولقد بددفترة السلام القصيرة فى أوغندا التى أعقبت اعلان الحماية ١٨٩٤ وقوع حركة تمرد بين القوات السودانية فى عام ١٨٩٧ ، التى مالبثت أن استحالت إلى ثورة حين اشترك فيها موانجا Mwanga ، بعد أن أشهر إسلامه، وكاباريجا Kabarega زعيم بونيورو Bunyoro . ولم يكن فى الإمكان إعادة السلام حتى عام ١٨٩٩ حين أسر موانجا وكاباريجا وأبعدا إلى جزيرة سيشل . وفى عام ١٩٠٠ قام سير هارى جونستون ، المندوب السامى الخاص المحمية ، بمفاوضات مع نواب الملك (الكاباكا) الطفل وتوصل إلى اتفاقية احتفظت بمقتضاها بوغندا لنفسها ، بينما هى تشكل إحدى مديريات المحمية - بسلطات واسعة فى إدارة شئونها ، وفى الوقت نفسه أعترف بالمركز الأعلى للكاباكا .

وكانت ثورة الماجى ماجى the Maji Maji صدمة قوية للرأى العام فى ألمانيا ، ومنها تحققوا أن المتاعب التى يثيرها الوطنيون باستمرار إنما تشير إلى وجود خطأ جسيم فى الإدارة الألمانية لشرق إفريقيا . وبناء عليه أحيلت شئون المستعمرات ، التى كانت حتى ساعتئذ من من شأن القسم الملحق بمكتب مستشار ألمانيا ، إلى وزارة جديدة قامت خصيصاً من أجل ذلك ، وبدأ برنارد ديرنبرج أول وزير للمستعمرات فى إدخال عدد من الإصلاحات الضرورية . وأعقب ديرنبرج فى عام ١٩١١ ويلهلم سولف الذى كانت سياسته امتداداً لسياسة سلفه ، ولكن النوايا الحسنة والأعمال الطيبة لهذين الرجلين قد ذهبت هباء بقيام حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ . فبعد حرب طويلة لعب فيها القائد الألمانى Lettow — Vorbeck دوراً يتسم بالمهارة وحذق المناورات ، استولت على شرق إفريقيا القوات البريطانية لتحكمه بالانتداب من عصبة الأمم . وآل إقليم رواندا - أوروندى ، تحت نفس الشروط ، إلى بلجيكا . ثم أصبحت هذه الانتدابات بعد الحرب العالميه الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وصاية من قبل هيئة الأمم المتحدة .

ورغم أن كينيا ، وأوغندا وتنجانيقا كانت كلها تحت الحكم البريطانى لمدة طويلة ، الأوليان منذ عام ١٨٩٠ والأخيرة منذ عام ١٩١٨ ، إلا أن تقدمها كان يختلف من قطر إلى آخر إلى حد كبير . فأوغندا لم تكن فى يوم من الأيام غير قطر افريقى يملكه الافريقيون ، وبشكل متزايد ، محكوم بواسطة الإفريقيين . هذا الطابع يعكسه تاريخ أوغندا تحت الحكم البريطانى . ورغم الإضطرابات التى كانت تقوم بين الحين والآخر فقد كان هـــذا بالنسبة للإفريقيين عصر تقدم ورخاء . أما كينيا فسرعان ما أصبحت مستعمرة للأقامة والإستيطان تضم بين ساكنيها مجموعة من الأوربيين تتسم بالقوة والنشاط . ولو أنه من الخطورة بمكان اطلاق مثل هذه التعميمات ، إلا أنه فى الإمكان القول بأن تاريخ كينيا حتى لحارب العالمية الثانية إنما يتصل إلى حد كبير بجهود أولئك الأوربيين نحو إقامة وطن لهم فى كينيا وتهيئة الظروف التى يرونها كفيلة بأن تساعد على استقرار مجتمعهم وتؤدى إلى مافيه خيره ورخاؤه .

أما تنجانيقا فهى قطر إفريقى إلى حد كبير ، ومن ثم كان التوكيد والاهتمام أساساً بالمصالح الإفريقية . وهنــاك مستعمرات أوربية لسكنى الأوربيين فى الشمال وفى الجنوب ، بينما أن القيادة فى الشئون الاقتصادية قد آلت فى معظمها إلى الأوربيين والآسيويين . وكانت طاقات الحكم البريطانى كلها تقريباً منذ قيامه موجهة - مباشرة أو بطريقة غير مباشرة - نحو تحقيق التقدم الاقتصادى والاجتماعى للإفريقيين ، كما أن تدريبهم على حكم أنفسهم كان نصب أعين الإدارة البريطانية ، وقــد تغيرت طرق التدريب فى السنوات الأخيرة وازداد معدل سرعته إلى حد كبير .

وفى رواندا - أرووندى اتبع البلجيكيون إلى حد كبير جداً نفس السياسة التى اتبعها البريطانيون فى أوغندا . وكانت هناك بعض هجرات لغير

الوطنيين ، ولكن كان الهدف هو المحافظة على الأنظمة القائمة للسكان الوطنيين والعمل على تحسينها ، والمحافظة على الإقليم وتنميته كقطر إفريقى .

أما عن زنجبار وهى فى أوج ازدهارها فقد قيل ، إنك إذا عزفت الناى وأنت فى زنجبار ، فإن كل إفريقيا – حتى منطقة البحيرات – سترقص على أنغامه ، ولكن الأهمية السياسية للجزيرة ما لبثت أن زالت عنها بقيام المحميات الأوربية على أرض القارة . فسوق الرقيق قد أغلقت منذ عام ١٨٧٣ ، كما أن اختفاء تجارة الرقيق ما لبث أن أعقبه تدهور وكساد فى تجارة السلع الأخرى فى هذا المستودع - زنجبار - حين قام الأوربيون بتشييد الموانى على أرض للقارة . ومع كل ، فإن الأثر الاجتماعى والثقافى لزنجبار ما زال باقياً ، وستبقى كما كانت دائماً من قبل هى مكان الملتقى لآسيا وافريقيا .

وبوجود الإيطاليين فى إثيوبيا واليابانيين فى المحيط الهندى جاءت الحرب العالمية الثانية (١٦٣٩ – ١٩٤٥) لتقترب كثيراً جداً من أقاليم شرق افريقيا ، وما لبثت أن قامت كلها بدور إيجابى فعال فى هذه الحرب . فأعداد كبيرة من الإفريقيين وكذلك - نسبياً - من الأوربيين انضمت للخدمة ضمن القوات التى استولت على أثيوبيا ، ثم بعد ذلك تحركت إلى الجهات الأخرى من ميادين القتال ، أما أولئك الذين بقوا فى موطنهم بالقارة فقد توافروا على إنتاج الأغذية والمواد اللازمة حتى تستغنى المنطقة بقدر الإمكان عن واردات الأقطار الأخرى . وكذلك فإن أعداداً كبيرة من الأسرى ، والمعتقلين ، واللاجئين من وسط أوربا قد أمضوا سنوات الحرب فى شرق افريقيا ، هذا بالإضافة إلى أن المنطقة كانت تقع فى طريق خطوط المراصلات بين شمال وجنوب افريقيا .

وبانتهاء الحرب ظهر شرق افريقيا كمنتج للمواد الأساسية بنصيب قليل فى مستهل فترة من الرخاء والازدهار ، فكان أن وضع مخطط جرىء للتطلع الاقتصادى . وإلى هذا العصر يرجع مشروع الفول السودانى لتنجانيقا ، الذى اشتهر بسمعته السيئة والذى تولته ، لا وزارة المستعمرات ، ولكن وزارة الأغذية ، والذى لا يماثل بأية حال أياً من البرامج الواقعية المتكاملة التى كانت هى الأخرى يجرى تخطيطها وتنفيذها . وفى ذلك الوقت كذلك تحققوا من أنه لابد من الإسراع بإجراء تطوير دستورى لمواجهة المطالب الملحة للإفريقيين ، ومن أن الحكم الذاتى قد أصبح ينظر إليه لا على أنه أمل بعيد ولكن كهدف لابد من تحقيقه فى المستقبل القريب .

وفى عام ١٩٥٣ ألقى وزير الدولة لشئون المستعمرات خطاباً أثار الشكوك القوية لدى الوطنيين فى أوغندا ، بأن القطر سيؤول إلى اتحاد فيدرالى مع الأقطار الأخرى بشرق إفريقيا ضد رغبته . وقد أفادت التصريحات المطمئنة لوزارة المستعمرات والحاكم العام فى تهدئة ثائرة الرأى العام لبعض الوقت ، ولكنها لم تكن لترضى كاباكا بوغندا ، الذى دفع بأن هذه التأكيدات لم تكن فى قوة ما سبقتها ، وذهب إلى حد المطالبة بمطالب جديدة ، لو قبلت ، لكان معنى ذلك الغاء السياسة البريطانية لتطوير أوغندا ، بما فى ذلك مملكة بوغندا ، كدولة موحدة وبعد كثير من الجدل اقتنع الكاباكا - إلى حد ما - بهذه التأكيدات ، ولكنه رفض التخلى عن المطالب الإضافية ، مما حدا بالحاكم العام إلى سحب الاعتراف البريطانى به ونفيه إلى لندن . هذه الخطوة ، التى كانت ترمى إلى ازالة عقبة فى سبيل سياسة خلق قطر قوى مستقل ديموقراطى متحد من أوغندا ، كان لها من الإثارة والغضب فى نفوس الوطنيين من أهل باغندا Baganda ما جعل من المستحيل اتباع أية سياسة على الإطلاق . وفى النهاية توصل

الباغندا the Baganda والحكومة البريطانية الى حل وسط بتشكيل لجنة دستورية خاصة ، وبذلك أعيد الكاباكا الى العرش .

ولسوء الحظ أن الأمور لم تكن لتنتهى عند هذا الحد . فالمشكلة فى أوغندا أصلا هى وقوع صدام فى الرأى بين الإفريقيين عمن سيرث الحكم الذى تتولاه السلطات الاستعمارية . فالطاقم الجديد ، وهم السياسيون الوطنيون الراديكاليون ، الذين يمثلون طبقة متوسطة صاعدة ، يرون المستقبل فى صورة دولة اتحادية يشكلون فيها الطبقة الحاكمة . أما التقليديون ويتمثلون أساساً فى الكاباكا وهيئة البرلمان « اللوكيكو » the Lukiko ، فقد كانوا على وعى بما حاق بالطبقة الأرستقراطية فى الأجزاء الأخرى من افريقيا ، فرفضوا الدولة الاتحادية التى يخشون فى حالة قيامها أن تضعف سلطانهم التقليدية بل تقضى عليها . أنهم بدلا من ذلك يطلبون اتحاداً فيدراليا يسمح فيه لمملكة بوغندا بأن تنمو وتتطور منفصلة عن غيرها ، وأن تمكنهم الحكومة التقليدية من الاحتفاظ بسلطاتهم كاملة غير منقوصة . ويطالب التقليديون بأن يكونوا على الأقل على نفس درجة من الأهلية مثل السياسيون ـ ان لم يكونوا أفضل ـ فى القيام بأعباء الحكم الجديد . فهم لهم دور فعلى فى الخدمات المدنية ، وخبرة طويلة فى فن الحكم والإدارة على مستوى يتكافأ مع المستويات الإفريقية القائمة ؛ ثم انهم ، وعلى الأخص الكاباكا ، يحظون بكل احترام ، بل بتبجيل جزء كبير من الشعب . وكذلك لابد وأن نقر بأن من يدعون بالسياسيين الديموقراطين فى أى مكان آخر ـ الذين أعدوا بأبرع الأنظمة البرلمانيـــة استعداداً للاستقلال ـ قد استطاعوا فى فترة وجيزة جدا أن يكون لهم من السلطان ماكان لملك من الملوك الإفريقيين ومن حسن الحظ أنه ليس من عمل مؤلف هذا الكتاب أن يوجد حلا لمشكلات مازال السياسيون والحكام

لم يتوصلوا إلى حلها بعد . وعلى كل ، فقد يستطيع المرء القول بأن التعلق الشديد بفكرة الوحدة يجب الا يحول دون تمحيص ، أو حتى تجريب ، تسويات أكثر مرونة ، وفى نفس الوقت تسعى حكومة الكاباكا أكثر مما فعلت حتى الآن الوصول إلى تسوية مع بقية أوغندا .

وتنتهى هذه اللمحة التاريخية على نحو محزن . فبعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية بوقت قصير بدأت فى كينيا حركة تدعى الماوماو Mau Mau وكانت مقصورة على الكيكويو the Kikuyu ؛ ويبدو أنها كانت ترجع أصلا إلى وجود نقص فى الأرض ، وقيام مظالم عديدة من اجتماعية وسياسية ، ووجود شعور عميق بعدم الإرتياح ناتج عن الصدمة الفجائية لحضارة غريبة عليهم . ولقد أذكى من هذه الحركة بعزم ومضاء وجود عدد من المستهترين بالقانون الذين تضمهم جمعية مريبة يخضع أعضاؤها لعقوبات شبه دينية ، وتقام بها شعائر لحلف اليمين تتسم بالرعب الشديد والوحشية التامة . ثم جاء الوقت الذى إنتابت فيه هـــذه الحركة موجة من القتل والإرهاب على أوسع نطاق . وبالرغم من أن حركة الماوماو هذه كانت أساسا تدين بالبغض الشديد للأجانب فقد قتلت من الإفريقيين ما هو أكثر من الاوروبين . ولحسن الحظ أن الجزء الأكبر من الكيكويو لم يكونوا لينضموا اليها ، بل هب الكثيرون منهم لمحاربة الإرهابين . وعلى كل ، فإنه لم يتطلب الأمر لإخماد الحركة أكثر من جيش صغير وعدد من رجال البوليس والجنود غير النظاميين ، الا أن حالة الطوارىء لم تنته رسميا الا فى يناير ١٩٦٠ . وفى أثناء نفس هـذه السنة (١٩٦٠) أفادت التقارير بأن الماو ماو قد أعادت نفس الكرة وأخذت تحلف اليمين من جديد ، الا أن الحكومة أخذت من الاحتياطات ما يحول دون نشوب الثورة مرة أخرى .

الأرض :

ليس ثمة مسألة تتمثل فيها حساسية الإفريقيين أكثر من الأرض التى تلعب دورا عصيبا فيما يثار من جدل حول شرق افريقيا، وعلى الأخص فى كينيا.

لقد حاز المستوطنون الأوربيون الأرض فى الجهات المرتفعة عن طريق الشراء إما من الزعماء وإما من الشركة البريطانية الإمبيريالية لشرق إفريقيا، وذلك قبل إعلان قيام محمية شرق إفريقيا فى عام ١٨٩٥، ولكن لم يحدث حتى نهاية القرن، لما أوجبت تكاليف تسيير الخطوط الحديدية بأوغندا ضرورة إيجاد مورد للدخل، أن ألزمت الحكومة البريطانية نفسها باتباع سياسة ثابتة لتوطين الأوربيين. ويبدو أن مناخ هذه المرتفعات كان ملائما للأوربيين تمام الملاءمة، وأنه كانت هناك بالإضافة إلى ذلك مساحات أخرى شاسعة غير مأهولة. ويبدو أن أراضى المراعى الشاسعة على الهضبة المرتفعة كانت خالية تماما من المستأجرين الوطنيين ونحن نعرف الآن أن هذه لم تكن غير حالة وقتية، وأن سلسلة من كوارث الطبيعة هى التى أدت إلى تشتيت كلا السكان والماشية ونقصانهم على هذا النحو مما أدى إلى وجود إحساس غير عادى بالخلو والفراغ. وهكذا اتفق مجىء الأوربيين إلى كينيا مع وجود فترة من الإقفار من السكان على نحو غير عادى. هذا الاتفاق، بالإضافة الى الجهل بطبيعة حيازة الأرض لدى الإفريقيين، والضعف تلقاء مطالب المستوطنين والتردد والحيرة من جانب الحكومة البريطانية، كلها عوامل أدت الى تحويل ملكية الأرض على نحو وبمعدل كان من شأنهما الغبن الشديد المستمر للقبائل فى كينيا. ولم يكن ليخفف من هذا ما أعقب ذلك من تحديد للمحجوزات التى خصصت لصالح قبائل الوطنيين ومنفعتهم الدائمة،

بل زاد منه بطريقة مؤكدة ما كان من حظر حقيق الإقامة فى الجهات المرتفعة على أى فيما عدا البيض. وكان الاعتقاد بأن نقص الأرض انما يرجع الى تحويل ملكيتها الى الأوربيين وهو أحد الأسباب المؤدية الى ثورة الماوماو. وفى عام ١٩٥٣ أنتدبت لجنة ملكية برياسة سير هيو دو Sir Hugh Dow، لبحث كل الوسائل الممكنة لتحقيق مستوى معيشة أفضل، مع الأخذ بعين الاعتبار تلك الزيادة المنتظرة فى السكان والإزدحام الحالى للسكان الإفريقيين فى مناطق معينة. وقد قدم تقرير اللجنة الذى يعد وثيقة غاية فى الأهمية بالنسبة لتاريخ شرق افريقيا، فى عام ١٩٥٥، وكان غاية فى التفصيل والإسهاب مما يصعب تحليله فى هذا المجال. وعلى كل، فجدير بالذكر ان اهم توصياته وابعدها مدى هى تلك التى تتعلق بالأرض حيث يقول «طوال تقريرنا كله ونحن نجزم بأن علاج مشكلات الحيازة واستخدام الأرض، على أساس قبلى، إنما هو أمر لا يتفق وتطور اقتصادى حديث، وهذا ينطبق بالمثل على علاج قائم على أساس عنصرى محض لمشكلات الجهات المرتفعة. ونحن نوصى - على الرغم من أنه لا موجب لإجراء أى تغيير فى عقود التمليك القائمة فيما عدا فى ظروف محددة تماما بحكم القانون قصد بها مواجهة المصالح القومية - بضرورة وضع نظام يسمح بتأجير الأرض خالية من القيود التى تفرضها التحفظات القبلية أو العنصرية». وكانت نتائج هذه التوصيات ثنائية. فأولا أصبح من الواضح أنه لم يعد فى الإمكان الاحتفاظ بسياسة «المرتفعات البيضاء» White Highland، كما أن معظم الناس متفقون - حسبما يتراءى من الرأى العام فى الوقت الحاضر - على أن اللجنة لم تقدم شيئاً سوى توقع إجراء حتمى. والنتيجة الثانية أن الملكية القبلية أو الجماعية للأرض لابد وأن تستسلم للحيازة الفردية، وهنا نجد المشكلة أكثر قابلية للنقاش. فالشكل القديم لملكية الأرض له جذوره العميقة فى المجتمع

الإفريقى ، كما أن كثيرا من الإفريقيين يعتبرونه الدرع الواقى لحقوقهم فى الأرض. وعلاوة على ذلك - كما قيل مرارا فى الماضى - فإن الملكية الفردية لاتخلو من الأخطار فى المجتمعات الفطرية نسبياً . وعلى كل ، فإن اللجنة لم تقلل من شأن الصعوبات التى تعترض سبيل التغيير المقترح ، كما أن التقرير قد أورد بالتفصيل كل المناقشات التى تؤيده والضمانات التى تلزمه .

وأما فى أوغندا ، وكذلك إلى حد كبير فى تنجانيقا ، فإن مسألة الأرض لم تكن لتتعقد بسبب سياسة الإستعمار الأوربى . ففى أوغندا نجد أن كل الأرض خارج المدن والمراكز التجارية ، وكل الأرض فى بوغندا ، تعتبر الحكومة مالكة لها ووصية عليها لصالح السكان الوطنيين ، بينما فى تنجانيقا ، فإن كل الأرض ، بإستثناء ماجرى نقل ملكيته بالفعل أيام الألمان ، تملكها الدولة لتدار من أجل الصالح العام لسكان الإقليم . وهذا يعنى فى الواقع أن الأرض لا يمكن نقل ملكيتها إلى غير الإفريقيين إذا رئى بأنه قد تدعو الحاجة إليها لصالح الإفريقيين فى المستقبل .

وفى زنجبار نجد أن كل الأراضى البـــور ، والتى لا يشغلها أحد ، والأراضى المشغولة بمقتضى العرف المحلى والقبلى كلها فى يد السلطان ، وعلى كل ، فهناك من الضياع الواسعة ما انتقلت ملكيتها للعرب بطرق مختلفة تحت شروط تعادل الملكية الحرة وإن لم تحدد بحكم القانون . وحتى يحال بين انتقال أراضى العرب وأراضى الإفريقيين إلى أيدى غير الوطنيين تقرر حظر الحجز على هذه الأرض أو على إنتاجها وفاء لدين ، وكل نقل الملكية إنما يكون تحت اشراف لجنة معينة من قبل المقيم البريطانى .

الإقتصاديات :

يعتبر شرق إفريقيا منتجاً كبيراً لنبات السيزال ، والشاى والبن والقطن . ومن المنتجات الزراعية الهامة الأخرى الفول السودانى ، والكوبرا Copra ، والتبغ ، والبايرثرم Pyrethrum ، وعيدان الوطل Wattle . وهناك من الصناعات التى تتطلب وجود مصانع ثقيلة ، وقوة عمالية كبيرة - كصناعة إنتاج السيزال - يقوم بها الأوربيون والآسيويون ، وكذلك يقومون بزراعة الشاى ، وإلى حد كبير أيضاً بالعمليات الصناعية المعقدة الباهظة التكاليف . ولكن أهم عوامل التطور الإقتصادى الحديث نمو تجارة الحاصلات النقدية الإفريقية .

فبينما بقى الإفريقى على عهده بالفلاحة ، ويختص فى المقام الاول بزراعة الحاصلات الغذائية مثل الذرة ، والدخن ، والبقول والجذور لاستهلاكه الخاص فقد تحول بنجاح كبير إلى انتاج الحاصلات النقدية مثل البن ، والقطن ، والفول السودانى ، والتبغ والأرز ، وكذلك هناك اتجاه متزايد - تشجعه السلطات الحاكمة - نحو تمليك المصانع للإفريقيين وشغل وظائفها بهم . وكذلك لقيت الحركة التعاونية كل تشجيع ، مما ساعـــد على امتدادها وإتساعها ؛ ولعل أهم الهيئات التعاونية هو « اتحاد تسويق القطن بأوغندا » وكذلك « الاتحاد التعاونى بكلمنجارو للوطنيين » فى تنجانيقا . وهنـاك مركز التدريب التعاونى لشرق إفريقيا » ، فى كابيت Kabete فى كينيا ، الذى يفد اليه الطلاب من الأقاليم الأخرى .

وتلعب الماشية دوراً هاما فى الحياة الاقتصادية لشرق افريقيا ، وتعتبر لدى معظم الإفريقيين أعظم أنواع الثروة اقبالا عليها . الا أن توزيع الماشية غير متكافىء على الإطلاق بسبب المناخ وبسبب انتشار ذبابة تسى تسى

وغيرها من الحشرات . وعلى كل ، فإن معظم الأسر الإفريقية تمتلك عدد رؤوس من الماشية اذا ماكان لديها القدرة على ذلك ، أما أولئك الذين لايستطيعون اقتناء الماشية فعادة مايكون لديهم قليل من الماعز . ومن ناحية أخرى ، فإن الماشية لدى الماساى Masai هى تقريباً كل ما لدى القبيلة من ثروة ، وذلك لأن الماساى لايعملون بالزراعة . واذا ما حظيت قبيلة بوجود تنوع فى الإقتصاديات وجدنا المترشية تحتل الصدارة بينها ، فهى التى تمدهم باللحوم ، والألبان ، والنقود حين يعوزهم الأمر .

وفى بعض المناطق أمكن لبعض أصحاب الماشية من الإفريقيين تطوير صناعة الزبد (Ghee) ، وعلى الرغم من مقت الإفريقيين لبيع الماشية فقد تزايد معدل صادرات شرق افريقيا من اللحوم ، ومنتجاتها ، والجلود المدبوغة وغير المدبوغة .

وقد أمكن للفلاحين من الأوربين توليد أنواع من الماشية من الأنواع المستوردة غاية فى الجودة ، وتعرف كينيا بنجاحها الفائق فى صناعة اللحوم والألبان .

ومعظم محصول القرنفل فى العالم يأتى من زنج بار وبمبا Pemba ، ويعتقد بأنه توجد هناك فى الجزيرتين حوالى ٤ مليون شجرة مثمرة . وهناك احتمال كبير بأن يكون القرنفل قد جاء الى زنج بار من موريتيوس Mouritius فى أوائل القرن التاسع عشر ، وقد فرضت زراعته بأمر من السلطان سيد سعيد وقد يصيب زراعة القرنفل ثلاثة أمراض لم يتوصل حتى الآن الى علاج غير واحد منها . على أن اقتصادا يقوم أساساً على هذا المحصول وحده انما هو اقتصاد مهزوز لايركن اليه ، خصوصاً وأن الفرنسيين فى مدغشقر يشجعون زراعته . ولحسن الحظ أنه قد وجد بديل آخر هو جوز الهند ، وتقوم زنج بار بتصدير الكوبرا وزيت جوز الهند على نطاق واسع ،

وتعمل شعوب البحيرات والشعوب الساحلية لشرق إفريقيا بصيد الأسماك منذ وقت بعيد ، ولذلك كانت الأسماك المجففة ـ التى تستخرج من كلا البحر والبحيرات ـ دائما سلعة للتجارة . وقد عمل مسح لكلا المصايد الداخلية والساحلية ، وسوف يساعد تطوير المصايد على إمداد السكان بكل ما يحتاجونه من البروتين ، لاسيما وأن الإمكانيات غاية فى الوفرة والضخامة .

ولا تعتبر أياً من كينيا أو أوغندا من الأقطار التى تنتج المعادن على نطاق واسع . وتستخرج كميات هائلة من رواسب الصودا من ما جادى Magadi فى كينيا أما أوغندا فتصدر القصدير ، والنحاس ، والولفرام Wolfram ، وكميات صغيرة من المعادن الأخرى . وقد تكون المعادن فى تنجانيقا على شيء من الوفرة ، إلا أن تطوير صناعتها على الوجه الصحيح لم يبدأ إلا حديثا . ولعل أكثرها جاذبية هو الماس الذى يستخرج من رواسب موادوى Mwadui لحساب شركة وليامسون المتحدة الماس ، ولكن القطر يحوى كذلك الرصاص ، والذهب ، والصفيح ، والميكا ، والفضة ، والتنجستن ، والملح ، والنحاس وعددا من المعادن الأخرى الأقل أهمية بالإضافة إلى كميات ضخمة من الفحم والحديد .

المواصلات :

تجرى الخطوط الحديدية الرئيسية ، كما هو المتوقع ، من الساحل إلى الداخل حيث تتفرع فى إتجاهات مختلفة . فالسكك الحديدية لكينيا وأوغندا ، التى تبدأ من ممباسا ، أفتتح خطها إلى كيزومو عام ١٩٠١ ، وإلى كامبالا عام ١٩٢٦ ، ثم مدت إلى Kasese على الحدود الغربية لأوغندا عام ١٩٥٦ . وهناك عدد من الخطوط الفرعيه ، كما أنه من المزمع مد بعض

الخطوط التى تتجه شمالا . وتتكون شبكة الخطوط الحديدية لتنجانيقا من ثلاثة خطوط تجرى من تانجا Tanga إلى أروشا Arusha ، ومن دار السلام إلى كيجوما Kigoma ، ومن متوارا Mtwara ، إلى ناشينجويه Nachingwea ويتصل خط تانجا Tanga بالخطوط الحديدية لكينيا عن طريق خط فرعى يجرى من كاهيه Kahe إلى فوا Voi . وهناك فرع يجرى إلى موانزا Mwanza على بحيرة فيكتوريا متفرعاً من خط دار السلام - كيجوما عند طابورا Tabora . وهناك خط فرعى قصير يجرى إلى مناجم الرصاص عند مباندا Mpanda . وقد نظمت هيئة السكك الحديدية لشرق إفريقيا سير خطوط منتظمة للبواخر على البحيرات العظمى فى الداخل .

والموانى الرئيسية على الساحل الشرقى لإفريقيا هى كيليندينى Kilindini على جزيرة ممباسا ، وتانجا ، ودار السلام ثم متوارا Mtwara . وأهم هذه الموانى جميعاً هو ميناء كيليندينى وهو المنفذ والمدخل إلى كل من كينيا وأوغندا ، وكذلك عن طريقه يجرى تصريف حركة النقل فى الطرق الشمالية لتنجانيقا بواسطة الوصلة الحديدية التى تجتاز فوا Voi . وبتحسين الخدمات التى يؤديها هذا الميناء أصبحت الآن كيليندينى صالحة لإستقبال السفن الكبيرة . وتمر بدار السلام نصف تجارة تنجانيقا . وهذا الميناء فسيح بما فيه الكفاية ولكن القناة المؤدية إليه تضيق بمرور السفن الكبيرة ، وذلك لاعوجاجها وضيقها . أما تانجا فيقلل من أهميتها وجود موان مجاورة فى شماليها وجنوبيها . هذه الموانى الواقعة على أرض القارة قد أفقدت زنج بار الكثير من أهميتها السابقة .

ومعظم الطرق فى شرق إفريقيا ترابيـــة متباينة الجودة . ويقال أن أحسن الطرق هى تلك الموجودة فى أوغندا . وطرق من التراب لابد وأن تكون تحت رحمة الطقس ، فكثير منها يتعذر السير عليه فى فصل الأمطار .

وعلى كل ، فقد أجريت فيها تحسينات كبيرة ، كما أضيفت وصلات طويلة للطرق الهامة ورصفت بالأسفلت .

وقد أستخدم النقل الجوى على نطاق واسع جدا قبل الحرب بزمن طويل ، وفى السنوات الأخيرة زيدت الخدمات الجوية وأصبحت تغطى مناطق أوسع . ولا توجد إلا مراكز قليلة ذات أهمية لا تتوافر فيها تسهيلات الهبوط ، بينما نجد الميناء الجوى فى عنتبـــة يعرف باسم « Charing Cross of Africa » بسبب كثرة الخطوط الجوية التى تمر به .

مشكلات حديثة :

إن وجود مجتمع من الأوربيين الآسيويين لا تتكافأ أهميته مع تعداده ، بالإضافة إلى وجود وعى عنصرى عميق لدى الرجل الإفريقى ، قد أديا فى شرق إفريقيا إلى قيام مشكلة سياسية - اجتماعية غاية فى الصعوبة . إنها مشكلة خلق مجتمع متجانس متعدد العناصر من الأقوام المختلفة التى تعيش الآن هناك . وتتمثل هذه الصعوبة بوجه خاص فى كينيا حيث يوجد هناك مجتمع من الوطنيين الأوربيين ، الذين ولدوا ونشأوا فى هذا القطر ، وينظرون إلى كينيا على أنها الوطن ويباهون بالأعمال الهائلة التى أنجزها الاستعمار هناك . ولا مراء فى أن ما أسهم به هؤلاء الأوربيون من أعمال اقتصادية إنما تعد رقما قياسياً بالنسبة لتعدادهم ، وكذلك من الصعوبة بمكان أن ننكر أنهم كانوا فى الماضى - أياً كانت حالهم - طبقة مميزة . وليس من العدل فى شىء القول بأن المصالح الإفريقية ككل قد أهملت كلية . ومع كل ، فإن الأوربيين أصحاب المشاريع الكبيرة ، والآسيويين بدرجة أقل ، قد استطاعوا الوصول إلى مراكز كبيرة من الجاه والثراء بفضل الجهود الغير مثابة على الدوام للقوة العمالية الإفريقية . ويجب ألا يبالغ

المرء فى أى من الحالين . فالإفريقى ، مثلا ، لم يبلغ به الضغط والمضايقة إلى حد الانقراض مثلما حدث للهندى الأمريكى ، ولا هو أضطهد وطورد حتى الموت كما حدث لبوشمان جنوب إفريقيا . ولكنه ، من الناحية الأخرى ، لم يعترف به كمواطن له ما لغيره من الحقوق ، مثل الماورى the Maori ، ولا هو – كما فى نيجيريا – كان وحده محل عطف الهيئة الحاكمة ورعايتها . وكان الاتجاه فى كينيا هو أن يعامل الإفريقى بالرحمة والشفقة الواجبين نحو فتى فى سن المراهقـة ، أو كصبى له نفعه فى المزرعة وفى البيت ، أو كشخص له حيثيته فى « مستعمرته » هو ، ولكن ليس على الإطلاق بالشخص الذى يجلس فى البرلمان أو فى النادى . وكانت النتيجة أنه كان دائماً تبخس مكانته وينزل الحيف بمصالحه ، وأصبحت كينيا تمثل مجتمعاً ذا طبقات ثلاثة يحتل الأوروبيون الطبقة العليا منه ، والإفريقيون السفلى ، والآسيون أى مكان بين الطبقتين . وكان نفس هذا النظام يحمل فى طياته أسباب فنائه هو . ولم يكن فى الإمكان بأية حال أن ينتظر له البقاء إلى أجل غير محدود ، حتى مع التقدم الإفريقى البطىء فى ظروف العشرين سنة الماضية . هذه التغييرات التى لم تكن متوقعة أو التى قدر لإفريقيا أن تشهدها فى السنوات الأخيرة قد حالت دون صمود هذا النظام أمام القومية الإفريقية ، ومع ذلك فإن النظم الجديدة لم تكن لترضى جميع الأطراف . وعلينا أن نضيف هنا كذلك أن الآسيويين يشكلون مجتمعا خاصا ، بالإضافة إلى أنهم قوم محافظون ، متماسكون ، لهم شخصيتهم المستقلة ، وبأيديهم جزء كبير من ثروة القطر ، وليس لديهم الاستعداد لأن يشاركهم فيها أحد . وهم من الناحية السياسية يتطلعون إلى تمثيلهم تمثيلا كاملا فى مجالس الحكم ، ويميل سياسيوهم إلى الاهتمام بالمصالح الطائفية أكثر منه بالمصالح العامة ، ومن ناحية التمثل والتوافق يمثلون مشكلة أعقد بكثير مما يفعل الأوروبيون .

وفى أوغندا نجد أن المشكلة العنصرية مشكلة افريقية آسيوية ، ولا يشكل الأوروبيون أحد جوانبها . فالآسيون ، منذ أمد بعيد ، يشغلون مركزاً كبيراً فى التجارة الصناعة ما كان باستطاعتهم الوصول إليه فى قطر يحكمه الإفريقيون . والصعوبة السياسية تتمثل فى إيجاد أساس للحكم الذاتى الذى من شأنه ، من ناحية ، ألا يؤدى بمملكة أوغندا إلى العزلة ، ومن ناحية أخرى ، أن يضعها فى مركز بارز جداً بين الأقسام الأخرى من الدولة .

أما تنجانيقا فتقع بين كينيا وأوغندا . وتحكم هذا القطر منذ عام ١٩٦٠ حكومة مسئولة ، وسوف يأتى الوقت الذى يحكم فيه حكما ذاتيا(١) . ويبدو ان الأمور هادئة وأن هناك اتجاه متزايد نحو تكوين دولة إفريقية متعددة العناصر يشغل فيها الأوروبيون والإفريقيون المراكز المناسبة . وعلينا أن بالقول بأن هـذا لن يكون تغييراً ثورياً . فالمصالح الإفريقية كانت دائماً أبداً موضع الكثير من القلق والجزع من جانب الحكام الأوروبيين ، وسوف يبين فيما بعد ما إذا كانت تلك المصالح ستكون فى مأمن عند الاستقلال كما كانت فى عهد الوصاية البريطانية .

وفى زنجبار تواجه السيطرة العربية الآن تحدياً كبيراً من الأغلبية الإفريقية ، وسوف يشهد المستقبل هنا – كما فى أى مكان آخر – قيام الإفريقيين بتسلم مراكز الحكم والسلطة (١) .

ونظريا ، فإن انتقال الحكم إلى الإفريقيين ليس فى أى مكان أسهل منه فى رواندا أوروندى . لأنه هنا ، بخلاف الحال فى الكنغو ، توجد طبقة

(١) أصبحت جمهورية مستقلة فى ديسمبر سنة ١٩٦١ واتحدت مع زنجبار سنة ١٩٦٤ بعد استقلالها تحت أسم تانجبار ثم غير الإسم إلى تانزانيا .

(٢) فى أوائل يونية ١٩٦١ وقعت فى زنجبار اشتباكات عنصرية وحشية بين العرب وبين الإفريقيين .

حاكمة تامة الإعداد تتمثل فى الواطوس the Watusi ، لها ملك وراثى ودستور بارع . ولكن السكان الأصليين ـ وهم من البانتو ـ ثاروا فى وجه سادتهم الحاميين ، وهكذا فإنه على الرغم من أن القوات البلجيكية فى عام ١٩٦٠ قد حالت دون وقوع أعنف المصادمات ، فإن النظرة إلى المستقبل ما زالت غير مستقرة (١) .

وبالاختصار ، فإن المشكلة المباشرة لشرق إفريقيا إن هى إلا مشكلة عنصرية ، مشكلة العلاقات بين الإفريقيين والأقليات المهاجرة من أوربيين وآسيويين . وحيث أن وجود هذه الأقليات يعد غاية فى الأهمية بالنسبة للإقتصاد فإنه من الأهمية بمكان إيجاد حل لهذه المشكلة .

(١) فى نهاية يناير ١٩٦١ أفادت التقارير الواردة من رواندا أن الملك قد خلع وأن الجمهورية قد أعلنت . وذكر أيضا أن رواندا ستستمر فى اعترافها بإجراءات الوصاية التى اتخذت من قبل هيئة الأمم المتحدة «وقد أصبحت جمهورية مستقلة فى سبتمبر سنة ١٩٦١» .

الفصل الرابع

القرن الإفريقى

The Horn of Africa

الصومال

Somaliland

هناك ، فى وسط المياه ، عند نقطـة التقاء خليج عدن مع المحيط الهندى ، يقوم بروز هائل ، يطل على خليج صغير تقبع فيه قرية فقيرة يعمل أهلوها بصيد الأسماك ، ويشكل خطراً كبيراً على الملاحة لكثرة الرياح والتيارات ، تلك هى رأس غردفوى Cape Guardafuia ؛ وهى علامة مميزة تستلفت أنظار المسافرين ، لأنها تشكل أقصى الحافة الشرقية من إفريقيا . وفضلا عن ذلك فهى تمثل رأس الصومال Somaliland .

تاريخه :

ترجع صلة البريطانيين بالصومال إلى أوائل القرن التاسع عشر حين جاءت شركة الهند الشرقية تبحث عن ميناء آمن لسفنها على الشواطىء الجنوبية لخليج عدن . وفى عام ١٨٧٤ — ١٨٧٥ أدعى خديوى مصر حق الاختصاص والولاية على معظم الساحل الصومالى ، وهكذا جاءت قوات مصرية لتحتل الموانى الرئيسية ، ولكن ما أن انسحبت الحاميات المصرية فى عام ١٨٨٤ حتى احتل البريطانيون زيلع ، بربرة ، وبولهار Bulhar ، وذلك لأن هذه الأماكن كانت تقع على الطريق المؤدى إلى الشرق . وقد

دعم البريطانيون احتلالهم للصومال، ابتداء من ١٨٩٩، بتوجيه حملات ضد محمد بن عبد الله — وكان يدعى بالملا المجنون (أى الزعيم الروحى المجنون) «Mad Mullah» — الذى كان قد جمع حوله عدداً كبيراً من الاتباع المتعصبين واستطاع السيطرة على داخل القطر لمدة عشرين سنة ظلت الإدارة البريطانية فى أثنائها مقصورة على الساحل فقط، ولم يحدث حتى عام ١٩٢٠ - حين هزم الملا وطرد خارج البلاد ثم مات بعد ذلك فى إثيوبيا — أن أصبح فى الإمكان حكم القطر بشكل طبيعى. وفى السنوات ما بين الحربين العالميتين صادف المسئولون بعض النجاح فى إدخال الإدارة الحديثة إلى شعب مستقل غاية فى الظنة. وكان أن ازداد تعداد السكان وتعداد الماشية، ونمت التجارة بعض الشيء. وفى عام ١٩٤٠ اجتاح الإيطاليون الصومال البريطانى، ولكن أعيد غزوه مرة أخرى فى السنة التالية.

وفى عام ١٨٨٩، وبمقتضى معاهدات عقدت مع السلاطين الصوماليين، واتفاقيات مع بريطانيا العظمى وزنجبار وإثيوبيا، أصبح الساحل شرق الصومال البريطانى من نصيب الإيطاليين. وبعد ذلك بثلاث سنوات قام سلطان زنجبار بتأجير موانى البنادر Banadir إلى إيطاليا، ثم ما لبث أن باعها إليها فى عام ١٩٠٥. ثم حصلت إيطاليا على الأراضى الداخلية المتاخمة من الإمبراطور منيليك Menelik إمبراطور إثيوبيا فى عام ١٩٠٨، وعلى جوبا بتنازل بريطانيا العظمى عنها فى عام ١٩٢٤. وفى عام ١٩٤١ قامت قوات إمبريالية بريطانية كانت تعمل فى شرق إفريقيا بغزو الصومال الإيطالى بسرعة، وظل تحت الاحتلال البريطانى حتى نهاية الحرب.

أما الصومال الفرنسى فيقع إلى الغرب من المحمية البريطانية. وكانت

فرنسا قد أخذت مدينتى أمبابو Ambabo وأبوك Obok فى عام ١٨٥٦، ولكن هذا التملك لم يأخذ صبغة رسمية حتى عام ١٨٨٣. وفى السنوات التالية أصبح فى حوزتها كذلك كل خليج تاجورا Tajura بمقتضى معاهدة عقدتها مع السلاطين الصوماليين. وانتقل مقر الحكم من أبوك Obok إلى جيبوتى عام ١٨٩٦.

وفى نهاية الحرب العالمية الثانية اقترح البريطانيون بأن يؤول معظم القطر الذى يشغله الصوماليون إلى إدارة واحدة إما بريطانية أو وصاية دولية. ولبعض الأسباب خذلت الشعوب الأخرى هذا الاقتراح. وبدلا منه وضع الصومال الإيطالى سابقاً Somaliland، والذى أصبح يسمى صومالياً Somalia، تحت الوصايا الإيطالية مع وعد بالاستقلال فى عام ١٩٦٠. وفى نفس الوقت قامت الحكومة البريطانية بتشجيع التقدم السياسى والاقتصادى للمحمية. وقبل الصوماليون للمرة الأولى وجود المدارس، وأخذ الطب الأوربى يلقى حظاً من التقدير، ثم شكلت فيما بعد عدة مجالس أثارت فى الصوماليين الرغبة فى الاشتراك بدور أكثر مسئولية فى حكم أنفسهم. ولما اقترب موعد استقلال صوماليا ازدادت لهفة شعب المحمية نحو تحقيق الحكم الذاتى فى نفس الوقت وذلك حتى يتحد الإقليمان فى شعب واحد. ووافقت الحكومة البريطانية على سحب حمايتها، وفى عام ١٩٦٠ اتحدت صوماليا مع المحمية البريطانية السابقة ليشكلا جمهوريه الصومال المستقله.

منطقة الهود : The Haud

لقد أدى إلى تعقيد المشكلة الإقليمية تلك المسألة التاريخية المنكودة، فى عام ١٨٩٧ عقدت بريطانيا العظمى مع إثيوبيا معاهدة لتحديد الحدود

الفاصلة بين إثيوبيا والصومال البريطانى . ولقد تحقق وقتئذ أن الحدود كانت تخترق أراضى الرعى المسماه بالهود Haud التى كان يستخدمها الصوماليون منذ زمن سحيق ، وعلى ذلك فقد ألحقت بالمعاهدة بنود تضمن استمرار انتفاع الصوماليين بهذه المنطقة . وبقى الصوماليون لا يعلمون من أمر هذه الترتيبات شيئاً إلى أن قامت لجنة (١٩٣١ - ١٩٣٥) لتحديد الحدود الفاصلة بينهم وبين إثيوبيا . وحتى فى ذلك الحين لقد جنبهم أسوأ نتائج المعاهدة حدوث الغزو الإيطالى للحبشة ، الذى أصبحت بعده منطقة الهود تحكم كجزء من الصومال الإيطالى ، وبهذه الكيفية بقيت متاحة لانتفاع الصوماليين بها . واستمرت الحال كذلك أيام الإدارات العسكرية البريطانية التى كانت تشكل وقتياً لحكم المستعمرات الإيطالية التى وقعت فريسة للغزو أثناء الحرب العالمية الثانية . ولكن فى عام ١٩٥٤ ، وكطلب الحكومة الإثيوبية ، أعيدت منطقة الهود إلى السيادة الإثيوبية وكانت الاتفاقية الأنجلو - إثيوبية لعام ١٩٥٤ تؤيد ما جاء بمعاهدة ١٨٩٧ وتؤكد حق صوماليى المحمية فى استخدام مناطق الرعى ، وكذلك نصت على أحقية بريطانيا فى حماية القبائل إذا كانوا فى إثيوبيا . وسرعان ما بدا شبح انهيار هذه الضمانات ، وجاء الصوماليون فى المحمية ليعقدو العزم على العمل لضم منطقة الهود ، بأية وسيلة ، إلى الصومال الموحد توحيداً كاملا ، والذى سيشمل فى هذه الحالة الصومال الفرنسى وأجزاء من شمال كينيا حيث يعيش عدد كبير من الصوماليين . وجاء الإثيوبيون ، من الناحية الأخرى - خوفاً من تطويق المسلمين إياهم - ليرفضوا فكرة التنازل عن أى جزء من من منطقة الهود وادعوا بأن كل القبائل الصومالية التى تنتفع بها إن هى إلا من الرعايا الإثيوبيين ، ورفضت الحكومة الفرنسية ضم الصومال الفرنسى إلى أى اتحاد صومالى ، أما كينيا فلم تكن على استعداد للموافقة

على انفصال الأقاليم الشمالية عنها . وقد تبقى مشكلة منطقة الهود مثارا للشقاق بين الصوماليين والإثيوبيين حتى يتيسر الوصول إلى حل مرض .

القطر .

يشكل الصومال مثلثاً ذا جوانب غير مستوية رأســه عند كيب غردفوى Cape Guardafui . فأما الجانب الشمالى المثلث فيجرى لمسافة ٦٠٠ ميل على طول الشاطىء الجنوبى لخليج عدن ، وأما الجانب الشرقى فيبلغ طوله الضعف ويمتد من رأس غردفوى نحو الجنوب إلى حدود كينيا . ويتراوح الإتساع فى الداخل بين ٢٠٠ - ٢٥٠ ميلا ، وتبلغ المساحة الكلية أكثر من ٢٧٠ر٠٠٠ ميل مربع . والقطر عموما قاحل لا يشجع على البقاء فيه ، والقسم الشمالى أكثر جدبا من الجنوب كما أن الساحل أكثر جدبا من الهضبة الوسطى والجهات المرتفعة الداخلية . والحاجة إلى المياه هى الطابع المميز للمنطقة ، ويتضح هذا على وجه الخصوص فى الشمال حيث تكون المجارى المائية عادة جافة ولاتجرى فيها المياه إلا أثناء أو بعد المطر مباشرة وفى الجنوب فقط يوجد نهران يجريان على الدوام هما وبى شيبلى Webi Shebeli وجوبا Juba . ولا يصل منهما إلى البحر غير نهر جوبا ، أما وبى شيبلى فسرعان ما يتلاش فى الرمال والمستنقعات الموجودة فى الدخل . وبالنسبة لباقى الإقليم فإن السكان يعتمدون على نظام الآبار المتناثرة هنا وهناك ، والتى هى أكثر تقاربا وكثافة فى الجنوب منه فى الشمال .

من هذا الوصف يستنتج القارىء أن النبات عموما قليلة الكثافة ، وفى كثير فى الأمكنة تتكون من النباتات النحيلة والحشائش القصــيرة التى تنمو مع سقوط المطر . وعلى كل ، فإن الأشجار والحشائش تنمو

بوفرة كلما إقتربنا من المرتفعات الإثيوبية ، أما الهضبة الوسطى فتغطيها شجيرات كثيفة بعض الشىء وحشائش عالية .

الاقتصاديات :

تعتمد اقتصاديات هذا القطر أساسا على الماشية التى أهمها الجمل . فهو يمدهم بألبانه ولحومه وجلوده . وكذلك يشكل الجمل فى الوقت الحاضر الوسيلة الضرورية للنقل التى تتفق وأسلوب السكان فى الحياة . وتشتهر الأغنام الصومالية بجلودها ولحومها الجيدة . أما الماعز فمن نوع ضامر شديد التحمل ، تتلاءم حالته مع الأحوال الجافة التى يعيش فيها . وتشكل جلود الأغنام والماعز سلعة تصديرية لها قيمتها .

أما الموارد الاقتصادية الأخرى للصومال فطفيفة . فهناك الأنواع العديدة من الصمغ والراتنج فى الجزء الشمالى الشرقى من القطر ، وتستخرج الألياف من أعواد الصبر ، كما أن الأسماك تشكل صناعة محلية هامة . ولم يثبت حتى الآن وجود أية معادن ، ولكن مما لاشك فيه أن الموقف سيتغير كلية إذا ما أثبت التنقيب عن البترول جدواه . وقد إهتم الإيطاليون — فى الفترة القصيرة لإحتلالهم صوماليا — بتنمية زراعة القطن ، والموز ، وقصب السكر ، والذرة ، ولكن — عموما — فإن الزراعة تجرى فوق المرتفعات فيما عدا فى بعض المناطق التى تعد ظروفها مواتية بنوع خاص .

السكان :

كان توزيع السكان الصوماليين فى الأقسام السياسية الخمسة السابقة على وجه التقريب كما يلى :

صوماليا (الإيطالية سابقا)	١ر٣٠٠ر٠٠٠	نسمة

محمية الصومال (بريطانية)	٦٥٠ر٠٠٠	نسمة
مديرية أوجادن Ogaden التابعة لإثيوبيا	٣٠٠ر٠٠٠	»
مديرية الحدود الشمالية التابعة لكينيا	٧٠ر٠٠٠	»
الصومال الفرنسى	٢٥ر٠٠٠	»

والصوماليون حاميون شرقيون ، طوال القامة ، شكلهم وسيم ، ذوو كبرياء ، سريعو الغضب . وهم مسلمون حقاً من أنصار السنة . وأما من الناحية السياسية فهم ينقسمون إلى مجموعات قبلية ، وقبائل ، وقبائل فرعية ، وعشائر . وعلى رأس هذه الأقسام يوجد السلاطين والزعماء ، وتخضع العشيرة — التى قد تتكون من عدة أسر — للنظام الأبوى Patriarchal وكذلك يبين النظام الإجتماعى الصومالى عن وجود أقسام طبقية تامة التحديد ، فهناك رجال الدين الذين يحظون بكل تبجيل ، ويليهم بعد ذلك التجار الأثرياء ، ثم العسكريون والفلاحون الأثرياء ، ثم بعد ذلك رجال القبائل والرعاة . أما أحط الطبقات الإجتماعية فهى القبائل الطريدة outcast وطبقة الحدادين ، والمشتغلين بالجلود ، والصيادين ، والكناسين وجامعى القمامة ، الذين ، على الرغم من أنهم طبقة محتقرة ، إلا أن لهم خصائص معينة فيما يختص بالطقوس الدينية والسحر وتسكن المدن الساحلية طبقة حضرية urban ، وبين هؤلاء يوجد بشكل واضح ثوران وغليان سياسى شبيه بالغربى . وبين السكان الذين يعيشون فى الداخل عيشة رعوية خاصة والذين تلهيهم لقمة العيش عن أى شىء آخر نجد أن الانفعالات السياسية قبلية إلى حد كبير .

وطريقة الحياة لدى الصوماليين إنما تمليها الأحوال التى يعيشون فيها . فالمرعى نحيل قليل الكثافة والماء غير كاف . وليس فى الإمكان ممارسة الزراعة إلا فى مناطق قليلة فقط . ففى معظم الأحوال يعتمد الصومالى فى

معيشته على إبله ، وماعزه ، وأغنامه . وعلى ذلك فهو يعيش معيشة القبائل الرحل ، دائم التنقل بقطعانه ليفيد بقدر المستطاع مما يصادفه من مياه ومرعى . وكذلك فقد تتأثر دورة التنقل هـذه nomadic cycle بالمرض والحروب القبلية ، والحواجز الطبيعية وعوامل عديدة أخرى ، ولكن أهمها جميعاً العشب والماء .

وليس كل الصوماليين يبقون فى الصومال على الدوام . فهناك الكثيرون منهم فى عدن يشتغلون كعمال ، وفى شرق إفريقيا كتجار الماشية . وكذلك لهم مستعمرات بأكملها فى كثير من موانى الجزر البريطانية كما أن الملاحين الصوماليين منتشرون فى كل أنحاء العالم . وهم جنس صعب المراس ، شديد التحمل ، أنهم الأبناء الحقيقيون للأرض الصعبة الجافة التى أنبتتهم .

والأوروبيون ، بسيطرتهم على المرض من ناحية وقمعهم للحروب القبلية من ناحية أخرى ، قد قضوا على ذلك التوازن المتقلقل بين السكان والحيوان وبين الموارد الطبيعية . فالإنسان والحيوان قد تزايدت أعدادهما ولكن دون حدوث زيادة مماثلة فى الماء والمرعى . وهكذا جاء القطر الآن لتنوء مراعيه بكاهل الحيوانات وما أعقب ذلك من تفتت وتعرية للتربة وما قد يكون لها من مضاعفات . ويبدو أن العلاج الوحيد هو إنقاص عدد الماشية بشكل فعال والحد من الرعى بشدة . وقد نكون مغالين فى التفاؤل إذا قلنا إن واحدا من هذين الإجراءين سوف يتخذ بصورة فعالة فى المستقبل القريب .

المستقبل:

لقد خطى الصوماليون بناحية لم تحظ بها كثير من الشعوب الإفريقية التى تحقق لها الإستقلال بالفعل ، أو تأمل أن يتحقق لها فى السنوات القليلة

القادمة . فعلى الرغم من وجود إنقسامات داخلية عميقة فإنه يوجد بينهم نوع من الوحـــدة مرجعه الشعور بالقومية ، ونوع من « الصومالية » Somali-dom ، ثم إيمان دينى قوى شائع بينهم . أما إلى أى مدى يمكن لهذا النوع من الوعى القومى أن يضمن ولاء السكان فى الداخل لحكومة سوف تخضع منذ البداية دون شك لسيطرة الطليعة المثقفة من الشباب فى المدن الساحلية ، فهذا مالا يمكن التكهن به . ولكنه على الأقل سيؤدى بكل الصوماليين إلى الأتحاد ضـــد أية محاولة من جانب الشعوب الأخرى لإقحام نفسها فى الصومال بعد أن تم إنسحاب الحكومات الأوروبية السابقة .

ولعل أكبر عقبة فى سبيل تقدم هـذا القطر الذى ظهر حديثاً إنما هو الفقر . فإذا لم يكتشف البترول فلا أمل فى وجود موارد يمكن أن تقوم عليها دولة حديثة حية . ومع أن الصومال قد حقق استقلاله السياسى فإنه مازال من الناحية الاقتصادية يعتمد على المعونة الخارجيه ، وقد توصل فى هذا الصدد إلى عقد إتفاقيات مواتية جداً مع كل من الحكومات البريطانية والأمريكية والإيطالية . ومن المفيد أن يستمر العمل بهذه الإتفاقيات طالما أن اقتصاد الجمهورية الجديدة هو فى حاجة إليها .

وقد حصل الصومال بالفعل على معونة من نوع سياسى من مصر ، التى أبانت عن اهتمامها بهذه المنطقة ، وكذلك بالمثل أعلنت روسيا عن اهتمامها بالأقليم . ومن المأمول أن يتروى الصوماليون فى إختيار أولئك الذين يمدونهم بالمعونة اللازمة .

إثيوبيا

Ethiopia

تتكون إثيوبيا الحديثة من هضبة جبلية تفصل حوض النيل عن القرن الإفريقى، مع وجود هضبات أقل ارتفاعا تنحدر نحو سهول الصومال ومنطقة الحدود الشمالية لكينيا. والجبال أصلها بركانى يبلغ إرتفاع أعلاها أكثر من ١٥٫٠٠٠ قدم، أما الهضبة فتتخللها وديان وشقوق عميقة. وأما وادى الصدع Rift Valley فيفصل هضبة إثيوبيا عن الهضبة الشرقية للصوماليين والجالا the Galla ويشكل حوضا مستطيلا تحتله سلسلة من البحيرات حتى بحيرة رودلف، ثم يمتد بعد ذلك إلى شرق إفريقيا. وعاصمة إثيوبيا هى أديس أبابا التى تقع فى قلب المرتفعات على إرتفاع ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر.

وتنقسم هضبة إثيوبيا إلى ثلاث مناطق. أولاها منطقة القلة Quolla التى يتراوح إرتفاعها بين ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ قدم وتشمل المنحدرات السفلى وقيعان الوديان. يلى ذلك منطقة وينا دجا Woyna Dega (مرتفعات الكروم)، وهى منطقة متوسطه يبلغ إرتفاعها حوالى ٨٠٠٠ قدم وهى أشد المناطق الثلاث إزدحاما بالسكان. وأعلى هذه المناطق جميعاً منطقة الدجا Dega، وهى منطقة مكشوفة يكسوها العشب ويتراوح ارتفاعها بين ٨٠٠٠ - ١٣٠٠٠ أو ١٤٠٠٠ قدم. وتتباين درجات الحرارة تبعاً للارتفاع، ولكن عموماً فإن الهضبة الإثيوبية تعد ألطف منطقة فى شمال شرق إفريقيا ولو أن وديانها العميقة حارة جدا. والقطر فى جنوب شرق الصدع ذو مناخ مشابه إلى حد ما ولكنه أشد حرارة بعض الشىء، بينما نجد أن الهضبة الداخلية السفلى التى تحف بالساحل الصومالى غاية فى الحرارة والجفاف. ومعظم أنهار الهضبة تجرى غرباً لتصب فى الروافد

الكبيرة لنهر النيل. وأهمها جميعاً النيل الأزرق ذو الخزان الطبيعى، وبحيرة تانا فى وسط الجبال الإثيوبية. وأهم نهر يجرى شرقا هو نهر هواش Hawash.

تاريخها:

فى حوالى أوائل عام ١٠٠٠ ق. م.، عبرت البحر الأحمر أقوام من الساميين من جنوب شبه الجزيرة العربية وهم أحفاد سبأ التى إزدهرت قبل ظهور الإسلام، وجاءوا ليحتلوا أجزاء من القرن الإفريقى. وكان الشعب الذى وجدوه هناك من الحاميين الشرقيين Eastern Hamites الذين كانوا بالفعل يحتلون الإقليم بعد أن تم لهم طرد أسلافهم الزنوج إلى الحدود الغربية لإثيوبيا الحديثة. وأقام السبئيون على الهضبة حيث خلدوا حضارة عريقة جاءوا بها من الجزيرة العربية، وهكذا كان لهم تأثير عميق على ثقافة ولغة الحاميين المحليين الذين إمتزجوا معهم. وكانت ثمرة هذا الاستعمار السامى ظهور مملكة أكسوم Aksum فى شمال إثيوبيا، التى بلغت أوج هيبتها وإنتاجها فى القرن الرابع الميلادى.

ولكى نوضح ما قد يكون هناك من غموض فى التسمية علينا أن نبادر بالقول بأن لفظة «إثيوبيا»، أصلا، هى التسمية التى أطلقها الإغريق على تلك المنطقة الشاسعة غير المعروفة الواقعة فى جنوب مصر، وهى بلاد الكوش Cush أيام القدماء المصرين، ثم فيما بعد النوبة فى العصر الرومانى. ولم تستخدم بالنسبة لاكسوم Aksum إلا بعد ذلك، ثم أطلقت على بقية الهضبة وأصبحت الإسم الرسمى للمملكة بأسرها فى عام ١٩٤١. أما التسمية المرادفة وهى «الحبشة» Abyssinia، فقد أشتقت من كلمة Habashat، وهى إسم قبيلة عربية كانت تعيش على الساحل المقابل للبحر الأحمر.

وقد إنتقلت المسيحية إلى إثيوبيا فى القرن الرابع ، وما أن حل القرن السابع حتى كان الإنجيل قد ترجم إلى الإثيوبية أو الحجازية Ge'ez وهى لغة سامية قريبة الشبه بالعبرية والعربية ولكنها أوثق إرتباطا بلغة سبأ(١). وقد بطل شيوع الحجازية Ge'ez كلغة كلامية منذ عدة قرون ، وبقيت كلغة أدبية وكلغة للطقوس الدينية فى الكنيسة . والمسيحية الإثيوبية تعتقد بأن للمسيح طبيعة واحدة monophysite ، وترتبط إرتباطا وثيقاً بالكنيسة القبطية فى مصر .

وإبتداء من حوالى القرن الثامن أدى تزايد إنتشار الإسلام إلى عزل إثيوبيا عن بقية العالم الخارجى ، فأصبحت أشبه شىء بجزيرة مسيحية وسط بحر من الإسلام . ثم أفل نجم اكسوم وضاعت عظمتها وانتقل مركز السلطة السياسية إلى الجنوب ، إلى آمهرا Amhara ، ولاستا Lasta ، وأخيرا إلى شوا Shoa . وإنتقلت اللغة والثقافة السامية إلى الأجزاء الوسطى والجنوبية من الهضبة الإثيوبية ، وفى الوقت الذى كان فيه الإسلام ينتشر سريعا فى الجهات الوطيئة ، كانت المسيحية تنتشر فى الجهات المرتفعة . ومع أن اليونانيين فى مصر كانوا يرسلون بتجارتها جنوبا على طول ساحل البحر الأحمر أيام البطالمة ، وأن النفوذ اليونانى كان قد إنتشر فى الداخل حتى آكسوم فإن أول من وصل إلى هذا القطر الغامض النائى من الأوربيين الغربيين هم البرتغاليون ، الذين جذبهم إليه ما ترامى إليهم من أقاصيص عن ذلك الملك الخرافى المسيحى Prester John . ولقد أدوا للإثيوبيين مساعدة حين فى ابعاد المسلمين الذين غزوا القطر فى القرن السادس عشر ، ولكن المحاولات التى بذلها الإرساليون اليسوعيون لتحويل الإثيوبيين إلى

(١) تنسب التسمية إلى الحجازية Agazian ، وهم — مثل الحبش Habzshat — قبيلة عربية كانت تسكن ساحل البحر الأحمر المواجه لإثيوبيا .

العقيدة الكاثوليكية قد باءت كلها بالفشل . وما إن تم لهم ابعاد المسلمين حتى دهمهم خطر جديد يتهدد المسلمين والمسيحيين على السواء ، ما كان باستطاعة أيهما مواجهته بعد أن أضعفتهما الحرب وكان ذلك الخطر يتمثل فى غزو القطر من جانب الجالا galla الذين إجتاحوا الأجزاء الجنوبية والشرقية من الهضبة ولم يتركوا للإثيوبيين سوى الجهات المرتفعة الشمالية ، التى هى منطقة مملكة آكسوم القديمة . ثم أعقب ذلك مرور فترة من الفوضى لا مثيل لها . فالحاكم الإسمى للقطر ، بينما هو إحتفظ لنفسه باللقب القديم Negusa nagast (أى نجاشى الأنجاش أو ملك الملوك) ، فإنه لم يكن له غير القليل من السلطة على زعماء كانوا يعدون مستقلين إلى حد كبير . وهكذا جاءت الفترة من ١٧٦٩ - ١٨٥٥ لتدعى عند الإثيوبيين mafasent ، أى القضاة لأنها كانت أشبه شىء بعصر التوراه حين لم يكن هناك فى إسرائيل ملك ، وكان كل فرد يأتى من الأعمال ما يراه هو صوابا . وكان ممن زاروا إثيوبيا من الأوروبيين إبتداء من أواخر القرن السابع عشر فصاعدا العالم الفيزيقى الفرنسى بونسيه Poncet (١٦٩٩) ، وجيمس بروس James Bruce (١٧٦٩ - ١٧٧٢) ، والبعثة المكونة من لورد فالنسيا وهنرى سولت Valencia & Henry Salt (١٨٠٥) ، ثم بعد ذلك هنرى سولت وحده (١٨٠٩) ، ثم الأخوان الفرنسيان عبادى d'Abbadie (١٨٣٨ - ١٨٤٨) اللذان أمكنهما جميع الكثير من المادة العلمية فى مجالات مختلفة من الدراسة . وفى عام ١٨٥٤ قام ريتشارد برتون Richard Berton برحلته الصعبة الخطرة إلى هرر .

وفى عام ١٨٥٥ قام نبيل قمىء يدعى كاسا Kassa بالإستيلاء على السلطة وتوج « ملك الملوك » تحت اسم تيودور Theodore . وكان رجلا بارعا استطاع فى وقت قصير أن يوحد القطر ، وأن يخمد ثائرة النبلاء الثائرين ،

وأن يبعث فى الشعب من جديد روحه وأمله فى الحياة وأن يجدد من وطنيته وحماسه الدينى . ولسوء الحظ أن قدرته وذكاءه كانا يقسمان بعنف فى السلوك يقارب الجنون . وهذا هو ما أدى أخيراً إلى تحول شعبه عنه ثم إسقاطه بعد ذلك . وفى عام ١٨٦٤ ، وبسبب شكوكه وهياجه العصبى ، رمى فى السجن ليس فقط بجماعة من البريطانيين بما فيهم القنصل البريطانى نفسه ولكن كذلك بأولئك الذين أوفدوا لإطلاق سراح المعتقلين . ولما استنفدت كل الوسائل الوصول إلى حل سلمى أرسلت حملة بريطانية بقيادة سير روبرت نابير Sir Robert Napiér بغية إطلاق سراح المسجونين . وقصفت المدفعية مدينة ماجدالا Magdaia مقر حكم تيودور ، فسقطت فى ١٣ أبريل ١٨٠٨ وانتحر الملك بعد أن أطلق سراح المعتقلين البريطانيين .

وبعد أربع سنوات من الحرب الأهلية استطاع أحد النبلاء من الشمال ـ وكان يدعى كاسا كذلك ـ أن يتوج نفسه نجاشى الأنجاش Negusa Nagast تحت اسم جون John ، وقد ارتبط ارتقاؤه العرش بعودة التاج إلى موطن مملكة أكسوم . وكان جون إبناً مخلصاً للكنيسة إلى حد التعصب ومحارباً بارعاً استطاع إحباط محاولتين مصريتين لغزو القطر ولو أنه فشل فى حربه عام ١٨٨٩ ضد المهديين فى السودان . وخلفه فى الحكم منيليك Menelik ، ملك شوا Shoa . الذى جوبه بتهديد أشد خطراً من تهديد المصريين أو المهديين . ففى عام ١٨٨٢ استطاع الإيطاليون دخول Assab ثم بدأو ينتشرون فى الداخل . وسرعان ما أخذوا يحصنون أنفسهم فى إرتريا ، وما أن جاء عام ١٨٩٠ حتى كانوا قد وطدوا مركزهم حول أسمرة فى أقصى الشمال من الهضبة الإثيوبية . وكان أول عمل قام به منيليك بعد توليه العرش دخوله فى مفاوضات مع الإيطاليين لعقد معاهدة أوكالى

Uckaali ، ولكنهم اعتبروا أن هذه المعاهدة تعطيهم حق الإشراف على السياسة الإثيوبية الخارجية ، وكان من الطبيعى أن يرفض منيليك تفسير المعاهدة على هذا النحو . وفى عام ١٨٩٥ توغل الإيطاليون فى إثيوبيا واحتلوا عدوه Adwa . وفى السنة التالية هاجمهم منيليك بجيش كبير وطاردهم بشدة مكبداً إياهم خسائر فادحة . ورغم ذلك فقد بقيت إرتريا فى أيدى الإيطاليين بمقتضى معاهدة الصلح التى عقدت حينذاك .

وقد أثار النصر فى عدوه اهتمام الدول الأوروبية الكبرى واسترعى انتباهها نحو منيليك ، وهكذا أرسل الكثير منها بمبعوثيها الدبلوماسيين إلى إثيوبيا . وما أن استراح منيليك من التهديدات الخارجية حتى استأنف من جديد العمل الذى كان قد بدأه قبل توليه العرش ، ألا وهو امتصاص إمبراطوريته الجالا . ومات فى عام ١٨١٣ ليخلفه فى الحكم مجلس الوصاية على العرش ، ثم بعد ذلك ليج ياسو Lej yasu ، وهو شاب لم يسترح إليه النبلاء فأسقط فى عام ١٩١٦ . ثم أعان بعد ذلك قيام حكم الإمبراطورة زاوديتو Zauditu إبنة منيليك ، وأصبح الراس تافارى Tafari ، إبن ماكونن ـ إبن عم منيليك ـ ولياً للعهد ووارثاً للعرش . ونشبت الحرب حين جهز والد Lej yasu جيشاً لمساعدة إبنه . وقضى على الثورة ومات ليج ياسو ، الذى لم يكن قد وقع فى الأسر حتى عام ١٩٢١ ، سجيناً مكبلا بالأغلال فى عام ١٩٣٥ .

وفى عام ١٩٢٨ حاز الراس تافارى Tafari على لقب نجاشى Negus ، وفى عام ١٩٣٠ ـ عند موت زاوديتو Zauditu ـ توج إمبراطوراً تحت إسم الإمبراطور هيلاسلاسى . وكان بالفعل قد أبان عن مهارة دبلوماسية فائقة حين ترأس وفد إثيوبيا فى عام ١٩٢٣ فى مفاوضات دخولها عصبة الأمم .

وفى عام ١٩٣٦ أدى حادث قرية وال وال Wal Wal على الحدود إلى الدخول فى حرب ضد إيطاليا انتهت بغزو الإيطاليين لإثيوبيا . وهرب هيلا سيلاسى إلى خارج البلاد حيث عاش فترة من الزمن أولا فى فلسطين، ثم فى انجلترا ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى العرش فى عام ١٩٤١ عند تحرير إثيوبيا بواسطة القوات الإمبريالية البريطانية .

السكان :

باستثناء الزنوج الذين يشغلون مناطق الحدود الجنوبية والغربية ، فإن سكان إثيوبيا هم أصلا من الجنس الحامى ، ويمكن تقسيمهم إلى قسمين . فهناك ، أولا ، الإثيوبيون الأنقياء ، وهم أقباط مسيحيون يعيشون على مرتفعات الهضبة الوسطى ، وقد تحولو إلى السامية بحكم امتزاجهم قديماً مع العرب ويتكلمون اللغة السامية . وثانياً ، الحاميون ، وهم بعيدون نسبياً عن التأثير السامى ، معظمهم يدين بالإسلام ، وغالبيتهم يتكلمون اللغة الحامية ، ويعيشون فى منطقة أوسع بكثير تقع أسفل الهضبة الوسطى هذه صورة مبسطة كثيراً لموقف يعد غاية فى التعقيد . وليس ثمة قسم نقى من هذه الأقسام ، فكل منها قد امتزج كثيراً بأى من الأقسام الأخرى ، أو بالزنوج بحيث أصبح من العسير إعطاء أية تحديدات واضحة . وثمة طائفة لا تتسق مع أى من هذه الأقسام . ألا وهى طائفة الفالاشا Falasha ، الذين كان يعتقد فيهم سابقاً أنهم يهود سود، ولكن أولندورف Ullendorf يعتقد بأنهم من سلالة تلك العناصر الموجودة فى مملكة أكسوم، التى كانت تقف ضد التحول إلى المسيحية . ولم يحدث فى إثيوبيا أن جرى احصاء للسكان ، ولكن التقديرات التى أعطت تتراوح بين ١٠-١٨ مليون نسمة أما الرقم الحقيقى فهو ما بين هذين الطرفين . .

واللغة الرسمية فى اثيوبيا هى اللغة الأمهرية Amharic ، نسبة إلى اقليم أمهره Amhara ، التى كانت لقرون عدة لغة القصر ولغة معظم السكان فى المرتفعات الوسطى . وهى تمثل التطور الجنوبى للحجازية ، بعد أن تأثرت بشدة بالعناصر الحامية مما حدا ببعض الناس إلى الإدعاء بأنها ليست سامية على الاطلاق . وأقرب اللغات إلى الحجازية هى التيجرينيا The Tigrinia التى يتكلمون بها فى ذلك القطر المماثل لمملكة اكسوم أما اللغة التجرية The Tigré فهى نوع من التجرينيا ويتكلمها فى شمال الأراضى الوطيئة . وتقريباً كل الذين يتكلمون اللغة التجرية من المسلمين(١) .

والمسيحية هى مصدر الإلهام الرئيسى للأدب الإثيوبى . وباستثناء المؤلفات الدينية ، التى غالباً ما تكون ترجمات عن العربية أو اليونانية ، فإن علم تدوين التاريخ historiography يشكل الفرع الرئيسى من الأدب القديم . وهناك عدد كبير من أسفار القرون الوسطى ، وكذلك من الروايات التاريخية التى أشهرها ، الكبرا ناجاست ، the Kebra Nagast (أى أمجاد الملوك) . وهذه المجموعة القومية تشمل أسطورة ملكة سبأ ، وكيف أنها زارت الملك سليمان وأنجبت له ولداً هو مينيليك مؤسس الأسرة الملكية الإثيوبية . ولقد لقى استخدام الأمهرية بدلا من الحجازية كلغة للأدب تشجيعاً كبيراً من الإمبراطور تيودور ، ومن ثم كان إنتاج عدد كبير من الكتب بهذه اللغة فى السنوات الأخيرة .

---

(١) جاء Ullendorff لبوضح العلاقه بين هذه اللغات بأن الحجازية Th Ge'ez تطابق اللاتينيه ، وفى هذه الحالة فان التيجرينيا ستطابق الإيطاليه ، والتجريه Th Tigré الأسبانيه والأمهريه الفرنسيه

ومن أبرز مظاهر الفن الإثيوبى الرسم بالألوان والكتابة الزخرفية . أما الأدب فستلهم من الدين . وقد تأثر أسلوبه بأنماط عدة ، لعل أقواها هو النمط البيزنطى . وأما الفن المعمارى فهو كنسى أساسا . وخير مثال لهذا ـ ولو أنه لا يمثله تماما ـ هو كنائس لا ليبالا La libala المبنية من الصخر المنحوت .

الاقتصاديات :

تمتاز الهضبة الإثيوبية على وجه العموم بأرضها الطيبـــة الصالحة للزراعة والتى تنتج العديد من الحاصلات الزراعيـة . والمحصول الزراعى الرئيسى لمنطقة القلة the Qualla هو البن ، ولكن توجد بها كذلك غابات شاسعة من البن البرى . أما قيعان الوديان الغنية فيزرع بها الأرز والقطن وقصب السكر ، وكذلك هناك أشجار المطاط والموز والأنواع الأخرى من نباتات المناطق الحارة . أما منطقة Woyna Dega فهى أكثر المناطق الثلاث إنتاجا ، إذا تمتاز بخصب تربتها وجودة مراعيها . ومما تنتجه هذه المنطقة الحبوب ، والكروم ، والتبغ ، والزيتون ، وكذلك تربى فيها الخيول ، والماشية ، والحمير ، والبغال ، والأغنام بأعداد كبيرة . وأما منطقة Dega فتبدو فى بعض الأمكنة جرداء قاحلة بعض الشىء ، ولكنها مكان مناسب لتربية الماشية ، وتزرع بها حبوب المنطقـــة المعتدلة حتى ارتفاع ١٢٠٠٠ قدم . وتعانى المناطق المنخفضة المحيطة بالهضبة من قلة أمطارها وقلة سمك تربتها ، وبذلك كانت منطقة رعوية أهم إنتاجها الأغنام القوية ذات الأذيال المكتنزة بالشحوم .

ولا يعرف عن المعادن فى إثيوبيا إلا القليــل . وعلى كل ، فهناك

الألمنيوم وبعض البلاتينوم الذى لا يعرف بأية كمية هو موجود هناك ، وكذلك هناك بعض الذهب والنحاس .

ويشكل البن ما يزيد على نصف صادرات القطر (١٩٥٩) . ويمتاز بسمعه طيبة تضارع سمعة البن « الموخا » فى جنوب الجزيرة العربية . وثمة حاصلات أخرى هى الجلود المدبوغة وغير المدبوغة ! والحبوب والدقيق، وزيوت البذور والزيوت النباتية .

والخط الحديدى الوحيد ، والذى يجرى من أديس أبابا إلى الصومال الفرنسى ، يمتلكه ويشرف عليه الفرنسيون . وكان من آثار الإحتلال الإيطالى للبلاد تحسين شبكة الطرق على نحو شاسع .

مشكلات حديثة :

لقد آلى الإمبراطور هيلاسيلاسى على نفسه ، منذ عودته إلى العرش ، أن يستخدم كل طاقاته فى سبيل تقدم بلده المتخلف . ولقد وضع لنفسه برنامجاً للإصلاح الدستورى والإصـــلاح الإجتماعى حتى يخلق من إمبراطوريته دولة حديثة تامة التنظيم . وهو يحكم بلده بنفسه ، واضطر إلى أن يتولى بنفسه الكثير من المهام لعدم وجود الكفايات من المدربين الإثيوبيين . ولقد أحرز الكثير من التقدم فى هذا السبيل ، ولكن على الرغم من وجود إقتصاد سليم ، ورغم المساعدات الدولية الكبيرة فإن الصعوبات الناشئة عن طبيعة الإقليم وطبيعة أهله وعن الظروف الحالكة للغزو والإحتلال الإيطالى كانت من القسوة بحيث تفطر أشد القلوب جراءة وإقداماً . ولكن الإمبراطور رجل مقدام سليم الطوية ، وليس

هناك من لا يرجو له التوفيق فيما يضطلع به من عمل عظيم (١).

إريتريا ERITREA

تشكل إريتريا مثلثاً قائم الزاوية وتره شريط على ساحل البحر الأحمر يمتد نحو الشمال الغربى حوالى ٦٧٠ ميلا من الصومال الفرنسى إلى السودان. والجزء الشمالى من الإقليم هو إمتداد للهضبة الإثيوبية التى تنحدر من جهة الغرب نحو سهول السودان، ومن الشرق نحو السهل الساحلى للبحر الأحمر. وهذا السهل يجرى بطول الإقليم كله فى إتساع يتراوح بين ١٠ — ٥٠ ميلا فيما عدا عند خليج زولا حيث تمتد التلال تقريباً إلى البحر. وإلى الجنوب من هذه التلال توجد منطقة شديدة الجفاف شديدة الحرارة تتكون من المقذوفات البركانية والبراكين الميتة، وهى تشكل جزءاً من بلاد الدناقل التى يعيش الكثيرون من أهلها فى إثيوبيا وفى الصومال الفرنسى. وتبلغ المساحة الكلية لإقليم إريتريا حوالى ٤٥٠٠٠ ميل مربع، ويبلغ تعداد السكان أكثر من المليون بقليل. وحوالى نصف السكان من الإثيوبيين الأقباط، ومعظم النصف الآخر من الحاميين الشرقيين الذين يدين أغلبهم بالديانة الإسلامية. وبالإضافة إلى الأقباط والمسلمين هناك عدد من المسيحيين الكاثوليك والبروتستانت وعدد من الوثنيين.

(١) بعد ذلك بوقت قصير جداً حدث فى إثيوبيا إنقلاب عسكرى يهدف إلى خلع الإمبراطور وتنصيب ولى العهد بدلا منه (وفى الحقيقة أنه كان بريئاً من هذه المؤامرة). وكان الإمبراطور فى ذلك الوقت فى الخارج، فعاد سريعاً ولم يجد أية صعوبة فى إحباط المؤامرة لقد بقيت الغالبية العظمى للجيش والشعب على ما كانت عليه من ولاء عظيم للامبراطور.

تاريخها:

إن إريتريا الحديثة وحدة إصطناعية غير طبيعية شكلها الإيطاليون إبان فترة الزحف على افريقيا، وبقيت على وضعها بعد هزيمتهم من الإمبراطور منيليك فى عدوه Adwa. وسكان الجهات المرتفعة الداخلية — وكلهم مسيحيون يتكلمون اللغة التيجرينيا the Tigrinia — هم من الناحية الدينية والثقافية والتاريخية إثيوبيون، وكانوا حتى مجىء الإيطاليين جزءاً من الإمبراطورية الإثيوبية. وهذه الجهات المرتفعة تشغل أخصب أجزاء إريتريا وأشدها إزدحاما بالسكان. والعلاقات الإثيوبية مع السهول دقيقة للغاية حتى أنه بات من المشكوك فيه ما إذا كان الإمبراطور قد استطاع فى يوم من الأيام أن يباشر أى نوع من الحكم المنتج، وعلى نحو متصل، فى الجهات المنخفضة الإسلامية الشاسعة. وفى الحقيقة أن إثيوبيا قد صادفت لقرون عدة صعوبات بالغة فى المحافظة على منافذها البحرية، ولم تستطع تحقيق ذلك إلا بعد مفاوضات شاقة مع المسلمين على الساحل. وما كان هنالك من وحدة بين الجهات المرتفعة والمنخفضة إنما كان من صنع الإيطاليين حين وحدوا بينهما فى مستعمرة واحدة، وفى نفس الوقت فصلوا الكل عن إثيوبيا. وكانت الإدارة الإيطالية على وجه العموم تمتاز بلين الجانب والإنتاج، ولكنها سرعان ما إنتهت فى عام ١٩٤١، حين استولى البريطانيون على المستعمرة وحكموها لعدة سنوات عن طريق إدارة عسكرية بريطانية نجحت فى مهمتها رغم الصعوبات القائمة وقتذاك. وفى عام ١٩٥٢، وبمقتضى قرار من الأمم المتحدة، آلت إريتريا، كوحدة مستقلة ذاتياً، إلى اتحاد فيدرالى مع إثيوبيا تحت سيادة التاج الإثيوبى.

الاقتصاديات :

لقد كان لسطح الأرض والأحوال المناخية السائدة أثر كبير فى إختيار السكان بين الحياة الزراعية ، وبين الحياة الرعوية . وهكذا كان أهالى الجهات المرتفعة الخصبة والتى يتوفر لها الرى الكافى من السكان القرويين المستقرين والعاملين بالزراعة . أما حاصلاتهم الرئيسية فهى الحبوب على إختلاف أنواعها ، والبقول ، والفول ، والبذور الزيتية ، والقنب ونبات السيزال ، والبصل والبهارات . أما سكان الجهات المنخفضة والتى هى أكثر جدبا فهم رعاة رحل أو أنصاف رحل يربون الأغنام والماشية والماعز والحمير والقليل من الإبل . والصورة الإقتصادية للإقليم ، على هذا النحو ، ليست هائلة . فلا الزراعيون ولا الرعويون قد إستطاعوا أن يرقوا بأنفسهم كثيراً على مستوى الكفاف من العيش والسلعة الهامة الوحيدة التى يمكن تصديرها هى ثمرة الدوم التى تعطى « العاج النباتى » الصلب الذى يستخدم فى صنع الأزرار . أما المعادن فلم يتوصل بعد إلى استكشافها بكميات كبيرة . ومن ناحية أخرى ، فقد أتاح الايطاليون لمستعمرتهم قيام العديد من المدن الحديثة الفاخرة ، وزودوها بالطرق الجيدة والسكك الحديدية الكافية ، وبطريق سلكى لنقل البضائع بين ميناء مصوع والعاصمة أسمرة الذى يعد أطول طريق من نوعه فى العالم .

إننا لا نستطيع الجزم عما إذا كان قرار الأمم المتحدة بضم إريتريا بأجمعها إلى إثيوبيا عادلا أو حكيما . فصلات المسلمين الذين يشكلون نصف مجموع السكان ليست معقودة مع الاثيوبيين المسيحيين من أهالى الجهات المرتفعة ، ولكن مع إخوانهم فى الدين فى وادى النيل . ولو أن هذا الكتاب لا يتسع للإضافة بذكر الحلول التى كان من الأفضل أن تتخذ ، فقد يستطيع المرء على الأقل أن يتمنى لو لم تكن الميول الحاضرة والروابط القديمة قد تجوهلت على هذا النحو السافر عندما إنسحبت قوى التوحيد الأوربية .

الفصل الخامس

وادى النيل (١)

إذا نحن قسنا النيل من أقصى منبعه ، ابتداء من نهر كاجيرا ، الذى يغذى بحيرة فيكتوريا بمياهه والذى ينبع من أوروندى لوجدناه يبلغ أكثر من ٤٠٠٠ ميل فى الطول ، وهكذا يعد أطول أنهار العالم . ويخرج النيل من بحيرة فيكتوريا ليصادف بعدها مباشرة شلالات أوين Owen بالقرب من جنجا Jinja فى أوغندا ، فيمر فى بحيرة كيوجا Kioga ، ثم تدعمه بغزارة مياه بحيرة ألبرت ، ثم يجرى شمالا الى السودان عبر سهل مستو تقريباً ، ويعوق مجراه كثيراً فى بدء رحلته هذه نمو النباتات الطافية التى تسمى السدود . وفى بحيرة نو No يتحد معه بحر الغزال ، الذى يغص كذلك بالسدود . ثم بعد ذلك نهر السوباط ، ذلك النهر الثائر الذى يتدفق بمياه جنوب غرب اثيوبيا . وفى الجزء الأول من رحلته يسمى النيل بحر الجبل.

وبعد أن يلتقى ببحر الغزال يسمى النيل الأبيض حتى يصل الى الخرطوم حيث يلتقى بأهم روافده الشرقية ، النيل الأزرق . وابتداء من هذه المرحلة حتى باقى رحلته يسمى نهر النيل . وبعد الخرطوم بمائتى ميل يلتقى بنهر عطبرة الذى ينبع ، مثل النيل الأزرق ، من إثيوبيا . أما عن باقى الرحلة ، اى منذ إلتقائه بنهر عطبرة حتى البحر ، وهى تبلغ حوالى ١٧٠٠ ميل ، فإن هذا النهر العظيم لا يلتقى بأية روافد أخرى ولا تغذيه أية أمطار فعلية. وفى المسافة مابين الخرطوم وأسوان توجد ما تسمى بالجنادل الستة ، كل

---

(١) فى هذا الفصل ، تعنى لفظه (السودان) جمهورية السودان فقط ، التى كانت فيما سبق تحت الحكم المشترك لمصر وبريطانيا والتى كانت تسمى بالسودان المصرى الإنجليزى .

منها يشكل سلسلة من المساقط تمثل نزول النهر إلى مستوى أدنى . ويدخل النيل إلى مصر شمالى الجندل الثانى بقليل ، أعلى وادى حلفا .

وإذا نحن شاهدنا من الجو نهر النيل وحزام المزروعات على كل من جانبيه ، لوجدناه يبدو كخيط فضى أخضر رفيع يجرى خلال صحراء غير محدودة على كل من الجانبين . ولو أن المساحة الكلية لمصر تبلغ حوالى ٤٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، فإن الجزء المزروع منها والآهل بالسكان صغير جداً نسبيا ، إذ لا يزيد على شريط من الأرض بحذاء النيل طوله حوالى ٧٠٠ ميل وعرضه ١٠ – ١٥ ميلا فقط . أما فى الدلتا فتصبح المنطقة المأهولة بالسكان أعرض ، ومع ذلك فهى ما زالت صغيرة وكانت تعتمد الزراعة والإستيطان أساساً على الفيضان الموسمى لنهر النيل بين يوليو وديسمبر . وهذه الظاهرة ترجع أساساً إلى النيل الأزرق ، فبينما أن النيل الأبيض عند الخرطوم يشكل نهراً ذا مورد متصل ، فإن النيل الأزرق ، الذى ينبع من جبال إثيوبيا ، لا يفيض إلا فى أوقات معلومة ، عند سقوط الأمطار الموسمية وذوبان الثلوج وفى فصل انخفاض المياه نجد النيل الأبيض الأكثر بطأ وانتظاما يغذى مصر بما يعادل ٨٠٪ من مياهها ، أما أثناء فصل الفيضان فإن حوالى ٧٠٪ من المياه تأتى من النيل الأزرق وحوالى ١٧٪ من نهر عطبرة . وتأتى هذه الفيضانات بكميات هائلة من الغرين من جبال إثيوبيا ، وهكذا تمد سكان وادى النيل الأدنى بتربة غنية بالغرين تتجدد فى كل عام . وبهذا جاءت مياه النيل لتخلق من قطر ـ ما كان باستطاعته إلا أن يكون مجرد صحراء ـ بلداً مزدهراً وأماً لحضارة موغلة فى القدم .

ومصر ، مثل شمال إفريقيا ، تعطى ظهرها لإفريقيا القارية ، وفيما عدا ما كان هناك من حملات إلى السودان ونحو إثيوبيا فإنها كانت إلى عهد قريب ترتبط كلية بدول البحر المتوسط وبآسيا . والسكان الذين يبلغ تعدادهم

حوالى ٢٥ مليون نسمة هم أساساً من النوع الحامى ، كما أن الفلاحين قد حافظوا إلى حد كبير على نقاء عنصرهم . أما الطبقات الوسطى من سكان المدن فقد امتزجوا بغيرهم بشكل متزايد وأصبح بينهم كثير من العناصر الأجنبية وبالإضافة إلى الفلاحين المستقرين وسكان المدن ، هناك العرب الرحل فى الصحارى التى تحف بالشريط المحاذى للنهر .

والجزء الأعظم من السكان من المسلمين ، ولذا فإن مصر تحتل مركز الصدارة فى العالم الإسلامى ، وتشكل - كما كانت من قبل - حلقة الاتصال بين المسلمين الشرقيين والمسلمين الغربيين . وتتمتع جامعة الأزهر فى القاهرة التى يفد إليها عدد كبير من أبناء البعوث الإسلامية ، بمركز ونفوذ كبيرين . أما الأقباط ، الذين يبلغ عددهم حوالى ٢ مليون ، فهم أهم الطوائف غير المسلمة ، وينتمون إلى واحدة من أقدم الكنائس المسيحية فى العالم ، كما أنهم أحفاد أولئك المصريين الذين دخلوا إلى المسيحية فى القرن الرابع . وهم يرأسهم باطريارك الأقباط فى الإسكندرية ، وهم كثيرون جداً حول أسيوط فى مصر الوسطى وفى واحة الفيوم .

وتبلغ مساحة السودان مليون ميل مربع ، ويبلغ تعداده حوالى ١١ مليون نسمة . وهو يمتد من أوغندا والكنجو فى الجنوب إلى مصر فى الشمال ، وتحده من الشرق إثيوبيا والبحر الأحمر ، ومن الغرب الأقطار المكونة لأفريقيا الاستوائية الفرنسية سابقا . وهو يتكون من عدد متوال من النطاقات النباتية التى تجرى من الشرق إلى الغرب ، وتبدأ فى الشمال بالصحراء التى تحف بحدود مصر حتى تصل إلى شريط من حشائش الاستبس الذى لا يلبث أن يتحول إلى منطقة من السفانا ، وينتهى فى الجنوب بحوض كبير من المستنقعات . والسكان متفاوتون جداً من حيث الأصل ولو أن الأقسام الثقافية التى ينتمون إليها ، كما سنرى فيما بعد ، تعد أبسط

من ذلك . وفى الشمال نجد شعبا أغلبيته الساحقة من البرابرة أو النوبيين يعيش بحـذاء ضفتى النيل ويتبع أسلوباً فى الحياة ليس مغايراً لحياة المصريين . أما الصحراء فيسكنها عرب رحل فى الغرب ، وحاميون رحل وهم البجا أو «الفوزى ووزى» فى الشرق .

وفى حزامى الاستبس والسفانا نجـد أن السكان خليطاً متباينا من العرب الرحل ،وشعباً غير محب للهجرة هو الناتج الحاصل من اختلاط العرب والزنوج ، وأعداداً من النيليين من قبائل مختلفة .وأخيراً فإن أقصى الجنوب هو موطن القبائل النيلية العظيمة مثل الشيلوك ، والدنكا ، والنوير ، وبعض قبائل أخرى من أصل غير نيلى .

وفى الإمكان ، بوجه عام ، تقسيم السودان إلى منطقتين كبراوين : الشمال والجنوب ، وكل منهما يختلف عن الآخر اختلافا شديداً ، ولكن لكل منهما مميزات خاصـة تجعله متجانساً مع نفسه . فالشمال ، الذى يبلغ تعداد سكانه ثمانية ملايين نسمة ، وكله تقريباً من المسلمين الذين يتكلمون العربيــة ، يقع تحت النفوذ المصرى الثقافى إن لم يكن السياسى كذلك . وسكان المدن الكبيرة - وهى قليلة - والقرى الواقعة على ضفاف النيل متقدمون ، محبون للغناء ، ومتنورون جداً من الناحية السياسية . وعلى النقيض من ذلك ، فإن الجنوب ، الذى يبلغ تعـداد سكانه حوالى ثلاثة ملايين نسمة ، بدائى ، وثنى إلا حيث دخلت المسيحية ، له منظماته السياسية التى جاوز فى الوقت الحاضر نطاق القبلية ، ويتكلم سكانه اللغات القبلية .

تاريخه :

حين نظرنا أخيراً إلى تاريخ السودان فقدكان ذلك من خلال مشاهدتنا لمقتل جوردون فى الخرطوم وإخضاع السودانيين لنظام آخر من الكبت

والاستبداد . وفى عام ١٨٩٦ قررأى الحكومة البريطانية على إعادة احتلاله وكانت هناك عدة دوافع لهذا القرار : وكان أولها تحرير السودانيين من ظلم الخليفة عبد الله والقضاء على تجارة الرقيق ؛ وثانيها الرغبة فى وضع حد لتلك الهجمات التى كان يشنها رجال الخليفة على الحدود الجنوبية لمصر بقصد الإثارة ، ثالثها سبق الشعوب الأخرى - وخصوصاً الفرنسيين - التى كانت تتطلع إلى السودان . وليس ثمة شك كذلك فى أن الشعور القومى المتأجج كان له أثره فى إصدار هذا القرار . فالرأى العام البريطانى قد شعر بمرارة الخيبة التى أصابته من جراء مقتل جوردون ، وبات من المعتقد أنه لابد من الثأر لما لحقهم من عار فى عام ١٨٨٥ .

وجاء غزو السودان على مرحلتين . وكانت أولاهما عملية حربية فعالة غير باهظة التكاليف أدت إلى سقوط دنقلة . ثم إستطاع القائد البريطانى ، سير هربرت كتشنر ، اقناع الحكومة البريطانية بالسماح له بمواصلة التقدم من أجل القضاء نهائياً على قوة الخليفة وسلطانه . وكانت هذه العملية أشق من الأولى بكثير لما كانت تنطوى عليه من مشكلات ضخمة فى التموين والنقل التى ، على الرغم من ذلك ، أمكن حلها فى النهاية . وفى الثانى من سبتمبر ١٨٩٨ هزم جيش الخليفة هزيمة منكرة فى موقعة أم درمان على الضفة المقابلة للخرطوم ، وقتل الخليفة نفسه فى معركة أخيرة فى كردفان فى ٢٤ نوفمبر . وكان بين القوات الهجومية فى أم درمان الضابط الشاب ونستون تشرشل . وبمقتضى الإتفاقية التى أبرمت فى عام ١٨٩٩ أصبح السودان تحت الحكم المشترك لمصر وبريطانيا العظمى . ولو أن السيادة المشتركة لمصر قد نص عليها بنوع خاص ، إلا أنها فى الواقع لم تكن أكثر من مجرد شريك مرفوع . وكان من الواضح أن الهدف من الإتفاقية هو تحقيق السيادة المطلقة لبريطانيا العظمى . وبهذا استطاعت بريطانيا أن تحقق لنفسها نوعا من الوصاية على السودان الذى حظى بعد أجيال عديدة من

الحكم التعسفى والفوضى بحكم عادل مستقر (١).

لقد تركنا بارنج Baring فى مصر حيث إستطاع بمساعدة عدد من الإداريين البريطانيين الأكفاء ، فيما بين ١٨٩٠ -١٨٩٦ ، أن يحقق معجزة كبيرة ، ألا وهى تحويل قطر متخلف ومكبوت ومفلس إلى دولة حديثة حية . فالشئون المالية أرسيت على أساس ثابت متين ، والخدمات الاجتماعية برزت إلى الوجود ، والحكم المحلى سار على أساس من الأمانة والنزاهة ، وأولى الجيش بالعناية والإصلاح . ولقد اتخذت كل هذه الإصلاحات باسم الخديو ، وعلى الرغم من أن مصر كانت فى ذلك الحين من الناحية الفعلية تحت الحماية البريطانية ، فقد كانت لا تزال من الناحية النظرية جزءا من الإمبراطورية التركية . ولما إنضمت تركيا الى أعداء بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) أصبح مركز بريطانيا يدعو الى الغرابة وبالإضافة إلى ذلك ، فقد انحاز الخديوى ، عباس حلمى ، إلى جانب تركيا بشكل سافر . وعلى ذلك فقد ألغى ما كان باقيا من السيادة التركية ، وأعلنت مصر رسميا محمية بريطانية ، وخلع الخديوى ليخلفه حسين كامل كسلطان على مصر . لقد اشتركت الحكومة المصرية باخلاص ونية صادقة فى الحرب فى جانب بريطانيا ، وتحمل الشعب بصبر وشجاعة كل المكاره والصعوبات التى أوجبتها الحرب .

وفى نفس الوقت فإن مركز مصر كدولة فى ملتقى الطرق على البحر المتوسط كان من شأنه أن يجعل المصريين واعين لموقف التبعية الذى صاروا إليه . وهكذا فإنه على الرغم من المزايا التى أتى بها البريطانيون ،

(١) وقت أن أبرمت الاتفاقية ، وبعدها لبعض الوقت ، لم يكن لدى مصر من الكفاءات المدنية من تستطيع بهم شغل المراكز العليا فى الحكم.

وعلى الأخص فيما يتعلق بالفلاحين ، فقد أخذت القومية المصرية - التى ابانت عن نفسها منذ الأيام الأولى للاحتلال ، حين عبر المصريون عن ضيقهم بالسيطرة الأجنبية - فى الظهور بشكل متزايد . ولقد أجج منها وزادها إشتعالا ما كان يدبره الأتراك من مكايد وما كان هناك من حماس دينى إسلامى ومقالات صحفية ملتهبة فأدت بذلك إلى وجود شعور معاد للأوروبين بين الجماهير قبل الحرب . وفى عام ١٩١٨ ، وبزعامة سعد زغلول زادت هذه الحركة إصرارا على الاستقلال . ولم تحسن الحكومة البريطانية معاملة سعد زغلول فى لندن ، وفشلت المفاوضات فى تهدئة ثائرة الرأى العام ، وانتشرت الإضطرابات فى كل مكان ، فكان أن أقصى عن البلاد زغلول ورفاقه . وأخيرا ، فى عام ١٩٢١ ، أعلنت الحكومة البريطانية إنهاء الحماية على مصر ولكن مع الاحتفاظ لنفسها بحق تأمين المواصلات والدفاع وحماية الأجانب والأقليات ، وإدارة السودان . وفى نفس الوقت أعلن السلطان فؤاد ، الذى خلف السلطان حسين كامل ، ملكا على مصر ، وأقيم النظام النيابى فى الحكم ، وعاد سعد زغلول من المنفى ليصبح بعد فترة وجيزة رئيساً للوزراء . وسرعان ما بدأ حملة المطالبة بإنسحاب البريطانين كلية من مصر وبتوحيد السودان ومصر . وكان موقف البريطانيين من هذه المطالب واضحاً . كانوا على استعداد للتسليم فيما يتعلق بالشئون الداخلية للبلاد ، ولكنهم أصروا على تولى حراسة قناة السويس ، وأنهم لن يسمحوا بالحلول الوسط فيما يتعلق بالسودان وكانت الامور غاية فى التعقيد حين مات سعد زغلول فى عام ١٩٢٤ ليخلفه كزعيم لحزب الوفد مصطفى النحاس وتمخض الشعور القومى وقتذاك عن مقتل سير لى ستاك القائد العام البريطانى ، والحاكم العام للسودان ، فى نفس السنة وفى أحد شوارع القاهرة . ولم تجد نفعاً تلك المحاولات التى بذلت فى عام ١٩٢٧ ثم فى عام ١٩٣٠ لعقد إتفاقية بين بريطانيا ومصر ، إلا أنه قد أمكن التوصل إلى عقد مثل هذه الإتفاقية فى عام

١٩٣٦ ، ونصت على وجوب التعاون فى زمن الحرب وإنسحاب القوات البريطانية بالتدريج .

وكان يتعين أن تسرى هذه المعاهدة لمدة ٢٠ سنة . وتحاشت ذكر أى شىء عن السودان . وسحب المندوب السامى البريطانى من مصر ، وتبادلت الدولتان السفراء وفى عام ١٩٣٧ ، وكطلب بريطانيا ، أصبحت مصر عضواً فى عصبة الأمم ، وفى نفس السنة ساعدتها بريطانيا على التخلص من الإمتيازات الأجنبية ، ذلك النظام الذى كان موجودا أيام الإحتلال .

لقد وفت مصر بالتزاماتها قبل المعاهدة فى الحرب العالمية الثانية ٣٩ - ١٩٤٥ بكل أمانة وإخلاص وكانت قاعدة جوهرية للعمليات الحربية للحلفاء فى الشرق الأوسط وبعد مؤتمر يالتا أعلنت مصر نفسها الحرب على المحور . ولما انتهت الحرب فى أوربا تزايد الإصرار على إجلاء القوات البريطانية ، بالإضافة إلى المطالبة بضم السودان إلى مصر . ووافقت الحكومة البريطانية مع شىء من التراخى ، على سحب قواتها ثم بدأت فى إجلائها إلى منطقة القنال ، أما بالنسبة لمسألة السودان فقد أصمت أذنيها وبقيت عند رأيها ، وقد أدى بها إلى هذا الإصرار ما كان هناك من ترتيبات تمهد لكى يتولى السودانيون حكم أنفسهم ، ولا عجب فى ذلك ، فقد أصبحوا من النضج السياسى بحيث يستطيعون تقرير ذلك بأنفسهم .

وفى ليلة ١٤-١٥ مايو ١٩٤٨ ، الليلة التى انتهى فيها الإنتداب البريطانى على فلسطين ، دخلت القوات المصرية فلسطين لإعادة النظام ووضع حد للمذابح البشعة للعصابات الصهيونية الإرهابية ، وأيا كانت الأسباب ، فإن هذه الحركة لم تنجح لتفكك العمليات الحربية ، ثم كان أن أعلنت الهدنة فى السنة التالية .

أما الموقف الداخلى فلم يكن آمنا على الإطلاق . فالقصر والحكومات المتعاقبة كانا دائما على خلاف وخصام ، وكان هناك استياء كبير بين الرأى العام ، وكثيراً ما كانت الحكومة تلجأ إلى دفعه عن نفسها باستعراض الخلافات المصرية الإنجليزية . وكان ذلك النجاح الضئيل الذى حققته الأسلحة المصرية فى حملة فلسطين والأخطاء السياسية فى السودان بمثابة مادة خصبة للإخوان المسلمين ، تلك المنظمة الدينية الوطنية الإرهابية التى كان يرأسها الشيخ حسن البنا ، فاستغلتها لمواجهة ضعف الحكومة وفسادها . وكان أن قتل النقراشى باشا بيد عضو من الإخوان المسلمين فى نهاية عام ١٩٤٨ ، وبعد ذلك بشهرين قتل الشيخ حسن البنا نفسه . ثم أتبع ذلك وقوع سلسلة من الأزمات إنتهت فى عام ١٩٥٢ بانقلاب عسكرى وقيام حكومة يرأسها اللواء محمد نجيب أضطرت الملك فاروق للتخلى عن العرش لإبنه الطفل ، ثم فى عام ١٩٥٣ بإعلان النظام الجمهورى فى مصر .

وكان أول مايهدف إليه النظام الجديد محو الرشوة والفساد ، والقضاء على الإقطاع ، وإقرار الإصلاح الزراعى ، وتوزيع الثروة على نحو أفضل وتحسين المستوى المعيشى للجماهير . وفى عام ١٩٥٤ ، وقع انقلاب آخر أطاح بمحمد نجيب وتولى بدلا منه الرئيس جمال عبد الناصر . وقد حاولت منظمة الإخوان المسلمين ، بعد أن وجدت نفسها مغلولة اليدين ولا تستطيع حراكا ، التخلص منه ، وكذلك لم يصادف مجيئه هــوى فى نفوس الأرستقراطيين القدامى الذين تبينوا أنه سيوجه عنايته نحو القضاء على امتيازاتهم وثرواتهم من أجل مصلحة الطبقات الفقيرة وأن مركزهم قد أصبح محفوفا بالخطر . وبالإضافة إلى ذلك فإن مشكلة الفقر بين المصريين إن هى إلا مشكلة لا يمكن علاجها . ولكن أياً كان النجاح الذى سيصادفه فى الشئون الداخلية فلا أحد يشك فى تأثيره الكبير فى المحافل الدولية . ولا تتسع صفحات هذا الكتاب لبحث دور ناصر فى الشئون العالمية ،

ولكن قد يكون من المناسب فى هذا السياق أن نسوق مثلا لأحد أوجه سياسته ، فليس فقط أن ناصر قد أتاح لمصر أن تتبوأ الصدارة بين العالم الإسلامى ، ولكنه كذلك أبدى اهتماما بالغاً بمصالح إفريقيا السوداء. وعلى ذلك ، فنحن نتوقع بأن تصبح العلاقات الثقافية والتجارية والسياسية لمصر تحت قيادته - والتى كانت كلها فيما سبق أوربته وآسيوية - أكثر منها إفريقية قارية بشكل متزايد .

أما تاريخ السودان فى حوالى الخمسين سنة من الإدارة البريطانية فكان أهدأ بكثير منه فى مصر . فلم يكن ليشوب سيره فى سبيل التقدم غير ثورات قليلة بين القبائل ، وبعض إضطرابات وقتية فى الجيش أو بين المدنيين لقد خدم السودانيون خدمة عظيمة فى الحرب العالمية الثانية ، ولما انتهت هذه ، قاموا يستحثون الإعداد من أجل الحكم الذاتى . وثمة عوامل ساعدت على ذلك هى المستويات العالية للادارة البريطانية ، وتحسين الأحوال الاقتصادية على نحو مستمر ، وزيادة عدد المتعلمين السودانين الذين تخرج الكثيرون منهم فى كلية جوردون التذكارية ، التى أسسها كتشنر عام ١٩٠٢ . ولم تكن ثمة عقبات فى سبيل ذلك غير المطالب المصرية ، ووجود إنشقاقات بين الزعماء السياسيين والدينيين السودانين ، والخوف الشديد الذى سيطر على نفوس السودانين الوثنيين فى الجنوب مما كان يحكى من قديم بأنهم سوف يلقون من العنت الكثير على أيدى الشماليين المسلمين حين تسحب الحماية البريطانية . وبعد أن أعدت الترتيبات اللازمة لقيام حكم نيابى على أسس ديمقراطية سليمة إنسحب البريطانيون واستقر رأى الحكومه الجديدة على إعلان السودان جمهورية مستقلة . إلا أن ذلك الدستور البارع المحكم الذى استنفد وضعه الكثير من الجهد والعمل لم يكن ليقدر له البقاء طويلا فى عام ١٩٥٨ ،

أدى الفشل المتزايد - بسبب الحاجة إلى سياسة واضحة - بجماعة من ضباط الجيش إلى الإستيلاء على الحكم وتولى شئونه(١) .

الاقتصاديات :

مصر أساسا قطر زراعى تعتمد الزراعة فيه على الرى من مياه النيل . وهناك ثلاث طرق للرى . أولها وأبسطها يجرى برفع المياه مباشرة من النهر أو من الترع إما بواسطة الشادوف ، أو الساقية ، أو الطمبور ، هذه الطرق غايه فى القدم ، إلا أنها منتجة وما زالت تستخدم حين يكون منسوب المياه منخفضاً جداً لايسمح بالرى بالراحة ، ولكن الكثيرين أصبحوا الآن يستخدمون المضخات الحديثة .

وكذلك يستخدم رى الحياض منذ القدم . وفى هذه الحالة تعمل قطوع فى جسر النهر ، فإذا ما كان زمن الفيضان ترتفع المياه وتجرى فى هذه القطوع لتغمر الحقول المجاورة المقسمة إلى سلسلة من الحياض المفصولة عن بعضها بواسطة سدود . وتغمر المياه الأرض لعدة أسابيع ، فترسب الغرين ، ثم تجرى ثانية إلى النهر بعد إنخفاض منسوبه ، وعندئذ تزرع البذور فى الطمى فى الأحواض .

ورى الحياض ، مع أنه يعتبر تحسيناً للطرق الأقدم ، فهو لا ينتج أكثر من محصول واحد فى السنة . فكانت الخطوة التالية هى الرى الدائم وهذا يقوم أولا على إنشاء القناطر التى تمكن المياه فى وقت الفيضان من أن تجرى فى الترع ذات المستوى العالى . وثانياً بإنشاء خزانات لتخزين المياه للإنتفاع بها أثناء فترة إنخفاض منسوب النهر . وبهذا أصبح الآن فى الإمكان زراعة محصولين أو حتى ثلاثة فى السنة فى كل قطعة أرض . وأشهر هذه الخزانات هو سد أسوان الذى تم

(١) انتهى الحكم العسكرى فى السودان ويتولى شئونه حالياً مجلس سيادة من الحزب الوطنى الاتحادى وحزب الأمة برئاسة اسماعيل الأزهرى رئيس الحزب الوطنى الاتحادى ،

إنشاؤه عام ١٩٠٣ وتمت تعليته بين عامى ١٩٠٧ - ١٩١٣ . أما سد سنار على النيل الأزرق فهو يجمع بين القناطر والخزان ، ويروى سهل الجزيرة الذى يقع فى الزاوية المحصورة بين النيلين الأزرق والأبيض ، وثمة خزان ثالث هو خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض . ويجرى التفكير فى إنشاء مشروعات عديدة أخرى . ولعل أشهرها وأكثرها تقدما هو السد العالى الذى يقع إلى الجنوب من سد أسوان بحوالى ثلاثة أميال ونصف . والمشروع الجديد يشكل خزاناً طوله ٤٠٠ ميل ، تقع ١٥٠ ميلا منها فى السودان . وتقدر تكاليف المشروع بمبلغ غاية فى الضخامة ، ولكن المزايا التى ستجنيها مصر منه سوف تفوق ما أنفق عليه ، هذا بالإضافة إلى تحويل كل الأراضى التى تخضع لنظـام رى الحياض إلى الرى الدائم ، وزيادة الأراضى التى يصير فى الإمكان ريها زيادة كبيرة ، وتوفير قوة هيدروكهربائية كافية .

ومع أن الفلاح المصرى يحظى بوجود تربة خصبة ومياه وفيرة جداً إلا أنه لايكاد يقوى على معركة الحياة . فهو لايستخدم من الآلات الزراعية غير الأنواع التقليدية والبسيطة ، ومحاصيله الغذائية هى الحبوب بأنواعها المختلفة ، والأرز ، والخضروات ، والبرسيم الذى يستخدم كعلف للماشية . والمحصول التجارى هو القطن الذى يعد أهم سلعة زراعية تصديرية . ولعل السبب الرئيسى للفقر المدقع الذى يعيش فيه الفلاح هو أن القطر الذى يعيش فيه مزدحم بالسكان . فتوزيع السكان فى مصر يبلغ فى المعدل حوالى ١٦٠٠ نسمة لكل ميل مربع ، وهذه النسبة فى تزايد مستمر . وعلى الرغم من الجهود التى تبذل بين الحين والحين للتوسع فى المساحات المروية ، فإنه ما زال هناك ضغط كبير على الأرض ، ولذا كانت الحيازات الفردية صغيرة . ولا جدال فى أن قانون ناصر للإصلاح الزراعى ، الذى ينص على إعادة التوزيع فى الحيازات الكبيرة ، سيحل المشكلة إلى حد كبير ،

وكما أوضحنا سابقا ، فإنه يؤمل الكثير من الخير والنفع حين تتم هذه الإنشاءات الهيدرولوجية العديدة .

أما الماشية فلا تقوم عليها صناعات جدية بمعنى الكلمة . ويربى الفلاحون أعداداً كبيرة من الدواجن والأغنام والماعز ، وكذلك يربون الإبل والجاموس حتى تفيد فى أوقات الجفاف . وكذلك يفيد الجاموس السكان بألبانه التى منها يصنع الزبد .

وتشمل المعادن زيت البترول (وهو صنـاعة نامية) ، والمنجنيز والفوسفات والرصاص . وكذلك هناك كثير غيرها ولكنها لم تستغل على نطاق واسع .

وفى مصر إقتصاديات صناعية نامية يشغل فيها القطن ، والكتان ، والحرير ، والمصنوعات الجلدية ، وصناعة الأسمنت والأسمدة وتكرير البترول دوراً رئيسياً . ونظام السكك الحديدية والطرق البرية يفى بحركة النقل ، كما أن النيل صالح للملاحة فى كل مجراه فى مصر . وأهم الموانى البحرية وأكبرها شأنا ميناء الإسكندرية ، أما بورسعيد والسويس فليس لهما من نصيب فى تجارة مصر إلا القليل . وتعتبر قناة السويس ، التى قام بتأميمها ناصر فى وجه معارضة دولية كبيرة ، مصدراً هاما للدخل .

أما اقتصاديات السودان فهى أكثر رحابة ولو أنها أقل تعقيد من اقتصاديات مصر . ففى المسافة ما بين وادى حلفا والخرطوم نجد أن القرويين على جانبى النيل يباشرون رى أراضيهم وزراعتها ويربون القليل من الماشية . وفى الصحارى على كلا الجانبين توجد أقوام رحل تعيش على تربية الجمل . وفى المنطقة الوسطى توجد مساحات شاسعة للرعى ، وتقوم ثروة السكان على تربية الإبل والأغنـام فى الأجزاء الشمالية منها وتربية الماشية فى

الأجزاء الجنوبية . وبالقرب من النيل يوجد مزيج من الفلاحين الذين يباشرون الرى ولكن كذلك يحظون بأمطار فصلية ، والقبائل النيلية فى أقصى الجنوب مزيج كذلك وتقوم بزراعة المحاصيل الضرورية ولكن باستثناء حالات قليلة فإن إهتمامها الرئيسى ينحصر فى الماشية ،التى هى ليست فقط عنوان الثراء ولكنها كذلك تتسم بشيء من الروحانية وتلعب دوراً هاما جداً فى الحياة الإجتماعية والدينية لكل من الفرد والقبيلة .

والسودان أهم مصدر فى العالم لتوريد الصمغ العربى الذى يجمع من نوعين مختلفين من أشجار السنط ويشكل مصدراً ثانياً للدخل بالنسبة للفلاحين الذين يجمعونه . وأهم الحاصلات التصديرية هى القطن وتزرع كمية ضئيلة من القطن الأمريكى فى بعض الأمكنة على الأمطار ، ولكنهم يعنون على وجه الخصوص بالقطن المصرى طويل التيلة الذى يزرع فى الأراضى التى تروى وأعظم منطقة لإنتاجه هى منطقة الجزيرة على النيل الأزرق ، التى كانت فيما سبق مجرد سهل طينى مسطح أمطاره غير ثابتة ويعيش فلاحوه على تربية القليل من الماشية وزراعة بعض محاصيل غير مضمونة من الدخن وبعد فترة طويلة من التجارب وعند إتمام سد سنار عام ١٩٢٥ صار فى الإمكان رى هذه المنطقة وأصبح مشروع الجزيرة مشاركة بين الحكومة ، التى قامت ببناء السد وصيانة الترع ، وشركتين تجاريتين تتوليان إدارة المشروع ، وحوالى ٣٠ ألف من المستأجرين السودانيين المنتجين للقطن، ثم توزع الأرباح بين الأطراف الثلاثة . وفى عام ١٩٥٠ انتهى إمتياز هذه الشركة الثلاثية وحلت محلها « لجنة الجزيرة للسودان » وقد بلغت المساحة الكلية الآن للمشروع حوالى مليون فدان ، يزرع منها الربع قطنا والخمس لباقى المحصولات الأخرى .ومن المؤمل أن تتولى الحكومة الجمهورية المشروع وأن تعمل على تنميته بروح

من الجد والمثابرة فقد عاد بعظيم الفائدة على المستأجرين الذين انتشلهم من وهدة الفقر إلى مستوى عال بالنسبة للفلاحين الآخرين فى أجزاء أخرى من إفريقيا ومعظم أجزاء الشرق الأوسط . وقد طبقت أساليب مشروع الجزيرة على مناطق كثيرة أخرى فى السودان ، كما كان لها أثر كبير على عدد من المشروعات فى أجزاء أخرى من إفريقيا .

وقد أتاح وجود المواصلات فى شمال السودان إمكان الوصول إلى الأماكن الهامة . فالخط الحديدى من حلفا يجرى جنوبا إلى الخرطوم ثم بحذاء النيل الأزرق إلى سنار، مع وجود امتداد إلى الروصيرص. وتتصل بور سودان على البحر الأحمر بالخط الرئيسى بواسطة فرعين ، أحدهما يجرى من سنار شمالا عن طريق كسلا ، والآخر يتجه شرقا عبر الصحراء من عطبرة . وهناك امتدادان فى الغرب : فمن سنار يجرى الخط الرئيسى غربا إلى الأبيض ، ومن الراهاض (٤٣ ميلا من الأبيض) يجرى خط طوله ٤٠٠ ميل إلى نيالا فى أقصى الغرب ؛ وفى الشمال يجرى خط شمال أبو حمد إلى كريما Karima (إلى الجنوب من الشلال الرابع) . أما جنوب السودان ، حيث نجد أرضاً صعبة واقتصاداً بدائياً ، فهو فقير فى مواصلاته فيما عدا فى الجهات المرتفعة بالقرب من حدود كينيا وأوغندا . والطريقة الوحيدة الدائمة للنقل بين الشمال والجنوب ـ باستثناء النقل الجوى ـ هو النهر . فالنيل يشكل طريقاً طوله ٢٤٠٠ ميل من الحدود المصرية إلى أوغندا تقريباً فى أقصى الجنوب . وفى الجزء الشمالى منه يعوق الملاحة وجود الجنادل ، أما فى جنوب الخرطوم فإن البواخر تغدو وتروح فى النيل الأبيض حتى جوبا ، حيث توجد طرق برية توصل إلى أوغندا والكنجو.

وأما النقل الجوى ، الداخلى والدولى ، فقد اكتمل تنظيمه ، فالخرطوم ميناء جوى هام يقع فى ملتقى الطرق الجويه الرئيسية لإفريقيا .

الفصل السادس

إفريقيا البحر المتوسط

تشمل هذه المنطقة كل الأقطار الواقعة على طول الساحل الإفريقى الشمالى ابتداء من الحدود الغربية لمصر حتى ساحل الأطلنطى فى المغرب والصحراء الكبرى فى الجنوب . وتدخل ضمن هذه المنطقة كذلك موريتانيا وغرب إفريقيا الأسبانية لما لها من اتصالات بشمال إفريقيا أوثق منه مع أى مكان آخر .

وكانت هذه الأقطار الثلاثة : المغرب ، والجزائر ، وتونس ، التى تكون هذا الشكل الرباعى العظيم فى شمال غرب إفريقيا ، والتى تسمى فى مجموعها بدول الأطلس لأسباب سنوضحها فيما بعد ، تعرف فيما سبق لدى الأوربيين بدول البربر The Barbary States ، ولدى الجغرافيين العرب بالجزيرة الغربية Western Isle ، لأنها يعزلها المحيط ، والبحر ، والصحراء . وكانت هذه العزلة أظهر ما تكون لشعب لا تكتنف أرضه البحار مثل العرب أكثر من غيرهم . أما بالنسبة للملاحين فى آسيا الصغرى وأوربا فإن شمال إفريقيا لم يكن ليمثل شيئاً من العزلة على الإطلاق ، فالبحر المتوسط قد أتاح منذ أقدم العصور انتقال الشعوب والثقافات والتجارة والجيوش من شاطىء إلى آخر . ومن وجهة النظر التاريخيــة والبشرية ، وكذلك الطبيعية ، فإن شمال غرب إفريقيا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجنوب أوربا وله من المسوغات ما يجيز اعتباره الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط أكثر منه كجزء من الساحل الشمالى لإفريقيا .

فأما ليبيا التى تتكون من هذين الإقليمين القديمين : تريبوليتانيا وسيرانيكا ، فتقع إلى الشرق من دول الأطلس بين تونس ومصر . وهى تمثل منذ القدم طريقاً يمتد بحذاء الساحل الشمالى لإفريقيا . فالملاحون الفينيقيون والإغريق كانوا يستخدمون الموانى الليبية ، كما أن الإغريق والرومان كانوا يقيمون هناك . وشأن بقية إفريقيا البحر المتوسط ، فإن ليبيا قد خضعت منذ أقدم الأزمنة لمؤثرات خارجية .

وكانت موريتانيا فى أذهان الأقدمين تعنى ذلك الركن الشمالى الغربى من القارة الإفريقية ، ثم تجدد استخدام هذه التسمية بواسطة الفرنسيين عام ١٩٠٤ لتعنى ذلك الجزء من الصحراء الكبرى المحصور بين المغرب والجزء الأدنى لنهر السنغال إلى جانب تلك الجهة الواقعة على الأطلنطى بين كيب بلانكو Cape Blanco وسانت لويس St. Louis .

أما غرب إفريقيا الأسبانية فتتكون من قسمين محددين جغرافياً : القسم الشمالى إيفنى Ifni ، وهو عبارة عن منطقة مسدودة المسالك تقع فى مملكة المغرب ؛ والقسم الجنوبى وهو الصحراء الأسبانية التى تمتد لحوالى ٤٥٠ ميل بحذاء ساحل الأطلنطى جنوب المغرب حتى كيب بلانكو .

وينقسم الجزء الشمالى من المنطقة ، أى كل ذلك الجزء المحصور بين الصحراء الكبرى وبين البحر المتوسط ، إلى منطقتين . فليبيا إلى حد كبير عبارة عن هضبة قاحلة متوسطة الارتفاع ليس فيها من النبات غير ما نلاقيه فى الواحات التى نصادفها بين الحين والحين ، وفى الجهات المرتفعة الخصبة ذات الرى الجيد فى الغرب من سيرانيكا والتى يسميها العرب بالجبل الأخضر Green Mountain . والانطباعة السائدة عنها هى شدة قحلها وخلوها ، وكثرة صخورها ورمالها وعجز نباتاتها ، وعظيم استوائها ونمطيتها الواحدة.

أما الجزيرة الغربية ، Western isle فتتميز بوجود حلقات من سلاسل الجبال المرتفعـــة التي تعرف بسلاسل جبال الأطلس والتي تمتد بحذاء الساحل على مسافات متباينة منه ، من المغرب في الجنوب الغربي إلى تونس في الشمال الشرقي . ويبلغ أقصى اتساع لهذه السلاسل في المغرب حيث يصل ارتفاع جبال أطلس العظمى المغطاة بالثلوج ١٤٫٠٠٠ قدم . وإلى الجنوب من جبال أطلس العظمى توجد جبال Anti Atlas ، وهي إلى حدما أقل ارتفاعا بينما توجد هناك سلسلتان أخريان تمتدان شرقا نحو تونس : أطلس التل ، وأطلس الصحراء ، وتقع الأخيرة بالطبع إلى الجنوب قليلا من سابقتها . ولا تكاد تصل هذه إلى ارتفاع ٦٠٠٠ قدم ، وتفصلها عن بعضهما هضبة مرتفعة توجد بها انخفاضات ملحية تسمى الشطوط Shotts. وهناك فرع من أطلس التل يسمى جبال الريف ، وهو يمتد غربا بحذاء الساحل إلى مضيق جبل طارق .

والسهول الساحلي لشمال إفريقيا عبارة عن حزام متفاوت في الخصوبة يمتد في المنطقة كلها من المغرب إلى مصر . وهو متفاوت كثيراً في العرض، ففي بعض الأمكنة ، مثلا حول خليج سيرت Sirte في ليبيا حيث تمتد الصحراء إلى البحر ، نجده يتلاشى كلية . وهو أعرض ما يكون في المغرب حيث نجد سهولا فسيحة تمتد من ساحل الأطلنطي حتى الجبـــال . وفي تريبوليتانيا Tripoltania توجد سهول رملية مستوية تدعى سهول جيفارا Jefara ، وهي تقع بين شريط النباتات المأهول والضيق نسبيا وبين التلال التي تمتد حتى الهضبة الليبية .

الصحراء الكبرى :

والصحراء الكبرى هي أكبر صحراوات العالم ، وهي تحتل ثلاثة ملايين ميل مربع ، أي ما بين ربع وثلث القارة كلها . وليس كل هذا الامتداد

الشاسع صحراء بالمعنى المألوف. فهناك مساحات كبيرة من الأعشاب والحشائش القصيرة حيث تستطيع النمو بعض أنواع من النبات بينما توجد على حوافها غير المحدودة أراض ينبت بها الكلأ حيث تعيش أعداد ضئيلة متناثرة من البدو الرحل .

وهناك ثلاثة أنواع من السطح . أولا ، السطح الرملي Erg وهو عبارة عن مساحات من الأراضي البور الرملية التي تتكون في معظمها من الكثبان الرملية المتنقلة . وتشكل الصحراء الليبية أكبر مساحة من هذا النوع من السطح أما النوع الثاني فهو السطح الصخري Hamada ، وهو عبارة عن صحراء حجرية ليس بها غير الصخور العارية . ثم السطح الحصوى Reg ، وهو صحراء يكسوها الزلط أو الحصى . وهـــذا هو النوع الذي تفضله القوافل ، فالسير هناك أسهل كما أن النباتات والمياه الجوفية أوفر .

وهناك سلسلة عالية من الجبال — التي تتسع عرضا فتنتهي بهضبة — تعبر المنطقة الوسطى من الصحراء الكبرى من الشرق — الجنوب — الشرق إلى الغرب — الشمال — الغرب . وأبرز ملامح هذه السلسلة تلك الكتل الجبلية لجبال حجار Ahaghar وجبال تبستي Tibesti ، التي يصل ارتفاعها في بعض الأمكنة إلى ٩٠٠٠ قدم ، ١٠٠٠٠ قـــدم على التوالي . وكثير من الجهات المرتفعة أصلها بركاني ، وكثير من القمم أصلها براكين ميتة . والجانب الغربي من الصحراء الكبرى ، الذي يشمل موريتانيا ، مستو ، كله على نمط واحد ، وليس هناك ارتفاع يزيد على ١٥٠٠ قدم إلا في مكان واحد أو مكانين فقط .

وتوجد الواحات حيث توجد المياه بالقرب من سطح الأرض وفي متناول النباتات . هذه المياه الباطنية يمكن الحصول عليها بإنشاء الآبار ، وهي عادة عذبة نقية ، على النقيض من المياه الملحية بعض الشيء التي توجد

هنا وهناك . وعلى ذلك فالواحة عبارة عن بقعة من النباتات فى وسط الصحراء يغذيها عدد من الآبار ويسكنها عدد من السكان المستقرين . وأهم مورد للواحات فى الصحراء الكبرى هو التمر ، فالنخيل ينمو ويزدهر فى مثل هذه الأحوال ، ولو أن معظم الواحات المأهولة فيها من الأراضى الصالحة للزراعة ما يمكن زراعته . وكثير من الواحات تشكل مستعمرات سكنية كبيرة مثل فزان ، توات ، الكوفره . وهناك أخرى غيرها صغيرة وفقيرة مثل جغبوب .

وغنى عن القول أن الصحراء الكبرى عموما حارة جدا ، وفى أثناء الصيف قد تكون الأجزاء الداخلية الجنوبية أشد جهات العالم حرارة . وتهبط درجة الحرارة فى الشتاء ، وحينئذ قد يكون هناك فى بعض الأحيان صقيع بالليل .

أما أن الإنسان كان قادرا قبل إختراع الماكينة ذات الاحتراق الداخلى ، ليس فقط على أن يعيش فى الصحراء ولكن كذلك على أن يخضعها لمشيئته ويستغلها لمصلحته فهذا يرجع الفضل فيه إلى إستخدامه للجمل . ومن المعتقد أن هذا الحيوان المفيد قد جاء إلى مصر فى القرن السادس ق . م . ، وأن الإسكندر الأكبر قد إستخدمه فى نقل حملته إلى سيوة . ثم مضى بعض الوقت قبل أن ينتشر غربا فى شمال إفريقيا ، وكان لانتشاره آثار بعيدة . فإستخدام الجمل كوسيلة للنقل فى جيوش الرومان قد مكنهم من قمع ثورات القبائل فى الجنوب ، وكذلك لعب الجمل دورا كبيرا فى غزو البربر والعرب لبلاد الزنوج الشمالية وفى تأسيس إمبراطوريات ؛ وأخيرا فقد كان للجمل الفضل فى إتاحة تنمية التجارة عبر الصحراء الكبرى على نحو كبير بين شمال وغرب إفريقيا .

السكان :

والسكان على وجه العموم فى إفريقيا البحر المتوسط هم ، كما أوضحنا من قبل من الأصل الحامى ، وهم فى ذلك ينتمون إلى ذلك القسم من الحاميين الشماليين الذين يدعون بالبربر . ورغم أن البربر قد نجحوا إلى حد كبير فى المحافظة على نقاء عنصرهم فقد اتخذوا لأنفسهم ديانة وعادات غزاتهم العرب . وعنصر البربر هو العنصر السائد فى أقصى الغرب ومازال قويا فى الشمال الغربى وعلى الأخص فى التلال الواقعة خلف المنطقة الساحلية . وإذا إتجهنا شرقا عبر ليبيا وجدنا الأصل العربى أقوى وتصبح الحضارة أكثر سامية بشكل ملحوظ . فأهل برقة ، مثلا ، من أصل عربى نقى ، فهم أحفاد الغزاة الذين جاءوا فى القرن الحادى عشر . وعموما ، فإن البربر يميلون إلى الإستقرار والعمل بالزراعة بينما نجد أن العرب رعاة رحل . وينعكس هذا التضاد فى التنظيم السياسى لكلا العنصرين . فالبربر ، وهم يعيشون فى مجتمعات قروية مستقرة ، يميلون إلى النوع الديموقراطى من الحكم الذى يقوم على أساس المجالس الشعبية . أما العرب . وقد تعرضوا لمخاطر الحياة فى الصحراء ويحتاجون إلى القيادة القوية إذا ماجد الجد ، فإن حكمهم يميل إلى أن يكون تعسفيا تحت قيادة الشيوخ . وهذا النمط ليس غير قابل للتغيير : ففى ظل الأحوال المواتية يستطيع العرب أن يكونوا من سكان المدن ، وهناك الكثير من البربر ممن اضطرتهم بيئتهم إلى إتخاذ أسلوب القبائل الرحالة فى الحياة .

والسواد الأعظم من سكان الصحراء الكبرى هم المغاربة فى الغرب ، والطوارق فى الوسط ، والتيبو فى الشرق ، فكلمة Moor جاءت أصلا عن اليونانية Mauros ، بمعنى أسود ، الذين قد يكونون حتى من أصل قرطجنى وكانت تستخدم فى التاريخ القديم فى وصف الوطنيين فى تلك

المنطقة المحصورة نسبياً ، والتى سميت باسمهم موريتانيا Mauritania ، ثم جاءت لتعنى عموما فيما بعد سكان شمال غرب إفريقيا ، الذين هم أصلا ثمرة إختلاط العرب والبربر ، أما المغاربة فى موريتانيا الحديثة فهم شناقطة بمعنى الكلمة ، والإسم العربى للقطر الذى يعيشون فيه هو شنقيط .

أما عن الطوارق فهم طوال نحاف القامة ، ذوو بشرة شقراء . مركزهم الجغرافى هو هضبة حجار فى الصحراء الكبرى . ومن أبرز خصائصهم إرتداء اللثام ، ومن ثم فقد عرفوا بالملثمين ، وهم يتكلمون لغة تسمى تماحاق Tamahagg مستمدة حروفها الأبجدية تفناغ – Tifinagh – من أحرف الكتابة الليبية القديمة وكلا المغاربة والطوارق من البربر ، ولكن كثيرا من الأخيرين يعيشون فى الأجزاء الجنوبية من الصحراء الكبرى ، ثم كان أن تغيروا فى المظهر والعادات بحكم اتصالهم بالزنوج .

وأما التيبو فهم ذوو بشرة داكنة ويتكلمون لغة سودانية ، ولكن ، مع ذلك ، فهم ليسوا زنوجا ، بل من المحتمل أنهم كانوا أصلا من جنس قديم كان يسكن الصحراء الكبرى . ويقال عنهم أنهم أحفاد الجرامانتيز القدماء الذين دوخوا الرومان ويعيش الجزء الأعظم منهم فى جبال تيبستى التى عنها أخذوا إسمهم ، ومعناه « شعب الصخور » rock people ، ولكنهم كذلك يوجدون متناثرين فى مساحة شاسعة من الجزء الشرقى للصحراء الكبرى . وكانوا يحتلون واحة الكوفره إلى أن قام السنوسيون بطردهم . وقد دخلوا فى الإسلام فى القرن الثامن عشر ، ولكن من الناحية الإسمية فقط ، فكثير منهم مازال يلتزم الطقوس الوثنية .

وأما السنوسيون الذين أزالوا التيبو من الكوفره فهم ينتمون إلى واحد من أشهر الأنظمة الإسلامية التى كانت تشكل جزءا هاماً من الحياة

السياسية الدينية فى شمال إفريقيا . فالنظام السنوسى قام بتأسيسه فى عام ١٨٤٣ السيد محمد على السنوسى ، ومالبث أن انتشر هذا النظام بسرعة فائقة ، وعلى الأخص بين السكان العرب فى برقة وفى الأجزاء الشرقية من ولاية طرابلس وسرعان ما انتشرت خلاياه فى برقة ، وكل منها تجمع مابين مدرسة ومركز الديانة ، فوحدت بين القبائل المستقلة هناك تحت زعامة مؤسس هذا النظام وخلفائه من بعده .

وبالإضافة إلى العرب والبربر فهناك مجتمعات أخرى راسخة من قديم الزمان فى شمال إفريقيا . فقد سبق الإشارة إلى وجود اليهود . ويرجع وجودهم إلى عدة مصادر : الهجرة منذ أمد بعيد يرجع تاريخه إلى الزبور الأول ، وتحول قبائل البربر إلى اليهودية فى أيام الرومان ، ثم وفود أعداد كبيرة من اللاجئين اليهود من أسبانيا . ولعل أغرب مستعمرة يهودية قرية من الكهوف فى غريان فى التلال الواقعة إلى الخلف من طرابلس وتكون مساكنهم من كهوف غائرة فى الأرض حجراتها محفورة مفرغة والمدخل عبارة عن نفق فتحته على مبعدة من الكهف وفى مؤخره الكهف توجد مزرعة صغيرة وبيارة . ومن مميزات هذا المسكن شدة رخصه ، ومناعته ، ومقاومته للحر والبرد . وسكان هذه الكهوف يتكلمون العربية ، وهم فى مظهرهم هذا لا يمكن تمييزهم من جيرانهم العرب والبربر الذين يعيش بعضهم كذلك فى كهوف مماثلة .

ويبلغ التعداد الكلى لسكان المنطقة حوالى ٢٦ مليون نسمة ، منهم أكثر من ٨٠٪ موزعون بالتساوى بين المغرب والجزائر .

تاريخها:

إفريقيا البحر المتوسط تحت الحكم التركى :

فى غمار حماس العرب لغزو أسبانيا إستطاع الأسبان والبرتغاليون نقل ميدان القتال إلى إفريقيا ، وما أن جاء القرن السادس عشر حتى كان الأخيرون قد إستولوا على عدد من المدن على طول الساحل الشمالى لإفريقيا. وردت دول شمال إفريقيا على ذلك بإعلانها الحرب فى البحر ضد أى شعب مسيحى لا يعقد معها تسوية خاصة تتضمن عادة دفع أموال . وفى المغرب إضطلع بالحرب أساساً اللاجئون المسلمون من أسبانيا ، الذين أقاموا فى وقت من الأوقات جمهورية قرصنة حقيقية فى الرباط وساليه . اما الدول الوسطى والشرقية فقد اسرعت إلى الأتراك تطلب العون ، وهؤلاء الأخيرون ما إن تم لهم طرد الأسبان حتى اقاموا هناك نظاما تركيا ونصبوا من أنفسهم حكاماً على هذه الولايات الثلاث : الجزائر وتونس طرابلس .

وكانت أقوى هذه الولايات الجزائر التى أصبحت - كما كانت من قبل - مركزا للقراصنة البربر ومصدر رعب الملاحين المسيحيين فى البحر المتوسط .

ومن القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر كانت ليبيا ، وتونس والجزائر جزءاً من الإمبراطورية التركية العظيمة التى أصبحت تمتد من العراق إلى الحدود الشرقية للمغرب . وفى أول الأمر كان الحكام الذين يعينون مسئولين مباشرة أمام القسطنطينية . وبالتدريج حصلت الولايات الثلاث على قسط كبير من الحكم الذاتى . ومع أنه قد استمر الاعتراف بالسلطة المطلقة للسلطان ، إلا أنها فى الواقع لم تكن أكثر من سلطة إسمية

وفى أوائل القرن الثامن عشر آل الحكم إلى أسرة القرامانلى وأصبح وراثياً فيها وأصبحوا هم الحكام الحقيقيين المستقلين فى طرابلس بعد أن قضى مؤسس الأسرة أحمد القرامانلى على كل منافسيه فى وليمة أعدها لهم . وفى حوالى نفس الوقت أسس كريتى مسلم ، حسين بك ، الأسرة الحاكمة فى تونس وكان الحكام الأتراك الأوائل فى الجزائر هم إخوان بارباروسا الذين استدعاهم السكان لمساعدتهم فى طرد الأسبان وخلفهم فى الحكم عدد من الباشوات والأغوات والدايات deys الذين لم يكن يعنيهم الحكم الداخلى إلا قليلا ، والذين مات أكثرهم موتة شنعاء . وفى برقة لم يكن ليعترف بسلطة السلطان حتى عام ١٩٤٠ حين جاء محمد ساقزلى - وهو حاكم طرابلس وكان قوياً ، وكان قادراً - بأحد رجاله ليكون حاكما لبنى غازى . واستمر القطر تسوده حالة من الفوضى إلى أن أدى قيام النظام السنوسى إلى وجود نوع من الوحدة والتماسك بين رجال القبائل العرب الصعبى المراس . وعلى كل ، فإن الأتراك حين عبسوا فى وجه السنوسى ، وخلفه من بعده إبنه كزعيم ، انسحب هذا الأخير إلى واحة الكوفره تجنباً لهم . وفى ذلك الحين كان كل العرب فى برقة مشايعين لهذا النظام .

وكان الهم الأكبر لهذه الولايات هو التعرض للسفن فى عرض البحار وكان هذا هو المصدر الرئيسى للدخل . وعلى كل ، فبمرور الوقت ، ومع ازدياد القوة البحرية الأوروبية تناقص نشاط القراصنة إلى حد كبير ، وما أن كان القرن الثامن عشر حتى آلت القرصنة تقريباً إلى الزوال .

وفى عام ١٨٠١ ، رفضت الولايات المتحدة أن تدفع إلى يوسف قرامانلى حاكم طرابلس بمقتضى المعاهدة المبرمة ، بينهما ، أية زيادة فى الأموال التى كان يحصلها فى مقابل حماية سفنها أثناء عبورها ، وعندئذ أعلن عليها يوسف الحرب عندما أنزل سارية العلم من القنصلية الأمريكية ، واستمرت

هذه الحرب حتى عام ١٨٠٥ ، وخلدت فى ذلك النشيد الشهير الذى يردده البحارة الأمريكيون . وقد حد من نشاط يوسف منذ ذلك الحين إلى حد كبير تزايد قوة الأوروبيين فى البحر المتوسط ، ثم كان أن اضطر إلى التخلى عن الحكم فى عام ١٨٣٤ . وحلت الحكومة التركية مشكلة من يخلفه بإقصاء أسرة قرامانلى كلها عن الحكم وتعيين حاكم مسئول أمام القسطنطينية .

التدخل الأوربى :

ومع أن السبب المباشر للغزو الفرنسى للجزائر ، عام ١٨٣٠ ، هو ما لحق بالقنصل الفرنسى من إهانة عند ما ضربه الداى Dey بمذبة الذباب ، فإن السبب الرئيسى هو أن الداى كان يشكل تهديداً لما كان يتمتع به الفرنسيون من مركز تجارى مميز وكذلك كانت هناك حاجة إلى إحراز نصر عسكرى لتدعيم النظام الملكى المهتز للملك الفرنسى شارل العاشر . وهكذا امتد الحكم الفرنسى فى الخمسين سنة التالية ليشمل الجزائر بأسرها ، وفى عام ١٨٨١ أعلن الفرنسيون الحماية على تونس . واستمر الحكم التركى فى ليبيا حتى عام ١٨١١ حين نشبت الحرب بين تركيا وإيطاليا . غزا الإيطاليون طرابلس وأنزلوا قواتهم فى عدة مواقع على الساحل . وفى عام ١٩١٢ تخلى السلطان التركى عن سيادته على ليبيا بعد أن منح الليبيين الحكم الذاتى . ولم يفد الليبيون كثيراً من هذا ، إذ أنه ما إن بدأت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) حتى كان الإيطاليون قد احتلوا القطر .

وترجع إتصالات الأوربيين بريو دى أورو Rio de Oro . ذلك الجزء الجنوبى من الصحراء الأسبانية ، إلى القرن الخامس عشر ، وكانت مسرحاً للنشاط البرتغالى فى أوائل هذا القرن . وعلى كل ، فإن الحكومة الأسبانية لم تدع رسمياً بأحقيتها فى تلك المنطقة الكبيرة الواقعة بين كيب بوجادور Cape Bogador وكيب بلانكو Cape Blanco إلا فى عام ١٨٨٤ . ولم يتم

إحتلال الجزء الباقى من هذه المنطقة ، وإحتلال إيفنى Ifni إلا فى عام ١٩٣٤ .

وفى عام ١٩٠٣ نجح الفرنسيون فى إقناع كل من أمير Trarza وأمير براكنا Brakna شمالى نهر السنغال بوضع بلديهما تحت الإشراف المباشر لفرنسا . وفى السنة التالية تحدد بأن هاتين المنطقتين تشكلان إقليم موريتانيا الذى زاد زيادة كبيرة فيما بعد وأصبح جزءاً من الاتحاد الفيدرالى لغرب افريقيا الفرنسية .

وبينما وقعت بقية شمال غرب إفريقيا أولا تحت السيطرة التركية ، ثم الفرنسية ، فقد استطاع المغرب أن يحافظ على استقلاله . وإذا كانت مدينتا ميليلا Melilla وكوتا Ceuta قد آلتا إلى أسبانيا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر فإن بقية القطر قد أمسك بزمامها حكام أقوياء فى النشاط أمكنهم أن يدفعوا عنها أى تدخل أجنبى . وإذا تصادف مجىء حكام ضعاف من بعد حاكم قوى ، كما كان يحدث فى أغلب الأحيان ، فإن القطر كان يستحيل إلى حالة من الفوضى : ومن أبرز نقط الضعف هى صعوبة اختيار الحاكم الجديد فموت الحاكم كان يعقبه فى أغلب الأحيان وقوع نزاع بين أقاربه وحدوث فوضى تعم البلاد . وفى أيام الاستقلال كان المغرب بلد المتناقضات . فقد كان هناك من المدن الفاخرة مثل فاس ومراكش ما هو محاط بالمناظر الخلابة ، ويضم المنازل الجميلة ، ، والمساجد والأسواق الحديثة ويسكنها أناس ذوو أنفة وكبرياء ، مثقفون كرماء ، يجيدون فن الحياة . ومن الناحية الأخرى ، فإن الحكومة كانت مستبدة ظالمة قاسية ، والسياسة فاسدة ، كما أنه لم تكن هناك أية خدمات عامة أو اجتماعية فعلية . وكان المغرب يشغل مركزاً جغرافيا واستراتيجياً غاية فى الأهمية ، ومن ثم فلم يكن غريباً أن يقع فى سلسلة من الأزمات الدبلوماسية

الخطيرة . وانتهت المنافسات الدولية بإطلاق يد فرنسا فى ذلك القطر لتعمل على تهدئته وتنظيمه . وفى عام ١٩١٢ قامت فرنسا وأسبانيا بتقسيم المغرب بينهما ، وكان الجزء الأعظم من نصيب فرنسا ففرضت عليه حمايتها، بينما آل إلى أسبانيا جزء صغير فى الشمال .

الحكم الفرنسى والإيطالى – القومية – الموقف الراهن

لقد نشط الفرنسيون فى الجزائر ، والإيطاليون فى ليبيا ، لإقامة مستعمرات للإستيطان . فالإيطاليون ما إن وصلوا إلى ليبيا حتى ارتدوا ثانية إلى الساحل تحت ضغط الثورات المحلية التى قامت أثناء حرب ١٩١٤-١٩١٨ ، وكذلك قام السنوسيون فى برقة – كحلفاء للأتراك – بهجوم على البريطانيين فى مصر . ولكن ما أن إنتهت الحرب وقام النظام الفاشستى حتى اتخذ الإيطاليون اجراءات صارمة لسحق المعارضة ، وعلى ذلك ، فبحلول عام ١٩٣٢ ، وعلى حساب معاناة السكان وآلامهم ، تمت تهدئة الموقف . وجاء الإيطاليون بأعداد كبيرة من فلاحيهم من المناطق المزدحمة فى ايطاليا ليقوموا بالزراعة فى كل من طرابلس وبرقة حسب خطة تمثل الملكية الزراعية على أوسع نطاق . ولكن الحرب العالمية الثانية نشبت قبل أن تتاح لهذه الخطة فرصة الخروج إلى حيز التنفيذ .

وفى أثناء المناقشات التى جرت عقب الحرب فيما يتعلق بمستقبل المستعمرات الإيطالية كانت تحكم ليبيا إدارتان عسكريتان بريطانيتان ، إدارة فى كل مقاطعة . ورغم العجز الشديد فى الأموال والرجال ، فقد إستطاعتا أو تقدما لهذا القطر أحسن حكم شهده منذ أيام الرومان . وإنسحبتا فى جو مشبع بالنوايا الطيبة فى عام ١٩٥١ حين قامت المملكة الليبية المتحدة المستقلة وظهرت إلى الوجود . وكان أول ملك لهذه الدولة الجديدة هو السيد محمد إدريس ، عاهل السنوسيين

وحاول الفرنسيون ، بعد أن أفاقوا من هزيمتهم على يد الألمان فى عام ١٨٧١ ، أن يغسلوا عار الهزيمة بإيجاد ممتلكات لهم فيما وراء البحار ، فكانوا يتطلعون إلى ضم الجزائر عوضا لهم عن فقد الالزاس واللورين وكان أن دبروا إستعمارها على نطاق واسع مع طرد الوطنيين بشكل جماعى من ملكياتهم الزراعية . ولم يكن بوسعهم تنفيذ هذا الإجراء دون مقاومة عظيمة من جانب الجزائريين ، إذ قامت هناك ثورات عديدة ، ولكنها أخمدت كلها بمنتهى الحزم . ومن الناحية السياسية فإن الجزائر كانت تعتبر ممتلكات فرنسية كما أن كلا شمال الجزائر والصحراء الجزائرية كانا يعدان جزءا من فرنسا . ولقد خدم المسلمون الجزائريون بشجاعة فائقة فى الجيش الفرنسى وضحوا بدمائهم رخيصة من أجل فرنسا . ورغم ذلك كله فلم تكن هناك مساواة فى الجزائر بين الأجناس . فقد كان الهدف الأول للاستعمار هو خلق شعب جزائرى من أصل أوربى ، حوالى المليون من الأقوياء ، ليشغلوا مراكز السلطة والصدارة . ومما لا شك فيه أن الحكومة الفرنسية قد أصبحت أكثر تحرراً فى معاملتها للمسلمين الجزائريين منذ أن جاء الجنرال دى جول إلى الحكم ، ولكن الأحداث فى السنوات الأخيرة قد أوضحت للأسف الشديد إلى أى حد أصبح الأوربيون الرجعيون ، من يدعون بالمتطرفين ، على إستعداد للخوض فى مقاومة التغيير الذى طرأ .

وبعد فترة من الهدوء ، تجددت مقاومة الوطنيين للفرنسيين فى حوالى عام ١٩٢٠ وزادت حدتها عبر السنين . وقد بدأت آخر ثورة عام ١٩٥٤ ، واتخذت طابع حرب طويلة بين جيش صغير نسبيا من الوطنيين يؤيده ويدعمه الشعب وبين قوات فرنسية كبيرة . ويبدو أن الحرب قد انتقلت بالفعل إلى فرنسا حيث قام المسلمون الجزائريون بالكثير من أعمال القتل والتخريب ، كما أن الحكومة الفرنسية كانت – على ما يبدو –

غير قادرة على وضع حد لتلك الأعمال ، بعد أن وجدت نفسها موزعة بين نواياها التحررية الظاهرة ، وبين عناد الفرنسيين الجزائريين ، وبين الشك فى موقف جيش سبق له أن أسقط حكومة فرنسية متهمة بالضعف نحو المسلمين وبوسعه أن يسقط أخرى غيرها . وليس ثمة شك فى أن المسلمين سوف يظفرون فى النهاية بتحقيق استقلالهم ، فيما عدا فى حالة واحدة غير محتملة هى الحل الوسط الذى سيعتبر شيئاً باهظاً بالنسبة لكلا الجانبين .(١)

وعلى الرغم من أن تونس كانت محمية من الناحية الإسمية فإن القطر كان فى الواقع يحكم حكماً مباشراً من قبل إدارة فرنسية قوية يرأسها المقيم العام الفرنسى وكانت هذه الإدارة تعمل ، باسم باى تونس ، فتضع القوانين وتتولى الأشغال العامة ، وتشرف إشرافاً دقيقاً على كل السلطات الوطنية ، فكانت الهيئة المهيمنة فى كل المجالات . ثم كان تشجيع الأوروبين على الإستيطان ، فبلغ تعدادهم فى القطر مايزيد على ربع مليون نسمة ، وكان ثلاثة أرباعهم من الفرنسيين ومعظم الباقين من الإيطاليين . وبدأت مقاومة التونسيين للإستعمار الفرنسى فى أوائل القرن الحالى ، وأخذت فى الإنتشار بشكل مضطرد على الرغم من جهود الفرنسيين فى العمل على قمعها أو تغيير مجراها أو تشتيتها فى نواحى مختلفة . وفى عام ١٩٥٤ جرى تشكيل حزب الدستور الجديد ، وكان أول أهدافه تحقيق الحكم الذاتى . وبعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٥) إنتشرت الإضطرابات فى كل مكان بفعل الوطنيين ، وعمت حركات الإرهاب ضد رجال البوليس وضد التونسيين الموالين للفرنسيين . وتحسن الموقف قليلا فى عام ١٩٥٤ حين أعلن رئيس الوزراء الفرنسى منديس فرانس أمام الباى فى قرطاجنة أن فرنسا تعترف بحق تونس فى الحكم الذاتى واقترح أن تبدأ المفاوضات بينهما فى الحال وشكلت تونس أغلب أعضائها من حزب الدستور الجديد ، وبعد مباحثات طويلة

---

(١) تحقق يقين المؤلف ونالت الجزائر استقلالها كاملا غير منقوص فى سنة ١٩٦٢

أمكن التوصل إلى إتفاق مع فرنسا حول شروط الإستقلال الذاتى التونسى ولكن هذه الشروط لم تكن لترضى الجميع ، وما لبث أن بدأ عدد من القوميين المتطرفين حملة ضد الزعامة المعتدلة للحبيب بورقيبة رئيس حزب الدستور الجديد . وقد أمكن إحباط هذه الحملة ، ولكن وعد الفرنسيين للمغرب فى عام ١٩٥٥ بالاستقلال التام جعل من الصعب على الحكومة الفرنسية ، حين جوبهت بشتى الضغوط من الزعماء الفرنسيين ، أن تمنعه عن تونس . وفى عام ١٩٥٦ أصبح بورقيبة رئيساً لأول حكومة تونسية مستقلة ، وفى السنة التالية ألغيت الملكية ، وأعلن قيام الجمهورية . وكان بورقيبة أول رئيس للجمهورية الجديدة .

وكان أول مقيم عام فرنسى فى المغرب هو المارشال ليوتى . وكان رجلا فارعا فى الطول . وقد إمتاز هذا الأرستقراطى الإدارى العسكرى بميله الشديد نحو أسلوب الحياة المغربية ومقدرته الفائقة على التفاهم مع الشعب . وكانت سياسته — وهى تشبه فى بعض النواحى سياسة الحكم البريطانى غير المباشر — هى الإبقاء على الأنظمة والقوانين المغربية ، مع تكييفها وتعديلها وفق مطالب العالم الحديث .

ولما غادر البلاد عام ١٩٢٦ تسللت إليها مرة أخرى تلك العادة الفرنسية المرذولة القديمة ، ألا وهى الإدارة المباشرة الدقيقة والإشراف عن كثب ، ومالت الحكومة الفرنسية بشكل متزايد نحو تنحية السلطان عن سلطاته . وكان أن ظهرت القومية المغربية كرد فعل لاتجاهات الإدارة الفرنسية النافذة . وقرب نهاية الحرب العالمية الثانية أخذت القومية المغربية تطالب بفسخ معاهدة الحماية وإستقلال المغرب وقد إضطلع بالدور القيادى فى إبلاغ هذه المطالب سلطان المغرب سيدى محمد بن يوسف ، وهكذا كان قائد القومية المغربية . وقد وقف موقف المعارضة من هذه المطالب القومية أعيان

أعيان الأقاليم الذين أمكنهم فى عام ١٩٥٣ الحصول على قرار بخلع السلطان ونفيه وتعيين آخر من أسرته أكبر منه سنا . ولـكن السلطان الجديد فشل فشلا ذريعاً فى الحصول على اعتراف الشعب به ، ونشبت الإضطرابات ، وإنضم إلى سيدى محمد أكبر الأعيان وأقواهم نفوذا ، وفى عام ١٩٥٥ لم يجد الفرنسيون أمامهم من وسيلة إلا أن يعيدوا السلطان المخلوع إلى الحكم وإجابة الشعب إلى مطالبه وهو الإستقلال .فكان إنتقال السلطة عام ١٩٥٦، وهكذا إستعاد المغرب سيادته القديمة . وفى عام ١٩٥٧ أعلن السلطان أن الحكومة ستكون ملكية دستورية لها جمعية وطنية تنتخب عن طريق الاقتراع العام .

أما ذلك الجزء من المغرب الذى أصبح المنطقة الأسبانية . فقد كان منطقة فقيرة جبلية معروفة من قديم باضطرابها وشدة عنادها . وهكذا جاء الإحتلال الأسبانى ليلقى معارضة قوية ، فى أول الأمر من مغامر عنيد يدعى ريسونى ثم من آخر أشد منه عريكة يدعى محمد عبد الكريم . وقد استغرق القضاء على هذه المقاومة سنوات عـــدة ولم يتيسر القضاء عليها إلا عام ١٩٢٨ وعندئذ أخذ الأسبان فى تنظيم المنطقة بطريقة عملية ، ولـكن سقوط الملكية فى أسبانيا وقيام النظام الجمهورى قد أعقبتها فترة إضطرابات فى المغرب إمتدت حتى قيام الثورة الوطنية الإسبانية عام ١٩٣٦ . وكان من الواضح أن نظام حكم فرانكو كان أكثر تحررا فى علاجه للقومية المغربية من سابقه الجمهورى وأنه قد أظهر بعض العطف نحو رغبة المغرب فى الإستقلال . وعلى ذلك ، فحين إستعادت المنطقة الفرنسية إستقلالها فى عام ١٩٥٦ وافقت أسبانيا مباشرة على إعادة ضم المنطقة الشمالية إلى بقية المغرب، وهكذا ضمت المنطقتان إلى بعضهما لتشكلا مملكة متحدة مستقلة .

طنجة :

لقد أسس الملاحون الفينيقيون هذه المدينة القديمة ، التى تقع عند المدخـــل الغربى لمضيق جبل طارق . وأصبحت فيما بعد تشكل جزءا من إمبراطورية قرطاجنة . وقد إحتلها على التوالى الرومان ، فالعرب ، فالبرتغاليون ، وحتى البريطانيون ، إلى أن اصبحت ملكا للمغرب فى الجزء الأخير من القرن السابع عشر . وقد إستقر بهذا الميناء الذى يعج بالحركة عدد كبير من التجار الاوربيين ثم اصبح فى الوقت الحاضر مقرراً لعدد من المفوضيات التى قامت حولها مستعمرة أوربية كبيرة وبموافقة السلطات المغربية أقام الأوربيون عده منظمات بلدية صحية وكانت هذه بالإضافة إلى الهيئات الدبلوماسية الموجوده بها ، تكسب المدنية طابعا خاصاً كان معترفا به على وجه العموم ، ولـكن نص عليه بنوع خاص فى عام ١٩٢٣ فى الإتفاقية المبرمة بين بريطانيا وفرنسا وأسبانيا المعروفة بوضع طنجة Stetute of Tengier . وبمقتضى هذه الإتفاقية آلت هذه المدينة إلى الحكم الدولى ، الذى أصبح فيه السلطان (الفرنسيون بمعنى آخر) ممثلا فى شخص مسئول يتولى شئون السكان المغاربة .وفى عام ١٩٤٠ وجدت أسبانيا فى سقوط فرنسا فرصة سانحة لإحتلال طنجة ، ولـكن النظام الدولى ما لبث أن أعادته إليها بعد الحرب الدول المنتصرة . ولما إعترفت أسبانيا وفرنسا باستقلال المغرب عام ١٩٥٦ . ألغى وضع طنجه بإتفاق دولى وأعيدت المنطقه ثانيه إلى المغرب .

غرب إفريقيا الأسبانية وموريتانيا

كانت أسبانيا ، على النقيض من موقفها نحو المغرب ، وإلى وقتنا هذا ، تقف ضد الضغوط الوطنية فى مستعمراتها فى غرب إفريقيا . ففى إيفنى Ifni كانت هـذه الضغوط موجهة نحو الانضمام إلى المغرب التى تشكل جزءاً منه من كل النواحى عدا الناحية الشرعية — وفى الصحراء الأسبانية يبدو أنه كان هناك نوع من التضارب بين مطالب المغرب باسترداد أجزائه المنزوعة منه وبين اتجاه شعب الشناقطة فى هذه المنطقة نحو إيجاد علاقات أوثق مع إخوانهم رجال القبائل الذين يشكلون الغالبية العظمى من تعداد اقليم موريتانيا ، الذى هو آخر مستعمرة لفرنسا بلغت سن الرشد ، وقد حصل على استقلاله بسهولة وفى هدوء قرب نهاية عام ١٩٦٠ . أما المغرب ، فبمساعدة بعض الأقطار الأخرى يرى بأن موريتانيا من الناحيتين العنصرية والتاريخية إن هى إلا جزء منه . وليس من السهل أن نذكر إلى أى حد يؤيد أهل موريتانيا أنفسهم هذا الإتجاه وعلى كل ، فمن الواضح بعض الشىء أن الفئة المتعلمة متمسكة بالاستقلال الذى حققته أخيراً .

الاقتصاديات :

المورد الاقتصادى الرئيسى لشمال إفريقيا — ولوقت قريب جداً كان المورد الوحيد — هو الزراعة ، ثم تربية الماشية . وفى المغرب ، والجزائر ، وتونس يوجد هناك نوعان من الزراعة يسيران جنباً إلى جنب نوع تقدمى تستخدم فيـه الآلات الميكانيكية وتستعمل الأسمدة ويسير على أساس الدورات الزراعية وهو ذلك الذى يمارسـه المستعمرون الأوربيون . ونوع آخر يمارسه العرب . وهو قديم ، بسيط ـ ولو أنه قد لا يكون بدائياً ـ

لا تستخدم فيه الآلات الميكانيكية ولا تتبع فيه الدورات الزراعية ـ إذا حدث أن وجدت ـ إلا قليلا ، ولا تستعمل فيه أسمدة فعلية وينقسم النوع الذى يمارسه العرب ، فى المنطقة بأسرها ، إلى نوعين ، نوع يمارسه سكان الشريط الساحلى الخصيب ، وهو نوع ثابت مستقر يساعد عليه فى بعض الأحيان وجود نوع من الرى البسيط ؛ ونوع متنقل تمارسه القبائل التى تسكن التلال القاحلة فى الداخل ، وهو عادة يجتمع مع تربية الماشية . فأما الأوربيون فيزرعون الكروم والفاكهة ، والتبغ ، والزيتون ، والحبوب ؛ وأما الفلاحون العرب المستقرون فيزرعون الحبوب ، هذا ، والخضراوات ، والفاكهة ، والزيتون ، والنخيل ؛ وأما العرب الرحل فيزرعون بعض الشعير ولكنه لا يعطى محصولا ثابتاً ، ولا شىء أكثر من

وهناك محصولان يستحقان الذكر بنوع خاص . كروم الجزائر التى تغطى تقريباً حوالى مليون فدان ، ومن ثم فإن إنتـاج النبيذ يبلغ حوالى ثلث ما تنتجه فرنسـا كلها . أما كروم تونس فهى ليست على هـذا النحو من الاتساع ، وعلى ذلك كان إنتاج النبيذ أقل بكثير . إلا أن محصول الزيتون أكبر بكثير جداً ، إذ توجد فى تونس حوالى ١٦ مليون شجرة زيتون تنتج ثمانية ملايين جالون من الزيت فى كل عام . وهو على درجة عالية من الجودة .

والصعوبة التى تواجهها زراعة الوطنيين فى شمال إفريقيا هو الضغط المتزايد للسكان ـ بسبب نموهم المضطرد ـ على مساحات قليلة من الأرض ، فهناك مساحات شاسعة غير مزروعة من التلال والصحراء ، كما توجد مساحات هائلة من أجود الأراضى فى المغرب ، وتونس ، وعلى الأخص فى الجزائر ، يستأثر بزراعتها الأوربيون . وعلى وجه العموم فإن الفلاح لم يؤت القدر الكافى من الأرض لزراعته والتعيش عليه .

وقد بذل الكثير من الجهد حتى يستطيع الإفادة كل الإفادة بما فى حوزته من الأرض . وقد أمكن الآن رى مساحات كبيرة بعد التوصل إلى الإحتفاظ بالمياه ، وكذلك أقيمت الآلاف من المدرجات لمواجهة تفتت التربة ، وكذلك أستحثت الجهود لإستخدام الطرق الحديثة فى الزراعة ، كما أعيد توزيع الأرض وتخطيط مشروعاتها ، ولو أن ذلك كان على نطاق محدود . ولكى يتحقق النجاح لهذه الإجراءات فلا بد وأن يكون هناك تعاون من جانب الفلاحين ، الأمر الذى لم يكن ليتوفر من قبل . وكذلك لم تكن الأحوال السياسية المضطربة فى السنوات الماضيـــة لتساعد على إحراز أى تقدم فى أى من المجالات المختلفة ، ربما على الأقل فى ميدان الزراعة ، فى الجهات التى لم تكن ثمرات النجاح لتظهر فيها بسرعة ، وحيث التمسك بالتقاليد ، وحيث يكون من الصعوبة بمكان إثارة الحماس للإصلاح حتى ولو كان ذلك فى أنسب الأحوال .

ولتربية الماشية مكان مرموق فى إقتصاديات شمال إفريقيا . والأغنام والماعز تشكل السواد الأعظم من الماشية ، وهى منتشرة فى كل مكان . وقد كرست بعض القبائل الرحل نفسها كلية لتربية الأغنام ولذلك كان هناك ضغط كبير على المراعى المحدودة .

أما الموارد الزراعية الأخرى لشمال إفريقيا فهى الغابات . ولقد عانت هذه كثيراً من جراء الإسراف فى قطعها وعدم زراعة غيرها ؛ ومع ذلك فإن المساحات المشغولة بالغابات ما زالت شاسعة مترامية ، وعلى الأخص فى تونس والجزائر ، وهى فى معظمها من أشجار الفلين والبلوط . وخلال المنطقة بأسرها نجد مساحات كبيرة من حشائش الإسبرتو Esparto التى تصدر لصناعة الورق . وكذلك هناك مناطق سمكية كبيرة قرب ساحل المغرب ، كما أن المنطقة البحرية المجاورة لتونس وليبيا زاخرة بالأسماك .

ويجد صياد والإسفنج اليونانيون فى المياه الليبيه حقلا خصبا لإستخراج الإسفنج .

وأما عن اقتصاديات شمال إفريقيا ، وخصوصاً اقتصاديات الجزائر وليبيا ، فلسوف يشكل اكتشاف البترول فى هذه الآونة الحديثة حدثا هاما فى هذه الأقطار . وفى الجزائر نجد أن تطوير آبار البترول التى تقع فى قلب الصحراء قد بلغ مرحلة تقدمية كبيرة وإن كانت تؤرقه مسألة الأمن فى ظل الأحوال الراهنة يتطلب نقل البترول من الصحراء إلى الساحل حراسة كل المنطقة التى يمتد فيها خط الأنابيب . وإذا كانت تكوينات البترول الليبى تبشر بالخير الكثير فإن إجراء تطويره فى الوقت الحاضر ليس مكفولا بأية إجراءات أمن وقائية . وليس فى الإمكان ـ بسبب هذه الإكتشافات ـ أن نذكر شيئا على وجه التحديد عن إقتصاديات شمال إفريقيا . ولسوف تشهد السنوات القليلة القادمة نمواً كبيراً فى صناعة البترول مماثلا لما شهدناه فى شبه الجزيرة العربية والخليج العربى . وفى هـذه الحالة فإن مشكلة الفقر سوف تجد حلا لها دون شك ؛ ولـكن حالة الرخاء الجديدة هـذه سوف تؤدى إلى خلق مشكلات أخرى ، شأنها فى أى مكان آخر . ولم يكن زيت البترول بأية حال هو المعدن الوحيد الذى كشف عنه فى شمال إفريقيا . فهناك تكوينات كبيرة من الفوسفات فى المغرب وتونس والجزائر ، بل إن هذه الأقطار الثلاثة تغل نسبة عالية من الإنتاج الكلى للفوسفات فى العالم[1] . ولقد ثبت وجود إحتياطى كبير من خام الحديد والنحاس فى موريتانيا ، كما أن الجزائر فيها من خام الحديد ما هو على درجة عالية بالإضافة إلى وجود كميات كبيرة من الزنك ، وبالمنطقة كذلك معادن أخرى أهمها الرصاص ،

(١) وقد بلغت هذه النسبة أكثر من ٣٧٪ فى عام ١٩٥٦ . والمغرب هو أكثر هذه الأقطار الثلاثة إنتاجا للفوسفات ، بل أكثرها بكثير .

والمنجنيز ، والكوبالت . ويستخرج الملح من البحر عن طريق عمليات التبخير التى تجرى على الساحل التونسى.

ويوجد جزء كبير من الثروة المعدنية لشمال إفريقيا - وعلى الأخص زيت البترول وكميات هائلة من خام الحديد - فى الصحراء الكبرى موزعة إقليميا بين عدة وحدات سياسية ، منها الجزائر وتونس والمغرب والأقاليم السياسية لغرب إفريقيا . وعلى ذلك فقد لجأ الفرنسيون إلى حيلة بارعة ، ألا وهى تنظيم هيئة إقليمية عليا تدعى «الهيئة المشتركة للمناطق الصحراوية» ، تلك التى ظهرت إلى الوجود فى عام ١٩٥٧ . وقد أريد بها أن تشمل كل تلك الأقطار التى لها مصالح فى الصحراء (ولو أن موريتانيا قد رفضت الإنضمام إليها) ، وأن تكون أداة للتعاون الفرنسى الإفريقى لإستغلال الصحراء الكبرى لنفع الجميع .

وفضلا عن التعدين ، فإن صناعات شمال إفريقيا تهتم أساسا بتصنيع المنتجات الزراعية والبحرية المحلية . وأهم هذه الصناعات هى صناعة النبيذ فى الجزائر ، وأما الصناعات الأخرى فهى تعبئة الزيت ، وتعليب الأسماك ، ودبغ الجلود ، ثم السلع الاستهلاكية المحلية .

وكان من آثار الفرنسيين والايطاليين فى شمال إفريقيا إنشاء شبكة جيدة للطرق ، وخصوصا فى المناطق الساحلية ، أشهرها ذلك الطريق العظيم الذى يجتاز ليبيا من تريبولى إلى حدود مصر . وهناك شبكة للخطوط الحديدية ذات فروع عديدة تصل المغرب بتونس ثم تجرى جنوبا إلى بنى عابس فى جنوب الجزائر . وفى الفترة ما بين الحربين بذل الفرنسيون نشاطا كبيرا فى تحويل طرق التجارة عبر الصحراء - وكانت تعد من أقدم الطرق فى العالم - إلى طرق حديثة فقد أصبحت الطرق المعبدة لسير السيارات ، والمجهزة بمحطات للإستراحة ولتزويد السيارات بالوقود وبشبكة فرعية

للتلغراف ، تصل بين شمال وغرب إفريقيا . وكذلك حلت سيارات النقل الضخمة إلى حد كبير مكان قوافل الجمال .

ولا يوجد فى الأجزاء الداخلية من شمال إفريقيا غير عدد قليل من المدن العظمة ، أما فاس ومراكش ومكناس فتقع جميعها فى المغرب . وأقدمها جميعا مدينة فاس التى كان لها بين شعوب العالم الاسلامى ما لمدينة مكة من المكانة . أما مدينة مراكش فهى تشكل سوقا كبيرة لكلا سكان جبال الأطلس والرحل من سكان الصحراء الذين يقصدونها لاستبدال الجلود المدبوغة والتمور بالحبوب والسلع الأوربية . وعلى طول ساحل شمال إفريقيا توجد سلسلة من الموانى الدائمة الحركة التى تبدأ فى المغرب بالدار البيضاء ، ثم ميناء طنجة (الدولى سابقا) ، ثم الجزائر ، ووهران ، وبون Bone ، وتونس ، وطرابلس ، وبنى غازى ، وذلك على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

وإذا كان هناك من تعليق على الموقف الاقتصادى لشمال إفريقيا فلا بد وأن يكون قد جاء عن طريق التخمين . وليس فى الإمكان التكهن بما إذا كان المغرب وتونس سوف يستطيعان المحافظة على نفس معدل التطوير الذى حققاه أيام الحماية الفرنسية . أما الجزائر فقد خاضت غمار حرب تحرير طويلة فازت فيها باستقلال ، وأما موريتانيا فقليلة الكثافة من حيث السكان ، كما أن مستقبل الممتلكات الأسبانية لا يمكن التكهن به ، وأما ليبيا فهى إتحاد لمقاطعتين يجمعهما نظام واحد تحت زعامة رجل مسن ويمكن القول بأن زيت البترول الجزائرى والليبى يشكلان عاملا سيبقى دائما فوق كل التقلبات السياسية ، وليس من الحكمة فى شىء أن نتعمق فى النظر إلى المستقبل أكثر من هذا (١)

(١) هذه النظرة إلى مستقبل شمال غرب افريقيا استعمارية بحته وقد أثبتت الحوادث أصالة الروح العربية فى الحفاظ على الاستقرار السياسى فى هذه الجهات .

الفصل السابع

غرب إفريقيا

West Africa

تشمل هذه المنطقة كل المساحة التى يحدها من الشمال والشرق خط وهمى يسير شرقا من مصب نهر السنغال إلى الحدود الغربيـة لجمهورية السودان ، ومن هناك نحو الجنوب الغربى إلى جبل الكمرون ، ويحدها من الغرب والجنوب المحيط الأطلسى . وعلى ذلك فهى تشمل كل الجزء الأدنى من الانتفاخ الغربى العظيم لإفريقيا الواقع بين المحيط الأطلسى ووادى النيل . ومن الناحية السياسية فإن المنطقـة تشمل تلك الأقطار التى كانت حتى وقت حديث تشكل « الاتحاد الفيدرالى لغرب إفريقيا الفرنسية » باستثناء موريتانيا التى اعتبرناها جزءاً من شمال إفريقيا ، كما يشمل الأجزاء العديدة لغرب إفريقيا البريطانية « سابقا » ، ثم إقليمى توجولاند والكمرون البريطانى سابقا اللذين كانا من قبل تحت الوصاية البريطانية والفرنسية ، ثم جمهورية ليبريا وغينيا البرتغالية . وبالإضافة إلى هذه الأقاليم فهناك تشاد ، التى ترتبط سياسياً بإفريقيا الاستوائية ، ولكنها تشترك فى كثير من الملامح مع الأقطار الأخرى شبه الصحراوية بغرب إفريقيا مما يحدونا إلى اعتبارها جزءاً من تلك المنطقة . ومن الناحية الأخرى فإن الكمرون الفرنسى سابقاً يعتبر ، من كل النواحى ، أقرب إلى إفريقيا الاستوائية منه إلى غرب إفريقيا وعلى ذلك فقد آثرنا بحثه فى الفصل التالى . وتبلغ مساحة منطقة غرب إفريقيا حوالى $2\frac{1}{2}$ مليون ميل مربع ، وتعدادسكانها حوالى **٦٦ مليون نسمة .**

الإقليم :

تذكرنا هذه المنطقة بالصورة الإفريقيه المعتادة لسهل ساحلى يأخذ فى الارتفاع بالتدريج ، ولكن بشكل متفاوت ، حتى يصل فى النهاية إلى هضبة داخلية . وهذه الهضبه أقل ارتفاعا من معظم أجزاء القارة ، إذ يبلغ ارتفاعها فى معظم أجزائها حوالى ١٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر . وعلى كل ، فهناك عدة قمم أكثر منها ارتفاعا أهمها فوتاجالون فى غينيا حيث تنبع أنهار النيجر والسنغال وجامبيا ، وهضبـة البوشى فى نيجيريا ، وسلسلة جبال تيبستى فى تشاد ، ومرتفعات الكمرون التى تنتهى من ناحية البحر بالقمة البركانية لجبل الكمرون .

ويجرى الخط الساحلى من مصب نهر السنغال فى اتجاه جنوبى شرقى بوجه عام حتى يصل إلى الطرف الغربى لليبيريا ، ثم شرقا إلى لاجوس أسفل خليج بنين ، ثم نحو الجنوب الشرقى إلى الكمرون . والساحل عموماً منخفض تحجبه سدود رملية تمتد معه إلى مسافة طويلة منه . ويندر وجود الصخور فى أى جزء منه باستثناء كيب فيرد Cepe Verde والمنطقة المجاورة لأبيدجان Abidjen . والشاطىء إما رملى تغمره الأمواج بشدة وإما تكتنفه المستنقعات وتتخلله القنوات العديدة التى تكونت بفعل المد . وكذلك هناك مساحات مترامية من غابات المانجروف Mengrove وخصوصاً فى دلتا الأنهار والنهيرات . وتوجد على طول الساحل ولمسافة طويلة سلسلة من البحيرات الصالحة الملاحة خلف السدود الرملية وهناك عدد قليل جداً من الموانى الطبيعية . أولاها داكار التى تقع فى ملتقى خطوط تجارية ثلاثة بين أوربا ، وإفريقيا ، ونصف الكرة الغربى كما أنها ذات موقع استراتيجى عالمى ؛ وآخـر هو ميناء باثورست

عند مصب نهر جامبيا ، وثالث هو ميناء فريتون . وهو مثل داكار يحميه لسان يمتد فى البحر . وبالإضافة إلى هذه فهناك عدد من الأخوار ومصبات الأنهار التى تشكل مأوى صالحاً للسفن وتستطيع السير فيها لبعض المسافة نحو الداخل ، ولكن السدود الرملية الجاثمة تحول دون دخول السفن الكبيرة فيها على هذا النحو .

وفى غرب إفريقيا خمسة نظم نهرية عظمى : السنغال ، جامبيا ، النيجر ، الفولتا ، ثم بحيرة تشاد . فالسنغال ، الذى يبلغ طوله ٩٥٠ ميلا ، ينبع من فوتاجالون ويصب فى البحر عند سانت لويس . وهو صالح للملاحة طوال العام لمسافة ٢١٥ ميلا من مصبه ، ثم لفترات قصيرة حتى كايس Kayes ، أى لمسافة ٥٦٢ ميلا . وتسد مصبه الرمال المتنقلة . أما الجامبيا فذو مصب واسع ، وهو صالح للملاحة لمسافة ٢٥٠ ميلا . وقد جاءت أجزاؤه الصالحة للملاحة مواتية للمستعمرة البريطانية التى سمى باسمها ، فهى ليست إلا مجرد شريط ضيق مر الأرض يمتد بحذاء النهر من كلا الجانبين . وينبع النيجر كذلك من فوتاجالون ثم ينحنى انحناءة كبيرة فى شكل قوس ، أولا نحو الشمال الشرقى ثم الجنوب الغربى ، ثم يدخل إلى البحر فى خليج بيافرا Biefra . وهو صالح للملاحة ابتداء من مصبه إلى مسافة ٤٥٠ ميلا فى فصل الأمطار . كما أنه صالح للملاحة لمسافات طويلة فى أجزائه العليا . والرافد الرئيسى للنيجر هو نهر بينو Benue . أما عن نهر الفولتا فيتكون من الفولتا الأسود والفولتا الأبيض ، ويصب فى خليج بنين Benin . وأما بحيرة تشاد فهى تشكل حوضاً كبيراً للصرف يغذيه نهران هامان ، الشارى والووب The Sheri & the Wobe . ويبلغ أقصى عمق للبحيرة نفسها عشرين قدماً ، كما تبلغ مساحتها حوالى ١٠٠٠٠ ميل مربع فى فصل الجفاف وحوالى ٥٠٠٠٠ ميل مربع فى فصل الأمطار .

المناخ :

يعرف عن مناخ غرب إفريقيا أنه ردىء للغاية ، ومع كل فقد كان الاوربيون عادة يطيقونه . فالطب الحديث قد بلغ من التقدم ما يستطيع به أن يدرأ عن الإنسان مضاره ، وبالأخص حين إستطاع الحد من أمراض الحشرات وأمراض المياه الناجمة - بطريقة غير مباشرة - عن شدة الحرارة وشدة الرطوبة . فدرجات الحرارة مرتفعة باستمرار ، ولكن ذبذبتها فى الداخل ، حيث ينزل الصقيع فى بعض الليالى ، أشد بكثير منه على الساحل ، حيث يكون معدل درجة الحرارة ٧٩° بينما أن المدى السنوى هو ٦° فقط . ويختلف سقوط المطر فى المنطقة بأسرها من حيث الكمية وفترات السقوط وأكثر الجهات أمطارا هو الجنوب الغربى ، حيث يسقط فى فريتون Freetown ، مثلا ، حوالى ١٧٥ بوصة ، ثم الجنوب الشرقى حيث يسقط فى دلتا النيجر أكثر من ١٠٠ بوصة . أما المنطقة الساحلية لغانا وتوجولاند فهى جافة نسبيا ، إذ تتراوح أمطارها بين ٣٠ — ٤٠ بوصة فى السنة . وكلما تقدمنا إلى الداخل متجهين ، من الساحل نحو الشمال يقل سقوط المطر بشكل مضطرد ويكون هناك فصل جفاف طويل يقترن بهبوب رياح الهارماتان الجافة المتربة التى تهب من الصحراء الكبرى .

النبات :

والمناطق النباتية هنا تعكس إتجاه النطاقات المناخية من الشرق إلى الغرب ، ومن الغزارة والوفرة على الساحل إلى العدم والفقر فى الأجزاء البعيدة فى الداخل . خلف المستنقعات الساحلية توجد منطقة من الغابات ذات الأمطار الإستوائية تمتد من سيراليون إلى ما بعد الكمرون

ولا تعترضها غير منطقة واحدة أكثر جفافا توجد فى غانا وتوجولاند وتمتد فى الداخل إلى مسافة تتراوح بين ١٠٠ — ٢٠٠ ميل . وبالتدريج تقل كثافة الغابات وتتحول إلى حالة من السفانا على درجات متباينة ، ثم لا تلبث هذه أن تصير إلى مساحات من العشب والكلأ يبين مظهرها عن الجفاف والحر الشديد فى معظم العام . وفى النهاية تندمج هـــذه الحشائش الجافة فى الفضاء الرملى للصحراء الكبرى .

الحيوان :

أما الحيوان فى غرب إفريقيا فهو ليس على نفس الدرجة من التنوع والكثرة التى يوجد بها فى شرق إفريقيا . وتسكن الغابات الاستوائية الكثيفة أنواع من القردة الكبيرة الشبيهة بالإنسان Anthroqoid Apes . وكذلك يوجد الشمبانزى بفصائله المتعددة فى أجزاء عدة من غرب إفريقيا ، كما أن الغوريلا تسكن الغابات الواقعة بين الكمرون ونهر الكنجو فى المنطقة الإستوائية(١) وثمة حيوان تشتهر به المنطقة هو فرس النهر القزم Pygmy hippopotomus .

السكان :

رغم أن العنصر السائد فى هذه المنطقة هم الزنوج الحقيقيون ، ورغم أن سكناهم تمتد بشكل متصل ـ إلى حدما ـ من السنغال إلى الكمرون بل وإلى ما هو أبعد من ذلك ، فإن غرب إفريقيا يشكل منطقة تمتاز بتنوع سكانها تنوعا كبيراً . ورغم أنهم يشتركون فى صفات كثيرة ، فإنه توجد بينهم

(١) توجد هذه القردة فى غابات الجبال الموجودة فى غرب وجنوب غرب أوغندا فى منطقة شرق إفريقيا .

فروق كثيرة واسعة المدى سواء أكان ذلك فى حياتهم الداخلية ، أم فى دياناتهم ، أم فى النواحى الاجتماعية والدستورية . وعلى ذلك فنحن نجد مجتمعات تتراوح بين فلاحين يعيشون عيشة بسيطة فى قرى فى أعلى التلال وبين مجتمعات فى المدن الكبيرة تعد غاية فى التنظيم ؛ وثقافات تختلف بين الثقافة البدائية للوثنيين وبين ثقافة الصفوة من أهل الفكر ذوى الثقافة الغربية . وفى أمكنة عدة لا نزال نرى تلك الممالك القديمة فى الغابات . وعلى الرغم من أن دخول الحكم الأوربى قد أوقف تلك الحروب التى كانوا يدخرون لها قواهم فإنهم مازالوا يحتفظون بالكثير من عظمتهم وفخارهم ، وما زالوا يلعبون دوراً كبير الأهمية .

وأكبر مجتمع للزنوج الحقيقيين فى غرب إفريقيا هم الهوزا the Hausa الذين لا ينتمون إلى عنصر واحـــد . ولكنهم شعب نشأ عن عدد كبير من العناصر المختلفة ولكنها تشترك فى شىء واحد هو انها تتكلم لغة حامية فى الجوهر تسمى الهوزا . والهوزا يعيشون فى مستعمرات وجماعات منتشرة فى كل غرب إفريقيا يفرق بينها من البعد مثل مابين تريبولى وبمباى ولعل أكبر تجمع لهم هو ذلك الموجود فى المنطقة الشمالية من نيجيريا حيث يبلغ تعدادهم خمسة ملايين ونصف نسمة ويما يبدو أنهم قد استوطنوا تلك الجهة فى الماضى البعيد . وحتى فى ذلك التاريخ فقد كانوا منظمين فى شكل ولايات ، كل منها مسماة باسم عاصمتها ، وكل ولاية عبارة عن مدينة مسورة يستطيع الناس أن يأووا إليها زمن الحرب . وقد وقع الهوزا تحت السيطرة الإسلامية فى القرن الرابع عشر ، ومع أن الديانة الإسلامية لم تتعمق فى نفوسهم إلى حد بعيد إلا أنها ـ مما لاشك فيه ـ كان لهـــا أثرها الفعلى فى تطوير سياستهم على نحو سديد للغاية . وكل ولاية كان يحكمها ملك تعاونه هيئة إدارية وأخرى تشريعة مدربة ، بالإضافة إلى وجود نظام مالى جيد التنظيم . ورغم هذه التنظيمات الرائعة فإن ولايات الهوزا لم تقم بدور فعال

في الحقل السياسي لغرب إفريقيا . لقد كانت صغيرة ، محبة للنزاع ، كثيرة التعرض لهجمات جيران أقوياء . ثم جاءت ديانتهم ، التي لم يكن لها سلطان على النفوس لتضعف أكثر من ذي قبل (ففي القرن الثامن عشر كان حكامهم وثنيين بالفعل) مما حدا بعثمان دان فوديو أن يعلن الجهاد الذي به أخضع شعب الفولاني the Fulani بلاد الهوسا لسيطرته .

ويتصف شعب الهوسا بأنه متوسط القامة ، ملىء البنيان ، على جانب عظيم من القوة وشدة التحمل . وهم سود البشرة ، ذوو ملامح أدق من ملامح الآخرين من الزنوج الحقيقيين وهم فلاحون مجدون ، وتجار أذكياء ، ورحالة مغامرون . وفضلا عن ذلك فهم محاربون شجعان ، تشهد لهم خدمتهم في حربين ضمن القوات النيجيرية بالكفاءة العالية . وكذلك أصبحت لغة الهوسا هي اللغة السائدة lingua franca في منطقة كبيرة .

وثمة قبيلتان كبيرتان أخريان من الزنوج الحقيقيين في نيجيريا هما اليوروبا والإيبو the Yorubà & the Ibo . وهما ، مثل الهوزا ، تشكلان مجتمعين ليسا على شيء من التجانس ، ولكن بالأحرى مجموعات لغوية تنتمي إلى أصول عديدة من الأجداد ، وعلى ذلك فمفهوم كلمة « قبيلة » tribe لاينطبق عليهم . ومن المحتمل أن اليوروبا لم يكونوا من أصل زنجي خالص ، وأنهم ، مثل الفولاني ، قد نزحوا أصلا من مصر العليا . وأيا كان أصلهم ، فإن حضارتهم كانت فعلا حضارة قديمة ترجع بهم إلى حوالي ألف سنة ، حين وقع شعب أيف Ife الذين كانوا يعيشون داخل إلانحناءه الجنوبية لنهر النيجر فريسة لغزو المهاجرين الحاميين سواء من الشرق أم من الشمال . وكان أن إنتقل المركز السياسي إلى oyo التي أصبحت عاصمة لإمبراطورية تضم ليس فقط بلاد اليوروبا ولكن كذلك مناطق شاسعة على كل من جانبيها .

وكانت هذه الإمبراطورية تعتمد أساسا على ما كانت تقوم به من عدوان عسكري ، وكان الجزء الأعظم من ثروتها يأتي من تجارة الرقيق . ولكنها ما لبثت أن تفككت لأن الشعوب المحكومة لم تكن لتقبل أن تذهب كل أموال القطر بإستمرار إلى أويو oyo وليس لأية جهة أخرى . أما الجزء الشمالي من الامبراطوريه فقد سقط أمام هجوم الفولاني ، وأما الجزء الجنوبي فقد أتت عليه الحروب الأهلية . وحتى بعد أن تفككت الإمبراطورية فقد إستمر شحن الرقيق من العواصم الأصلية ، أويو وأيف Oyo & Ife ، ولم تنته تلك التجارة إلا بعد أن أوقفها ثم ألغاها نهائيا الحكم البريطاني . واليوروبا هم الشعب السائد في المنطقة الغربية من نيجيريا ، ويبلغ تعدادهم حوالي خمسة ملايين نسمة . وهم شعب على جانب عظيم من القوة والذكاء محبون لسكنى المدن ناجحون في أعمالهم ، قد أمكنهم التكيف بسهولة مع مقتضيات الحياة الحديثة . وفي ذات الوقت يفخرون بتاريخهم ونظمهم .

أما الإيبو IBO ، الذين يبلغ تعدادهم حوالي خمسة ملايين كذلك ، فهم يشكلون في المنطقة الشرقية الشعب المقابل (بل المنافس) لليوروبا . وهم يعيشون في ذلك الجزء من القطر الذي يرتفع إرتفاعا لطيفا من الساحل ، ويعمل السواد الأعظم منهم بالفلاحة وزراعة المحاصيل الغذائية مثل نبات اليام ونبات الكاسافا . والمحصول النقدي الرئيس لديهم هو محصول الخروب ، وهم معروفون جيداً بنظرتهم إلى الأمور نظرة غاية في التواضع والفردية ، وبعدائهم لأي إتجاه مركزي وللتنظيمات السياسية المعقدة . وكذلك فهم يحبون المعيشة في شكل مجتمعات قروية صغيرة تفصلها عن بعضها مساحات شاسعة من الأدغال ، أما المدن التي تشكل أسواقا كبيرة مثل مدينة أونيتشا Onitsha فتعد إستثناء لذلك .

وإذا ما إتجهنا غربا كان أول شعب كبير متجانس نصادفه هو شعب

الآكان Akan فى غانا وساحل العاج ، وهو من الناحية السلالية شعب واحد ولو أنه من الناحية اللغوية ينقسم إلى قسمين : قسم يتكلم الفانتى Fanti وآخر يتكلم التوى Twi . فأما الفانتى فيتكلمون بها على طول الساحل وإلى بعض المسافة فى الداخل . وأما القسم الذى يتكلم التوى فهو منتشر فى الجزء الأوسط من الإقليم كما أنه يضم الأشانتى. وشأن بقية شعوب الآكان ، هناك إحتمال كبير بأن الأشانتى قد نزحوا إلى موطنهم الحالى من إقليم السفانا فى الشمال والشمال الغربى ، وأنهم بعد أن تم لهم غزو الشعب الذى كان فى ذلك الحين يسكن الغابات قد أسسوا عددا من الولايات التى أصبحت، فيما بعد فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تشكل الإتحاد الفيدرالى الأشانتى . وبظهور الإتحاد الفيدرالى إلى الوجود أصبح الكرسى الذهبى Golden Stool فى نظر الأشانتى هو الرمز المجسم لقوميتهم . وكان فى اعتقادهم أن الكرسى قد نزل من السماء ليستقر على ركبتى أوزى توتو Osei Tutu ، زعيم كماسى Kumasi ، الذى جاء خلفاؤه – كحفظة للكرسى – لينظر إليهم بالتبجيل والتوقير باعتبارهم زعماء الشعب . وحين طالبهم الحاكم البريطانى ، فى عام ١٩٠٠ – وكان لا يفهم مغزى الكرسى ولا أهميته بالنسبة لهم – بتسليمه إياه، غضب الأشانتى غضبة كبرى إلى حد حمل السلاح . والأشانتى شعب صعب المراس ذو كبرياء ، وهم غاية فى التمسك بتقاليدهم والولاء لأنظمتهم وقد أدت بهم مهارتهم وشجاعتهم فى أعمال الحرب والقتال ، بالإضافة إلى موهبة عظيمة فى التنظيم ، والقدرة على الإتحاد ، ووجود شعور بالنظام، إلى جعلهم أقوى شعب صادفته أية سلطة أوربية فى غرب إفريقيا ، ولقد أثبتوا فيما بعد فى أيام السلم ، أنهم فلاحون متطورون ، وهكذا جاء الأشانتى اليوم ليلعبوا دوراً هاما ، فى الحياة الإقتصادية لغانا .

أما الشعب الذى يتكلم الإيو Ewe فى الجنوب الشرقى لغانا وتدجولاند

فإنما نذكره لظهوره على مسرح السياسة الدولية مطالبا بوحدته تحت حكومة واحدة . إلا أنه لا السلطات الاستعمارية ، ولا حكومة غانا ، ولا الأمم المتحدة قد قطعت برأى فى هذه المسألة ، ولكنه مما لا شك فيه أن مسألة توحيد شعب الإيو سوف تثار مرة أخرى .

وأما الكرو Kru فهم أصلا من ليبريا ، ولكنهم يوجدون موزعين فى شكل مجتمعات تعيش حول معظم موانى الساحل وهم ملاحو غرب إفريقيا ويمدون كثيراً من السفن التى تجوب مياه غرب إفريقيا بالبحارة اللازمين .

وثمة مجموعة كبيرة جداً من القبائل تدعى الماندنجو the Mandingo التى تشكل أهم الشعوب شبه الزنجية فى السودان الغربى . وهذه المجموعة كانت النواة الأولى لامبراطورية مالى فى القرون الوسطى ، وحتى الآن نراها منتشرة فى مساحة شاسعة فى الجهات الداخلية من الساحل فيما بين السنغال وشمال سير اليون . وأكبر جمع لها هو الموجود فى حوض النيجر الأعلى والسنغال الأعلى والجزء الشمالى من هضبة فوتا جالون وفيما بين ١٨٨٢ – ١٨٩٨ ، وتحت قيادة زعيم يدعى ساموري ، وقفت هذه القبائل وقفة عنيدة فى وجه الفرنسيين . وهم الآن يشكلون أعظم وسيط للتجارة فى ذلك الجزء من غرب إفريقيا ، كما أن لغتهم واسعة الإنتشار إذ تتكلم بها معظم شعوب المنطقة . أما من حيث الشكل فهم طوال نحاف القامة ، وفى بعض الحالات ذوو بروز فى عظام الوجنتين ، وذوو أعين صنيقة مما يدل على إمتزاجهم بالحاميين .

أما السنغاى the Songhai فهم الممثلون المحدثون للإمبراطورية التى قضت على مالى فى نهاية القرن الخامس عشر ، والآن يمتد توزيعهم إبتداء من المنطقة المجاورة لتمبكتو Timbuktu جنوبا عبر الإنحناءة العظمى

لنهر النيجر . وغالباً ما يبين السنغاى عن وجود ملامح حامية قوية ، مما يدل على إمتزاجهم بالحاميين فى الصحراء الكبرى .

والحوض الأعلى لنهر الفولتا هو موطن الموسى the Mossi الذين يدعون بأنهم من سلالة ذلك الشعب الذى أسس ولايات موسى داجومبا Mossi-Dagomba إبتداء من القرن الثالث عشر أو الرابع عشر فصاعدا .

وأما المندى the Mende فيسكنون منطقة تبلغ مساحتها حوالى ١٢٠٠٠ ميل مربع فى الوسط وفى الجنوب الغربى من سيراليون ويعتبرون أكبر وأهم قبيلة فى المحمية . وأما التيمن the Temne ، جيرانهم ، فقد جاءوا أصلا من إقليم النيجر الأعلى واستقروا فى المنطقة الواقعة بحذاء نهر سيراليون وخور پورت لوكا Port Lokko ، ومنهم استقطع البريطانيون الأرض اللازمة لتوطين الرقيق المحررين . أما الولوف Wollofs أو الجولوف Jollofs فهم قوم طوال القامة ، سود البشرة ، مليئو البنيان ذوو تقاليد عسكرية ، غالبيتهم العظمى فى السنغال .

والحاميون يمثلهم فى غرب إفريقيا شعب الفولانى the Fulani ، الذين يدعون عادة بالبيلز Peuls ، أو الفولا Fula ، أو الفلاتا Fellata ، أو ـ على حد تعبيرهم ـ الفولب Fulbe وهم موجودون فى المنطقة كلها ، من السنغال فى الغرب إلى دارفور فى الشرق ومن المعتقد أنهم قد نزحوا أصلا من مصر العليا ثم هاجروا غربا إلى ساحل الأطلنطى . ولهم شكل مميز ، فيعرفون بملامحهم الدقيقة ، وقامتهم النحيلة الطويلة ، وبشرتهم ذات اللون الفاتح . ومن ناحية الخلق فهم متحفظون ، معروفون بالمكر والخداع . ويبلغ أعدادهم حوالى ستة ملايين نسمة ، معظمهم منتشر بين السكان الزنوج ، ولو أن تجمعاتهم الرئيسية موجودة فى فوتاجالون فى غينيا ، وفى مسينا Massina فى السودان الفرنسى سابقا ، وفى أداماوا Adamawa فى نيجيريا .

وبعضهم رعاة رحل ، وبعضهم فلاحون مستقرون ، والبعض الآخر يجمع بين الزراعة والرعى . وأكثر هذه الفئات إحتفاظا بالملامح الجسمية لعنصرهم هم الرعاة الرحل والفولانى المستقرون أكثر شبهاً بالزنوج من الفولانى الرحل أو الفلاحين نصف المستقرين ، إما لأنهم فعلا زنوج يتكلمون لغة الفولانى ، وإما لأنهم قد تزاوجوا مع الزنوج .

وفى بعض أجزاء من غرب إفريقيا يشغل الفولانى مركز الصدارة من الناحيتين الاجتماعية والسياسية . فقد أمكنهم أثناء فترة العصور الوسطى الأوربية التغلغل بطريقة سلمية فى الإقليم الذى أصبح فيما بعد نيجيريا الشمالية ، وهنا وإزداد نفوذهم بإضطراد حتى عام ١٨٠٢ حين قام شيخ فولانى يدعى عثمان دان فوديو بشن حرب دينية أكسبته إمبراطورية واسعة تشغل جزءا كبير من غرب إفريقيا والجهات النائية فى الداخل . وعلى الرغم من أن هذه الإمبراطورية قد تفككت فيما بعد ، فقد بقى الفولانى هم الطبقة الحاكمة فى جزء كبير من نيجيريا الشمالية ، بالاضافة إلى أنهم يشكلون الطبقة الأرستقراطية فى غينيا .

أما البانتو فلم يكن لهم غير أثر ضئيل فى مسرح الأحداث فى غرب إفريقيا فهم يعيشون فى الكمرن ، على الحافة الشمالية الغربية من عالم البانتو ، وهم على وجه العموم يعيشون فى مناطق الغابات ، بينما نجد أن جيرانهم الذين يتكلمون السودانية يفضلون الجبال ومناطق الحشائش . وكذلك توجد فى منطقة الحدود الجنسية هذه عدة قبائل ذات ملامح مختلطة تعرف باسم شبه البانتو .

وأخيرا فلا بد وأن نذكر بأنه فى كل المنطقة الواقعة بين الغابات والصحراء توجد جماعات كبيرة من الرعويين شبه الزنوج الذين تحولوا

إلى الحامية بشكل دافق . والذين يعتقد بأنهم أحفاد سكان الإمبراطوريات شبه الصحراوية القديمة ومثال ذلك سكان إقليم تشاد .

وقد جاءت عدة عناصر أجنبية لتتخذ لنفسها وطنا فى غرب إفريقيا . فليبريا ، كما رأينا ، قد إستوطنها الزنوج الذين تحرروا من الولايات المتحدة الأمريكية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وهؤلاء رغم إنحدارهم عن أصل إفريقى ، كانوا كلية غرباء عن الأحوال الإفريقية ويشكلون مجتمعاً خاصاً فى المدن الساحلية ، ويحاولون بسط سيادتهم على القبائل الوطنية فى الداخل التى كانت هى بدورها تكره وجودهم . وفى حوالى العشرين سنة الماضية كانت هناك جهود أكيدة من جانب الحكام الأفرـ أمريكيين لإستبدال هذا الموقف « الاستعمارى » بالتعاون مع القبائل الوطنية ، وكذلك فقد تحسن المركز المالى بقيام عدد من المشروعات الأمريكية ، كما جرت تنمية وتوسيع الخدمات الاجتماعية والاقتصادية . وسيراليون ، مثل ليبريا ، قد إستوطنها فى الأصل عدد من الزنوج المهاجرين ولكن وجود الحكم البريطانى قد حال دون وقوع تكرار الموقف هنا . ومع ذلك فإن من يدعون بالكريول creoles يطالبون بتمييزهم اجتماعيا عن السكان الوطنيين فى المحمية المجاوره ولو أنهم بالطبع غير قادرين على تحقيق أية سيادة سياسية عليهم . ويعتبر الأكوس Akus بالنسبة للجامبيا ، مثل الكريول بالنسبة لسيراليون ، فهم أحفاد الرقيق المحررين (العائدين من أمريكا) .

وثمة مجموعة أخرى من الأجانب من السوريين (ومعظمهم فى الحقيقة من اللبنانيين) الذين يلعبون نفس الدور الذى يؤديه الآسيون فى شرق إفريقيا . ولكنهم أقل عددا منهم بكثير ، ولم ترسخ أقدامهم كثيراً فى هذا الإقليم .

وأخيرا فهناك الأوربيون ـ ومعظمهم من الموظفين الرسميين ، والجنود والتجار ، والمشتغلين بالمناجم ، ورجال الارساليات ، والمدرسين ـ الذين ينتمون إلى طبقة تختلف كلية عن الطبقات الأخرى . والغالبية العظمى هم من السكان العابرين ، بمعنى أنه ليس من المتوقع بأن يقضوا بقية حياتهم هناك . فبعد العمل فى غرب إفريقيا ، إما لحسابهم الخاص . وإما ـ كمثل الموظفين ورجال الارساليات ـ لحساب الآخرين ، فسوف يأتى الوقت الذى فيه يعودون إلى بلادهم فى أوربا ، وعلى خلاف ليبيا أو الجزائر ، فليس هناك فى غرب إفريقيا سكان أوربيون مستوطنون .

أوجه الحضارة:

لقد إنبثقت فى غرب إفريقيا عن المجتمعات الزنجية الأصيلة ، القوية ، التى تعد غاية فى التنظيم ، المستقرة ، والتى يعمل السواد الأعظم منها بالزراعة ـ كما أشرنا إلى ذلك فى الجزء الأول ـ حضارة ممتازة فى كثير من جوانبها . ولعل أبرز هذه الجوانب جميعاً : ذلك النظام الذى تعمل به الجمعيات السرية وذلك التقليد الفنى الراسخ الذى يتجلى فى فن النحت على وجه الخصوص ومعظم هذه الجمعيات السرية عبارة عن إتحادات تماثل فى بعض أوجهها المفهوم الإنجليزى لجمعية الصداقة ، وهى جماعة من الناس تجمعهم معاً منافع متبادلة ، وتكسبهم عضويتها ميزة اجتماعية معينة . وبعض هذه الجمعيات غاية فى القوة ، ذات مهام دينية وتشريعية وإجتماعية هامة . مثال ذلك جمعية پورو Poro فى سيراليون التى تعد غاية فى الإنتشار والتى ـ كما قال أحد المؤلفين ـ كانت تشكل فى وقت من الأوقات إتحادا وقائياً ضد تجار الرقيق . وأخرى غيرها هى ، جمعية إجبو ، Egbo Society التى قامت بين الإيبيبيو the Ibibio فى نيجيريا ، والتى بلغ من قوة نفوذها وسعة إنتشارها أن كان لها طابع حكومى وبينما أن معظم الجمعيات غير ضارة بالبلد بل غاية فى النفع ، فإن

هناك من الجمعيات ، مثل جمعيات النمر الأرقط ، والتمساح ، والقرد الإفريقى Leopard, Crocodile & Baboon Societies ، ما هو ذو وجهة هدامة وضد صالح المجتمع .

وفن النحت الإفريقى مقصور على منطقة جغرافية تامة التحديد تطابق حوض النيجر وحوض الكنجو ، ومن ثم فهى تطابق منطقة غرب إفريقيا والمنطقة الاستوائية الواردتين فى هذا الكتاب . أما لماذا يجب أن يكون ذلك على هذا النحو فهو ماليس من السهل تفسيره ، ولكن مما يجدر ملاحظته أن سكان منطقة فن النحت معظمهم زراعيون مستقرون ممن إستوطنوا مناطقهم الحالية لزمن طويل ، بينما أن سكان شرق وجنوب إفريقيا يتبعون إقتصادا رعويا أو شبه رعوى وأنهم قد جاءوا إلى مناطقهم الحالية فى أزمنة حديثة نسبياً . وكذلك فإن كلا من المناخ والنبات فى أى من هذه المناطق مغاير لمثيله فى المناطق الأخرى ، كما أن جزءا كبيراً من المنطقة التى يمارس فيها فن النحت غزير الأمطار كثيف الغابات (١) .

وقد إزدهر فن النحت فى وقت من الأوقات فى غرب إفريقيا كلها ، ولكنه الآن أصابه الذبول والاضمحلال إلا فى أماكن قليلة منها . ويرجع هذا التغيير إلى زوال تلك الأنظمة التى كان فن النحت يرتبط بها إرتباطا وثيقا وهى التقاليد القبلية والديانة القبلية . وكذلك فإن التغييرات الحديثة فى فكرة الزعامة وفى دور الزعيم قد سلبت الفنانين ذلك التعضيد الذى كان فيما سبق ، وفى حالات كثيرة ، مبعث وحيهم وإلهامهم .

وثمة نمطان مختلفان من فن النحت فى غرب إفريقيا ، نمط السودان

(١) وعلى خلاف القاعدة ، فان هناك من فنانى النحت بين القبائل التى تعيش فى شمال شرق إفريقيا البرتغالية من يبلغون حد الروعة والإتقان .

الغربى ونمط ساحل غينيا . إلا أن هذا التصنيف قد جاء على نحو من الاتساع بحيث لا يوحى بأن أياً منهما يتبع فئة محددة منفصلة عن الأخرى . وكمثل حدود الأجناس والمناخ والنبات ، فإن حدود مناطق الفن ليست محددة بوضوح وليس من السهل تبينها .

فأما السودان الغربى فهو منطقة إسلامية صرفة ، وعدم الإيمان بالأوثان والتماثيل هو من جوهر العقيدة الاسلامية . ولربما كان هذا هو السبب فى أن الفن الوثنى لهذه المنطقة يميل إلى التعبير عن التنسك وكبح النفس ولا يحيد عن الشكلية بأية حال . وهو يقوم إلى حد كبير على عمل التماثيل البشرية والحيوانية وعمل الأوجه المستعارة من الخشب المنحوت ، وكثير من هذه الأشكال ذو تصميم هندسى كذلك الذى يتسم به فن الزخرفة الاسلامى .

ولساحل غينيا ـ الذى هو فى هذا السياق يمتد من السنغال إلى الكمرون ـ تقاليد فنية أكثر تنوعا . ثم هو كذلك فن قديم كما هو ثابت من اكتشاف تماثيل من الطين المحروق terra cotta ، تنتشر فى مساحة كبيرة من منطقة نوك Nok فى نيجيريا ، وتنتمى إلى حضارة ترجع إلى الجزء الأخير الألف الأولى ق . م . وكذلك هناك من الادلة مايثبت أن حضارة نوك Nok قد خلدت زمنا طويلا كان كافياً للتأثير على الفن فى أيف Ife ، ذلك الفن الذى إزدهر بعد الألف الأولى الميلادية وحيث أنه بات من المعتقد بأن الأخير بدوره كان له أثره فى تطوير فن بنين Benin ، فقد قام هناك احتمال بوجود حبل متصل من التقليد الفنى فى هذا الجزء من إفريقيا يرجع تاريخه إلى مايزيد على ألفى سنة . وحقا ، فمن أيف Ife وبنين Benin جاءت أروع وأشهر أمثلة للفن فى غرب افريقيا . فأيف قد أنتجت من أعمال البرونز مايثير الاعجاب ويمتاز بالواقعية والتناسق ، وكذلك العديد

من تماثيـــل الفخار المحروق ، وأثاث أماكن العبادة من الحجر الرملى والجرانيت ، ثم المبانى الحجرية الكبيرة الحجم . وكانت أعمال بنين من البرونز والعاج هى حاصل فن يرتبط أساسا بالحاكم وحاشيته ، وقد بلغ أوجه ـ على مايبدو ـ فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . والأنماط الأولى المعروفة لدينا من هذا الفن قليلة ، وهى تنحو نحو المذهب الطبيعى ، ولا يختلف أسلوبها كثيرا عن أسلوب أيف Ife . أما الأنماط التى جاءت فيما بعد فكانت ثابتة ، فهى تتبع أسلوبا خاصا ينأى عن البساطة الأولى ويتسم بوفرة من التفاصيل الزخرفية ، وبحلول القرن التاسع عشر كان الفن فى بنين Benin قد آل إلى الزوال .

ولم يكن فن صب المعادن ليقتصر على أيف وبنين . فقد وجد أن الموازين الذهبية البرونزية الصغيرة هى أكثر أنماط الفن الأشانتى تعبيرا عنه، ولو أن الفن الأشانتى لأشغال المعادن يحقق أعلى مستوى له فيما أنتجه من أوان صغيرة صنعت من أجل المناسبات الدينية . وفى داهومى توجد رابطة حرفية معينة تنحو فى إنتاجها نحو الحفاظ على مظاهر الملكية وطبقة النبلاء وتشكل تماثيل بشرية وحيوانية ومشاهد من الحياة اليومية لذلك القطر .

وينتشر فى المنطقة بأسرها فن رفيع لحفر الخشب ، الذى من أخص ملامحه حفر الأوجه المستعارة masks التى تقترن بالدين والشعائر الدينية للجمعيات السرية ، وكذلك الحفر الزخرفى . وعمل أشكال من الطين ، ورسوم على القماش .

ولنذكر هنا شيئاً عن الفن فى المنطقة الاستوائية ولو أننا سنتناولها فى الفصـل التالى . فهذه المنطقة يسكنها البانتو ، باستثناء حالات قليلة ، ولكن يبدو أنه ليست هناك أية فروق جوهرية فى النواحى الجمالية بين فنهم وفن الزنوج الحقيقيين فى ساحل غينيا ، ويسود فن حفر الخشب الذى

يبلغ أقصى ذروته فى ذلك الإنتاج الرائع المتنوع لحوض الأوبانجى كونجو . وعلى وجه الخصوص يمتاز فن القبائل التى تجتمع تحت اسم البوشنجو(١) والتى تسكن فيما بين نهرى كاسـاى وسانكورو ، بالجرأة فى التصميم ، والبراعة فى التصوير ، والروعة فى الصناعة .

تاريخ المنطقة

انتهى الزحف على إفريقيا وجاءت منطقة غرب إفريقيا لتقسم بالفعل بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا . أما البرتغال فقد احتفظت لنفسها بمساحة صغيرة فى غينيا البرتغالية . وكذلك كانت هناك مستعمرة ليبريا الأفرو ـ أمريكية التى يحكمها أبناء الأرقاء السابقين وأما النصيب الأكبر فقد آل إلى فرنسا ، وبعد ذلك تأتى بريطانيا فى المرتبة الثانية ، ثم ألمانيا فى المرتبة الثالثة . وكان الاتحاد الفيدرالى الفرنسى لغرب إفريقيا ، حين ظهوره ، يتـكون من ثمانى مستعمرات : موريتانيـا ، السنغال ، غينيا الفرنسية ، سـاحل العاج داهومى ، الفولتا العليا ، السودان الفرنسى ، ومستعمرة النيجر ، وكانت غرب إفريقيا البريطانية تتـكون من الجامبيا ، سيراليون ، ساحل العاج ، ثم نيجيريا (٢) . وكانت فرنسا ، مع مستعمراتها الثلاث : موريتانيا والسودان والنيجر تحتـل كل المساحة الداخيلة الشاسعة وتصل إلى البحر فى عدة مواقع عظيمة تتمثل فى المنطقة الساحلية لموريتانيا والمستعمرات الخمس الأخرى . ومن السنغال كانت هـذه المواقع تفصلها

---

(١) ويفضـــل J. Vansira أن يدعوهم بالباكوبا ، BAKupa ، حيث أن « البوشننجو » لا تصدق تماما إلا على قبيله بامبالا Bambala

(٢) فى عام ١٩٠٦ أدمجت حكومتا لاجوس ومحمية نيجريا الجنوبية (محمية ســاحل النيجر السابقة) ليكونا مستعمرة ومحمية نيجيريا الجنوبية . وفى عام ١٩١٤ أدمجت نيجيريا الشمالية ونيجيريا الجنوبية لتكونا مستعمرة ومحميه نيجيريا .

عن بعضها الملحقات البريطانية ، والألمانية ، والبرتغالية وليبريا .

ومع أن الخرائط الجغرافية لفترة الزحف على إفريقيا تبرز مساحات شاسعة من غرب إفريقيا مظللة بهذا اللون أو ذاك ، لتبين مناطق نفوذ هذه الدول ، فإن حقائق الموقف فى كل حالة كانت تختلف اختلافا كليا عما هو موضح فيها . فالنفوذ الأوربى لم يكن على هــذا النحو من الاتساع والشمول كما هو ظاهر فى هذه الخرائط . وكثير من شعوب المناطق الداخلية الشاسعه الموضحه بأنها مستعمرات أو محميات كانت لا تزال على غير علم بحالتها الجديدة ، وكذلك فإنها لم تكن على استعداد للخضوع للحكم الأوربى .

إلا أنه لم يكن من المستطاع وقف تجارة الرقيق ، ولا إقرار الأمن والنظام ولا البدء بالتنمية الاقتصادية اللازمة إذا لم يقم هنـاك أولا حكم حقيقى فعال . وعلى ذلك فقد كان الهم الأكبر للدول الاستعمارية فى السنوات التى أعقبت الزحف هو استمالة الإفريقيين للاعتراف بالسلطة الجديدة .

فساحل الذهب قد تم إخضاعه بواسطة البريطانيين فى عام ١٩٠١ بضم أشانتى لمستعمرة تابعة للتاج وفى نيجيريا لجأ البريطانيون فى باديء الأمر إلى فكرة تكوين شركة تخول كل سلطات الحكم ويعهد إليها بتوسيع النفوذ البريطانى ، ألا وهى الشركة الملكية البريطانية للنيجر التى يرأسها سير جورج جولدى لقد نجح جولدى فى فرض سيطرته على ولايتى النوب والأيلورين the Nupe & Ilorin اللتين كانتا تتجران فى الرقيق ، كما نجح فى إبعاد الألمان والفرنسيين عن شمال نيجيريا ، وفى عام ١٩٠٠ تولت الحكومة بنفسها مسئوليات الحكم ، ومع كل فقد استمرت الشركة تباشر مهامها التجارية .

وفى نفس السنة أسندت إلى سير فردريك لوجارد مهمة تشكيل إدارة للحكم فى شمال نيجيريا ، وشغل حتى عام ١٩٠٦ بتوطيد مركزه فى إمارات الفولانى .

ومع كل ، فقد استغرق قيام حكم أوربى فى المستعمرات الفرنسية وقتاً

أطول . ففى عام ١٩١٥ ، كانت هناك عمليات حربية فى غينيا وفى ساحل العاج ، وكذلك فإن مستعمرة النيجر لم تتحول من الحكم العسكرى إلى الحكم المدنى حتى عام ١٩٢٠ . وقد أعيد توزيع السلطة فى الإقليم بعد الحرب العالمية الأولى بتقسيم المستعمرتين الألمانيتين توجولاند والكمرون بين بريطانيا وفرنسا لتكونا تحت انتداب عصبة الأمم . واستمرتا تحت حكم نفس الدولتين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تحت وصاية الأمم المتحدة فأما البريطانيون فقد حكموا ما خصهم من توجولاند والكمرون كجزء من ساحل الذهب ونيجيريا على التوالى . وأما توجولاند الفرنسية فقد ضمت فى وقت من الأوقات إلى غرب إفريقيا الفرنسية ولكن ما لبثت أن أعيدت إلى الحكم الذاتى فى عام ١٩٤٦ وأصبحت ، إقليما ملحقاً ، فى ظل الدستور الصادر فى تلك السنة . وأما الكمرون الفرنسى فقد ألحق أصلا بإفريقيا الاستوائية الفرنسية لأغراض إدارية ، ولكنه اعتبر كوحدة منفصلة حين عهد بالانتداب عليه إلى فرنسا ، وكذلك أصبح إقليما ملحقاً ، بمقتضى دستور ١٩٤٦ .

ولما انهارت فرنسا فى عام ١٩٤٠ انضمت غرب إفريقيا الفرنسية الرسمية إلى فيشى ، وفى سبتمبر ١٩٤٠ حاولت القوات البريطانية والقوات الفرنسية الحرة الاستيلاء على داكار ، عاصمة الاتحاد ، ولكن المحاولة باءت بالفشل ، وكذلك زالت عنهم مخاوفهم من استخدام الألمان لداكار ، ولم يكن كثير من الإفريقيين ليؤيد الاتجاهات الأولى لحكومتهم فى مشايعة فيشى فكان أن رفضوا قبول هدنة ١٩٤٠ . وذهبت أعداد كبيرة من الإفريقيين إلى إفريقيا الاستوائية الفرنسية ، التى كانت قد انضمت إلى الفرنسيين الأحرار وهكذا أسهموا بنصيب غير قليل فى المجهود الحربى للحلفاء . ولما رسا البريطانيون والأمريكيون فى شمال إفريقيا فى عام ١٩٤٢ ، دعم الحاكم العام بواسون Boisson قواته بالأدميرال دارلان ، وهكذا خرج بغرب إفريقيا

الفرنسية إلى صف الحلفاء . وكانت المستعمرات البريطانية بالإجماع كلها الإخلاص والوفاء ، إذ أسهمت بنصيب وافر من العتاد والأموال والرجال .

لقد زادت الحرب العالمية الثانية فى كل من غرب إفريقيا البريطانية والفرنسية من سرعة الاتجاه نحو الحكم الذاتى . ففى مؤتمر عقد فى برازافيل فى إفريقيا الاستوائية عام ١٩٤٤ قر رأى الحكومة الفرنسية المؤقتة على توجيه سياستها الاستعمارية وجهة جديدة . فتطبيقا لنظرية التمثل the of assimilation دفع المؤتمر برفض أى إقتراح يهدف إلى الحكم الذاتى وكان الهدف من ذلك هو الوصول إلى إدماج هذه الملحقات مع فرنسا على نحو أوثق ، والعمل على إشراكها فى إعادة بناء النظام السياسى الفرنسى ، ومن ثم إشراكها فى الحياة السياسية لفرنسا . هذه المقدمات السياسية كان لابد وأن يصاحبها قيام إصلاحات اجتماعية وتطوير إقتصادى . وفى ذات الوقت فقد ظفر الموقف المحلى بإعتراف المؤتمر بما للأنظمة الإفريقية من قيمة . أما الدستور الذى إنبثق عن هذه المناقشات وصدر فى عام ١٩٤٦ فقد نص على قيام « إتحاد يقوم على المساواة فى الحقوق والواجبات » ، فيه وصفت مستعمرات غرب إفريقيا الفرنسية، وغيرها ، بأنها أقاليم « ماوراء البحار » ، لشعوبها حق المساواة مع الوطنيين الفرنسية ، ولها حق التمثيل فى أنظمة الجمهورية الفرنسية ، وأن تكون لها مجالسها النيابية الخاصة المسماة « بالمجالس الإقليمية » Assemblêes territorides . وكذلك أنشىء « صندوق الاستثمار الاقتصادى والتطوير الاجتماعى » من أجل تنمية وإستثمار رأس المال . ورغم أن هذا الدستور قد إستطاع إلى حد ما أن يحقق مطالب الصفوة من السكان ، فقد قصر إلى حد كبير عن تحقيق المساواة السياسية التامة بين الإفريقيين والفرنسيين تلك المساواة التى كانت تعنيها نظرية التمثل

وبمرور السنين جاء الزعماء الإفريقيون الجدد ليطالبوا بقسط أوفر من الحكم الذاتى ، بل إن التغييرات الكبيرة التى أستحدثت فى عام ١٩٥٦ (التى جاءت بالعلاقات الفيدرالية بدلا من الفكرة القديمة للتمثل) مالبثت أن تبين أنها غير كافية لمواجهة المد الجارف للقومية . أما الدستور الجديد الذى جاء به الجنرال دى جول بعد توليه الحكم فى عام ١٩٥٨ فقد أحدث تغييراً جذريا فى النظام الفرنسى للحكم فيما وراء البحار . فقد أتاح هذا الدستور للأقاليم السياسية فيما وراء البحار أن تكون أعضاء فى رابطة من الدول ذات الحكم الذاتى التى تشترك فقط فى السياسة الخارجية ، والدفاع، والعملة ، وبعض النواحى الاقتصادية المشتركة . وكان رفض الدستور يعنى الاستقلال المباشر ، وهكذا أصبح حق الإنفصال شيئا معترفا به حتى ولو كان الدستور قد سبق تقبله . وقد وافقت على الدستور الجديد بأغلبية كبيرة كل الأقاليم السياسية لغرب إفريقيا فيما عدا غينيا الفرنسية ، وعلى ذلك فقد أعتبرت هذه الأخيرة بأنها قد إنفصلت عن فرنسا ، وسحبت عنها كل المساعدات الفرنسية ، وأصبحت غينيا الآن جمهورية مستقلة . وتعرف الآن هذه الجمهورية بأنها « ديموقراطية مركزية » Contralized Democracy ، وهذا يعنى فى الواقع أن القطر يحكمه الرئيس سيكوتورى ، عن طريق حزب سياسى أوحد برأسه هو نفسه . أما الأقاليم السياسية التى كانت سابقا تحت الوصاية - وهى الكمرون الفرنسى وتوجولاند الفرنسى - فهى كذلك جمهوريات مستقلة خارج رابطة الشعوب الفرنسية . وبعد محاولة للإتحاد فى شكل إتحاد فيدرالى يسمى مالى - بإسم إمبراطورية مالى التى ترجع للقرون الوسطى - أصبح السنغال والسودان الفرنسى دولتين مستقلتين داخل الرابطة الفرنسية ، وأصبحت هذه الأخيرة تسمى مالى . أما مستعمرة النيجر السابقة ، وساحل العاج ، وداهومى ، والفولتا العليا (وهى الآن جمهورية الفولتا) فهى دول مستقلة إتحدت مع بعضها من أجل

التعاون الاقتصادى فيما يسمى « باتحاد ساحل بنين » . وليس واضحا موقفها بالنسبة للرابطة الفرنسية ، وكذلك فإن تشاد دولة مستقلة ، ولكن صلاتها مع الجمهوريتين الإستوائيتين إفريقيا الوسطى والكنجو ليست ـ على مايبدو ـ محددة تمام التحديد .

أما التطور السياسى للمستعمرات البريطانية فقد كان أبسط من هذا بكثير ، وهذا راجع إلى حد كبير إلى أن تقرير المصير ، وما فيه من حق الإنفصال كان شيئاً تجيزه السياسات الاستعماريه البريطانية . وأما فى نيجيريا على وجه الخصوص ، فإن سياسة الحكم غير المباشر التى اتبعها لوجارد Lugard ، أى الحكم عن طريق السلطات غير التقليدية ، فكانت تقوم على تعليم الشعب وتدريبه على الحكم المحلى حتى يستطيع كلية أن يتولى أموره بنفسه . أما فى الوسط فقد أول مجلس تشريعى أنشىء فى إفريقيا البريطانية فى ساحل الذهب عام ١٩٤٦ ، وكانت غالبية أعضائه من غير الرسميين . ولما وقعت الإضطرابات فى عام ١٩٤٨ شكلت لجنة للتحقيق ، فأشارت بوجوب إجراء تغييرات جذرية . وفى السنة التالية قامت لجنة كل أعضائها من الإفريقيين بعمل توصيات تقبلت كأساس لتطوير دستورى أكمل . ثم صدر دستور جديد فى عام ١٩٥٠ ، وأجريت الإنتخابات فى عام ١٩٥١ ، وفى السنة التالية شكلت وزارة يرأسها رئيس وزراء إفريقى ، وأعضاؤها من الإفريقيين ، كل منهم مسئول عن وزارته . ثم كانت هناك إنتخابات أخرى عام ١٩٥٦ فاز فيها حزب الشعب ، وأدى فوزه إلى منح الاستقلال التام داخل الكمنولث البريطانى عام ١٩٥٧ . وهذه الأمة الجديدة ، التى تضم كذلك توجولاند ـ سابقا تحت الوصاية البريطانية ـ فقد أصبح إسمها غانا إستنادا إلى صلة مزعومة بإمبراطورية فى العصور الوسطى كانت تحمل نفس الإسم وقد أصبحت غانا الآن جمهورية داخل الكمنولث البريطانى .

ومع أن غانا كانت أول مستعمرة من مستعمرات غرب إفريقيا

البريطانية ، تحصل على الإستقلال . إلا أنها ان تكون فى المستقبل البعيد أقواها ولا ـ ربما ـ أكبرها نفوذا . وفى عام ١٩٦٠ أصبحت مناطق النيجر الثلاث إتحادا فيدراليا مستقلا داخل الكمنولث . وكان إصدار دستور فيدرالى شيئا تحتمه الضرورة حيث أن الإقليم لم تكن لاتربطه أية وحدة طبيعية ولم يكن هناك ما يجمع شمله غير وجود الحكم البريطانى . أما المشكلات التى تواجهها الآن نيجيريا المستقلة فهى مشكلة العلاقة بين المناطق الثلاث والحكومة الفيدرالية ، ومشكلة العلاقات بين المناطق نفسها . أما نيجيريا الجنوبية ، التى تشمل المنطقتين الشرقية والغربيه ، فغالبيتها الساحقة من المسيحيين والوثنيين ، فيها طبقة متوسطة كبيرة ذات نفوذ كبير ويمتاز الناس فيها بالنشاط وحب الموسيقى والغناء ، وبتعليمهم الغربى ، وتنورهم السياسى . ومن هذه الطبقة يأتى معظم الزعماء . والشمال غالبيته أرستقراطية إسلامية . وكذلك يعوز العلاقات بين المنطقتين الشرقية والغربية ، اللتين يسكنهما الإيبو واليوروبا على التوالى ، الشعور بالإخلاص والوفاء . فإذا ما زالت أسباب هذا التصدع والشقاق أو أمكن علاجها فإن نيجيريا ، التى يبلغ سكانها أكثر من سكان كل بقية غرب إفريقيا ، سيكون لها دون شك أعمق الأثر على مستقبل القارة الإفريقية .

أما سيراليون فقد فازت بالحكم الذاتى عام ١٩١٦ ، والمشكلة الرئيسية هنا ـ كما يبدو ـ هو الإنقسام القائم بين مستعمرة يسكنها أحفاد الرقيق المحررين ، وبين محمية هى موطن السكان الأصليين للبلاد . وأما الجامبيا ، التى تتكون من جزء مستعمرة وجزء محمية ، فهى أصغر من أن يتحقق لها الإستقلال التام على الإطلاق ، وبمقتضى الدستور الحالى نجد أن الأعضاء المنتخبين هم فى غالبيتهم أعضاء فى كلا المجلسين التشريعى والتنفيذى ، ومن الخطورة بمكان أن يغامر سكان الجامبيا بمستقبل بلادهم

السياسي بالسعي للإنضمام في إتحاد فيدرالي مع الدول المجاورة . وقد يرى المدقق المحايد أنه من الحكمة أن يبقوا كما هم .

ولقد كانت هناك بعض الشكوك حول مستقبل الكمرون البريطاني . ففي ١٩٦٠ وجدنا الجزء الجنوبي من هذا الإقليم ، أو الكمرون الجنوبي الذي كان بالفعل قد تأسس في عام ١٩٥٤ كمنطقة قائمة بذاتها ، ينفصل نهائيا وكلية عن نيجيريا حين تحقق للأخيرة الإستقلال . وسوف يجرى إستفتاء في القريب العاجل ليختار الشعب إما الوحدة مع الكمرون الفرنسي سابقا - الذي أصبح الآن جمهورية مستقلة - وإما الإنضمام إلى الاتحاد الفيدرالي لنيجيريا . أما الجزء الشمالي ، أو الكمرون الشمالي ، فقد أدلى بصوته في عام ١٩٥٩ في جانب استمرار الوصاية البريطانية ، وكان هناك استفتاء آخر في عام ١٩٦١ كانت نتيجته انضمام الكمرون الشمالي إلى نيجيريا أما الكمرون الجنوبي فقد اختار أن ينضم إلى جمهورية الكمرون ثم رجع إلى الكمرون في سنة ١٩٦٢ كل أجزائه سواء ما كان قد ضم إلى بريطانيا أو نيجيريا .

الإقتصاديات :

غرب إفريقيا غير مناسب مناخيا لإقامة الأوربيين ، وبإستثناء ما تقوم به شركة فايرستون في ليبريا من أعمال ، وعدد من الزراعات التخصصية في الاقاليم السياسية الفرنسية والبرتغالية ، فإن كل ألوان النشاط الزراعي إنما يقوم به السكان الوطنيون في هذا الجزء من إفريقيا . ونجد في غرب إفريقيا ، كما هو في أي مكان آخر من القارة ، أن معظم الإفريقيين إنما يهتمون في المقام الأول بزراعة المحاصيل الغذائية ، وبإستثناء حالات خاصة معنية فإن حاصلاتهم التصديرية إن هي في أغلب الأحوال إلا الفائض الذي يزيد عن حاجتهم من إنتاج المزارع الصغيرة . وتشمل الحاصلات الغذائية الضرورة نبات اليام Yams ، ونبات الكسافا Cassava

والجذور الأخرى ، والبقول ، والموز الإفريقي ، والأرز ، والفول السوداني والحبوب ، والأنواع المختلفة من المحاصيل الثانوية مثل القرع العسلي ، والطماطم ، والفلفل بأنواعه .

ولعل أهم المحاصيل وأعظمها قيمة هو الكاكاو ، الذي كان يزرع أصلا في أمريكا الجنوبية ثم أدخل البرتغاليون زراعته في جزيرة سانت توماس وبعد محاولات غير ناجحة لزراعته في ساحل الذهب في أوائل القرن التاسع عشر ، جاء رجل يدعى تيتة كواش Tetteh Kwasbi (الذي كان يجدر بأهل غانا - إن لم يكونوا قد فعلوا - أن يقيموا له نصباً تذكاريا) بست حبات منه من فرناندو بو إلى قريته . ومن هذه البداية الصغيرة نشأت صناعة تبلغ قيمة إنتاجها حوالي ثلثي قيمة صادرات غانا . وكذلك فإن الكاكاو يشكل سلعة هامة ضمن صادرات ساحل العاج ، وتوجولاند ، ونيجيريا . وعلى خلاف المحاصيل الغذائية الأخرى ، فإن الكاكاو يزرع من أجل التصدير فقط ، وقد أبدى بعض المراقبين تخاوفهم من أنه من الخطورة بمكان أن تعلق إقتصاديات القطر كله على هذا المحصول وحده . وكان سبب هذه المخاوف إنتشار مرض نباتي فتاك يدعى الإنتفاخ النباتي the swollen shoot الذي لم يتوصل بعد إلى إيجاد علاج له . ولم يكن من السهل على الفلاحين الإفريقيين أن يتقبلوا تلك الحقيقة المؤلمة التي تقول أنه ليس من طريقة ناجعة لإنقاذ هذه الصناعة غير إستئصال الأشجار المصابة ، إلا أنهم قد أصبحوا الآن أكثر إقتناعا وتعاونا في هذا الصدد وهم يتلقون الآن تعويضات جزئية من لجنة تسويق الكاكاو عن الأشجار التي تقطع لهذا السبب .

أما الفول السوداني فهو ليس فقط مادة غذائية إفريقية مفيدة، ولكنه كذلك يشكل محصولا تصديريا هاما . فالفول السوداني ومستخرجاته يشكل ما لا يقل عن ٩٠٪ من صادرات السنغال ، بينما هو في الجامبيا يشكل بالفعل المحصول النقدي الوحيد ويمثل ٩٨٪ من صادراتها .

وأما نخيل الزيت فهو يتطلب معدلا عاليا - بعض الشيء - من الأمطار، وعلى الرغم من أنه قد ينبت فى التربة الضعيفة فهو يفضل التربة الغنية الرطبة. وهو ينمو بوفرة فى مناطق الغابات قرب الساحل. وتفضل بعض الأقطار - وعلى الأخص نيجيريا - عصر ثماره على تصديرها. وبعضها يصدر النواه تاركين عملية التصنيع للأقطار المشترية.

وأما ثمار فول الشى the shea nuts فتجمع من إقليم السفانا الجاف، وهى تمد الإفريقيين بالزيت والزبد اللازمين للطعام، كما تمدهم بالزيت من أجل الوقود. وشجرة الشى هذه لها من الأهمية فى حياة الإفريقيين فى هذه المناطق ما لنخيل الزيت فى منطقة الغابات.

ولقد زرع القطن فى غرب إفريقيا الفرنسية، سابقاً، ولكنه مقصور على الأراضى التى تروى فى حوض النيجر. وفى نيجيريا يزرع القطن فى دلتا النيجر. ويصدر الموز من غينيا وساحل العاج، ومن بين الصادرات القانونية الأخرى البن والسمسم والزنجبيل.

وفى عام ١٩٢٦ سمحت الحكومة الليبيرية لشركة فايرستون الأمريكية باستئجار مساحات شاسعة من الأراضى لمدة ٢٠ سنة من أجل إقامة مزارع المطاط. وتغطى هذه المزارع حوالى ١٠٠,٠٠٠ فدان، وتنتج حوالى ٨٠ مليون رطل من المطاط فى السنة الواحدة. وقد أدى هذا المشروع وغيره من المشاريع الأمريكية الأخرى التى أدخلت حديثاً إلى تحسين الأحوال الاقتصادية لليبيريا.

الماشية:

وثمة مساحات كبيرة من غرب إفريقيا موبوءة بذبابة تس تس. وتوجد أنواع عديدة من الماشية الصغير التى لاسنام لها - والتى يعتقد بأنها ذات

حصانة ضد مرض النوم - فى إقليم الغابات بقرب الساحل، ولكن المناطق العظمى الماشية موجودة فى الشمال الذى منه تصدر أعداد كبيرة إلى الجنوب. ولعل أعظم مركز لتجارة الماشية فى غرب إفريقيا هو مدينة كانو Kano فى شمال نيجيريا. ومن هناك ترسل أعداد كبيرة إلى لاجوس بالقطار أو حتى سيراً على الأقدام. أما الأغنام والماعز فهى موجودة فى كل مكان، وتربى أعداد كبيرة منها لدى القبائل الموجودة فى السودان الغربى. وتصدر الجلود المدبوغة وغير المدبوغة من نيجيريا على نطاق واسع، وفى الجزء الشمالى من ذلك القطر تقوم صناعة دبغ الجلود من قديم الزمان. ومن المعتقد أن مدينة كانو هى الموطن الأصلى للجلود المغربية.

الأسماك:

تستخرج الأسماك من البحر بحذاء الساحل كله، وعلى الأخص قرب ساحل السنغال وساحل غانا. وصيد الأسماك من المياة العذبة حرفة هامة يشتغل بها عدد من الشعوب التى تعيش فى الداخل حول الأنهار ولاسيما أولئك الذين يعيشون حول نهر السنغال وفى المنحنى العظيم لنهر النيجر.

الغابات:

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وصناعة الأخشاب فى توسع مستمر فى كل من نيجيريا وغانا. وغابات غرب إفريقيا تتكون إلى حد كبير من الأشجار ذات الأخشاب الصلبة الجميلة التى تستخدم فى الأعمال الفنية الرفيعة: ولسوء الحظ أن الإفريقيين يتجاذبهم الصراع بين الإبقاء على الغابات والمحافظة عليها وبين إزالتها لتغطية إحتياجات الفلاحين من الأرض؛ وأيا كانت جهود الحكومات فى المحافظة على الغابات فإن الزراعة على ما يبدو قد طغت عليها كثيراً.

المعادن :

يرجع تاريخ تعدين الذهب على الساحل الغربى لإفريقيا إلى زمن بعيد . فالأوربيون كانوا يباشرون التجارة منذ القرن الخامس عشر من أجل الحصول على الذهب ، كما أن السكان الأصليين كانوا يقومون بتعدين الذهب ويستخدمونه فى التجارة مع الامبراطوريات العظيمة فى داخل القارة قبل ذلك بزمن طويل . وما زالت غانا تعتبر أول منتج للذهب ، إلا أنه يجرى تعدينه كذلك فى كل من غينيا وسيراليون . وكذلك فإن غانا هى أكبر منتج للماس فى غرب إفريقيا . إلا أنه من النوع الصغير الحجم ، وترجع أهميته إلى خواصه الصناعية . أما الماس الكبير الحجم فيوجد فى سيراليون ، كما أنه هناك إنتاج متزايد منه فى كل من غينيا وساحل العاج . وأما البوكسيت فهناك رصيد ضخم منه فى كل من غينيا وغانا . ويتوقف إستغلال تكوينات البوكسيت فى غانا على تقدم العمل فى مشروع نهر الفولتا ، ذلك المشروع الذى يتمثل فى بناء قناطر ومحطة للقوى الهيدر وكهربائية من أجل صهر خاماته . وتعد غانا واحدة من أعظم الدول فى العالم إنتاجا للمنجنيز . أما الحديد الخام فيجرى تصنيعه فى سيراليون ، وليبيريا ، وغينيا وتكوينات غينيا منه تعد واحدة من أعظم ثلاث تكوينات أكتشفت حتى الآن . وهناك أخرى ، ولكنها أقل منها ، فى نيجيريا . وتعتبر نيجيريا منذ زمن بعيد المنتج الأول للقصدير ولو أنه هناك من الدلائل ما يدل على أن التكوينات الحالية قد نضبت وأن الأمر يتطلب تعميق الحفر للوصول إلى المخزون الذى لم يتوصل إليه بعد . ونيجيريا هى أكبر منتج فى العالم لمعدن الكولمبيت Columbite الذى هو أحد مستخرجات تعدين القصدير . وكذلك فإن نيجيريا تمتلك فى إينوجو Enugu المنجم الوحيد للفحم فى غرب إفريقيا . ومعظم إنتاجه يستهلك محليا ، ويصدر جزء ضئيل منه . أما السنغال فتعد

منتجا هاما لمعدن الإلمينيت ilmenite ، وسوف يجرى فى وقت قريب إستخراج هذا المعدن من مناجمه فى الجامبيا . وفى أماكن مختلفة من المنطقة بأسرها يوجد الفوسفات ، وأهم موقع لإستخراجه فى الوقت الحاضر موجود فى السنغال . وثمة معادن أخرى فى غرب إفريقيا هى الفضة ، والرصاص ، والزنك ، والتنجستن ، والبلاتينوم ، والنحاس ، واليورانيوم . أما زيت البترول فقد بدأ إنتاجه من الحقول الموجودة فى دلتا النيجر عام ١٩٥٨ .

السكك الحديدية :

وكما هو فى معظم أجزاء القارة ، فإن سكك حديد غرب إفريقيا تجرى من الداخل فى شكل زوايا قائمة إلى الساحل وذلك حتى يتيسر الوصول إلى الداخل عن أقرب طريق . ولأن المستعمرات البريطانية كانت عبارة عن مقاطعات معزولة فى غرب إفريقيا الفرنسية ، فإن السكك الحديدية البريطانية لغرب إفريقيا قد جاءت مقطعة الأوصال ، ولا يستطيع شخص أن ينتقل من مستعمرة إلى أخرى دون أن يخترق الحدود السياسية الفرنسية . ولقد كان أمام الفرنسيين المتسع من الأرض لاجراء مناوراتهم وتدريباتهم العسكرية فى المساحات الشاسعة فى الداخل فخططوا خطوطهم الحديدية على أساس تدعيم الوصلات الصالحة للملاحة فى نهرى النيجر والسنغال وربط مستعمراتهم فى الداخل بموانى الساحل . ولقد نجحوا فى عملهم هذا فى السنغال وغينيا ، ولكن كلا الخطين الحديدين الجنوبيين قد قصرا عن الوصول إلى النيجر بمسافة طويلة . وينتهى الخط الحديدى لساحل العاج عند مدينة واجادوجو Wagadugu فى جمهورية الفولتا ، كما أن الخطوط الحديدية لداهومى لاتتعدى مدينة باراكو Parakou ، حوالى ٢٣٠ ميلا من الساحل .

أما الجامبيا ، التى يوجد نهر فيهـــا ، فليست بحاجة إلى خطوط حديديه . والخط الحديدى الوحيد فى ليبريا هو ذلك الذى أنشاته شركة ليبريا للتعدين وذلك لنقل خام الحديد haematife من تلال بومى Bomi إلى الساحل .

الطرق البرية :

وبناء الطرق أشد صعوبة وأكثر نفقات فى غرب إفريقيا منه فى شرق إفريقيا . فتكاليف العمال غير المهرة يعد شيئاً باهظاً كما أن الموارد اللازمة لانشاء الطرق قليلة الوجود . وعلى الرغم من ذلك فإنه توجد فى كل من الأقاليم السياسية البريطانية والفرنسية سابقاً شبكات للطرق تعد على شىء من الجودة بالنسبة للمستويات الافريقية ، وكذلك فقد أظهر الفرنسيون نشاطاً كبيراً فى إنشاء شبكة الطرق التى تربط كل غرب إفريقيا الفرنسية سابقاً من الداخل بالسكك الحديدية .

ومن الملامح المميزة لنظام النقل بغرب إفريقيا تلك المنافسة الشديدة بين الطرق البرية والسكك الحديدية . فالنقل باللوريات من أهم المشاريع الخاصة للأفراد . ويبدو أن هذه المنافسة ستستمر كذلك لبعض الوقت على الأقل ، فقد أصبح تحسين الطرق أكثر إحتمالا من مد وصلات إضافية للسكة الحديد .

الطرق المائية :

وثمة أنهار عدة فى غرب إفريقيا ، بالإضافة إلى تلك التى سبق ذكرها، صالحة للملاحـــة فى بعض أجزائها فتنقل الكثير من البضائع . وهناك الزوارق الخفيفه التى تستطيع الملاحة فى الأجزاء الدنيا من

الـ Great & Little Scarcies فى سيراليون . أما نهر بنو Benue فهو يتسع للسفن التى يتفاوت حجمها بحسب فصول السنة ، وأبعد من ذلك شرقا توجد أنهار تستخدم فى النقل على نطاق واسع ، وهى كروس Cross ، وكالابار Calabar ، وإيمو Imo ، وبونى Bonny . وثمة أنهار عدة فى الكمرون الجنوبى تتيح الوصول لبعض المسافة فى الداخل ، وكذلك الحال بالنسبة لنهر كازامانس Casamance فى السنغال إلى الجنوب من الجامبيا . أما نهر البانى the Ban ، الذى يصب فى النيجر فى حوضه الأعلى ، فيحمل التجارة لمسافة طويلة ، وعلى طوال ساحل غرب إفريقيا كله يوجد عدد كبير من القنوات والبحيرات الصالحة الملاحة .

النقل الجوى :

إن تعطيل طريق البحر المتوسط ـ السويس المؤدى إلى الشرقين الأوسط والأقصى أثناء الحرب العالمية الثانية قد جعل من غرب إفريقيا نقطة تجمع فى طرق المواصلات من الغرب إلى الشرق وعلى ذلك فقد أجرى على نحو من السرعة تطوير المطارات الموجودة فى الأقاليم السياسية البريطانية الواقعة على هذا الخط الجديد الهام للإمدادات ، وكذلك أنشئت مطارات أخرى حول فريتون من أجل الدفاع عن القاعدة البحرية وعن قوافل الأطلنطى . ومع الأخذ بتطوير النقل الجوى الدولى منذ الحرب ، أصبح غرب إفريقيا الآن الملتقى لعدة خطوط جوية أوربية ، وعلى مبعدة يوم واحد من أوربا بالطرق الجوية . وكذلك فهناك شبكة من الخطوط الجوية الداخلية التى أصبحت الآن تربط معظم المدن الكبيرة ببعضها .

الخاتمة

إن الدول الجديدة لغرب إفريقيا تختلف اختلافا كبيراً فى مدى مقدرتها على تحمل أعباء الاستقلال الذى حققته حديثاً . فبعضها ، مثل

غانا ، وساحل العاج ، والسنغال ، وبعض أجزاء من نيجيريا فى حالة رخاء نسبى بعد أن حققت مستوى عالياً بعض الشىء من التطور والنمو فيما قبل الاستقلال . والبعض الآخر ، مثل النيجر وتشاد ، ضئيلة السكان فقيرة الموارد. إلا أنه هناك من الدول ما يشغل مركزاً وسطاً بين الطرفين . وإلى حد كبير نجدها جميعاً تواجه نفس المشكلة : أنها ليست لديها فى الوقت الحاضر من الموارد ما يفى بتغطية وتمويل احتياجاتها ، وعلى ذلك فسوف تطلب المعونة من وراء البحار ، بل وعلى نطاق كبير جداً فى بعض الحالات . وعلى كل ، فهذه مشكلة عامة وسوف نتناولها بالبحث مرة أخرى فى الفصل الختامى .

الفصل الثامن

المنطقة الاستوائية

Equatoria

هذه هى منطقة حوض الكنغو ، بالإضافة إلى ذلك الجزء من القارة الذى يقع بين مصب نهر الكنغو وجبل الكمرون والذى تجرى مياهه مباشرة إلى المحيط الأطلنطى . ويمر خط الاستواء فى وسط المنطقة ولكن المنطقة الاستوائية لا تمتد عبر القارة ، حيث أن هضاب شرق إفريقيا التى تقع إلى الشرق ذات طابع مختلف تماماً . وعلى ذلك فالمنطقة تشمل كل الكنغو البلجيكى سابقاً ، وإفريقيا الاستوائية الفرنسية سابقاً عدا تشاد(١) ، وغينيا الأسبانية ، والكمرون (وكان تحت الوصاية الفرنسية سابقاً) ثم الجزر الأسبانية والبرتغالية والكنغو البلجيكى سابقاً هو الآن إسمياً جمهورية مستقلة ، كما أن الأقطار التى كانت تتكون منها إفريقيا الاستوائية الفرنسية هى الآن مستقلة كذلك ، وقد سار أحدهما على نهج جمهورية الكنغو . وعلى ذلك فسوف نكتفى بتسمية الكنغو البلجيكى سابقاً « الكنغو » فقط ، احتفاظاً منا بمصطلح « جمهورية الكنغو » ليطلق على تلك المستعمرة الفرنسية سابقاً الواقعة عبر النهر . أما الجزء الشمالى من المنطقة ، تلك المساحة الشاسعة من الأرض الممتدة شمالا من الكنغو إلى الكمرون وتشاد ، فيبدو أنه ليس هناك من تسمية تجمعها أفضل من « إفريقيا الاستوائية » .

(١) لقد سبق الكلام عن تشاد فى الفصل الخاص بغرب إفريقيا .

نهر الكنجو وحوضه

يشكل نهر الكنجو ، المعروف لدى البرتغاليين الذين اكتشفوه باسم « زاير » Zaire ، أعظم الأنظمة النهرية الإفريقية ولا يفوقه من أنهار العالم فى هذه الناحية سوى الأمزون . وتبلغ مساحة المنطقة التى يصرف فيها مياهه حوالى ١ $\frac{1}{2}$ مليون ميل مربع كما يقـدر طول مجراه الرئيسى بحوالى ٣٠٠٠ ميل ، ولذلك فهو يعتبر أحد أطول خمسة أنهار فى العالم(١) . وهو ينبع من إقليم كاتنجا من ارتفاع ٤٦٥٩ قدم ، ويسمى فى مجراه الأعلى لوالابا Lualaba حتى يصل إلى ستانلى فيل . وكان لفنجستون يظن أنه سيجد فى مياه لوالابا المنبع الرئيسى لنهر النيل . ويلتقى نهر الكنجو طوال مجراه بروافده العديدة التى يعتبر كثير منها أنهاراً هامة دائمة الجريان وذلك لوجود معدل عالى – بعض الشىء – من الأمطار جيدة التوزيع . ورغم وجود أجزاء طويلة من النهر صالحة للملاحة إلا أنه يعوق الملاحة فيه وجود كثير من الجنادل والشلالات .

وحوض الكنجو عبارة عن منخفض ضحل شاسع فى الهضبة الإفريقية يجرى عبره نهر الكنغو وروافده ، محاط بالهضاب من كل الجهات . وأكثر أجزاء هذا المنخفض إنخفاضاً هو الجزء الجنوبى الغربى ، حيث يبلغ الارتفاع حوالى ١٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . ومن هذا الجزء ترتفع الأرض تدريجياً نحو الشمال ، والجنوب والشرق . وليس ارتفـاع الهضاب المحيطة واحداً بأية حال . فى الشمال نجد أن الفاصل بين حوضى الكنجو وتشاد لا يكاد يكون ملحوظاً ، بينما أن الجانب الشرقى للحافة

(١) أما الأربعة الأخرى فهى النيل ، المسيبى – ميسورى ، واليانجس ، والأمزون .

يحده الحائط الجبلى لسلسلة جبال رونزورى بما فيه من قمم عدة شاهقة يبلغ ارتفاع أعلاها حوالى ١٦٫٨٠٠ قدم . وبين هاتين النهايتين توجد الهضاب التى تفصل حوض الكنغو عن أحواض البنو the Benue والنيل والزمبيزى وعن السهل الساحلى للأطلنطى والتى يتراوح ارتفاعها بين ١٥٠٠ — ٦٠٠٠ قـدم . أما وسط المنخفض فهو ذو غطاء سميك من الغابات ذات الأمطار الغزيرة والأشجار العالية التى يبلغ من كثافة أوراقها أنها تحجب ضوء النهار . أما أرض الغابة فتكسوها النباتات القصيرة المتشابكة التى لا يمكن اختراقها إلا بصعوبة بالغة والتى لا تلبث أن تتحول إلى مساحات كبيرة من المستنقعات . أما الأرض المرتفعة التى تحيط بالسهل الأوسط والتى ترتفع بالتدريج نحو الحواف الجبلية فهى نفس السفانا ذات الأخشاب التى لاحظناها فى أمكنة أخرى من إفريقيا .

الكنغو

القطر:

باستثناء مناطق صغيرة نسبياً فى الغرب وفى الشمال الشرقى فإن الكنغو يقع بأجمعه فى نطاق حوض الكنغو . وهو عبارة عن مساحة شاسعة من الأرض تزيد على ٩٠٠٫٠٠٠ مربع تحتل وسط إفريقيا الغربية ما بين خط عرض ٣٠َ ٥° شمالا وخط عرض ٤٠َ ١٣° جنوباً . وثمة خاصية لهذا الإقليم المترامى هى أن منفذه إلى البحر غاية فى الصغر لا يعدو أن يكون مجرد شريط ضيق يبلغ عرضه حوالى خمسة وعشرين ميلا عند مصب نهر الكنجو .

ويقع حوالى ٤٣٪ من الكنجو فى منطقة الغابات الغزيرة الأمطار

التي يبلغ معدل أمطارها أكثر من ٦٣ بوصة . وهـــذه الأمطار موزعة توزيعاً جيداً طوال السنة ، مع وجود فصلين للجفاف غاية في القصر وكذلك فترتين ممطرتين عند الاعتدالين يكون معدل سقوط المطر فيهما أغزر بعض الشيء منه في أي وقت آخر . ويصاحب الرطوبة المستمرة وجود درجة عالية من الحرارة تختلف اختلافا طفيفاً من وقت لآخر طوال السنة . أما المناخ في الهضاب الشرقية فهو ألطف من ذلك بالنسبة للارتفاع ، كما أن إقليم السفانا الواقع على كل من جانبي خط الاستواء يتميز بوجود فصل ممطر ، وفصل جاف ، وفصل حار ، وفصل لطيف ، وكلها غاية في الوضوح . وإلى الشمال من خط الاستواء نجد أن الفصل الجاف القليل الحرارة يماثل بوجه عام الشتاء في أوربا . وإلى الجنوب منه يماثل هذا الفصل أواخر الصيف في أوربا .

السكان :

إن الأغلبية الساحقة من سكان الكنغو هم من البانتو ، وهم يتبعون الفرع الغربي لهذه الأسرة الكبيرة ويتفق موطن هذا الفرع إتفاقا تاماً مع المنطقة الاستوائية ، بالإضافة إلى أنجولا التي تنتمي شعوبها الإفريقية كذلك إلى الفرع الغربي من البانتو . ولقد شهد الكنغو قيام وسقوط عدد من الممالك الهامة الشاسعة التي كانت إحداها مملكة حملت اسم الكنغو ، وكانت صديقة البرتغال في القرن الخامس عشر . والآن نستطيع القول أن البانتو ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : غربي ، وجنوبي ، وأوسط ، وكل منها يضم عدداً كبيراً من القبائل المختلفة ، وهم يشملون البوشنجو the Bushongo الذين يعدون ، من نواح عديدة ، أرقى أنواع البانتو الموجودين في القسم الغربي والذين سبق ذكرهم والإشادة بمهاراتهم الفنية .

وفي أقصى الشمال الغربي لهـذا القطر ، توجد مجموعة من القبائل التي

تتكلم السودانية والتي تحتل معظم حوض الأوبانجي - اويلي Ubangi-Uele وتنفرد بخصائص تميزها عن كل من البانتو والنيليين من سكان السودان . وأهم هذه القبائل المانجبيتو the Mangbetu والأزاندي the Azande . أما الأقلية الأخرى من غير البانتو فهم شبه الزنوج the Negrillos أو الأقزام the pygmies ، وهم الصيادون ، وجماع الثمار ، الذين يسكنون الغابات الاستوائية الكثيفة الواقعة على كل من جانبي خط الاستواء . وهم عموما على وفاق مع جيرانهم من قبائل البانتو التي يتكلمون لغتها ويستبدلون معها لحوم الصيد بما يلزمهم من ضروريات الحياة ويتراوح المجموع الكلي لسكان الكنجو بين ١٣ - ١٤ مليون نسمة .

تاريخ القطر

لقد استطاع ستانلي H·M Stanley . في رحلته الثانية إلى إفريقيا ما بين عام ١٨٧٤ — ١٨٧٧ حل لغز لوالابا Lualba والأنهار الأخرى غربي بحيرة تنجانيقا ثم تتبع نهر الكنجو حتى البحر ولما عاد إلى أوربا حاول إقناع الحكومة البريطانية بالاستيلاء على حوض الكنجو ، فلما رفض اقتراحه إستدار إلى الملك ليوبولد الثاني ملك البلجيك الذي وافق في الحال على آرائه . وكان الملك من قبل قد أظهر اهتماما كبيراً بإفريقيا حين دعا في عام ١٨٧٦ إلى اجتماع للجغرافيين وغيرهم . فكانت ثمرة قراراته ظهور « الاتحاد الدولي لاستكشاف وتمدين إفريقيا » ، ولما عاد ستانلي إلى أوربا أنشئت لجنة تابعة للإتحاد تسمى « الاتحاد الدولي للكنجو » . وكان الاتحاد دولياً في الاسم فقط ، إذ أنه لم يلبث أن صار إلى أيدي ملك البلجيك . وعاد ستانلي إلى الكنجو كوكيل للإتحاد ، حيث أمضى أربع سنوات ينشيء خلالها المراكز ويعقد المعاهدات مع الزعماء . وقد اعترفت رسميا بالاتحاد كل الدول التي اشتركت في مؤتمر برلين لعام ١٨٨٤ - ١٨٨٥ ؛ وقد نص

القانون العام للمؤتمر — من بين المواد الأخرى — على حرية التجارة فى حوض الكنجو وحرية الملاحة فى النهر . وما أن انتهى المؤتمر حتى أعلن الملك ليوبولد ملكا على دولة « الكنجو المستقلة » أو دولة الكنجو الحرة ، التى استمر هو يحكمها كضيعة خاصة لا كإحدى ملحقات بلجيكا .

ولم تلبث أن قامت معارضة خطيرة فى وجه الدولة الجديدة من تجار الرقيق وتجار سن الفيل العرب الذين كانوا يقيمون فى ذلك القطر إلى الغرب من بحيرة تنجانيقا . وبلغت هذه المعارضة أشدها فى عام ١٨٩٢ بقيام حرب استمرت عدة أشهر وانتهت بهزيمة العرب بواسطه قوات الدولة .

ومن أجل تطوير هذه الضيعة الإستوائية الشاسعة أعطى الملك ليوبولد لهيئات عدة إمتيازات كبيرة لإحتكار التجارة والصناعة ، ولم يكن قد مضى وقت طويل حين وجهت إتهامات ثابتة ضد الإدارة القائمة بالظلم والتعسف فيما يتعلق بالفظائع التى كانت ترتكب عند جمع المطاط البرى من الوطنيين وبعد هياج شديد للرأى العام الدولى قام الملك بتعيين لجنة للتحقيق فأدت توصياتها إلى إجراء بعض التغييرات فى كل الإدارة . وعلى كل ، فلم تكن هذه بذات طابع يرضى النقاد ، وفى عام ١٩٠٨ إستسلم ليوبولد ثانيا لضغط الرأى العام الدولى فأسلم الدولة إلى الحكومة البلجيكية . وفى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٨) ، عهد إلى بلجيكا بمنطقتى رواندا وأوراندى — وكانتا سابقا جزءا من شرق إفريقيا الألمانية — لتحكمها كإقليم تحت الإنتداب من قبل عصبة الأمم ، ثم أصبحتا فى نهاية الحرب العالمية الثانية إقليما تحت وصاية الأمم المتحدة . وفى أثناء تلك الحرب وبعد سقوط بلجيكا أمام جحافل الألمان، إستمر الكنجو يحارب إلى جانب الحلفاء وإشتركت القوات الكنجولية فى الحملة الإثيوبية ، كما كان الكنجو كذلك مصدرا هاما للكثير من المواد الاستراتيجية .

ولما إنتقلت مسئولية الحكم فى الكنجو فى عام ١٩٠٨ إلى الحكومة البلجيكية ، سارعت هذه الأخيرة إلى تصحيح المفاسد التى شوهت من سمعة حكومة الدولة الحرة فقد أنشئت إدارة حاكمة سليمة كما أخذ بتطوير موارد القطر وتنميتها بقوه دافقه. أما الهدف السياسى فيبدو أنه كان يتارجح بين أهداف السياستين البريطانية والفرنسية . لقد كان هناك بعض الميل نحو اللامركزية ، ولم يكن هناك أى تفكير فى منح الحكم الذاتى المستعمرة فى المستقبل . ولم تكن لتتاح للإفريقيين — إلا فى نطاق ضيق جداً — فرصة شغل المراكز الإجتماعية أو الرسمية التى كان يتولاها الأوروبيون ، بل إن عدد المتعلمين من الإفريقيين هو اليوم صغير جداً. ولم يكن للإفريقيين ولا للأوروبيين حق الإنتخاب ومن ناحية أخرى ، فقد أبدى البلجيك إهتماما كبيرا بتقدم الإفريقيين فى النواحى التكنولوجية . وكذلك فقد كان السبيل مفتوحا أمام الإفريقيين لتولى أعمال المهارة فى الميادين التكنولوجية ، وهكذا تزايد إندماج الوطنيين فى الحياة الصناعية للقطر مما كان له أثره فى تحسين مستواهم المعيشى على نحو مضطرد .

وكانت السياسة العمالية للبلجيك تختلف إختلافا كليا عن سياسة الدول الأوربية الأخرى فى إفريقيا . فالأخيرة كانت تعمل دائما على تشجيع ، أو على الأقل إتاحة ، الهجرة العماليه . فالعمل للحصول على الأجر كان يعد مهنة شاقة بعض الشيء تقتضى من الافريقى أن يسافر مسافة طويلة إلى حيث يوجد العمل ، وأن يبقى هناك لفترة قد تطول إلى أشهر أو حتى سنوات ، ولكن ليعود فى النهاية إلى موطنه . وكان هذا الإجراء يتناسب جيداً مع موقف الإفريقى نفسه نحو العمل المأجور . أما البلجيك فكانوا يهدفون إلى وجود قوة عمالية صناعية مستقرة ثابتة ، تكون فى المتناول وتعمل كل الوقت . وكان هذا يعنى توفير خدمات أكثر إغراء وبقاء مما قد يوجد فى المجتمعات العمالية فى المناطق الصناعية الإفريقية الأخرى .

فالحزام النحاسى، على وجه الخصوص، فيه من قرى الوطنيين ما هو جيد التنظيم، وكذلك من المنازل الجيدة، وخزانات المياة الصحية الطافية، والمدارس، والمستشفيات، ومراكز التدريب، بل من كل شيء يؤدى من الناحية المادية إلى قيام حياة حضرية مريحة بالمعنى الصحيح.

لقد هبت رياح التغيير على الكنغو البلجيكى مثلما هبت على بقيـة إفريقيا. هذه المنطقة الشاسعة – حيث يوجد من الإنشاءات الصناعية العظيمة نسبيا ما يعد على النقيض من البدائية الشديدة التى تعيش فيهامعظم أجزاء القارة – التى لم تكن يبدو عليها إلى وقت حديث أية يقظة أو وعى سياسى، لم تلبث أن تملكها فجأة نهم شديد للإستقلال وإستجابت الحكومة البلجيكية سريعا لمطالب الزعماء، وأجريت الإنتخابات، ثم أعقب ذلك منح الاستقلال فى منتصف عام ١٩٦٠. ولكن ما أن فرغوا من إحتفالات الاستقلال حتى بدأ القطر يتفكك بحيث أصبح الآن من أشد مناطق العـالم إضطرابا وسوف نعود فيما بعد، إلى بحث الموقف الراهن هناك.

الإقتصاديات – والمعادن :

لقد جاءت إقتصاديات الكنغو - للأسف الشديد - لتقف دون أن تنمو أو تتطور، وليس باستطاعة أحد أن يتنبأ كيف ومتى تفيق من هذا الركود المميت. وعلى ذلك فليس فى الإمكان أن نفعل شيئاً أكثر من أن نصف الأحوال كما كانت تحت الحكم البلجيكى.

فالمعادن هى أهم عامل فى الحياة الاقتصادية لهذا القطر، وكانت تمثل فيما سبق حوالى ثلثى الصادرات، وقد لعب تطوير إستغلال المعادن دوراً حاسما فى تقرير الاتجاه الذى يمكن أن تأخذه السكك الحديدية أو النقل

النهرى؛ وكذلك كان له أثره فى توجيه السياسة البلجيكية فيما يتعلق بالتخطيط الذى أجرى لصالح الإفريقيين ومن أجل تقدمهم، وكذلك فقد كان لزمن طويل هو الهدف الرئيس من إستغلال رأس المال البلجيكى. وبالإضافة إلى ذلك، فإلى المعادن يرجع الفضل فى تحقيق الرخاء فى الكنغو على هذا النحو من السرعة خلال العشرين سنة الماضية، وفى تحقيق التقدم الصناعى الهائل فى مناطق معينـة، ثم ذلك التحسين الكبير فى طرق المواصلات وتطوير الخدمات الاجتماعية وتنميتها.

ومركز صناعة التعدين هو إقليم كاتنجا، وهو عبارة عن هضبة مموجة، يبلغ معدل إرتفاعها أكثر من ٣٥٠٠ قدم، فى الجنوب الشرقى من القطر. ويشتهر إقليم كاتنجا على وجه الخصوص بمعدن النحاس، الذى كان يقوم بتعدينه الوطنيون قبل مجيء الأوروبيين بزمن طويل، والذى تولى تعدينه البلجيك منذ عام ١٩١١. ويعد حقل النحاس فى كاتنجا واحداً من أغنى حقول النحاس فى العالم وقد جعل من هذا الإقليم، بعد إقليم وتوترزراند Witwatersrand، أهم منطقة تجارية وصناعية فى إفريقيا.

وقد كان الكنغو أعظم منتج للكوبالت فى العالم، ذلك المعدن الذى الذى يوجد متحداً بالنحاس، وكذلك كان ينتج ٩٠٪ من إحتياجات العالم من الماس الصناعى. وكان معظم هذا يأتى من إقليم كاساى. وثمةمعادن هامة أخرى هى الصفيح، والمنجنيز والزنك، والكادميوم. واليورانيوم والراديوم والفحم. وكانت معظم عمليات التعدين تقوم بهاشركات كبيرة، كلها تقريباً يملكها البلجيك وحدهم، ولكن الأرض كانت ملـكا للدولة، وعلى ذلك فلم يكن التعدين ليجرى إلا بمقتضى إمتياز منها.وكانت الحكومة تحتفظ لنفسها بنصيب كبير من أسهم شركات التعدين، وبهذا كانت الدولة تربح كثيراً من تنمية إستخراج المعادن.

الزراعة :

تشمل المحاصيل الغذائية للوطنيين نبات الكسافا Cassava والذرة ، والموز ، والأرز ، والقمح ، والفول السودانى . أما المحاصيل النقدية الرئيسية فهى المطاط والقطن . والبن ، والزيوت النباتية ، وهى جميعا تشكل تسعة أعشار الصادرات الزراعية .

وفى وقت من الأوقات كان محصول المطاط البرى يشكل ٨٠٪ من صادرات دولة الكنغو الحرة . حقا ، لقد كانت تتعلق بهذه الصناعة معظم المفاسد التى كانت تتهم بها دولة الكنغو الحرة والتى أدت إلى تحويل إدارتها إلى الحكومة البلجيكية . ولكن المطاط البرى لم يكن ليقوى على الصمود فى منافسته للمطاط الزراعى ، وعلى الرغم من أنه قد دعت الحاجة إليه مرة أخرى أثناء الحرب الأخير إلا أنه قد أصبح الآن غير إقتصادى إطلاقا ولم تعد هناك حاجة إليه ، ومعظم المطاط فى الكنغو كان يزرع فى المزارع الأوروبية . أما القطن فكان محصولا تقتصر زراعته على الوطنيين ، ولكنه كان يجرى بيعه وتصنيعه عن طريق عدة شركات كبيرة أنشئت فى الكنغو وأما البن فكان يقوم بزراعته كلا الأوربيين والأفريقيين ، ولكن إنتاج الإفريقيين منه كان صغيرا . وكان ثلث المحصول من النوع العربى Arabica والباقى من الروبستا Robusta .

وكان نخيل الزيت هو الغلة التى تحول البلجيك لزراعتها فى أول الأمر حين بدأ المطاط الزراعى للشرق الأقصى يحل مكان المطاط البرى الذى كان حتى ذلك الحين هو العماد الرئيسى للاقتصاد الكنغولى . ولكن فى هذا الميدان كذلك ، أثبت المحصول البرى أنه نسبياً أقل جودة ، مما دعا الحكومة البلجيكية فى عام ١٩١١ - ١٩١٢ إلى أن تقبل عطاء من شركة

ليفرهولم Leverhulm لإنشاء مزارع المطاط والمعاونة فى تنظيم صناعته . وكانت شركة ليفرهولم هذه تتمثل فى معاصر الزيوت ، للكنغو البلجيكى ، ثم منحت إمتيازات أخرى فيما بعد للشركات الزراعية وشركات معاصر الزيوت .

النقل :

من الواضح أن نظام الكنغو للنقل النهرى هو أهم وأوسع شبكة للطرق المائية فى الداخل ، فى إفريقيا الاستوائية . والنهر صالح للملاحة لمسافة ٩٠٠٠ ميل وعلى الرغم من أن المجرى الرئيسى وروافده تعوقها فى مواضع هامة منها المساقط والشلالات ، إلا أنه هناك أجزاء طويلة جداً لا يعوقها شيء ، وعلى الأخص فيما بين ليوبولد فيل وستانلى فيل ، وهى مسافة تبلغ حوالى ١١٠٠ ميل. وكذلك من ليوبولد فيل إلى بورت فرانكى Port Francqui ، أى حوالى ٣٧٨ ميلا على نهر الكاساى فى اتجاه منبعه ابتداء من ملتقاه مع الكنغو . وكانت كل واحدة من هذه الوصلات أيام إزدهار التجارة تحمل من البضائع ما يبلغ حجمه ٤٠٠٠٠٠ طن فى العام. وفى حالات عدة كانت تستخدم وصلات حديدية لتغطى المسافات الغير صالحة للملاحة وعلى الرغم من أن هذا كان يعنى إعادة تفريغ وشحن البضائع الترانزيت إلا أنه كان يشكل نظاما شاملا للنقل من أول القطر إلى آخره .

لقد أنشئت الخطوط الحديدية للكنغو أصلا من أجل تدعيم نظام النقل النهرى ، أما فى السنوات الأخيرة فإننا نجد أن الأهمية النسبية لهاتين الوسيلتين للنقل قد تغيرت . فمع ظهور مصادر جديدة للإنتاج فى مناطق بعيدة عن الأنهار ، أصبحت السكك الحديدية ينظر إليها كغاية فى حد ذاتها بل أصبحت تعتبر الخطوط الشريانية الكبرى للمواصلات . ولكن بعد أن اكتشفوا أن تكاليف النقل فى الكنغو بالطرق البرية أقل منها بالخطوط

الحديدية — فى حدود معينة — أعطيت الأولوية لمشروعات إنشاء الطرق على المشروعات الجديدة للخطوط الحديدية . ويوجد فى الكنجو ست مجموعات للخطوط الحديدية . ولعل أكثرها حركة وازدحاما هو خط ليوبولد فيل — ماتادى ، الذى يبلغ طوله ٢٢٧ ميلا ، ويحمل قدراً أكبر من البضائع منه فى الخطوط الأخرى . وفى الشرق يوجد نظام حديدى - مائى مشترك يربط بين ستانلى فيل وألبرت فيل على بحيرة تنجانيقا فيبلغ طوله الكلى ١٤٧٠ ميلا . وكذلك هناك الخط الحديدى للكنجو الأدنى فى كاتنجا (B.C.K.) الذى يخدم المنطقة العظمى للمعادن فى كاتنجا ويتصل بالخطوط الحديدية لروديسيا وبنجويلا ، أما الخطوط الباقية فهى خط فيسى كنجو Vicicongo فى الشمال (٤٢٥ ميلا) ، وخط سيفاكى Cefaki أو كيفو فى الشرق (٧٥ميلا) ، ثم خط مايومبى Mayumbe الذى يجرى مسافة ٨٧ ميلا نحو الشمال من مدينة بوما Boma بالقرب من مصب الكنجو .

الكنجو بعد الاستقلال

إن الموقف الراهن فى الكنجو — وليس فى الإمكان أن نعطى عنه تقريراً مطابقا فى كتاب قصد به أن يكون واقعيا — إنما يدل على أنه ولو أن قطراً يستطيع أن يمضى فى حياته بكيفية ما بدون سياسيين فهو لا يكاد يقوى على البقاء لحظة واحـــدة بدون خدمات مدنية معقولة حديثة كانت أم تقليدية . فحين غادر البلجيك القطر لم يكن هناك ضابط إفريقى واحد فى قوات الأمن ، ولا طبيب إفريقى واحد ، أو محام أو مهندس ، أو أى فرد كان يشغل فى أحد الأيام مركزاً هاما — حتى ولو من الدرجة الثانية - فى الخدمات العامة . وبالمثل ، فلم يكن هناك أى زعماء أو أشخاص ممن يمثلون النظام القديم يستطيع الناس عند الحاجة القصوى أن يلوذوا بهم للتسكين من روعهم والأخذ بقيادتهم . وباستثناء كاتنجا ، التى استمرت

على ثباتها واتزانها إلى حد معقول ، فإن القطر لم تكن له إدارة من أى نوع . ونتيجة لذلك فقد انحل القانون والنظام ، وانهار الاقتصاد وعلى الرغم من أن مجتمعا ريفيا ذا مستوى معيشى خفيض يستطيع أن يواجه أسوأ حالا من هذا الموقف لبعض الوقت ، فقد انتشرت المجاعة بالفعل فى مناطق عدة ، بل كان لابد وأن تزيد انتشارا . ولنفترض أنه قد قام هناك فى بعض الأمكنة ، وبكيفية ما ، نوع من الإدارة على مستوى القرية . فإنه لا يفوتنا أن نذكر أن السكان المدنيين كانوا يقعون فريسة للإرهاب والسلب والنهب على أيدى جماعة من الرعاع الهمجيين المخمورين الذين كانوا يشكلون جيش الكنجو فى وقت من الأوقات ، الذى إنقسم على نفسه وإستحال إلى مجموعات متنازعة غير منظمة . أما القطر نفسه فقد إنقسم إلى عدة أجزاء تتبادل الكراهية والبغضاء تحت قيادة زعماء معدومى الشخصية ممن أصبحوا فى بعض الحالات مجرد آلات صماء تحركها الدول الأجنبية إفريقية كانت أم أوربية ، أما الأمم المتحدة ، التى بعث تدخلها فى أول الأمر آمالا كبارا ، فقد انقسمت على نفسها فى الرأى ولم تستطع الوصول إلى عمل مثمر ، وأما الرأى العام العالمى فكان يرى أنه ما من علاج محدد لهذا الموقف أقل من أن يسقى هذا القطر جرعة كبيرة من استعمار جديد تحت انتداب دولى . بل ولو أمكن تجريد الجيش من السلاح أو حتى تسريحه فإن هذا ستكون بمثابة خطوة هامة نحو إعادة الأمور إلى حالتها الطبيعية وحسبما هو كائن بالفعل فإن لا يسعنا إلا أن نؤيد الوكالات التى تمد المناطق المنكوبة من هذا القطر بالغوث ، وأن نشجع الأمم المتحدة على أن تكون أكثر إيجابية فيما تقوم به من دور لإعادة النظام ، وأن تتجنب أية حركة قد تكون مدعاة لتدخل أية عناصر أجنبية بروح من الشر ثم بعد ذلك كله لا نستطيع إلا أن ندعو الله تحقيق المعجزة

إفريقيا الاستوائية

Equatorial Africa

تاريخها :

لقد بدأت المصالح الفرنسية فى إفريقيا الإستوائية أيام أن إشتركت فرنسا مع بريطانيا فى محاربة تجارة الرقيق . وفى عام ١٨٣٩ حصل ضابط بحرى يدعى بويه جويوميتز Bouët Guillaumetz على حق الإقامة فى موقعين صغيرين على الضفة اليسرى من مصب الجابون ، وفى عام ١٨٤٣ حصل على نفس الحق على الضفة الأخرى . وبعد ذلك بسنوات قليلة أتخذت إجراءات مماثلة فى عدة نقط على الساحل ؛ وفى عام ١٨٤٩ حذا الفرنسيون حذو البريطانيين فى سيراليون فأرسوا عددا من الرقيق المحررين فى مستعمرة أسموها ليبرفيل Liberville . ولم يحاول الفرنسيون الإنتشار من ساحل الجابون إلى الداخل حتى عام ١٨٧٥ حين جاء الرحالة المستكشف دى برازا وسافر إلى أعالى نهر أجووى Ogowe ثم عبر المنطقة إلى حوض الكنجو . وفى رحلة أخرى له (١٨٨٠ — ١٨٨٢) أسس مدينة برازافيل ، وإتخذ منها قاعدة لعملياته ، وعقد عـــدة معاهدات مع الشعوب المحلية آلت بمقتضاها مناطق شاسعة شمال نهر الكنجو إلى الحماية الفرنسية . وفى الفترة ما بين عام ١٨٨٥ — ١٨٩١ إستحوذ الفرنسيون على معظم الجابون والكنجو الأوســـط ، ثم تقدموا للتوسع شرقا نحو النيل ، وشمالا نحو الممتلكات الفرنسية فى شمال إفريقيا . وكان يقود البعثة المتقدمة شرقا إلى فاشودة الماجور مارشان Marchand ولكنها باءت بالفشل ، أما تلك المتقدمة شمالا فقد نجحت بعد سنوات عديدة من الجهود المضنية فى الإستيلاء على كل إقليم تشاد ، ومن ثم فقد قامت إمبراطورية متصلة تمتد من

إفريقيا الإستوائية إلى البحر المتوسط عبر مستعمرة النيجر .

وبعد تجارب عدة لإختيار نوع مناسب من الحكم قسمت المنطقة إلى أربع مستعمرات هى الجابون ، والكنجو الأوسط ، وأوبانجى شارى ومستعمرة تشاد ، يربطها جميعا إتحاد فيدرالى يرأســه حاكم عام مقره برازافيل . وفى تشاد لقى الفرنسيون مقاومة طويلة عنيدة من القبائل بحيث لم يتيسر إنتقال الإقليم من الحكم العسكرى إلى الحكم المدنى قبل عام ١٩٢٠ . ولما سقطت فرنسا فى عام ١٩٤٠ ، أعلن حاكم تشاد ، وهو زنجى يدعى إبويه Eboué من مواليد غينيا الفرنسية ، أن مستعمرته ستنضم إلى الجنرال دى جول . ثم كان أن حذت حذوها الأقطار الإستوائية الفرنسية الأخرى ، وإقليم الكمرون الموضوع تحت الإنتداب الفرنسى ، وهكذا أصبحت برازافيل عاصمة لفرنسا الحرة كما أصبحت إفريقيا الاستوائية قاعدة هامة للحلفاء . وقد لعبت تشاد على وجه الخصوص دورا غاية فى الأهمية فى حملات شمال إفريقيا . وأختير إبويه نفسه ليكون حاكما عاما وأستمر يشغل منصبه هذا إلى أن مات فى عام ١٩٤٤ ، فخسرت بذلك فرنسا وإفريقيا رجلا عظيما .

وقد أفادت المستعمرات الفرنسية الأربع من الفرصة التى سنحت لها فى ظل الدستور الجديد الصادر فى عام ١٩٥٨ فأصبحت جمهوريات مستقلة ذاتيا داخل الرابطة الفرنسية . أما عن الثلاث التى تعنينا هنا فقد تغير إسما إثنين منها ، فأصبح الكنجو الأوسط هو جمهورية الكنجو ، وأوبانجى شارى أصبح جمهورية إفريقيا الوسطى ، وإما الجابون فقد بقى على إسمه السابق .

القطر :

يبلغ طول الساحل فى هـذا القطر حوالى ٨٠٠ ميل . وهو منخفض كثير المستنقعات تحف به الكثبان الرملية والبحيرات الضحلة ، ولهذا فهو يشبه بعض أجزاء من ساحل غرب إفريقيا . والجزء الجنوبى – وهو الأطول – معتدل وبه قليل من الموانى الطبيعية . أما الجزء الشمالى منه فيوجد به عدد من الخلجان ومصبات الأنهار التى أعظمها مصب الجابون (١).

وترتفع الأرض سريعاً لتنتهى بهضبة يتراوح معدل إرتفاعها بين ٢٠٠٠ – ٣٠٠٠ قدم . وهناك عدة كتل جبلية أكثر إرتفاعا من المستوى العام . ويجرى من المنحدرات الغربية نهرا أجويه Ogowe وكويلو Kwilu إلى الأطلنطى مباشرة . أما باقى الإقليم فتصب مياهه فى روافد الكنجو مثل مبومو وأوبانجى ، وسانجا . وهناك غابات كثيفة فى الجابون وفى جمهورية الكنجو . وفى الشمال ينمو نبات السفانا الذى لا يلبث أن يصير إلى شجيرات شوكية بالقرب من الخط الفاصل بين حوضى تشاد والكنجو .

وتبلغ المساحة الكلية مايقرب من نصف مليون ميل مربع .

وهنا نطاقان رئيسيان للمناخ هما الاستوائى والسودانى . فأما الأول فيشمل الجزء الأدنى من الإقليم ، ويتميز بدرجة حرارة عالية تتأرجح دائماً حول ٧٧° ، ومعدل عال للأمطار والرطوبة الشديدة ، ووجود فصل جفاف قصير جدا . وأما المناخ السودانى فهو أشد حرارة ، مع وجود فصل جفاف أطول ، ولكنه يتقلب كثيراً فى اليوم الواحد وفى الفصل الواحد . وهذا هو مناخ الجزء الشمالى الأقصى من المنطقة .

---

(١) أطلق عليه هذه التسمية الملاحون البرتغاليون الذين إكتشفوه وذلك لتخيلهم وجود شبه بينه وبين القبوة gabão أو الكابينة Cabin .

السكان :

يقدر عدد السكان الإفريقيين فى هـذا القطر بأقل من مليونين ونصف مليون نسمة ، والأوربيين بحوالى ٢٢٢٠٠ نسمة . ومعظم الإفريقيين الذين يسكنون مناطق الغابات الشاسعة للأجوى والكنجو – بما فى ذلك الاوبانجى فى مجراه الأدنى – هم من البانتو ، وأشهرهم البانجوى the Pangue الذين يعتبرون أهم شعب فى الجابون . وتوجد عبر الجزء الأعلى من جمهورية إفريقيا الوسطى مجتمعات من الزنوج الذين إمتزجوا بالحاميين ، ويشتركون فى كثير من الصفات مع جيرانهم فى السودان وشمال نيجيريا ولكنهم يتميزون عن الزنوج بأصلاب حامية أقوى تتمثل لا فى ملامحهم الجسمية فقط ولكن فى أنهم أساساً زراعيون ، لارعويون .

الإقتصاديات:

لقد اختار الفرنسيون فى بادىء الأمر ، وقلما فعل ملك البلجيك فى الكنجو ، أن تكون تنمية إفريقيا الاستوائية عن طريق الامتيازات . هذه الامتيازات كانت تخول الملتزمين احتكار الإشراف على منتجات الغابات ، مع ضمان الملكية الحرة المطلقة لأجود مناطق الأرض . وقد امتصت أول دفعة للامتيازات حوالى ثلثى كل إفريقيا الاستوائية ، مما كان له أخطر الأثر على استخدام الوطنيين لأراضيهم .. ولقد أدت ثورة الرأى العام فى فرنسا على إساءة استخدام الاحتكارات إلى القيام بمراجعة هذا النظام مراجعة صارمة . وانتهت المفاوضات الطويلة بتنازل عدد من الشركات عن الامتيازات الممنوحة لها ولكن فى نظير الحصول على تعويضات فى صور شتى ، مع منحها الملكية الحرة لمساحات شاسعة . وهكذا تخلص القطر – ولكن على حساب الإفريقيين – من الالتزامات

التي تورط فيها في الأيام الأولى من الحكم الأوربي ، كما صدرت تشريعات جديدة في عام ١٩٤٧ تضع المزيد من القيود أمام التصرف في الأرض . وقد بلغ مجموع المساحات التي كانت تغطيها الامتيازات في عام ١٩٥١ حوالي ٣٣٠ر... فدان ، ومن المحال أن نتنبأ عن موقف الجمهوريات المستقلة الجديدة من سلب الأرض بواسطة السلطة الاستعمارية السابقة . ولم يكن توكيد التنمية في الماضي عن طريق الوكالات الأوربية ليثمر عن أي تقدم غير عادي في رخاء القطر وازدهاره ولكن على العكس من ذلك فإن المستويات الاقتصادية مازالت ضعيفة ، وهذا راجع لا إلى عدم الإمكانيات ولكن إلى ضعف في الأساس الذي يقوم عليه اقتصاد القطر .

أما الحاصلات الغذائية الأساسية للوطنيين فهي نبات الكسافا ، ونبات اليام ، والموز ، والذرة ، والبطاطا والأرز . وفي منطقة الغابات الجنوبية ، وعلى الأخص في الجابون ، توجد الأخشاب التي تعد غاية في الأهمية من الناحية الاقتصادية . وكذلك تنتج الغابات زيت النخيل ، والخروب والمطاط ، وهناك مزارع لإنتاج زيت النخيل يملكها الأوربيون . وللقطن المقام الأول بين اقتصاديات منطقة الأوبانجي . ومناطق الغابات موبوءة بذبابة تسي‌تسي ، وعلى ذلك فإن الماشية قليلة جداً في الجابون وفي جمهورية الكنجو . وكذلك توجد ذبابة تسي‌تسي في جمهورية إفريقيا الوسطى ، ولكن الوباء ليس على هذا النحو من الكثافة ، وعلى ذلك فقد أمكن تربية القليل من الماشية .

وصناعة التعدين ذات أهمية متزايدة ، إلا أنه يعوقها عدم كفاية وسائل النقل ، بالإضافة إلى طبيعة الإقليم . ويوجد الذهب في كل الأقاليم الثلاثة وكذلك يوجد الماس في منطقة الأوبانجي . وثمة معادن أخرى هي الرصاص ، والزنك والنحاس . وأهم معدن اكتشف في السنوات الأخيرة

هو المنجنيز الذي وجدت منه تكوينات هائلة في الجابون .

أما المعدات الصناعية فليست على شيء من الوفرة ، وخصوصاً بالمقارنة مع الكنجو المجاور لما كان تحت الحكم البلجيكي . وتعاني الصناعة من عدم توفر القوى الرخيصة ، وندرة العمال ، وانخفاض معدل الاستهلاك بين السكان ، وصغر حجم التعداد . أما القوى الهيدروكهربائية فهي غاية في القوة ، ولهذا فقد وضعت مشروعات عدة في السنوات الأخيرة موضع التنفيذ . ولم يكن في الإمكان علاج أوجه النقص الأخرى على هذا النحو من السهولة ، وأكبر نشاط صناعي هو صناعة الأخشاب ، وتأتي بعد ذلك في المقام الثاني صناعة الحاصلات الزراعية ، مثل ثمرة نخيل الزيت ، والفول السوداني ، والسمسم ، وبذرة القطن . وتعد حلاجة القطن صناعة متقدمة .

والخط الحديدي الوحيد هو ما يسمى بخط « الكنجو — المحيط » ، الذي يبلغ طوله ٢٢٦ ميل ، والذي أكمل في عام ١٩٣٤ ، ثم زود بالإمكانيات الحديثة في السنوات الأخيرة ، وكذلك بقاطرات الديزل . وهذا الخط يجري من پوانت نوار Pointe Noire على ساحل الأطلنطي لجمهورية الكنجو إلى برازافيل عند ستانلي پول ، حيث يبدأ الجزء الصالح للملاحة من نهر الكنجو . وبالرغم من الصعوبات الناشئة عن طبيعة الأرض فإن الخط الحديدي جيد بدرجة ملحوظة ، كما أن خدمات النقل الجوي في كلا الداخل والخارج قد أحسن تطويرها .

ويبلغ طول المسالك المائية في الداخل حوالي ٣٠٠٠ ميل ، ولكن مجراها يعوقه في أمكنة كثيرة منها وجود الشلالات وإختلاف مستوى المياه من فصل إلى آخر . ولعل أكثرها أهمية ذلك الجزء الذي يبلغ طوله

٧٢٠ ميلا على طول نهرى الكنجو والأوبانجى من برازافيل إلى بانجوى عاصمة جمهورية إفريقيا الوسطى . وهذا الجزء صالح كله للملاحة لمدة ستة أشهر فى السنة ، ولطول السنة فى القسم التابع للكنجو . وفى الجابون عدد من الأنهار الصالحة الملاحة التى تستخدم أساساً لتعويم الأخشاب من الغابة إلى موانى الأطلنطى .

الكمرون

الكمرون إلى حد كبير عبارة عن هضبة مرتفعة من جهة الغرب ومنحدرة من جهة الجنوب الشرقى نحو حوض الكنجو . والسهل الساحلى ضيق تكثر به المستنقعات ذات المانجروف ، والكثبان الرملية ، والبحيرات الضحلة . وهناك يقوم جبل الكمرون شامخاً فوق الهضبة ، إذ يبلغ ارتفاعه ١٣٫٤٣٠ قدما . ومن المرتفعات الوسطى لهذا القطر تجرى الأنهار فى جميع الإتجاهات ، بعضها مباشرة إلى المحيط الأطلنطى ، وبعضها إلى نهر البينو Benue فى نيجريا ، وبعضها إلى مجموعة الكنجو ، والبعض نحو بحيرة تشاد. أما النمط السائد للنبات فهو يشبه ذلك الموجود فى الأجزاء الأخرى لهذه المنطقة من إفريقيا . وهنـــاك غابات كثيفة فى الجنوب لا تلبث أن تتحول فى الشمال إلى سفانا ذات أشجار ثم بالتدريج إلى مساحات من النباتات العشبية الشديدة الجفاف حيث يحف الإقليم ببحيرة تشاد . وتتميز المرتفعات بتنوع مظاهرها الجبلية الجميلة . وعلى الساحل تسقط الأمطار الغزيرة طوال العام ، وهى موزعة جيداً على شهور السنة. ومعدل سقوط المطر فى دوالا Duala هو ١٥٥ بوصة فى العام . ويقل هذا المعدل كلما اتجهنا شمالا ، فمعدل سقوط الأمطار حول بحيرة تشاد لا يزيد على ١٢ – ١٥ بوصة فى العام . (أما الجانب الغربى لجبل الكمرون فيبلغ معدل أمطاره ٤٠٠ – ٤٣٠ بوصة فى السنة ولكن الظروف خاصة). ودرجة الحرارة

عالية نوعاً ، إذ تبلغ ٧٢° – ٨٩° فى الجنوب ، وأعلى من ذلك كثيراً فى حوض تشاد .

وكان الكمرون فيما سبق مستعمرة ألمانية ، ثم قسم بعد الحرب العالمية الأولى بين بريطانيا وفرنسا ليحكم تحت الانتداب من عصبة الأمم . فأما الإقليم الذى وضع تحت الانتداب البريطانى فقد وصف بأنه جزء من غرب إفريقيا ، وأما الإقليم الفرنسى ، وهو الأكثر وقوعا فى الشرق والأكبر بكثير ـ وتبلغ مساحته ١٦٦٫٥٠٠ ميل مربع ويزيد مجموع سكانه على ٣ مليون نسمة ـ فهو يوحى بأنه أساساً إستوائى فى طابعه ، ومن ثم فقد يكون من الأنسب أن نتناوله بالبحث فى هذا المكان.

أما الانتداب الفرنسى فقد أصبح – كمثيله البريطانى - وصاية تحت إشراف الأمم المتحدة ، ثم فيما بعد جزء من الاتحاد الفرنسى . ثم أصبح القطر مستقلا فى أول يناير ١٩٦٠ تحت إسم « جمهورية الكمرون » . ولكن ما لبث أن قامت صعوبات سياسية فى وجه الحكومة المستقلة . وبينما كان القطر لا يزال تحت الحكم الفرنسى قام رجل يدعى روبين أم نيوب Rubenum Nyobe بتأسيس حزب عسكرى يدعى « إتحاد شعوب الكمرون » يهـــدف برنامجه إلى تحقيق الإستقلال ثم الاتحاد مع الكمرون البريطانى . ولكن ما لبث أن أعلن فى عام ١٩٥٥ عدم شرعية قيام هـذا الحزب ، وفى عام ١٩٥٨ قتل روبين على أيدى الفرنسيين . وبعد موته بزمن قصير أعلن الفرنسيون أن القطر سوف يمنح الاستقلال التام فى عام ١٩٦٠ وعلى ذلك وافق قسم من هـذا الحزب على أن يعمل فى إطار من الدستور ، ثم صدر أمر بتسريحهم مع منحهم عفواً عاما . أما القسم الآخر ، الذى كان يقوم بتوجيهه من خارج الكمرون رجل يدعى دكتور فيلكس موميه Felix Moumie ذو نزعة شيوعية قوية ، فقد واصل الحملة حتى

بعد أن استقل الكمرون الفرنسى وحتى بعد أن اعترف بدستورية الشطر الآخر من الحزب . وهذا القسم من الحزب بعد غاية فى القوة وعلى الأخص بين قبيلة Bamileke - على الحدود الفاصلة بين الكمرون الفرنسى والكمرون البريطانى سابقا - التى أوجبت ترتيبات الانتداب فى عام ١٩١٩ تقسيم بلادها بالقوة. هذه الحملة قد فقدت الآن كل صلة لها بالهدف السياسى ولم تعد مهمتها غير العصابات ومقاومة السلطة القائمة ويقدر عدد الثوار الذين قاموا بالثورة ضد الحكومة بخمسين ألف رجل ، ومتوسط عدد القتلى فى الشهر الواحد بمائتى قتيل . أما مومييه Moumie فقد مات فى سويسرا فى ظروف غامضة فى عام ١٩٦٠ (١) . ولم تستطع الحكومة أن تفعل شيئاً حيال ذلك ، وكان عامل الاستقرار الوحيد فى موقف يضطرم بالفوضى هو وجود بعض القوات الفرنسية التى كانت تحاول جهد استطاعتها وضع حد لهـــذه الاضطرابات . وفى ذات الوقت ، ولذعرهم الشديد ، وجد السكان فى الجانب البريطانى أنفسهم مضطرين إلى إيواء الثوار الذين كانوا يستخدمون الإقليم البريطانى للتمويه والتضليل وكقاعدة للوثوب والانقضاض فى هجوم جديد . وأرسلت القوات النيجيرية لحراسة الحدود ونفى الإرهابيين . ولكنها ما لبثت أن سحبت لتحل محلها قوة بريطانية يوم أن أصبحت نيجيريا مستقلة .

ومن الناحية العنصرية فإن السكان أخلاط ، ولكن فى الإمكان تقسيمهم إلى قسمين رئيسيين على أساس ما إذا كانوا يتكلمون البانتو أو اللغة السودانية . فالبانتو يعيشون فى المنطقتين الجنوبية والوسطى ، والذين يتكلمون السودانية فى الشمال . أما المناطق الشمالية فكثيرا ما وقعت فى الماضى فريسة للغزو من جانب سلالة من الساميين والحاميين بيض البشرة

---

(١) لقد أفادت الصحافة بأن مومييه قد ذكر قبل موته أن منظمة فرنسية تدعى اليد الحمراء هى التى دست له السم .





المحيط الأطلسى

الدول الأفريقية
سنة ١٩٦٧

كنل الفولانى الذين أسسوا إمبراطورية أداماوا Adamawa التى كانت تمتد شمال الكمرون الألمانى (فيما بعد) والجانب الشرقى من نيجيريا الشمالية . إلا أن هذه الإمبراطورية قد انهارت بمجىء الأوربيين وتقسيم القطر بين البريطانيين والألمان . ويسكن الأقزام فى غابات نهر سانجا Sanga .

ويقوم اقتصاد جمهورية الكمرون على الزراعة واستغلال إنتاج الغابات ، وكلاهما إلى حد كبير فى أيدى الإفريقيين . وبالاضافة إلى المحاصيل الغذائية فإن الإفريقيين ينتجون الكاكاو ، والبن ، والفول السودانى وزيت النخيل وثمرة الخروب . أما المستوطنون الأوربيون فيزرعون البن والموز . والتعدين ما زال غير متقدم نسبياً وتربى الماشية والخيول فى الأجزاء الشمالية والوسطى من القطر . ولأن الجزء الجنوبى موبوء بذبابة تسى تسى فإن حياة الرعى ليس لها فى اقتصاديات البلاد إلا دور ضئيل .

المستعمرات الأسبانية والبرتغالية

تشمل غينيا الأسبانية مساحة صغيرة مسدودة على أرض القارة بين ريو موني والكمرون ، بالإضافة إلى عدد من الجزر أكبرها جزيرة فرناندوبو . ومركز الحكم هو مدينة سانتا إيزابيل على جزيرة فرناندو بو التي تبلغ مساحتها ٨٠٠ ميل مربع وتعداد سكانها (بالإضافة إلى الجزر الأخرى الأصغر منها) أقل من ٣٠٠٠٠ نسمة ، من بينهم ٣٠٠٠ — ٤٠٠٠ من الأوروبيين ، والتي هي عبارة عن مجموعة من البراكين الخامدة ، إذ أنها تعد جزءا من الإمتداد الجنوبي للسلسلة البركانية للكمرون . ومن هنا — كما يقال — نقلت أول بذور للكاكاو إلى ساحل الذهب في عام ١٨٧٠ ثم كان أن برزت فرناندو بو إلى الوجود في السنوات الأخيرة في ظروف لم تكن لتحسد عليها وذلك حين أثبتت لجنة تحقيق دولية في الثلاثينيات من هذا القرن أن كبار الرسميين الليبيرين كانوا يبيعون الرقيق من بلدهم للمستعمرة الأسبانية للعمل هناك . وبالجزيرة مزارع أوربية واسعة ، والمحاصيل التصديرية الرئيسية هي الكاكاو والبن ، والسكان الإفريقيون الأصليون ينتمون إلى قبيلة تدعى بوبي Bubi ، ولكن يفوقهم في العدد بكثير العمال المهاجرون ، وهم في معظمهم من الإيبو النيجيريين .

أما الإقليم الواقع على أرض القارة ، وهو إستوائي في مناخه ومظهره فتبلغ مساحته أكثر من ١٠٠٠٠ ميل مربع ، وسكانه أقل من ٢٠٠٠٠٠ نسمة . وقد منحت إمتيازات كثيرة لإحتكار تصدير الأخشاب ، كما أن هناك مزارع شاسعة لإنتاج زيت النخيل والبن ويزرع الإفريقيون البن والكاكاو من أجل التصدير .

وأما جزيرتا سانت توماس وبرنسيب البرتغاليتان فتقعان إلى الجنوب

من فرناندو بو وتشكلان جزءاً من نفس السلسلة البركانية وتبلغ مساحتها حوالي ٣٧٢ ميل مربع ، وتعداد سكانهما أكثر من ٦٠٠٠٠ نسمة . وتوجد في سانت توماس على وجه الخصوص مزارع أوربية متطورة لإنتاج الكاكاو ، وجوز الهند ، وزيت النخيل والكينا . ويشكل العمال المهاجرون من أنجولا الغالبية العظمى للسكان .

وقد يكون من غير المناسب أن نختتم وصف إفريقيا الإستوائية دون الإشارة إلى واحد من عظماء هذا العصر يعيش ويعمل هناك ، ذاكم هو الدكتور ألبرت شويتزر الذي يجمع بين القسيس ، وعالم اللاهوت ، والفيلسوف ، والموسيقار ، والطبيب . جاء شويتزر إلى إفريقيا عام ١٩١٣ فأقام مستشفى في مكان يدعى لامبارين على بعد ١٧٥ ميلا من مصب نهر أجويه في وسط الجابون . وكان شويتزر في ذلك الحين في الثامن والثلاثين من عمره وكان قد نال حديثا درجة الدكتوراة في الطب ، بعد أن كان بالفعل قد برز في الفلسفة ، واللاهوت والموسيقى . لقد دفع نفقات رحلته إلى إفريقيا من المنح التي كان يتلقاها من الأبرشية التي كان يعمل بها قسيسا ، ومن مكاسبه كمحاضر وعازف على الأرغول . وأما أعماله في لامبارين فهي أبرز من أن تحتاج إلى مزيد من الإفاضة . والآن ، وهو يناهز السادس والثمانين من العمر ، ويعاونه عدد صغير من الأطباء والممرضات لايزال شويتزر هو الآمر الناهي ، ولكن بروح من المحبة ، في العالم الذي يعيش فيه ؛ إنها مثالية عملية وهبت نفسها لخدمة الإفريقي .

الفصل التاسع

الجزر الصغيرة فى المحيط الأطلنطى

تعد جزيرة ماديرا أكبر واحدة فى مجموعة الجزر التابعة للبرتغال ، وهى تقع على بعد ٤٠٠ ميل من ساحل المغرب . وتبلغ المساحة الكلية لهذه الجزر ٣١٤ ميل مربع ، وعدد سكانها حوالى ٢٧٠ر٠٠٠ نسمة . وهى جزر بركانية تبرز فجأة من المحيط . ويصل إرتفاع بيكوريفو ، أعلى قمة على ماديرا ، إلى ٦٠٥٦ قدم ، وهناك بعض القمم الأخرى التى لاتقل عنها كثيراً فى الإرتفاع .

أما السفوح الشديدة الإنحدار فقد أعدت على شكل مصاطب أو مدرجات منتظمة لكى تحول دون تفتت التربة . وتنمو فيها بوفرة الأنواع العديدة من الفاكهة والخضروات ، وتصدر الجنية الأولى منها إلى السوق الأوربية ، وكذلك تشتهر بنبيذها وكرومها المتعددة . وتعتمد صناعتها المحلية ـ التى تشمل أشغال الدانتلا وأشغال الخشب وجدل فروع الصفصاف ـ على القوة الشرائية للسواح الذين يفدون إلى ماديرا بأعداد كبيرة للتمتع بمناخها الطيب ويقع ميناء فونكال فى جنوب هذه الجزيرة ، وهو ميناء هام لتموين السفن المتجهة إلى غرب وجنوب إفريقيا . والسكان أساساً برتغاليون ولكنهم يضمون كذلك بعض العناصر الأخرى من مغاربة وإيطاليين وزنوج .

أما جزر كناريا فهى مجموعة من الجزر تابعة لأسبانيا أشهرها جزيرتا تينيريف وكناريا العظمى ، وكان يسكنها أصلاً شعب من البربر يدعى الجوانش Guanche ـ وقد إنقرض الآن ـ ولكنه وقع فى قبضة أسبانيا أثناء القرن

الخامس عشر . والسكان الحاليون لونهم أغمق قليلا من الأسبان ، ولكنهم لايتميزون عنهم فى أى من النواحى الأخرى . وتبلغ المساحة الكلية لهذه المجموعه ٢٨٠٠ ميل مربع ، ومجموع سكانها حوالى ٨٠٠ر٠٠٠ نسمة . وجزر كناريا هذه ، مثل ماديرا ، جزر بركانية وهى تبرز من المحيط بحافات قائمة ويصل إرتفاع قمة تينيريف المغطاة بالثلوج إلى ١٢ر٠٠٠ قدم . ورغم قرب هذه الجزر من الساحل الإفريقى فإنها أكثر جدباً من ماديرا ، وعلى الأخص فى الجانب الأيمن . وعلى كل ، فهى تمتاز بخصب تربتها ، وحين تروى تنتج الفاكهة والخضروات والمحاصيل الأخرى . وصيد الأسماك صناعة هامة ، كما أن أشغال الدانتلا وأشغال التطريز من الحرف اليدوية المحلية . ويعتمد السكان إلى حد كبير على بيع مصنوعاتهم للسواح. وميناء لويز فى كناريا العظمى وسانتا كروز فى تينيريف يعدان ميناءان هامان تتوقف فيهما السفن العابرة .

وأما جزر كيب فيرد ، وهى على مسافة ٣٠٠ ميل من كيب فيرد الذى يقع على أرض القارة ، فهى عبارة عن مستعمرة برتغالية قديمة تبلغ مساحتها الكلية ١٥٠٠ ميل مربع ، وسكانها ١٨٠ر٠٠٠ نسمة . ويبلغ مجموع الجزر أربع عشرة جزيرة ، منها عشر جزر مسكونة . وهى من أصل بركانى وكانت أعلى قمة فيها هى بركان فوجو Fogo الذى لم يخمد إلاحديثا . ومعدل الحرارة السنوى مرتفع ، ومعدل الأمطار منخفض . ولكن على الرغم من جدب هذه الجزر فهى تنتج عدداً كبيراً من المحاصيل المختلفة ، منها أجود أنواع البن ، وبذور الخروع ، والتبغ ، والقمح والفول . وغالبية السكان من أصل زنجى .

المحيط الهندى

سوقوطرى Socotra جزيرة تقع فى شمال شرق رأس غردفوى وعلى بعد ١٥٠ ميلا منه ، ويبلغ طولها ٧٥ ميلا وعرضها ٢٢ ميلا ومساحتها ١٤٠٠ ميل مربع وهى من الناحية السياسية تشكل الجزء الجزارى من سلطنة كيشين وسوقوطرى الماهرية فى الجزء الشرقى من محمية عدن . ويعيش السلطان نفسه فى الجزيرة فى قرية حديبو على ساحلها الشمالى .

والجزيرة معظمها جبلى ، على طول محورها ، وبها قمم من الجرانيت يبلغ ارتفاعها حوالى ٥٠٠٠ قدم فوق هضبة جيرية يتراوح إرتفاعها بين ١٠٠٠ — ١٥٠٠ قدم ، والجبال معتدلة الحرارة يغطيها عادة السحاب أو الضباب . أما المنخفضات فهى حارة موبوءة بالملاريا . والجزيرة تمتد بها الأخوار التى غالباً ما تكون جافة ولكنها لاتلبث أن تصير إلى سيول جارفة أثناء فصل الأمطار من نوفمبر إلى إبريل . والنبات هناك يمت بالشبه ليس فقط لنبات المنطقة المماثلة فى آسيا وإفريقيا وجزر الماسكارين Mascarenes ولكن كذلك لنبات بولينيزيا Polynesia وأمريكا الجنوبية .

ويبلغ السكان حوالى ٨٠٠٠ نسمة . وهم يتكونون من عنصرين رئيسيين . فأما سكان السواحل فهم فى معظمهم من العرب والإفريقيين ، والأخيرون هم إلى حد كبير من أحفاد الرقيق الوافدين من شرق إفريقيا ، إلا أن بعضهم من نسل جنود غرب إفريقيا الذين جاءوا إلى سوقوطرى أثناء الحرب الأخيرة ، أما الرعويون الرحل من سكان الجهات الجبلية الداخلية فهم سوقوطريون حقيقيون ؛ بعضهم طويل القامة أبيض البشرة وبعضهم أقصر قامة وأغمق لوناً . والسوقوطريون يتكلمون لغة تشكل مع

الماهرية — التى تنتمى إليها — ومع لهجات الجزيرة العربية فيما قبل الإسلام فرعا مستقلا من الأسرة اللغوية السامية الجنوبية . ورغم أنهم كانوا يدينون بالمسيحية لعدة قرون إلا أنهم الآن يدينون بالإسلام .

أما إقتصادهم ففقير . والحرف الرئيسية للسكان هى صيد الأسماك وتربية الماشية . والصادرات الرئيسية هى الزبد المصفى (ghee) الذى يقال إنه أجود نوع فى كل منطقة شمال المحيط الهندى ، وكذلك اللؤلؤ ، فالجزيرة تعتبر أم اللؤلؤ . وهناك صادرات أخرى ، إلا أن حجمها صغير مثل الصمغ الأحمر ، وعصير الصبر ، وحشيشة البحر ، والعنبر ، والمسك والعطور ، وأسماك القرش المجففة ، والأوانى الخزفية ، واللؤلؤ ، والسجاد والجلود ، والتبغ . والزراعة ضئيلة غير ثابتة ، وعلى ذلك فإن سكان الجزيرة مضطرون لاستيراد بعض المواد الغذائية كالذرة ، والأرز . أما البلح فهو مادة غذائية هامة .

وكانت سوقوطرى معروفة للإغريق والرومان ، ومن ثم فقد ذكرت فى « دليل البحر الأريترى » بأنها مركز تجارى حيوى . وفى أثناء العصور الوسطى الأوربية ، كانت سوقوطرى مأوى شهيراً للقراصنة الهنود . وقد استولى عليها البرتغاليون فى عام ١٥٠٧ ، ولكنهم ما لبثوا أن رحلوا عنها فى عام ١٥١١ . ومع إفتتاح قناة السويس أصبحت سوقوطرى تقع على جانب الطريق البحرى الموصل إلى الهند ، وعلى ذلك فقد أصبحت على جانب من الأهمية بالنسبة لبريطانيا . ومنذ عام ١٨٧٦ فصاعداً والسلطان يتلقى معونة من حكومة عدن ، وفى عام ١٨٨٦ وضع السلطان نفسه رسمياً تحت الحماية البريطانية . وهذا يعنى فى الواقع أن حكومة السلطان تصرف كل الشئون الداخلية ، وأن الاشراف البريطانى مقصور على الشئون الخارجية .

أما جزيرة عبد القورى Abdel-Kuri ، فهى جزيرة صغيرة تقع بين سوقوطرى ورأس غردفوى ويسكنها غواصو اللؤلؤ وصيادو الأسماك .

وتضم المجموعة كذلك جزيرتين أخريين هما جزيرة كالفارون Kal-Farun وجزيرة الاخوان The Brothers .

الخاتمة

إذا كان إجراء مسح لإفريقيا فى هذا الوقت الذى تتعرض فيه للتغيير قد يبدو عملا جريئاً ، فإنه مما لاشك فيه أن محاولة التكهن بمستقبل القارة تعد محاولة طائشة . ومع ذلك ، فهذا بعينه هوما ينوى المؤلف أن يفعله . وحيث أن الآراء التى سيبديها الآن إن هى إلا آراؤه الخاصة وأنها بكل تأكيد لن تصادف هوى فى نفس كل قارىء ، فعلى ذلك سوف ينحو المؤلف عن الأسلوب الموضوعى فى التعبير الذى حاول إلتزامه حتى الآن لتكون له حرية التعبير عن آرائه الشخصية فى صيغة المتكلم المفرد .

ولابد أولا من إبداء بعض التحفظات . ولعل أهم شىء لدينا أننا حين نأتى إلى دراسة إفريقيا علينا ألا نتغاضى عن جهلنا بها . فحقيق أنه فى غضون المائة سنة الماضية قد ألقى الكثير من الضوء على القارة التى كانت إلى وقت قريب غير معروفة للعالم الخارجى إلا قليلا . ولكن هذا الضوء لم يكن ليضىء إلا السطح فقط . لقد استطاع عدد قليل من العلماء ، ورجال العلوم ، وبعض الإرساليين ورجال الإدارة الوصول بأبحاثهم إلى أعماق أبعد ، ولكنهم هم أنفسهم سيكونون أول من يسلم بأن أبحاثهم إنما تناولت آفاقا محدودة وأن نتائجها لاتصل إلا إلى جمهور محدود جداً . فمعظم الناس يستقون معلوماتهم عن إفريقيا من الأوربيين الآخرين ، ومن الناشرين والصحفيين ، والرحالة ، وكلهم عادة على جهل باللغات الإفريقية ويحصلون على معلوماتهم من الإفريقيين ذوى التعليم الغربى الذين غالبا ما يكونون فى حياتهم وتفكيرهم بعيدين عن عامة الشعب بعد الأوربيين عنه . نحن لا نعرف ماذا يشغل تفكير الإفريقى ولا ما يحسه ويشعر به ، ولا ما يقال له وما يعتقده ، ومن ثم كان لزاما علينا أن نكون جد حذرين فى تقبل كل

ما نقرأ وكل ما نسمع عن إفريقيا ، إعترافا منا بأن المادة التى تقوم عليها هذه القراءات إن هى إلا مهلهلة ، وفى أحسن حالاتها غير جديدة .

ثم علينا أن نذكر أن نتائج الحرب الباردة عديدة لاتحصى ، وأن هناك كثيرين ممن يعتقدون أن إفريقيا ، أو أجزاء كبيرة منها ، سوف تسقط كلية أمام السيطرة الشيوعية . وكما أنه من المحال أن ننظر إلى مصير جنوب شرق آسيا إلا على أنه منطقة نفوذ للإستعمار الصينى ـ هكذا يرى البعض ـ فكذلك علينا أن نتهيأ لرؤية الدول الجديدة الناشئة فى إفريقيا وهى تسقط واحدة تلو الأخرى أمام إتجاه الروس للإستيلاء على القارة . وهنا أبدى رأيى صريحا ، فلا أستطيع إلا أن أقول بأن هناك دولتين أو ثلاثا من الدول الإفريقية تبدى بعض التأييد لمثل هذه الإتجاهات ، وأنها قدخاطرت بالتقرب إلى المعسكر الشيوعى . ولكن حيث أن مجموعة التوابع الروسية ليست محل مناقشة هنا ، فلا بد وأن نفترض بأن إفريقيا الناشئة سوف تحتفظ لنفسها مستقبلا بحقها فى صوغ مستقبلها بنفسها ، ربما تحت تأثير ، ولكن ليس تحت سيطرة ، القوى الخارجية .

والحقيقة الأساسية حول إفريقيا اليوم هو التغيير من الحكم الإستعمارى إلى الاستقلال التام ، تلك العملية التى أسرع بها كثيرا منذ الحرب العالمية الثانية والتى تمت معظمها أثناء عام ١٩٦٠ . والعامل الديناميكى فى هذا التغيير هو القومية الافريقية ، تلك الظاهرة المركبة التى قد يكون من الخطأ أن ندعوها بالقومية ، حيث أنه لايوجد فى إفريقيا غير شعوب قليلة جداً بالمعنى الأوربى . فالقومية الافريقية أكثرما تكون وعيا عنصريا ، يعنى من الناحية السلبية رفض أية سيطرة لأى شعب يعتبر دخيلا عليها ، ومن الناحية الايجابية السعى لتحقيق المساواة ، والبحث عن « الشخصية » الإفريقية التى تستطيع أن تثبت وجودها بين شعوب العالم وأجناسه الأخرى . وقد

وجدت هذه العاطفة لنفسها قاعدة وثوب فى الأقسام الاقليمية المختلفة التى أوجدها الأوربيون عند تجزئة القارة كما أصبح لها تاريخ حافل بسير الشهداء . أما أسس قوتها فهى مجموعة من الزعماء البارزين الذين ، على الرغم من قلة عددهم ، فهم يتمتعون بشعبية واسعة ، وإذا كان إنتشار القومية قد صاحبه الكثير من المراوغات والارهاب ، وإذا كانت هذه القومية على مايبدو ينقصها من الناحية الايجابية التوجيه والكفاية ، فلابد وأن نقر بأنها طاقة هائلة لا يمكن مقاومتها وأنها القوة التى تصوغ إفريقيا اليوم . أما مقياس نجاحها فهو أن كل أقاليم إفريقيا ، جنوبا حتى الكنغو وتنجانيقا ، باستثناء إقليم واحد أو إثنين ، إما مستقلة بالفعل أو على وشك الاستقلال .

ولست أستطيع أن أجزم إلى متى ستستطيع القومية بشكلها الحالى البقاء بعد هذا النجاح . إنها ، كما رأينا ، تقوم على التقسيم الإقليمى الذى هو من صنع الأوربيين ، وسيكون من الغرابة أن تصمد هذه الحدود غير الطبيعية زمنا طويلا أمام الحقائق الإثنولوجية ، وحقائق الديانة ، والجغرافيا وعلم الاقتصاد . وسوف تختلف خريطة إفريقيا فى نهاية هذا القرن اختلافا كبيراً عما هى عليه الآن . وكذلك لا أرى احتمالا كبيراً لقيام أية اتحادات أو عمليات إدماج ، أو تحالف فيدرالى بين هذه الأقاليم . وثمة احتمال كبير أنه بعد تدعيم الاستقلال وإعادة ترتيب الحـــدود سوف يكون الاهتمام موجها نحو أوجه الاختلاف أكثر منه نحو أوجه الشبه . وأستطيع القول بأن إفريقيا ستبقى لسنوات عدة مقبلة منقسمة أكثر منها مؤتلفة .

وإذا كانت القومية الآن فى طور النضوج فإنها كذلك سوف تفقد شيئاً من مثاليتها ، ثم بعد ذلك كله فهى الحاصل الناتج عن التأثير الأوربى ، فإذا ماقل ذلك التأثير فلا بد وأن يعترى هذه الحركة بعض التغيير . فمن ناحية ، إذا كان الوطنى الإفريقى قد رفض السيطرة الأوربية فهو من الناحية

الأخرى قد احتضن بكل قوة القيم الغربية للمساواة ، وفى منطقة واحدة على الأقل اتخذ الأفريقى لنفسه هذا الشعار الشعبى : « رجل واحد ، صوت واحد » . ومن المشكوك فيه أن هذه الأفكار التحررية سوف تخلد إلى ما بعد حقيقة القوة the reslity of power . وتشير الدلائل الحاضرة إلى أن حكومات إفريقيا المستقلة ستكون مركزية للغاية وأنها ستميل إلى المحافظة على بقاء سيطرة الحزب الواحد الذى تسيره مجموعة صغيرة من علية القوم الذين تفصلهم عن جماهير الشعب هوة سحيقة. فالرجل الواحد سيحصل على صوته الواحد ، ولكن من المحتمل ألا يستخدمه أكثر من مرة واحدة . وتجميع السلطة على هذا النحو ليس إفريقيا من حيث طابعه ولا بحكم التقليد ولكنه سيبقى دون تغيير إلى أن يؤدى انتشار التعليم إلى ظهور رأى عام منتج ومستنير .

لقد بدأ الحكم الاستعمارى فى إفريقيا حركة للتغيير الاجتماعى لم يعد فى الإمكان إيقافها. وجاء كثير من الأوربيين لينظروا إليها بعين الريبة والشك باعتبارها شيئا فظا فجائياً للغاية ومثبطا للعزم ولطالما حاول البريطانيون على وجه الخصوص أن يقللوا من سرعتها بالتحذير منها وبإدخال عدد من قوانين الإصلاح ، مراعين دائماً — كلما أمكن — جانب التحفظ والتقاليد . إلا أن هذا التدرج لم يكن له صداه فى نفس الوطنى الإفريقى الذى نرى فيه نوعا من الثنائية الغربية . فهو ، من ناحية ، ينظر إلى الوراء بحنين شديد إلى ماض أشبه شىء بالأساطير ، الذى يرى فيه العصر الذهبى للثقافة والإزدهار والذى يسعى إلى بعثه من جديد بأن يخلع على الأقطار الجديدة أسماء قديمة مثل غانا ومالى . ومن الناحية الأخرى ، فإنه لم يكن بأية حال ليرفض الوسائل والأساليب الأوربية الفنية ، ولكنه، على العكس من ذلك ، قد اتخذ منها لنفسه مفتاحاً للعالم الحديث . وان نشهد فى إفريقيا ، كما كان فى الهند أيام غاندى ، عودا مقصودا إلى المغزل

إحتجاجاً على التحول إلى الأوربية وعلى « الطواحين الشيطانية المعتمة » . فالإفريقى الحديث يريد طواحينه ولا يظن بأنها شىء شيطانى معتم . وعلى ذلك ، فعلينا أن نتوقع من الحكومات الإفريقية أن تزيل دون تردد تلك الأنظمة التقليدية والاجتماعية التى يعتقد بأنها تقف حجر عثرة فى سبيل التقدم ، وأن التغيير ـ تبعاً لذلك ـ سيزداد سرعة .

ولقد عنيت القومية الإفريقية بالسياسة أكثر مما عنيت بالاقتصاد . وهذا أمر طبيعى . فعلم الإقتصاد ذو مادة جافة مملة لمعظم الناس ، بينما أن السياسة ، إلى جانب كونها شيئاً مثيراً فى حد ذاته ، فهى تهب المتعلمين من الإفريقيين — بالإضافة إلى ما لها من سحر فى نفوسهم وما تزودهم به من موهبة خطابية — السلطة والزعامة . وهذا لا يعنى أن القومية الإفريقية ليس لها من عائد اقتصادى من أى نوع يعود عليهم بالنفع . فبعض الزعماء ، بل وعدد كبير من مؤيديهم ، كانوا يلوحون لمستمعيهم فى ثنايا حملاتهم السياسية هنا وهناك بآمال كبار فى الوصول إلى مكاسب سهلة قد يصعب عليهم تحقيقها عن غير ذلك السبيل . ومما لا جدال فيه أنه سيحل فى إفريقيا ، كما فى معظم أجزاء العالم ، ذلك الوقت الذى نرى فيه مجريات السياسة يشكلها ويصوغها إقتصاد البلاد ؛ بل إن الدول الإفريقية التى استقلت حديثاً قد أمسكت بالفعل بزمام الموقف فى هذا المجال ، بعضها بإرتياح ليس كلية غير قائم على أساس ، وبعضها بقلق شديد له ما يبرره .

وهكذا فإن الكثير يتوقف على مستويات المرء ومقاييسه . فلطالما ذكر بأن إفريقيا — بقدر ما نعرف عنها فى وقتنا الحاضر — إن هى إلا قارة فقيرة ؛ وفضلا عن ذلك فإن ما فيها من موارد غنية موزع على أجزائها توزيعا غير عادل . فمعظم القارة يعتمد على الزراعة التى تقوم

إلى حد كبير على زراعة المحاصيل الإعاشية ، ثم هى بعد ذلك عرضة لتقلبات مناخ غير ثابت . أما الأرض فهى غير خصبة على وجه العموم ، عرضة للتفتت ،كما يحد من استخدام مناطق شاسعة منها وجود ذبابة تسى تسى التى لم يتيسر حتى الآن وجود علاج لها . مثل هذه الأحوال قد تعين على وجود اقتصاد إعاشى ذى مستوى منخفض بعض الشىء ، شأنه فى معظم القارة الآن . وعلى كل ، فلن يتوافر فى ظل هذا الاقتصاد وجود الجهاز الكامل للدولة الحديثة ، ومن ثم فلن يتهيأ لها تحقيق مستوى عال للمعيشة .

إلا أنه يتعين علينا أن نكون جد حذرين حتى لا تكون الصورة المعطاة قاتمة للغاية . ففى أجزاء متناثرة من إفريقيا يوجد رصيد ضخم من المعادن ليس كله فى إفريقيا الجنوبية ؛ وكذلك فإن بعض الأقاليم قد استطاعت وهى تحت الحكم الاستعمارى تطوير أنواع خاصة من الحاصلات الزراعية التى أصبحت الآن تشكل صادرات لها قيمتها . وثمة وجه آخر موات فى هذا الموقف هو أنه على الرغم من أن فترة التطوير الاقتصادى الحديث تعد فترة حديثة جداً فى جزء كبير من إفريقيا إلا أن عدداً كبيراً من الدول التى استقلت حديثاً قد ورثت عن الدول الإستعمارية اقتصادا ناجحاً ومعدات ضخمة نافعة .

وأخيرا ، فلابد وأن نتذكر أنه ما زال هناك فى إفريقيا الكثير من الموارد التى لم يجر استغلالها بعد . فالموارد المعدنية ما زالت غير معروفة ، كما أن الأنهار تمثل مصدرا هائلا للقوى غير المستخدمة ومازال فى الإمكان تطويرها لإستخدامها فى النقل ، وكذلك فإن السياحة تشكل نشاطا هاما وخصـــوصا إذا ما اتخذت إجراءات منظمة للمحافظة على الصيد ، أما الأرض التى أسىء استخدامها بشكل بالغ ففى الإمكان تهيئة

الظروف التى تساعد على تحقيق إنتاج أكبر وعلى صيانتها من التفتت ، وكذلك صناعة الأسماك من المستطاع تطويرها وفى كل هذه الأوجه من التطور ، وفى كثير غيرها ، أوضحت الدول الإستعمارية معالم الطريق ، وسوف تجد الحكومات المتعاقبة آفاقا واسعة لبذل طاقاتها فى السير بها وتحقيق تنميتها .

وعلى كل ، فالفضل يرجع إلى رأس المال والمهارات الآسيوية والأوربية فى إحراز مثل هذا التقدم الاقتصادى الذى حققته إفريقيا . ومن ثم كان لزاما فى هذه المرحلة الأولى من التطوير تشجيع هذه المهارات ورأس المال والعمل على المحافظة عليهما . فبالإضافة إلى تخطيط برنامج تعليمى لإنتاج الطبقات التى منها يؤخذ المهنيون والحرفيون والمتخصصون من العمال فإنه يتعين على الحكومات الإفريقية أن تعمل على توفير الأمن الاقتصادى والسياسى اللذين بهما تستطيع إجتذاب الفنيين ورأس المال من الخارج والعمل على توفير أسباب بقائهما .

وليست هناك فى إفريقيا مستعمرة سابقة واحـــدة فيها من الفنيين الوطنيين من يفى بالخدمة المدنيـة . وفى كل الحالات وجدنا أعباء الحكم الذاتى ومسئولياته جاثمة قبل توفير وجود طبقة وسطى متعلمة من النوع الذى منه يؤخذ الموظفون عادة . ففى بعض الأقطار ، كالكنجو مثلا ، كان هذا النقص ماثلا للغاية مما أدى إلى نشوء حالة من الفوضى . وفى أقطار أخرى أمكن تغطية هـذا النقص ، وبذلك أمكنهم أن يدرأوا الكارثة ، وذلك لوعى الأقلية المتعلمة ووجود أشخاص لهم إحترامهم ممن سبق لهم ممارسة الحكم التقليدى كالزعماء ورؤساء القبائل ، وقيام علاقات طيبة بين الحكومة الإستعمارية السابقة والحكومة المستقلة الجديدة . وقد أسهم الحكم الإستعمارى فى معظم الحالات بإمداد إفريقيا بإدارة منتجة . فإذا

كان لابد وأن تتحقق لإفريقيا الحديثة آمالها الكبار فإنه لابد من المحافظة على هذه المستويات ، وإلى أن يتم تدريب طبقة منتجة ، من البيروقراطية الإفريقية يمكن الاعتماد عليها ، (وهـذه تشمل المدرسين ، والأطباء ، والبيطريين ، ورجال الشرطة وغيرهم) يلزم الدول الجديدة أن تقدم كل التسهيلات الممكنة للأوربيين الذين كانوا يعملون فى الخدمة المدنية الاستعمارية السابقة حتى يبقوا فى البلاد . وكانت بعض الدول الاستعمارية أكثر وعيا وإدراكا من غيرها حين أعدت الخدمات العامة للإنتقال من الحكم الاستعمارى إلى الإستقلال . وكان البلجيك أسوأ الجميع ، أما البريطانيون فلم يكونوا بمنجاة من التقريع . ومع كل فما زال هناك الكثيرون من المتحمسين ، رجالا ونساء ، الذين يودون لو عملوا فى الدول الجديدة إذا ما عينوا فى أعمال مرضية ، ومن الواجب إذن ألا يبدد هذا الرصيد من حسن النية .

ولعل أكثر مشكلات إفريقيا الحديثة تعقيدا هى مشكلة العلاقات بين الإفريقيين وبين العناصر الأخرى من أوربيين وآسيويين الذين رسخت أقدامهم فى أماكن متعددة من القارة . ويمكن القول عموماً بأنه كلما كان المجتمع غير الإفريقى كبيراً كلما كان من الصعب إيجاد توازن فى المصالح يرضى كل الأطراف . وعلى كل ، فعلينا أن نعترف بأن عاملى الوقت وجو الرأى العالمى إنهما إلا فى جانب الإفريقى ، وأنه من المحال فى المستقبل البعيد أن نتمكن بأية نتيجة سوى أن نرى معظم إفريقيا وقد آل الحكم والإشراف فيها إلى السكان الأصليين . وهذا هو ما حدث بالفعل فى أجزاء كثيرة من غرب ، وشمال ، وشمال شرق إفريقيا ، وما نتوقع حدوثه مرة أخرى ـ فى الوقت المناسب ـ فى شرق أفريقيا ، وعلى الأقل فى أجزاء من إفريقيا الوسطى . بل نستطيع القول بأنه حتى فى جنوب إفريقيا سوف

تنتهى السيادة الأوربية فى يوم من الأيام ، ولو أن ذلك لن يكون بغير إراقة للدماء وذرف للدموع .

وإذا كانت الظروف مواتية للغاية فإن مناطق مثل شرق إفريقيا ، التى تضم أقليات صغيرة نسبياً ـ ولكن لا غنى عنها من الناحية الاقتصادية ـ من الأوربيين والآسيويين ، يمكن أن تصير إلى دول ذات عناصر عديدة متجانسة إلى حد معقول ، فيها تعترف كل مجموعة مهاجرة بقوة الأغلبية ، وتسهم بقدراتها وإستعداداتها الخاصة لصالح المجموع . إلا أن التجربة قد أوضحت بأن هناك بعض الصعوبات الجسيمة فى سبيل موقف مثالى كهذا ، ومع ذلك ، فهناك من الدلالات الواضحة ، هنا وهناك ، ما يدل على أن المشاعر العنصرية لم تكن بأية حال دائماً مريرة لاتلين . فهناك من العلاقات الشخصية بين السود وبين ذوى اللون البنى وبين البيض ما هو قائم على أساس من العاطفة الحارة والصداقة المتينة ، بل إن هناك من أهل الخصال السمحة الكريمة من يسعون إلى تطعيم السياسة بنفس الروح التى تشربت بها حياة الكثيرين من الأفراد ، روح المهادنة والمحبة .

ومع ظهور الاستقلال جاء جزء كبير من القارة الإفريقية ليكتسب كذلك أهمية ومغزى جديداً على مسرح الأحداث العالمية . فمنذ سنوات قليلة كانت الدول الإفريقية الوحيدة التى تشكل عضوية هيئة الأمم المتحدة ، بغض النظر عن إتحاد جنوب إفريقيا ، هى مصر وإثيوبيا وليبيريا . واليوم ، بعد ظهور دول إفريقية مستقلة جديدة ، تزايد العدد إلى حوالى الأربعين دولة ، وبذلك أصبحت هذه الدول تشكل جزءاً كبيرا ، حوالى الثلث ، من أصوات الجمعية العامه .

ومن الطبيعى أنه من غير المحتمل أن تتفق أصوات كل هذه الدول على الدوام . ففى مسائل معينة كان هناك اختلاف ملحوظ فى وجهات

النظر ، بل إن هناك على وجه الخصوص خط يفصل بين موقف بعض المستعمرات الفرنسية القديمة وبين موقف غانا وغينيا ، فالفريق الأول يميل إلى أن يكون محافظا فى موقفه أكثر من الفريق الآخر . أما المسائل التى يتوقع بأن تتفق أصواتهم فيها ، كتلك مشكلات الأمن والسلام وفيما يتعلق بإدانة التفرقة العنصرية ، فإن موقف هذه الدول من حيث المبدأ لم يكن ليختلف عن الموقف الذى أجمعت عليه دول الغرب . ويمكن أن نضيف هنا أنه فى دور إنعقاد الجمعية العمومية عام ١٩٦٠ ، حين زاد عدد الدول الإفريقية الجديدة زيادة كبيرة ، كان للمندوبين تأثير كبير لما أبانوا عنه من عظمة وحنكة سياسية . ومما لا شك فيه أن مسلكهم وتصرفهم كان أكثر لياقة فى كثير من المواقف من مسلك بعض المندوبين الآخرين ممن لهم فى السياسة باع أطول بل إنه كان كذلك أقوى أثرا وأعظم فاعلية .

وقد يميل المؤرخون إلى إعتبار ١٩٦٠ عام المعجزات بالنسبة لإفريقيا ، فهو العام الذى قامت فيه الدول الدستعمارية برفع وصايتها عن جزء كبير من القارة وألقت بواجباتها ومسئولياتها على كاهل حكومات كل أعضائها من السكان الأصليين . وبهذا المعنى فإن هذه السنة تعتبر نهاية عصر . ولكن الحكم الذاتى ليس غاية فى حد ذاته ، بل مجرد بداية لمرحلة من العلاقات الجديدة بين إفريقيا وبقية دول العالم ، مرحلة تشترك فيها الدول الإستعمارية السابقة على وجه الخصوص وتتحمل فيها مسئولية خاصة . فالإستقلال لم يأت بحل المشكلات الإقتصادية والاجتماعية لإفريقيا . لقد ألقى على كاهل الإفريقيين أنفسهم مسئولية إيجاد الحلول ، والإفريقيون بما عرف عنهم من الشجاعة ومرونة التكيف يحتاجون إلى المعونة لتحقيق هذا الهدف . وهكذا يعتبر إمدادهم بالمعونة اللازمة ، بالاضافة إلى تمكين الدول الجديدة من المحافظة على إستقلالها وسيادتها ، عملا مشجعاً من قبل العالم الحر .

إنتهى والحمد لله .

دار الحمامى للطباعة
شارع الجيش - ٢ كنيسة الأرمن